

S E A R R A U S H

د. حنان لاشين

# سِرْوَش

رواية



ضياع  
[t.me/twinkling4](https://t.me/twinkling4)

سلسلة  
ملوك  
البلاغة  
6

# سِرْوَش

سِرْوَش





للتشرُّف والتوزيع

### إدارة التوزيع

00201150636428

### لإرسالية الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- المؤلف: حنان لاشين ● الطبعة الأولى: يناير / 2024 م
- تدقيق لغوي: نهال جمال ● رقم الإيداع: 29105 / 2023 م
- تنسيق داخلي: معتز حسين علي ● الترقيم الدولي: 978-977-992-372-7
- محرر هذه النسخة: أشرف غالب ● مجهر هذه النسخة: ميساء طه

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبّر عن وجهة نظر الكاتب  
ولا تُعبّر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع  
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية  
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.



د. حنان لاشين

# سیروش

سیروش





إهداء  
إلى العباءة التي  
ستر كلَّ مَن استجار بها.





## في بُقعة من بِقاع مملكة البلاغة...

بعثت الشمس غبارها الذهبي على سرب عظيم من طيور النّحام<sup>(١)</sup> أظلّ السماء فجأة، حلقت الطيور بأجنحتها. ذات اللون الوردي والأحمر والمحفوفة أطرافها بريش أسود، فاستحالّت السماء إلى حديقة تفتحت أزهارها في بهاء، وكأنّ فصل الربيع قد حلّ في السماء، انداح ظلّهم وتکاثف فوق المدينة لتصنّع أججنتهم مظللة وردية عملاقة. كان عددهم الكبير يوحي بأنّهم يهاجرون من مكان إلى آخر، وما «بابل»<sup>(٢)</sup> إلا محطة يمرون بها سريعاً. اصطفّت الطيور في نظام بديع خلف قائدتها طائعين لها، عرجوا تجاه الغرب وخنقوا أججنتهم يزداد سرعة وكأنّهم يفرون من مجھول يطاردهم! كان «ريموش» يتبعهم بعينيه الموسومتين بالبراءة وعلى وجهه تلوح ابتسامة ساحرة، لطالما عشق الطيور، وَلَوْ كَانْ يَمْلِكْ جناحين ليحلق بهما حيثما يشاء. تذكّر ما حدث له منذ ست سنوات فور بلوغه عندما رأى سرياً مهاجراً للطائر نفسه، ضحك عندما تذكّر كيف كان يسير حينها بتؤدة ويهرّ كتفيه بتشنج محاكيًا مشية والده، وكيف كان فخوراً بشاربه الذي رسم تحت أنفه خطّا رفيعاً وكأنّه غبار أسود، وعلت قهقهاته عندما تذكّر كيف تضخم أنفه ونمّت أذناه أسرع من باقي ملامح وجهه في تلك الفترة ممّا أفسد وسامته المعهودة، وكيف حزن كثيراً لهذا السبب، لكن أمّه أخبرته أن وجهه سيعود إلى تناسقه بعد أن يستوي ويحصل قمح رجلته، وهذا هو الآن من أكثر شباب «بابل» وسامّة ورجولة.

(١) النّحام: هو طائر مهاجر يُعرف بطائر الفلامينغو، وهو طائر (على خلقة الإوز) كما جاء في لسان العرب. تمثّل أسراب هذا الطائر خلال هجرتها السنوية بعض أجزاء من الوطن العربي مثل عُمان والخليل والعراق والجزائر وتونس وليبيا، يتميّز هذا الطائر بالسيقان الرفيعة والطويلة والمناقير المعقّفة، ويتميز ريشه باللون الوردي أو الأحمر الفاقع، وبريش أسود على أطراف جناحيه.

(٢) بابل: مدينة عريقة على نهر الفرات بالعراق من أشهر مدن الشرق القديم، عاصمة البابليين الذين عاشوا في بلاد ما بين النّهرين.



كان حينها في الرابعة عشرة من عمره، عاد في ذلك اليوم إلى بيته وجلس على طرف فراشه وطوق ركبتيه براحتيه، كان يشعر بألم شديد ينخر عظامه، وأرأسه يكاد ينفجر من الألم، أخذ يضرب على جبهته بقبضته كالمحجون، دارت عيناه في المكان كما لو يرتجف كورقة شجرة في مهب الرياح. أقبل والداه في هلع يتفحّصانه، كان يفتح عينيه على وسعهما وينحدق إلى الفراغ، انتفضت ذراعاه فجأة فدفع أبويه دون قصد منه فأبعدهما وسقطا على الأرض، ثم وقف وسط غرفته ليتبثّض ضوء متوجّح خلاب مختلط الألوان ليحيط بجسمه. اضطرب وهو يرى هذا من نفسه، أخذ يحرّك يديه والطيف يموج معهما، أقبل على والديه يستغيث بهما، فالتماه ولم يعبأ أيّ منهما بـكُنه هذا الطيف. ظلَّ على حاله منيًّا ومتوجّحاً دون أن يعرف السبب، ثم أدرك بعد ذلك حقيقة أَنَّه مُختلف!

مرّت أعوام اشتَدَّ فيها عوده وقويت شكيمته،وها هو الآن في العشرين من عمره ولا يزال على حاله ويلازمه طيفه الملؤن في كل مكان، حتّى إنه أحب هذا الطيف. لم يكن وحده، فقد كان في «بابل» العديد من الفتياں والفتياں مثله لهم أطيااف ملؤنة، خرج من أخاديد الماضي التي دلفها عندما رأى السرب المهاجر وعاد إلى واقعه، لقد أيقظت الطيور في نفسه الكثير من الذكريات. تلقت حوله باحثاً عن رفاقه ليستأنس بهم، فقد كان يشعر أنَّ اليوم مُختلف، فقلبه ينبعّث بأنَّ هنالك خطباً جلاً سيحدث في المدينة. بعد اختفاء سرب الطيور بعثرت الشمس دنانيّرها الذهبيّة على الطرق مرة أخرى، مرّت رياح قوية كنست الأرضية الحجرية وحملت إلى أنفه رائحة قشن يحترق، أجهل عندما تناهى إلى سمعه نعيق غربان فأخذ يفتش عنهم بعينيه، استمر في سبر السماء في دأبٍ فلكيٍّ فرأى كوكبة منهم فانقبض صدره، وقف بجسمه المشدود وعيناه تُشیّعان الغربان في سكون.

أجهل عندما رأى أهل المدينة يركضون في الطرق وهم يصرخون: «قتل الملك، قُتل الملك».

كان هناك صوت أنثوي يتردد في الأجواء، وكأنَّ هناك أبواً فحفيّة تحمله إلى أركان «بابل» الأربع، كانت تهمس بصوت يُشبه فحيح الأفاعي، وتتردد كلمات مُبهمة لم



يفهم كُنها. هبَّت رياح ساخنة وكأنَّها نُفخت من كِير، لفتحت وجوههم وكأنَّها أيدٍ  
برزت من الجحيم لتشعرهم بشراثتهم، بدا الناس حوله وكأنَّ صاعقة أصابتهم، بدؤوا  
يتوافدون من جهة القصر وكأنهم يفرون من هول عظيم، سألهم عن السبب فلم  
يُجبه أحد! نحقق قلبه خفَّقاً.

أقبل أبوه من بعيد وهو يصرخ منادياً إياتاً: «اهرب يا «ريموش»، اهرب يا ولدي».

قفز السؤال على طرف لسانه في الحال: «لماذا؟».

قبل أن يجيبه أبوه أطلَّ من خلفه ما أفرعه، ففطِن إلى مراد أبيه واستدار وأطلق  
ساقيه للريح.

لقد وقع الأمر الذي سيزلزل أركان «بابل»!

\*\*\*

## بيت أبادول

مد الليل رواقه المعتم وسلب المكان بهجته وامتصّها من كل رُكْن في الحديقة، انطفأت أضواء المصايبح وانطفأت معها الفرحة في أعين أفراد عائلة «أبادول»، تبخّرت أجواء العرس، وشحب وجه العروس الفاتنة، حتّى الزهور أمسكت عن بثّ أريجها على استحياء وكأنّها تشارکهم الخوف والفزع، شقّ الصراخ الحاد حناجرهم وهم ينادون هنا وهناك «رواء» ابنة «حمزة» الْكَبْرى، وقف المدعوون وهم يتخبّطون في حيرة، حاولوا المساعدة، بحثوا معهم، لكنهم لم يعثروا عليهما في أيّ مكان، تطّوّع أحد الجيران واستدعي شرطة النجدة، ووصلوا سريعاً ممّا أقلق أفراد العائلة، فهم لا يرغبون في تدخلهم في هذا الأمر عندما علموا بما رأه «عمران»، فقد يُكشّف سرّ العائلة. وبعد بحث مكثّف لم يصلوا إلى شيء بالتأكيد، كان «حمزة» يتعجل انصرافهم بعد أن أملأهم البيانات وأمدّهم بصورة لـ«رواء» ليكملاوا الإجراءات على مضض، فهو على يقين هو وباقٍ أفراد العائلة أنّ الأمر يتعلق بمملكة البلاغة. كانوا قد أنصتوا لما همسـت به «فرح» ولزموا الصمت، وكان هذا ثقيلًا عليهم وبخاصة «حمزة».. الآن ذاق طعم الخوف الذي كان يُزعّع فؤاد والده، والذي كان يراه في الكثير من الأحيان خوفاً لا مُبرّ له وحرصاً مبالغًا فيه قد حال بينه وبين الاستمتاع بطفولته. الآن أدرك لماذا كان يُضيق أبوه عليه هو وأخيه «خالد»، ويخشى عليهمـا من نسمات الهواء. عضّ على شفتـيه وهو يُحاول استرداد رباطة جأشـه وكبح جماح مشاعرهـ، كان قلبه يخفق بشدّة، يكاد يثبت من بين أضلعـه و«نور» تبكي في حرقة بنشيج مسموعـ، وابنتـها الصغرى تبكي لبكائـها وهي لا تعرف ما سبب بكائـها وانهيارـها بتلك الطريقةـ، ولا تُدرك حقيقةـ ما ألمـ بشقيقتـها.

«جسد عريض يُشبه جسد البشر، لكنه ذو حراشف وقدماه بمخالب نسر، وذراعاه



مثل أذرع التُّمور، له رقبة طويلة وذيل ورأس ذو قرنين ولسان كلسان الحياة ييرز من فم عريض، فَكَّهُ العلوى قد أطلَّ منه أسنان رفيعة مرصوصة كأسنان مشط، وأنف أفطس، ذراعاه الطويلتان إحداهما مصابة بجرح قطعى وتنزف دماء سوداء!».

هذا ما رأته «فرح» كومضة خاطفة تمُرُ برأسها عندما أمسكت بيد «عمران»، فميراث «طريحةارة»<sup>(١)</sup> لا يزال عالقاً بها، ولا تزال تُعاني من قراءة ذكريات من تلمسه بكفّها دون قصد، لكنها هذه المرة هرولت وأمسكت بيديه قصدًا لتقرأ ذكرياته ولتكشف سبب وجومه وانعقاد لسانه ونظرة الهلع الساكنة في مقلتيه، فقد أخرسته الصدمة!

فور أن أدركت أن هناك كائناً غريباً اختطف «رواء» أمام عيّي «عمران» انقبض صدرها واحتضنته في الحال، وهمست لأبيها لتُخبره عن الكوة التي انبثقت في الهواء وأطلَّ منها هذا الكائن الغريب ليختطف «رواء». أُصيب «أنس» بالهلع وأخذ يتلألّ حوله. أقبل «حمزة» ودبب الخوف يزحف ويتخلّل كل ذرة في كيانه، فقد لاحظ اختفاء ابنته، وظنّها تلهو هنا أو هناك فهي لا تجرؤ على الخروج من الحديقة وكان قد تركها مع «عمران»، هرع عندما أخبره أبوه بما حدث، فانطلق كالجنون يُنادي ابنته، على الرغم من علم أفراد العائلة أن هذا المخلوق اختطفها إلى أجواء عالم آخر من عوالم مملكة البلاغة، فقد شاركوه البحث عنها حول البيت! ظنَّ الجميع أن «عمران» همس لـ«فرح» بما رآه وحسب، فأبواها فقط من يعلم بسرّها الدفين عن قراءة الذكريات بعد أن اتفق معها بعد عودتهم من «سقطرى» على نزع تلك الحقيقة عن جيابهم كما كانت تفعل حتى لا يعاملوها بحذر. كان «عمران» يرتجف، لم تغادر نظرة الهلع عينيه الشاخصتين إلا عندما اخترق صوت أبيه مسامعه، أقبل «طارق» وضمه إلى صدره بقوّة، ثم حمله إلى داخل البيت دون أن يسأله عمّا حدث، أراد فقط أن ينزوّي بابنه بعيداً عن الزحام، تبعته «سارة» وهي تسحب ولديها

---

<sup>(١)</sup> بابل: مدينة عريقة على نهر الفرات بالعراق من أشهر مدن الشرق القديم، عاصمة البابليين الذين عاشوا في بلاد ما بين النهرين.



الآخرين، وكانت تكرر السؤال على ابنها ثحاوٍ أن تستنطّقه لتعرف سبب خوفه وهلهعه.

قالت: «ما بَلَّ يَا «عُمَرَانَ»؟ مَاذَا رأَيْتِ يَا بْنَى؟».

بدأت دقات قلبه المتواهبة تهدأ رويداً رويداً، لم ينبس بيانت شفة! مسح أبوه على صدره، وأخذ يهدئ من روعه. كان «عمران» يرتجف كورقة شجر تهتزّها الرياح.

قال أخيراً بعد معاناة وكان أحدهم اعتق لسانه للتو: «رأيت وحشاً، يل عفريتاً!».

عاد ينتفض، ثم استمد الأمان من عيني أبيه الواثقين.

قال وهو يطالعه بنظرات تتذبذب في حيرة: «وحش مُخيف يا أبي، أطلَّ من فجوة معلقة بالهواء ظهرت أمام البيت، كان ينزف دماء سوداء».

تعلّقت أعينهم بوجهه.

أردف ولا يزال شبح الخوف يتراقص على ملامحه البريئة: «قال شيئاً وكان صوته مُخيّفاً، لكنّي لم أتبيّن ما قاله بوضوح، فأقبلت «رواء» تجاهه وكأنها منومة، ناديتها فلم تجربني، حاولت أن أركض نحوها لأنّعها لكنها لم تلتفت».

سؤاله «طارق» وعيناه مُشتَّتتان على عينيه: «هل آذاها أو جرّحها؟».

۲۰

حاول أن تذكر ما قاله.

- لم أميّز ما لفظه يا أبي، كان شيئاً مُبهمًا لي، وكأنه ترنيمة أو لحن غريب.

أغمض ، عينه وكأنه يودّ نسان ما آه.

ثم قال وهو مُقطّب الحبر: «كان يحذبها كالمغناطيس ، لقد از لقتْ تجاھه مرغمة!»



هرولتُ وأمسكتُ بذراعها فقبضتُ هذا المخلوق على معصمي بأصابع كفه الغربية،  
وعندما لمس بشرتي كانت قبضته حارقة».

طفق «عمران» يتقدّم معصمه وكذلك فعل والده.

أضاف بخفوت: «أراد أن يدخل «رِوَاء» إلى تلك الفجوة، أحاطها بذراعه السليمة،  
ولم يقوَ على سجي معها بذراعه الأخرى نظراً إلى إصابته الشديدة، فأطلق يدي  
وتراجعت إلى الخلف وكان هناك من يحرُّ قدميَّ على الأرض، ورأيت دفقة من الدماء  
السوداء تخرج من جرحة».

انكبتَ «سارة» على ولدها تُقبله وتمسح على رأسه، خيَّم عليهم الصمت، كانوا  
جميعاً يتعجلون انصراف المدعَوين ليجتمعوا في غرفة المعيشة. مرَّت الساعة  
الأخيرة ثقيلة على قلوبهم، ما عاد الزفاف زفافاً، ودَّ «أنس» لو طرد كل من بالبيت  
لكنه استعاد رياطة جائده، توَّلَ «يوسف» الأمر واعتذر للحضور، ووقف «أنس»  
عند بوابة البيت يُراقب المكان الذي كان «عمران» يحملق تجاهه ويتفحَّصه بتمعن،  
عثر على بقعة الدماء التي سالت من المخلوق الغريب، كانت سوداء ثخينة، وكأنها  
رماد أذيب في صمغ سائل، فمسحها بمنديل ودسَّها في جيب بنطاله. انصرف  
المدعَوون، وخلت الحديقة من صحبهم، غلق «خالد» الأبواب والنوافذ، اجتمعت  
العائلة وجلسوا ينتظرون عودة «أبادول» الذي هرول تجاه غرفة الأشباح فور علمه  
بما حدث، أراد لقاء حَرَّاس المكتبة العظمى في الحال.

جلس «أنس» والقلق يقتات على رأسه في صمت، كان يتفحَّص بقعة الدماء التي  
مسحها بمنديله وتشمَّمها، أقبلت «فرح» تهديء من روعه، رنا إلى وجهها المُضمخ  
بالدموع وإلى ثوب زفافها الذي تغَّير فأشفق عليها، هرَّ رأسه الذي يضجّ بالأفكار في  
أنسي، والجميع حوله يسألونه «ماذا سنفعل؟» وكأنه المسؤول عن كل هذا، كان  
«أنس» الجدار الذي يستند عليه الجميع، حتى «أبادول» نفسه، كان يعود من  
ملكة البلاغة ليطمئن بالنظر إلى عينيه العميقتين، حتى وإن لم يُخبره بما يجول في  
دهاليز رأسه عن أسرار مملكة البلاغة، فقد كان يستمد من روحه القوة. أطبق «أنس»  
شفتيه وجلس يحصي أنفاسه حتى يعود «أبادول»، جده الغامض الذي لا يزال يُخفي  
عنه الكثير من أسرار مملكة البلاغة.



أُسكتتهم أراجيف الخوف التي كانت تتلاعب برأووسهم، الجميع يعلّقون أبصارهم بالدرج المؤدي إلى غرفة الأشباح، ينتظرون عودة «أبادول» بخبر يُسكن الهواجس التي كانت تزار في صدورهم، تُرى ما هذا الكائن العجيب الذي بَرَّ من فجوة معلقة في الهواء واحتطف «رواء»؟!

عاد «أبادول» أخيراً، كان وجهه شاحباً وهو يهبط الدرج، كاد يتعرّى ويسقط فأدرك «أنس»، أن الخطب جلل، فهرول نحوه وأمسك بيده لِيُسندَه، ثمَّ وقف أمامه مباشرة وطالع عينيه الكابيتين برببة.

وسألَه في توجُّسٍ: «ما الأمر يا جدي؟».

صرخت «نور»: «أين ابنتي؟».

سأله «حمزة» في هلع: «هل عاد «الدّواسر»<sup>(٢)</sup> للانتقام مني واحتطفوها؟».

لاحقوه بالأسئلة تباعاً، فأشار بيده لِيُسكتهم، فوجموا عندما لاحظوا نظراته المنطئة، أشفق عليهم «أبادول»، فالعائلة تمُرُ بابتلاء تلو الآخر كالصاعق والرعد التي تضرب قمم الجبال في الليالي العاصفة، لكنه على حاله ولا يزال على يقينه ثابتاً كالطود، بدأ يتحدث بصوته الرَّخيم وكانت كلماته تخرج بصفير خفيف نظراً إلى تساقط معظم ضرosome وأسنانه.

وقال ليهدهم: «الخبر الجيد أن من اختطفها سيحافظ عليها لوقت كافٍ لكي تصل إليها بإذن الله ولن يؤذيها لأنه يحتاج إليها».

- ومن هو؟

طرف عينيه ثم قال وهو يُشير إلى «حمزة»: «أتدَّرَك «برهان»؟».

- الهدُّد الذي التقيتُ به على جبل «أمانوس، منذ سنوات؟».

---

<sup>(٢)</sup> الدّواسر هم طائفة من الجن، وهم من شخصيات رواية «أمانوس»، والدواسر أي الشديد القوي، والضخم الجسم، وجمعها الدّواسر.



- نعم هو.

- ما به؟

- كان قد أسقط عليك ريشة ذهبية من جناحه عندما كنت هناك.

- نعم، أذكر هذا جيداً، وقد أعطيتها لأبي.

التفت «أنس» وقال وهو يُضيق عينيه: «ما زلت أحفظ بها في مكان أمين كما طلبت مني يا جدي، كل أدواتنا وما يخص مملكة البلاغة في الخزنة في غرفة مكتبك».

رفع «أبادول» حاجبيه وقال: «كانت تلك إشارة».

سأله «حمزة» وهو يدنو منه: «أي إشارة؟ وإلى أي شيء يا جدي؟».

- إن أحداً من أبنائك يا «حمزة» سيكون من الوراقين.

علت همماتهم في تعجب وبدؤوا يلقون سهام الأسئلة تجاه «أبادول» في آن واحد  
قائلين: «الوراقون؟».

- ماذا؟

- يا إلهي! هل هي رتبة أخرى من المحاربين؟

- ماذا تعني يا جدي؟

رفع «كمال» صوته قائلاً: «اسكتوا!!».

حملت الكلمة الكثير مما يحمله «كمال» من خوف وقلق وتوتر، كان وجوم وجهه وحده كافياً لإسكاتهم، لكنهم لم ينتبهوا إلى انزعاج «كمال» الشديد منذ اختفاء «رواء»، وكان هذا على عكس طبيعته الهدئة كماء بحيرة راكدة. ألجمهم الصمت حتى إن صوت عقارب الساعة كان واضحاً من فرط سكونهم وهم ينتظرون الإجابة.



تنَهَّد «أبادول» بعمق وأجابهم: «الوَرَاقُونَ» من أبناء المُحَارِّينَ تكون لديهم ميزة خاصة، ذاكرة قوية كالفولاذ تُمْكِنُهم من حفظ الكتب بمجرد النظر إلى أوراقها للحظات قليلة، بالإضافة إلى ميزة مذهلة!».

صمت «أبادول» هنيهة وتناول منديلاً ورقياً ليمسح العرق عن جبينه.

فـ«أبي حمزة» وهو يتعجل الإجابة: «أي ميزة يا جدي؟».

- وراثة المعلومات التي اخْتَرْتُ في رؤوس آبائهم كما تورَّثُ الجينات، كل كتاب قرأه فرد من أفراد عائلتنا قبل ولادتها سيكون حاضراً في ذهن ابنتك «رواء»، أنا، ثم «كمال»، ثم «أنس»، ثم أنت يا «حمزة»، وسترث أيضاً عن جدتها «مراٌم» وعائلتها، تستطيع أن تصف الأمر بأنه نوع من التخاطر أو مملكة تِلْبَانِيَّة<sup>(١)</sup>، فأحياناً الأمر سيشبه تدفق الخوارزميات من حاسوب إلى آخر، فعقلها عبقي جمعي، في مملكة البلاغة مثلاً ستلتقط الكتب من رؤوس الآخرين، وستجتر تلك الكتب يوماً ما، ستكون قادرة على استحضارها في ذهنها وسردها وكتابتها بكل ما فيها من معلومات وصور على الورق، ستسعد إلى رحاب مملكة البلاغة، لتدوين أحد الكتب إن لزم الأمر، بالريشة الذهبية نفسها التي ألقاها «بُرهان» عليك، فهي تخصّها بشكل ما، فبعض الكتب تختفي وينمحي أثرها لأسباب عديدة، وقد يكون لها دور في إثبات خطأ أو تصويب حقيقة، إنها تُعد معجماً يمشي على قدمين.

- دون أن تقرأ كل هذا بنفسها؟!

- نعم، تماماً كما ورثت لون عينيك، سيكون لديها شغف عجيب بالكتب، وكأنه أمر فطريٌّ حسيٌّ ولدت به، وستشعر هي بهذا فور وصولها إلى مرحلة البلوغ والنضج، ستتدفق المعلومات إلى رأسها كالسَّيل الجارف.

---

(١) التخاطر أو (التلباني) بالإنجليزية مصطلح يشير إلى المقدرة على التواصل ونقل المعلومات من عقل إنسان إلى آخر، أي إنه يعني القدرة على اكتساب معلومات من أي كان واع آخر، وقد تكون هذه المعلومات أفكاراً أو مشاعر أو غير ذلك، وقد استُخدمت الكلمة في الماضي لتعبير عن انتقال المعلومة.



- غير معقول!

قال «خالد» بخفوت: «إنها مملكة البلاغة!».

تبادلوا النظرات في اندهاش، وسحابات القلق لا تزال تحلق فوق رؤوسهم وتتكاثف.

حرك «أبادول» إصبعه في الهواء وقال بثقة: «لم يكن كل ما مررنا به معقولاً حتى  
مررنا به ولمستناه بأنفسنا، ورأيناها بأعيننا»..

كان «أنس» ينصلت بتركيز شديد.

سأله ولا تزال عيناه تجوسان في قلق: «لماذا لم تخبرنا بهذا لنهتم بها ونحميها على  
الأقل؟».

- أخبرت «كمال» وكان له رأي في هذا.

التفتوا جمیعاً تجاه «كمال» الذي كان يثقبهم بنظراته في صمت.

فرفع حاجبيه قائلاً: «لم تكن معروضة للخطر، ولم أرغب في بث القلق في نفوسكم،  
وبخاصة وهي لا تزال طفلة صغيرة في الخامسة من عمرها فقط، ولم أحب لـ  
«حمزة» أن يعيش الهلع الذي عشتة أنت من قبل يا «أنس»، عندما كنت تخاف  
عليه هو وأخيه وهما صغيران، فقد كان قلبي ينصره بسبب هلعك هذا عليهمما، كنت  
سأخبركم عندما تبدأ هي في ملاحظة ما يتقدّم إلى رأسها من معلومات وتصرّح بهذا،  
كما أن الطيف الذي يُحيط ب أجساد «الورّاقين» لا يظهر إلا بعد البلوغ».

- طيف! أي طيف هذا؟

تناول «أبادول» أطراف الحديث مرة أخرى وقال: «طيف ملوّن سيموج حول  
جسمها متوجّجاً بألوانه الخلابة».

سأله «حمزة» متعجّباً: «وهل سيظل طيفها ظاهراً طوال الوقت لكل الناس؟؟».



- نعم، ولكن لا تقلق، فنحن فقط سنراه لأننا من المحاربين، وعندما تزور المملكة سيظهر للجميع هناك وسيرونه، فالوراقون هناك طيفهم ظاهر طوال الوقت ولا يختفي إلا لأسباب خاصة.

قال «حمزة» وعيناه تتذبذبان في حيرة: «زرت مملكة البلاغة كثيراً ولم أر طيفاً يحيط بأحد هم قط!».

- كما أخبركم «كمال»، أحياناً يُحجب الطيف لسبب ما، وكما أخبرتك لا بد من بلوغها وهي لا تزال طفلة، وهذا ما دفعني إلى الإسراع لحراس المكتبة لأسألكم.

قال «يوسف» وقد كان ينصلت للحوار والفضول ينهش رأسه: «إذن هناك من يعرف أنها من الوراقين على الرغم من كونها طفلة».

هزّ أبادول رأسه موافقاً وقال: «أو علم بأمر ريشة الهدهد «برهان» التي منحها لـ «حمزة» بطريقةٍ ما، فتسرب الخبر، وهناك من ترصد لها. العجيب أنـ الـ «سيروش» لا يخطفون الأطفال أبداً!».

انتقض «حمزة» وسألـه: «ماذا قلت؟»

- «سيروش»!

اضطرب الجميع وكان هناك من طرق على رؤوسهم بمطرقة من حديد، اختلطت أصواتهم وتعالت الهممات، وبقي «أنس» صامتاً وهو ينظر إلى أبادول، ينتظر منه الشر.

أدار «أبادول» عينيه بين وجوهـهم، ومسح على رأس «عمران» بإشفاق.

ثم قال: «المخلوق الذي بـرـزـ لـ «عمران» من البشر الذين وقع عليهم السحر ليظهروا كما رأـهم كمسوخ «سيروش»..»

اقترب «خالد» قائلاً: «هـذا اـسـمـ مـخـلـقـ ذـكـرـ فيـ أـسـاطـيرـ بلـادـ الرـافـدـيـنـ الـقـدـيمـةـ».



هُرّ «أبادول» رأسه موافقاً فأردف «خالد»: «لكنه هجين أسطوري! مجرد خيال! رمز من رموز الأساطير مرسوم على بوابات «بابل» الثماني، ويعود إلى القرن السادس قبل الميلاد!».

قبض «حمزة» على معصم أخيه «خالد» بقوه وقال بانفعال: «ذاك المسلح اختطف ابني! ماذا سيفعل بها؟».

تبادل الأخوان النظارات في صمت، كانت سحابات الخوف وال الألم تتعانق فوق رؤوس الحاضرين.

لأن «خالد» لأخيه وقال بتأثر: «اثبت يا «حمزة»، ودعني أخبركم بما قرأته عنه».

حرّ «حمزة» معصميه فأكمل قائلاً: ««سيروش» هو اسم أكادي<sup>(١)</sup> سومري<sup>(٢)</sup> أطلق على هذا الهجين، معناه الحرفي «الأفعى الحمراء»، ورسم في هيئة تنين ذي حراشف قدماء الخلفيتان بمخالب نسر، ورجلاه الأماميتان مثل السنوريات<sup>(٣)</sup>، قيل في الأساطير إنه حيوان مقدس للملك «مردوخ» وابنه الملك «نبو» في عهد الإمبراطورية البابلية الحديثة ليحميهما حسب ظنهم واعتقادهم، فقد كانوا يمجدون الملوك ويعبدونهم، وينسبون إليهم الخوارق في أساطيرهم وملامحهم الشعرية كما فعل المصريون القدماء».

---

(١) الإمبراطورية الأكادية: هي أول إمبراطورية قديمة في بلاد ما بين النهرين، بعد الحضارة السومرية المديدة. تمركزت في مدينة أكاد في منتصف بلاد الرافدين (حالياً العراق).

(٢) الحضارة السومرية: هي حضارة لمجموعات بشرية في جنوب شرق الهلال الخصيب (بلاد سومر) في العراق اليوم، خلال الآلاف الرابع قبل الميلاد، والتسمية سومر هي تسمية أكادية لمنطقة جنوب العراق وسكانها، والتسمية تكرس استخدامها من قبل الباحثين مع إعادة اكتشاف الكتابة واللغة والثقافة السومرية، في القرن التاسع عشر الميلادي.

(٣) السُّنُورِيَّات أو الهرَيَّات أو القططيات فصيلة من الحيوانات الثديية التي تضم كثيراً من الأنواع مثل الأسود، والتمور، والفهود، والقطط الأليفة والبرية، وأنواع عديدة أخرى.



قال «أبادول» موضحاً: «الخاطف ليس على طبيعته، وهو من سكان مملكة البلاغة، وتحديداً أرض الرّافدين، مدينة «بابل» العريقة، لكنه مسحور وممسوخ إلى تلك الهيئة هو وبعض من عشيرته بفعل السحر».

سؤاله «حمزة»: «هل هم يُشبهون المشائين<sup>(٤)</sup>؟».

- هم أكثر خطورة من «المشائين»، فبعضهم يتجوّل في عوالم مملكة البلاغة كالوحوش بعد أن حُجبت عقولهم، وهؤلاء كانوا في الأصل حرّاس القصر الملكي وجنود الحاكم السابق الذي كان يترئّس على عرش

«بابل» لسنوات، سُخروا الآن لاختطاف الوراقين من أهل المملكة فور ظهور الأطیاف التي تُحيط بأجسادهم عند بلوغهم، فهم يتّرَّصدون لهم حتى تومض وتظہر، وتلك هي المرة الأولى التي يزورون فيها عالمنا لاختطاف واحدة من الوراقين، والأغرب أنها لا تزال طفلة وطيفها لم يظهر بعد.

- ومن الذي ألقى عليهم هذا السحر يا جدي؟

- كوكبة من السحرة تتعاون لإغراق أرض الرّافدين في ظلمة سحرية، ولتزيف التاريخ، وتحريف الكتب، وهدم العقائد، وتشويه الفطرة ليتحوّل الناس هناك إلى تقديسهم وعبادتهم.

- يا إلهي!

مسح «أبادول» وجهه وأكمل بنبرة مرتعشة: «بدؤوا بالعلماء وأصحاب الكتب، وأطلقو جندهم من الجن والإنس ليسرقوا كتبهم، ويعقدوا التعاوين على رؤوس أهل بابل، فيُسخر أهلها ليعاونوهم في تزييف الكتب، وقتل العلماء، والتخلص من كل ما يثير العقول، ليغرق الجميع في ظلمة الجهل، لهذا لا بدّ من حماية

---

<sup>(٤)</sup> المشائون من شخصيات رواية «سُقطري».



«الوراقين»، وأصحاب العلم، وحملة الكتب هناك، وإنقاذ أهل بلاد الرافدين من هذا الابتلاء العظيم، فالعلم قابع على أرضهم، وهناك كنوز مدفونة في عقول أهلهما».

- ما اسم ملك «بابل»؟

- هي مملكة من أعتى ساحرات مملكة الديجور التي هجرتها منذ أعوام طويلة، وقد اختارت لنفسها اسم «عشتار»<sup>(١)</sup> تيمناً بملكة الأساطير

«عشتار» التي كانت رمزاً للحياة بتقلباتها في ملاحمهم وكتاباتهم الشعرية، والتي زعم البعض منهم لاحقاً أنها إلهة للحب والجمال كما ظنوا في عقيدتهم وعبدوها. والآن سكنت تلك الساحرة الخبيثة باسمها الجديد القصر المقدس في قلب مدينة «بابل»، فهي ترى أنها من ذوي الدم الملكي.

قال «أنس» والقلق يتمسّى في ملامحه: ««بابل» الخاصة بعالم ومملكة البلاغة» ستكون كمدينة «كويكول» التي زرناها من قبل، وكذلك جزيرة «سُقطري»، سيكون لها أسرارها الخاصة وعجائبه التي تختلف عن نظيرتها في عالمنا، وسنواجه الغرائب وما هو خارج نطاق المألوف، ولا بد أن نستعد».

أوماً «أبادول» موافقاً على كلامه وقال: «السر في «برج بابل»».

- ما أعرفه أن البرج تهدم وخشف بأكمله في عالمنا بعد أن أمر التمرود ببنائه وكان ملجاً جباراً، ولم يبق منه إلا أثر بسيط لأساسه بالعراق، وقيل إنه لم يكتمل أصلاً! فكيف سنستدل على خبایاه ونطوف في جنباته؟

أغمض «أبادول» عينيه وقال: «لكنه بصورة أخرى لا يزال قائماً هناك بطوابقه التي

(١) عشتار كما تظهر في رموز الأساطير المدونة هي ما رُعم قدّيماً أنها رمز لإلهة الحب والجمال عند حضارات منطقة بلاد الرافدين ونواحيها، وهي «إنانا» لدى السومريين، و«عشتروت» عند الفينيقيين، وفيتوس لدى الرومان، أطلق عليها السومريون اسم مملكة الجنة، وكان معبدها يقع في مدينة الوركاء، رمزها نجمة ذات ثمانية أشعة متنصبة على ظهر أسد، على جبهتها الزهرة، وبiederها باقة زهور. وقد تعددت تصويراتها ورموزها وظهرت في معظم الأساطير القديمة وتغنى بحبها الشعراء وتفنن بتصويرها الفنانون بالرسم والنحت.



يحمل كل طابق منها دريًّا مُختلًّفًا مليئًا بالأعجيب».

قال «خالد»: «توجد بعض الصور التخييلية للبرج رسمها أحد الفنانينرأيتها عدة مرات».

كاد «أبادول» يقف لكنه تراجع وعاد إلى الجلوس، بدا عليه الوهن الشديد.

قال وهو يتصرف وجوههم: «لَا أَخْفِي عَلَيْكُمْ، الْمَهْمَةُ صُعْبَةٌ، فَلَكِ نَسْرَدَ ابْنَتَنَا لَا بَدَّ أَنْ تَزُولَ لِعْنَةُ السَّحْرِ الْوَاقِعُ هُنَاكَ، وَنَنْقذُهَا قَبْلَ أَنْ يَعْقِدُوهُ مَرَةً أُخْرَى، فَالصَّرَاعُ لَا يَفْنِي وَلَنْ يَنْتَهِي، وَقَدْ أَدْرَكَتْ «عِشْتَارَ» أَثْرَ سُحْرِهَا وَحْرَقَ الْكِتَبَ وَبَعْثَرَتْهَا عَلَى قَمَمِ الْجَبَالِ كَمَا كَانَ يَحْدُثُ فِي مَمْلَكَةِ «الْدِيجُورِ» سَابِقًا لَا يَكْفِي، فَجَنَّدَتْ طَوَافَ الْجِنِّ وَالْمَسْحُورِينَ مِنْ سَكَانِ بَابِلَ لِخَدْمَتِهَا وَاحْتِطَافِ «الْوَرَاقِينَ»، فَهِي تَدْرِكُ قِيمَتَهُمْ».

عادت «نور» لِلْبَكَاءِ، وَكَانَ «حَمْزَةُ» يَخْتَلِجُ وَهُوَ يَسْأَلُ: «لَمَّاذَا سَيُحَافِظُونَ عَلَى ابْنَتِي كَمَا قَلْتَ؟ أَلَيْسَ مَهْمَتُهُمُ الْقَضَاءُ عَلَى الْوَرَاقِينَ وَهِيَ سَتَكُونُ مِنْهُمْ؟»

زَفَرَ «أَبَادُولُ» بِحَرْقَةٍ وَقَالَ: «الْمَلَكَةُ «عِشْتَارُ» سَتَحْمِيهَا بِنَفْسِهَا».

- لَمَّاذَا سَتَحْمِي «رِوَاءَ» بِالذَّاتِ؟

- مِنْ أَجْلِ مَسَاوِمَةِ «غُدْفَانِ»<sup>(۱)</sup>.

وَقَعَ اسْمَهُ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ كَطْنَينِ جَرْسِ إِنْذَارِ مَزْعِجٍ.

قال «أنس» غاضبًا: «سَحَّقَ لَهُ! وَدَدَتْ لَوْ قَتْلَهُ «الْزَاجِلُ الْأَزْرَقُ»، وَأَرَاهُنَا مِنْهُ».

كان «أبادول» يستقبل انفعالاتهم في هدوء ليمتصّ مخاوفهم.

---

<sup>(۱)</sup> غُدْفَان: جمع الغُدَاف، وهو الغُرَاب الضخم الوافر الجناحين، وغُدْفَان من شخصيات رواية «سفطري» وهو من مملكة الديجور وابن الملك «القلقديس» والمملكة «القلقطاره» ويرغب في الانتقام من «حَمْزَة».



هُرَّ رأسه وأكمل قائلًا: «لِجأ إِلَيْهِمْ «غُدْفَان» وَطَلَبَ الْعُونَ مِنْهُمْ، لَمْ تَنْطَفِعْ جَذْوَةُ فَوَادِهِ الْمُشْتَعِلَةِ حَتَّى الْآنَ، كَانَ يَحَاوِلُ تَتَّبِعُ «خَالِدًا» وَ«حَمْزَةً» خَلَالَ رَحْلَاتِهِمَا كَمْسَتْكَشِفِينَ، وَلَمْ أَرْغِبْ فِي إِخْبَارِكُمْ بِهَذَا، حَتَّى أَنَا تَتَّبَعَنِي كَثِيرًا، حَاوَلَ رَجَالَهُ اغْتِيَالِي مَرَأَةً وَنَجَوْتُ بِفَضْلِ اللَّهِ ثُمَّ بِفَضْلِ يَقْظَةِ «الْمَغَاثِيرِ»<sup>(٢)</sup>، لَكِنَّهُ الْآنَ يُحَاوِلُ بِطْرَقِ أَخْرَى، فَقَدْ عَقَدَ صَفْقَةً مَعَ أَحَدَ الْوُزَرَاءِ فِي بَلَاطِ قَصْرِ الْمَلَكَةِ «عِشْتَارَ»، الَّذِي لَمْ يَتَأْثِرْ بِسُحْرِهَا بِشَكْلِ كَامِلٍ هُوَ وَقَلَةٌ مَعَهُ، فَعَقُولُهُمْ تَعْمَلُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَغْيِيرِ أَشْكَالِهِمْ وَمَلَامِحِهِمْ، يَوْمَ الْحَاقِدِ «غُدْفَان» تَصْيِيدُ أَحْفَادِي وَاحْدَادًا تَلَوَ الْآخِرَ، يَرْغُبُ فِي قَطْعِ نَسْلِ عَائِلَتِنَا إِلَى الْأَبْدِ، وَبِدَاءً بِ«رِوَاءَ» الْغَالِيَةِ، وَعِلْمَهُ بِكُونِهَا مِنَ الْوَرَّاقِينَ زَادَ الْأَمْرُ خَطْرَةً، فَقَدْ اسْتَغَلَ هَذَا لِيَتَمَكَّنَ مِنْ اسْتِدَارَاجِ الْ«سِيَرُوشِ» لَاخْتَطافِهَا بَعْدِ عِلْمِهِ بِقَصْصِهِمْ مَعَ «عِشْتَارَ».<sup>»</sup>

سَأَلَهُ «حَمْزَةً» وَالْعَرْقِ يُغْرِقُ جَبِينَهُ: «وَكَيْفَ عَلِمَ «بِرْهَانَ» بِأَمْرِ «رِوَاءَ»؟ بَلْ كَيْفَ يَعْلَمُ الْهَدَاهُدُ بِالْوَرَّاقِينَ وَأَمْرِهِمْ؟<sup>»</sup>.

- الْأَمْرُ يُشَبِّهُ الْخَرَائِطَ الْوَرَاثِيَّةِ وَغَيْرِهَا، لِمَمْلَكَةِ الْبَلَاغَةِ قَوَانِينِهَا، لَكُلِّ مَحَارِبِ طَيفِ وَصُورَةٍ يَظْهُرُ بِهَا هُنَاكَ.

صَرَخَتْ «نُور» فِي هَلْعٍ وَانْفَجَرَتْ باكِيَةً وَهِيَ تَقُولُ: «عَقْلِي لَا يَسْتَوْعِبُ مَا تَقُولُونَهُ، أَرِيدُ ابْنِيَّ، سَحْقًا لِمَمْلَكَةِ الْبَلَاغَةِ».<sup>»</sup>

أَسْرَعَتْ «مَرَام» بِاِحْتِضَانِهَا لِتُهَدَّئَ مِنْ رُوعِهَا.

قَالَ «أَنْسٌ» بِصَوْتِ بَائِسٍ وَحَزِينٍ: «لَا بَدَ أَنْ نَسْرَعَ قَبْلَ أَنْ يَصْلِي إِلَيْهَا «غُدْفَانَ».<sup>»</sup>

غَضْنَ «أَبَادُول» جَبِينَهُ قائلًا: «لَنْ يَصْلِي إِلَيْهَا بِسَهْوَلَةِ، فَالْمَلَكَةِ «عِشْتَارَ» لَهَا غَرْضٌ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ هَذَا، وَسَتُسَاوِمُهُ عَلَى مُلْكِ «الْدِيجُور» بِأَكْمَلِهِ، تَرْغُبُ فِي أَنْ يَتَنَازَلَ لَهَا

---

<sup>(٢)</sup> المغاثير لقب يُطلق على نوع من الإبل البيضاء النفيسة جميلة المظهر وغزيرة الوبر، يقول عنها أهل البدية: المغاثير نور القلب. وهو لقب لفرسان مملكة البلاغة وجند جيشها الصالحين.



عن عرشه، وهذه فرصتنا حتى نصل إلى «رواء» قبله، فـ«غدافان» لن يتنازل عن عرشه أبداً، وسيطول الصراع بينهما».

سؤاله «حمزة» والهم يتراكم على صدره: «وكيف تعرفون كل هذا عن أجواء «بابل»؟».

- لدينا عيون هناك، العائق الوحيد هو في صعوبة اختراق أرض الرافدين بجيش المغايير، وصعوبة تنقل عيوننا هناك، فال أجواء هناك مختلفة، وهذا ما يؤخرنا.

أمسك «حمزة» برأسه وقال في يأس: «لماذا تتعقد الأمور في كل مرة؟!».

هَزَّ «أبادول» رأسه في أسى وقال: «ما خاب من وَكَلَ أمره إلى الله».

ثم أضاف بصوت تشوّبه نبرة تحذير: «لتعلموا أن «عشتار» ورثت السحر الأسود عن أبيها، الذي سحر لها بعض طوائف الجن في أرض بلاد الرافدين، وأن «بابل» تضمّ أطيافاً عديدة، وحوشاً، وقبائل من البشر، منهم الصالح ومنهم الطالح، لم يتبع سكانها يوماً مملكة البلاغة، ولم يميلوا إلى مملكة الديجور، ولم يكن هناك سلطة لأي الممليكتين على أرضها لوقت طويل، والآن تعيش تلك البلاد مرحلة اقتحام من ملوك الديجور، وكما يُقال: «اتسع الخرقُ على الرايق»، و«عشتار» تأمل في السيطرة على كل شيء، وتود تغيير قوانينها وقوانين مملكة البلاغة بأسرها والانفراد بالحكم، ولهذا علينا عمل ما نقدر عليه حتّى يُتم الله لنا ما لا نقدر عليه».

سؤاله «أنس» ورأسه يكاد ينفجر: «أدرك أن لملكة البلاغة سراديبها وأسراها، وكما وصل المجاهيم إلى «يوسف» وهو في غرفته، ووصلت «ريهقانة» إلى عالمنا مع رفيقاتها، وصل أيضًا هذا الممسوخ إلى «رواء»، والآن.. كيف سننقذها؟ وكيف سنصل إليها؟».

احتقتن الأجواء وزادت وتيرة القلق.

قال «أبادول» وهو يعبث بلحيته: «سينصرنا الله بالسبب وبضدّ السبب وبلا سبب،



وهذا سيحدث عندما نلوذ به وحده ولا نُعلق قلوبنا بأي شيء آخر، فالاتكاء على غير الله كسر».

كانت كلماته كافية لحقن أورادتهم بجرعة من اليقين الذي كان يداوم على زرعه في نفوسهم.

اقربت «حبيبة» ووضعت يدها على كتف ابن أخيها «حمزة» وقالت: «الثقة الدائمة بأقدار الله تمنحنا جميعاً القوة لنُكمل الطريق».

كان «حمزة» يجلس مُنكفطاً بجوار «نور» وكلاهما شاحب الوجه.

همست «نور» بخفوت: «إذن ابني في قصر «عشتار»؟».

صمت «أبادول» هنيهة وكأنه يتخيّر الكلمات حتى لا يزيد من قلقها.

ثم قال: «لا نعرف تحديداً مكانها الآن، ولكن سيساعدنا أحد «الطوافين» لكي نصل إليها».

انتبهت حواسهم جميماً، وكأن هناك من صبَّ على رؤوسهم الماء البارد.

قال «أنس» وتکاد عيناه تخرجان من محجريهما: «طَوَافُونَ!».

غضّن «أبادول» حاجبيه، وضرب الأرض بعصاه في ارتباك.

وقال وهو يتمعن في وجه «أنس»: «نعم يا «أنس» رتبة من المحاربين».

- يا إلهي!

بدا «أبادول» وكأنه يشعر بالحرج والضيق لأنه لم يُخبرهم عنهم من قبل.

قال «خالد»: «أسرار جديدة يا جدي؟! غير معقول!».

أغمض «أبادول» عينيه وانتظر حتى ينتهوا من همهماتهم.



وعندما سكنوا واصل حديثه قائلاً: ««الطوافون» من أشهر المحاربين في العراق، وهم ممّيّزون، دورهم الأساسي هناك هو إعادة الكتب إلى أصحابها ومؤلفيها الأصليين، فهناك الكثير من الكتب تُسرق لتطمس إلى الأبد كما أخبرتكم، أو لكي تُنسب إلى كتاب آخرين، يعني هذا رد الحقوق العلمية والأدبية إلى أصحابها، وحين يتم هذا سُبُّطِل كل التعاوين التي يعتقد بها السحررة على الكتب وسطورها وكلماتها وسيزول أثرها، لأن الكتب تتنفس وتعيش وتشعر بما يحدث، ولهذا تستدعي الطوافين ليقوموا بدورهم، وعندما يتمّونه على أكمل وجه تؤدي هي الأخرى دورها وتمحو التعاوين المنقوشة على صفحاتها وتُفَكّرُّها تباعاً، وقد برع الطوافون في استرداد بعض المخطوفين من الوراقين في أثناء أداء مهمّتهم الأصلية في أرض الرافدين، نظراً إلى مهاراتهم التي تمكّنهم من الطواف في برج بابل بطوابقه المظلمة، لميزة خاصة لم تُمنح لغيرهم، فكل طابق من طوابق برج «بابل» عالم مختلف عن الآخر، لكنّها جمیعاً ترتبط بأرض الرافدين، وأهل العراق أعلم بأسرارها».

قال «حمزة» بانفعال: ««ورّاقون»، و«طوافون»، هل هناك أسرار أخرى يا جدي؟ لماذا لا تخبرنا بكل شيء دفعة واحدة، أليس من حقنا أن نعرف كل شيء عن تلك المملكة العجيبة؟! ابني هناك في خطر!».

كان «أبادول» حزياناً، ولكن لا مجال لذلك النوع من الجدال الآن، كما أنه قد هرم وأرهق للغاية. كان يتّعلّم في قلق، أشار «كمال» لـ «خالد» فهبط معه إلى سرّاب البيت، وأحضرها صندوقاً ممتلئاً بأقفال عجيبة ملمسها خشن، وقد انتشرت على سطحها بُقع خضراء يشوبها صدأ مائل إلى حمراء النحاس، لكنها تبدو قوية وعنيفة. كان «يوسف» قد خرج لينقذ العمال أجرتهم، فقد انتهوا من نزع الزينة والأضواء من حديقة البيت، ونظفوا كل شيء، انضمّا إليه وهو في الحديقة وبدأوا يضعون الأقفال على أبواب البيت، كانت الأقفال تضوي فور إغلاقها، وتتصدر صوتاً يُشبه هممات عجوز، اقشعرت أبدانهم وهم يضعونها، لكنهم يثقون أنها ضرورية بشكل ما، وكأنها هي الأخرى حية وتتنفس كالكتب، وكبيتهم الذي يعيشون فيه.

عندما عادوا إلى مكان اجتماع العائلة قال «أبادول» بجدية شديدة: «لن تفتح تلك الأقفال إلا بعد عودة «رواء»، ستظلّون جمیعاً هنا حتى يعود «انس» و«حمزة»، لا



تنزعوا الأقفال أبداً، ولا تخرجوا من البيت، حافظوا على الصغار، راقبواهم بعناية، ولو تواصل معكم أفراد الشرطة تابعوا معهم الأمور بشكل روتيني، ولو سألوا عن «حمزة» أخبروهم أنه انطلق يبحث عن ابنته».

أرادت «طيف»<sup>(١)</sup> أن تقول شيئاً، وكانت كعادتها طويلة الصمت.

فاقتربت من «أبادول» وقالت هامسة: «هل أستطيع أن أساعد ببعض...».

قاطعتها «نور» قائلة: «لا، لا أرجوك يا طيف، ليس مرة أخرى!».

- لدى...

قاطعتها مرة أخرى بعصبية شديدة وهي تحذرها: «لن تُعرض ابني للخطر بسبب أدواتك وتجاربك الغريبة يا «طيف»، أنسىتكِ المرة الأخيرة عندما احترقت غرفتك؟».

رفع «أنس» يده وقال بحزم شديد: «اهدئي يا «نور»، تعلمين أن «طيف» تريد المساعدة».

- أدرني هذا يا عمي، ولكن...

طمأنها قائلاً: «ونحن لن نجازف بتجربة أي شيء يُعرض «رواء» للخطر».

ابتعدت «طيف» وهي تخفي شيئاً في جيب ردائها وتقبض عليه بقوة. كان «خالد» في حالة قلق دائمة على زوجته، فـ«طيف» تخوض تجارب غريبة، ومغامرات شتى مع المقتنيات العتيقة والأثرية التي تقع بين يديها دائماً خلال

---

<sup>(١)</sup> «طيف»: زوجة «خالد» التي رأى صورتها في المرأة خلال رحلته إلى جزيرة «سُقطرى» وهي ابنة أحد المستكشفين.



تجوّلها في حوانٍ التُّحف والمزادات، التي بيعت بعد إخلاء البيوت القديمة قبل أن يفدى إليها المستكشِفون ليحررُوها من أسرها، وكانت تلك المقتنيات دائمًا تتعلق بمملكة البلاغة، وكأنها تنجذب إليها كما تنجذب النحلة إلى رحيق الزهور، كان الجميع يقلق من مفاجآتها الغريبة، لم يدعمها إلا «حبيبة»، فقد كانت بينهما صدقة لطيفة وانسجام من نوع خاص.

بتر «أبادول» حديثهم عندما التفت إلى «فرح» وقال لها: «ستذهبين معهم يا بنتي».

سأله «سليمان» بفضول: «لماذا «فرح»؟».

- سيحتاجون إليها.

- في ماذا؟

همست «فرح» وهي تنقل عينيها بين وجوههم وقد فطنت لمُراد جدها: «لا يزال ميراث «طرجهارة» عالقاً بي، لهذا رأيت ما رأاه «عمران» عندما لمست يديه».

شهقت «مراٌم»، ووضعت «نور» يدها على فمهما، تعلقت الأعين بوجه «فرح».

هدر «سليمان» غاضباً: «لماذا لم تُخبريني؟!».

- أخبرتك بالفعل، وأنت بنفسك طلبت مني أن أنسيك هذا يا «سليمان»!

اضطربوا جميعاً.

أما «خالد» فقال وهو يرنو إليها: «وقع في نفسي هذا أكثر من مرة، ظننتكِ تمرين بأزمة نفسية، فأنتِ ترتدين القفازات حتى في البيت! فخُيل إليَّ أن عُقدة نشأت لديكِ بعد كل ما مررت به هناك في جزيرة «سقطرى»، واحترمْت رغبة والدي في عدم مناقشكِ في الأمر، تأكّدت عندما سمعتاكِ مرة وأنتِ تتحدثين مع أبي في المطبخ قبل أن تمسحي عن جبينها الحوار بأكمله أمام عيني».



سؤاله «أنس»: «لماذا لم تخبرني أنك تعرف؟».

ابتسم بلطف قائلًا: «ستزداد همًا يا أبي، وستخشي دائمًا أن أجرب شعور أخي، صرت أحفظ تفاصيلك الدقيقة، وكان الأفضل ألا تعلم أنت و«فرح» أنني على علم بهذا، أردت أن أرفع الحرج عنها بإخفائي أنني على علم بابتلاعها، كنت أراها تعاني وتبكي بين يدي أبي».

سالت دموع «مراٌم»، أشفقت على ابنتها المسكينة من هذا الميراث الذي أرهقها.

كان «سليمان» غاضبًا للغاية.

قال بتصميم وعند وهو يتجلّب النظر إلى عيني «فرح»: «سأذهب معكم، لن أترك «فرح» تذهب وحدها، فقد صارت زوجتي».

رنّت «فرح» إليه في صمت، كادت تنسي أمر الزفاف وأنها عروس للتو.

قال «أنس» وكان يحمل طنًا من الهم على كتفيه: «حسناً يا بنتي، وأنت يا «سليمان»، بدلاً ملابسكما فورًا».

كانت العائلة قد جهزت ثياباً من الكتان مخيطة بشكل بسيط، فقد صار هذا ضروريًا بعد ما مروا به، وبعد رحلات «حمزة» و«خالد» المتكررة كمستكشفيين، وتحسّبا لانتقامهم في أرجاء مملكة البلاغة، وقد عانوا بسبب تغيير ملابسهم في كل مرة كانوا ينتقلون فيها.

هرولت «فرح» نحو غرفتها وتبعها «سليمان»، وأحضر «أنس» خنجره وخرج «حمزة» الحلواني ومطرقة «فرح» من الخزنة، لعل تلك الأدوات تنفعهم في مهمتهم. خرج «أبادول» إلى الحديقة، ونظر إلى قط «مراٌم» العجيب الذي أهدته لها «شفق»، فهُرِّجَ القط رأسه وكأنه يتأنّب لمهمة رسمية، ثم فتح «أبادول» عباءته، فدخل القط بين طياتها ثم خرج من تحتها ومعه العديد من قطط «الماء» وانتشروا في حديقة البيت، وكأنهم يحرسونه. عاد إلى الداخل ورنا إلى ابنه «كمال»، ودار بينهما حوار صامت، نظرات طويلة، وغمز خفيف، ورفع للحاجبين أحيانًا، وهزّات للرأس



لم ينجح «أنس» قط في فك شفراطها، كان يعلم أن بينهما نوعاً من التخاطر الذهني، لكنه لم يعلق قط على هذا.

صاحت «نور» بعد أن أنهت موجة من البكاء: «وأنا؟ ستتركوني هنا؟ ستتركيني يا حمزة؟؟؟».

قال «حمزة» بتأثر: «ستبقين هنا في أمان، وأعدك أن أعود ومعي «رواء» بإذن الله». احتواها في حضنه، وضم ابنته الصغرى إلى صدره وأخذ يت sham mها وهو يبكي، كان يبحث فيها عن رائحة اختها «رواء».

التفت نحو أمه وكانت نظراته كلها رجاء، وكان بينهما لغة خاصة، فهي تقرأ ما يعتمل في صدره دون أن ينبع ببنت شفة، وكيف لا وهي أمه وتعلم مدى حساسيتها المفرطة! تعلم أنه خائف لكنه لا يملك أن يُظهر هذا، وليس لديه فرصة للانهيار، تدرك أنه يحمل هم «نور» وابنته الصغرى.

فقالت له بإشراق: «اذهب في أمان الله يا ولدي، سأعتني بهما».

التقت نظراتهما وهرع إلى حضنهما، ضمّته وهي تتمتم بالدعاء. كان الخوف ينثر شذراته على الجميع بسخاء. وقفوا يودّعونهم وظنوا أنهم سيتجهون إلى غرفة الأشباح.

لكن «أبادول» استوقفهم قائلاً: «الولوج هذه المرة سيختلف، ستأتي صقور مُقاتلة».

حدق «أنس» تجاهه وسأله: لماذا؟

- التحليق في سماء أرض الرافدين خطير، فهناك مجَّحات تقنص الصقور وتترصد لها فوق البرج طوال الوقت.



بدا الوهن على «أبادول» فعاونه «أنس» على الجلوس، انخلع قلبه وهو ينصل  
لأنفاس جده الواهنة، اعتصر قلبه، شعر هذه المرة أنه متعب للغاية.

مرت لحظات صمت ثقيلة قبل أن يسأله: «هل أنت بخير يا جدي؟».

أجابه: «نعم، بخير».

- ابق هنا في البيت أرجوك ليعتني بك الجميع.

- بل سأعود إلى المكتبة العظمى؛ أرغب في ترتيب بعض الأمور هناك.

- وكيف...

قاطعه «أبادول» وقال وقد سكنت عينيه نظرة حانية: «ستلقى العون بإذن الله يا «أنس»، فقط وددت أن أخبرك أن بعض طوابق بُنْج «بابل» مُظلمة، أجواها ساخنة وكأنكم تسيرون فوق جمر أو وسط الرماد، وقد تتفرقون هناك».

بدأ القلق يتسرّب إلى صدورهم، اقترب «سليمان» وقبض على كف «فرح» التي شحب وجهها فجأة، بدا الأمر مهيبةً، لم يترك لهم «أبادول» الفرصة ليوجّهوا إليه المزيد من الأسئلة، بل أسع قائمًا في ارباك وأنظار الجميع معلقة بوجهه، وضع يده على رأس «أنس» ثم همس بشيء جعل حدقّي عينيه تتسعان، ألصق جبينه بجبينه للحظات، ثم ضرب أرض غرفة المعيشة بعصاها ثلاث مرات قبل أن يمنحها لـ«أنس» الذي أجهل عندما فعل جده هذا! فعصاها تعني له الكثير، ولم تفارق يده منذ منحها له الق Zimmerman «حنبيش» و«حنبريت» على أرض «كويكول». لم يسأله عن السبب، لكنه أدرك أن هذا يعني الكثير، دسّها في قميصه من الخلف وعقد عليها بحزامه، وفجأة! ارتجت أركان البيت، وطاقت رياح شديدة بجنباته، تلّفت «خالد» يبحث عن المصدر فوجد جميع الأبواب والنوافذ مغلقة، امتلأت الأجواء بالرماد، وارتقت حرارة المكان، واخترقت رائحة الورق المحترق أنوفهم، وهذا هي شذرات الورق الرقيقة المحترقة والم凌وية تتطاير هنا وهناك.

صاح «أبادول» وهو يُشير إليهم بذراعيه: «اقتبوا من بعضكم وتماسكوا».



بدؤوا يتسبّثون ببعضهم بعضًا، كان الصغار يصرخون في فزع، اختفى سقف البيت وبدت لهم السماء كالقبة تحتضن أركان البيت الأربع، والسحب على الأطراف ينخفض لآياً فلائياً حتى إنه يكاد يلمس بالأأنامل، لو رفع أحدهم يده لأمسك نُدفه البيضاء. تحركت بعض السحب تجاه مركز القبة ثم تجمعت كالرُّكام، ومُلْس بعضها على بعض، ودوى انفجار مهيب أصمّ آذانهم للحظات، لمع البرق المعقرب في السماء، وأسدلت جنباتها ستاراً معتماً موسوماً بنجوم براقة، على حين بغتة منهم غمرتهم السحب أكثر، شعروا أنهم جميعاً يسبحون في بحر من القطن، اختفت ملامح البيت، وسريعاً ما خفت أوزانهم، انزلقت كفوف الصغار وتحرروا من قبضة آبائهم، كل من في البيت يسبح ويطير وكأنه ريشة تتلاعب بها تiarات الهواء، كانوا جميعاً يصيحون في هلع، وينادون بعضهم بعضًا، أطلت صدور سوداء لها أجنحة ذات ريش يرق وكتنه مصقول ولامع، كانوا أربعة.

أشار «أبادول» إلىهم قائلاً: «تعلّقوا بالصقور عندما تقترب منكم، لا تهابوها».

اقترب أحدها من «أنس» فتعلق به، وارتقي إلى أعلى، واقترب آخر من «حمزة» وكذلك «فرح» و«سليمان» ففعلوا، وسريعاً ما ارتفع الأربع إلى الأعلى.

صاح «أبادول» وهو يلوح لهم: «سينقذنا الله كما يفعل في كل مرة».

التمهم السحاب، وغابوا عن أنظار باقي أفراد العائلة، الذين سقطوا تباعاً على الأرض، فقد بعضهم وعيه، وبقي «أبادول» يقطأ يُراقبهم، وكان معه «خالد» الذي لم يفقد وعيه أيضاً، وكان يُراقب كل شيء بوجل، انتشل نفسه من حالة الذهول التي اكتنفته، لاحظ خيطاً من الدماء يسيل من أنف «أبادول» فهروي نحوه، كان متعباً للغاية.

همس له بينما كان يمسح الدماء عن أنفه: «لا تخبرهم أن الدماء سالت من أنفي».

- ما بك يا جدي؟!

قال بتأنٌ: «إنه العمر يا ولدي».



عاونه «خالد» على الجلوس، وطفق يُحاول إفاقتهم واحداً تلو الآخر، وقد تلطخت وجوههم بالرماد، وكأنهم خرجن من حريق، هدوءاً قليلاً وعندما اطمأن «أبادول» عليهم وعاد سقف البيت إلى سابق عهده، توجّه نحو الدرج ليصعد إلى غرفة الأشباح وهو يتّكئ على ذراع «كمال».

وقال بصوته الرَّخيم: «دُثُرُوْهُم بِالدُّعَاء». .

ثم أخذ يتمتم بصوت خفيض: «اللَّهُمَّ احْفَظْ رِوَاهُ وَسُخْرَةَ لَهَا مِنْ يَصْدَّعْنَهَا».

\*\*\*

## الأشقاء الثلاثة

أطل ضوء الفجر من عُرى قميس الليل، هنا العرب وأشرافها وأنسابها، وإيلها وخبولها، وأشعارها وخطبها، وحبّها وغرامها، وسمّرة لفتحت وجوه رجالها، وعفة للفلت نساءها، النخيل يظلل الأفق وكأنه سحاب أخضر. حفنة من تمر هنا، ورشفة من حليب هناك، وعلى صفاف «دجلة» المترامي والمكسو بغلالة من فضة، و«الفرات» الذي تطفئ النجوم في حضنه سناها، تقوم حياة وتُعمّر بيوت وتشيد قصور فارهة، وتُقام مساجد عظيمة تضيئها وجوه شيوخ أجلاء ويملؤها علم وعلماء، لوحة خلابة رسمتها العصور، ولحن عزفته جوقة من أعجب الطيور، وحجر تباھي به الحروف على السطور، إنها العراق، العباءة المُسدلة التي تستر كل من يستجير بها.

انطلقت الرياح من كنانتها خافية متلاحقة، ومدّت إلى آفاق السماء نطاقها، وأرسلت جيّشاً من السحاب كثير المدد، كان صفير الريح يُنبئ بقرب عاصفة شديدة، والبرد القارس يلف المكان، بينما الفجر يقترب بكرياء ويأتي أن يُحجب شعاع ضوئه بفيالق الغيوم التي أطلّت بفضول لتشهد هذا الحدث العظيم الذي يدور على أرض «سنجار» بالعراق، بين جماعة من خيرة رجال بغداد، وقفوا يتأمّلون الأفق في هدوء ووقار، وكل منهم تدور في رأسه قياسات وحسابات معقدة وقد لمعت أعين ثلاثة منهم كانوا على رأس فريق لأداء مهمة كلفهم بها الخليفة «المأمون»، وكان هؤلاء الأشقاء الثلاثة جديرين بأدائها على أكمل وجه، ليس لذكائهم وعلمهم فقط، بل لذلك الرابط الخفي العجيب بينهم، فقد يُكمِّل أحدهم جملة أخيه، أو يدركها قبل أن ينطق بها، حتّى إنهم عندما يتحدثون عن أعمالهم وتجاربهم يتحدثون بصيغة الجمع، فلا يقول أحد منهم «أنا» بل «نحن»، و« فعلنا»، و«قررنا»، و«نقول».



قال أكابرهم «محمد» وكان جليلاً مهيباً وعالماً في الفلك والهندسة: «تلك البقعة أرضها مستوية، نستطيع أن نبدأ بحساب درجة «خط الهاجرة»<sup>(١)</sup>».

أخرج «الأسطرلاب»<sup>(٢)</sup> من صندوق أدواته ورفعه ووقف يقيس ويحسب حساباته الفلكية، كان ينظر إلى السماء في تمغّن وكان لغة خاصة تدور بينه وبين كويكبات السماء التي صار يحفظها. أخرج أخيه الأوسط «أحمد» بوصلته ليضبط الاتجاهات قبل أن يتحركوا، وكان دون شقيقه الأكبر في هيبيته لكن أمارات الذكاء كانت بادية على محياه، فعيناه تفيضان بالنباهة، وطفق أصغرهم «الحسن» وكان أخوه ظللاً يبحث عمّا يعينه على حساب ميل الزوايا، فقد كان عبقرياً في الهندسة. اتفق الثلاثة مع كوكبة العلماء المرافقين لهم على تحديد نقطة على الأرض وضريوا فيها وتداً كبيراً وربطوا فيه حبلًا طويلاً، وسار جزء من الفريق شمالاً وهم يمسكون الحبل حتى وصلوا إلى مكان زاد فيه ارتفاع القطب عن الارتفاع الأول درجة كاملة، فضرروا وتداً جديداً هناك وثبتوا الحبل، ثم قاسوا المسافة بين الودتين، وكرروا تلك العملية جنوباً فوجدوا المسافة نفسها والقياس نفسه، وبحسابة دقيقة اجتمعوا عليها وبذلك الطريقة الفدّة حددوا محيط الأرض، فدونوا نتائج تجربتهم، وقرروا العودة إلى بيت الحكمة، على أن يكرروا التجربة نفسها في «الكوفة».

ويبينما هم في الطريق، هاجت الخيول وباتت تقفز وترفع قوائمها في الهواء، وارتفع صهيلاً وأسقطتهم من فوقها، ازداد صفير الرياح الذاريات، وحملت الرمال في دوّامات، ودارت حولهم ولففت كل واحد منهم بحبباتها وكأنها ألسنتهم أو شحة صفراء موشاة برقائق من ذهب، باعدت الرياح بيئهم وطفق كل منهم ينادي صاحبه، وبقي الأشقاء الثلاثة عالقين كثلاثة أوتاد ذهبية ضربت على أرض «سنجار»، والرياح الهوجاء تضرب بأطراف أنوثاهم وكأنها رايات ترفف، أطلّت كوكبة من الجن فتعالي الصياح، كانت لهم وجوه غليظة الملامح كوجوه الأسود، وأعينهم الحمراء تكاد تخلع

(١) خط الهاجرة: هو خط رئيسي جغرافي كان علماء الفلك قد ي Berkرون عليه في قياس درجات الطول.

(٢) الأسطرلاب هو آلة فلكية قديمة (تشبه البوصلة) أطلق عليها العرب ذات الصفائح، وهو نموذج ثالثي البعدين للقبة السماوية يظهر كيف تبدو السماء في مكان محدد ووقت محدد، وقد رسمت السماء على وجهه ليسهل إيجاد المواطن السماوية عليه.



قلب من يتمعن ويدقق فيها، زاروا كوحوش كاسرة فهربت الخيول وفررت منهم، حاول الجن الولوج إلى أجساد الأشقاء الثلاثة، فحال بينهم وبين هذا ما تحمله الصدور من آيات القرآن، حُنِقَ أحد أعضاء الفريق العلمي المرافق لهم، وقد آخر وعيه، وتبعثر البقية وكانهم أغصان أشجار مبتورة تتلاعب بها الرياح، كان أصغرهم ينادي أخيه، حاصره رهط من الجن وسلبوه كتاباً كان يحمله في حقيقته، لم يتمكن من منهم فقد خُدِرَت يداه، رأى كتابه بأم عينه وهو يُرْفع في الهواء وتتقلب صفحاته والكلمات تبرق وتضيء على سطوره، ثم اختفى الكتاب فجأة كما اختفى رهط الجن من حوله!، طار الأشقاء الثلاثة وقدف كل منهم في جهة، عاد ينادي أخيه وكان لصوته صدى يتعدد في الأجواء حتى اختفى هو الآخر عن الأنظار، أرسلت الرياح خيوط الودق من روض السحاب، ثم انحرق جيبها فتسرب ماء الغمام، لمع البرق المغريب في السماء، وارتजس الرعد فهمي الماء وسال ليغسل كل شيء كان، ثم سكنت الرياح فجأة كما بدأت فجأة، وتوقف المطر، وألقى الصمت المهيّب عباءته على المكان.

\*\*\*

ليمو

«ابحث في كل ظلمة عن قبس من نور»، هكذا أخبرني أبي عندما اقترب الصقر ليحملني إلى «مملكة البلاغة»، ليسقطني في متأهات بُرج «بابل»، أدركت حينها أنني صرت وحدي، كنت خائفاً وغاضباً، لأنني كما يقولون «طَوَافٌ»، ولم أرغب حينها في لعب هذا الدور، لكن ذاك الشغف الذي زلزل كياني عندما عبرت على الكتاب الضائع ولمسته بيدي، وتلك اللذة وأنا أعيده إلى صاحبه ليكمل طريقه في دروب العلم أزواجاً الخوف عن صدري، حتى كنت أكثر أفراد عائلتي تكراراً لأداء مهمة رد الكتب إلى أصحابها، فقد كان لقائي بهؤلاء العلماء واحداً تلو الآخر يمنح روحي السعادة، وإن



كانوا صوراً أخرى لآخرين عاشوا في عالمنا من قبل، فهم رحلوا ورُسمت قبورهم منذ أمد طويل، الأسماء نفسها، السمات نفسها، التفاصيل نفسها، وكأني سافرتُ إلى الماضي وعدت بالزمن لأنتقى بهم. جعلني كل هذا أسيئاً لسحر أرض الرافدين، فتنثني «بغداد» ب بتاريخها الحافل بالكتب، صرت أُفخر كل لحظة أنها وطني وأبني ولدت بها. أحياً نَيْدَهشْنِي ما أراه وما أمر به، تدخل الريبة إلى نفسي من ألف باب، لكنني أذكرها أنها «مملكة البلاغة» العجيبة، وسريعاً ما يغادرني الاندهاش.

يبداً الأمر عندما تتحرك الكتب حولك في مكتبة عتيقة في بيت جدك الغامض، ذاك البيت العتيق الذي يكاد ينطق ليخبرك بسره خلال طفولتك، لكنك أبداً لن تعرف ذاك السر إلا عندما تشبّ عن الطوق، وتحلق على جناح صقر عجيب، وتتوهض مغامرة ترى فيها العجائب بأم عينك.

كتابك ليس كتاباً خالياً من الكلمات كسائر كتب المُحاربين الآخرين، فهو يحكي عن سيرة عالم عربي له كتاب مهم دُون فيه عصارة علمه التي جمعها من هنا وهناك، لكنه سُرق منه وعليك الرحيل فوراً لتبث عن هذا العالم مستنداً إلى ما سترقه عنه خلال قراءتك للكتاب الذي أظهر لك الرمز، ستختلط هذا العالم وستسير معه، ثم ستتركض في طوابق برج «بابل» لتبث عن كتابه الذي لم يكمله بعد، وعليك أن تعثر عليه وترده إليه، وحينها ستغادر الظلمة، وسيُرد الحق إلى صاحبه، وستسقط كل التعاوين التي عُقدت على أرض بابل لإخفاء الحقائق وتزويرها، ستُحل العقد، وسيُبطل السحر وستزول الغشاوة عن أعين الناس، ربما ليس إلى الأبد لأن معارك الحق والباطل لا تنتهي، لكننا لن نتوقف عن الطواف لإبطال أثر تلك الأيدي السوداء، فالحق أبلج، والباطل لجلج!

هكذا يكون دوري عندما أنتقل إلى هناك، ظلام حالك، ديجور مُعتم، عتمة تلو عتمة مررت بها، أخرج منها إلى النور بفضل الله ومعي الكتاب. لم يخفني الظلام قط. في طفولي كنت أرى كل شيء عندما يطفئون الأضواء، أخبرتُ أبي وأمي بهذا فتبادلا النظارات في صمت، لم أدرك حينها أن تلك هي ميوري كمحارب، التي ستؤهلي لأكون من رتبة الطوافين، كنت أرى كالقطط، تبرق عيناي مثلها تماماً في وسط الظلمة الحالكة، وكنت سعيداً بهذا وأنا طفل صغير، وبدأ الخوف يتسلل إلى صدري بعد



بلوغي ونضوجي عندما أخبرني أبي عن «مملكة البلاغة» ظننتها ظلماً في ظلام، وأنني سأرحل إلى عالم كثيب قاتم، لكنها سحرتني بنهاها وليلها، ونورها وظلمتها، وجنباتها الأربع.

«ليمو»، هذا رقمي بالسومرية، أنا «عمر» المحارب الرابع في عائلتي، طواف يرى في الظلام بعيّن هر، أركض بسرعة شديدة، وأثبت وثبات تنقلني من بقعة إلى أخرى بسرعة شديدة، من أجواء بابلية إلى أخرى أكادية، وقد أطوف بمدن الخلافة العباسية، هكذا هي مملكة البلاغة، عوالم مختلفة وأجواء عجيبة من أزمنة شتى وكأنها جمعت فجأة في مكان واحد، لكل منها روح خاصة ولغة خاصة. على أرض الرافدين كانت رحلتي، وكانت سعيّداً هذه المرة، فقد علمت عندما انتقلت إلى المكتبة العظمى أني سألتني بأفراد عائلة «أبادول» لأساعدتهم في البحث عن ابنتهم التي اختطفها أحد مسوخ «سيروش»، تلك العائلة قد اشتهرت بيننا كمحاربين وطوافين، ولا يُعقد لقاء

من لقاءاتنا دون أن يتضمن حكاية عنهم، فلا يسافر معهم شاب عازب إلا وعاد بعروس، وكان لدى فضول شديد والسؤال يتجلج في رأسي:

هل سألتني بفتاة أحلامي خلال تلك الرحلة معهم أم لا؟

\*\*\*

«رواء»

كانت تبدو مخدراً وهي تسير بجوار الـ «سيروش» الذي اختطفها، ويدها الصغيرة المُمنمة غارقة في كفه الغريبة بمخالبها الطويلة كمخالب الأسد، بيد أن أنا مل تلك



الكف العجيبة طويلة كأنامل البشر. بثوب أبيض قصير ومطرّز بالورود الصغيرة بدت كحمامة أسيرة تسير إلى قفص لنسجن فيه، مستسلمة لا تقاوم، وعلى رأسها تاج فضي رقيق كان جدها «أنس» هو من وضعه بيده على رأسهااليوم بعد أن صُفِّف لها شعرها بحنان بلٍغ، دلفا إلى سرداد طويل مُظلم، كانت تتعرّج، وكان المسلح يجرها جرًّا حتى إن قدميها أصبتا، لم تشکُ ولم تبكِ وظلت على حالها تحدق إلى الفراغ والدماء تسيل من جراح قدميها، كانت ألهمة الشُّعل المنتشرة على الجانبين تترافق مع الرياح الباردة المتسللة من الفجوات أعلى السرداد، وتطل من على وكأنها تُراقبهم. وصلاً أخيراً إلى قاعة اجتمع بها العديد من رجال الـ«سيروش».

التفتوا نحو «رواء» وقال كبارهم وهو يتفحّصها بعينيه: «تلك الضئيلة من «الوَرَاقِين»؟!».

ثم حرك يديه أمام عينيها وأردف قائلاً: «هل ألقيت عليها التعويذة التي علمها إياك «توديا»؟؟».

- نعم.

- لماذا تأخرت؟

نطق الخاطف بصوت متحسّر قالاً: «لم أتمكن من اختراق عالمها كما قال لي «توديا»، بقيت عالقاً على حافة البوابة التي فتحت لي، وكنت قد أصبحت بح في ذراعي عندما مررت بإحدى الغابات بعد أن غادرت «بابل» لأصل إلى البقعة التي أرشدني إلى مكانها، ولولا أنه أرأني صورة تلك الطفلة في بلوترته ما تعرفت عليها، اضطربت إلى استدراجها بتعويذة، ذاك العالم الذي دفعني إليه «توديا» بسحره سلبني الكثير من قوائي، سحقاً له!».

- لا تنسَ أنه علمك الكثير من الأعيبه.

هزَ رأسه موافقاً ثم تلقت متسائلاً: «أين «توديا»؟».



- كان هنا منذ قليل يتساءل عن سبب تأمرك، وانصرف للقاء «عُدفان»، صار الأمر معقداً.

- كيف؟

- بعد أن أرسلك «توديا» إلى ذلك العالم قامت الملكة «عشترار» باستدعائه، فقد علمت بأمر الوزير وخيانته لها، إذ استخدم واحداً منا كما بدا لها ليختطف واحداً من الوراقين لأجل ملك آخر وهو «عُدفان» ليساعده في المقابل على الخلاص منها ليحكم «بابل» بنفسه، كان يتواصل معه دون علمها، والأدهى أنها طفلة ومن عالم آخر، وفور أن شعر «توديا» باختراقهما لنطاق «بابل»، وبوصولهما إلى أرضها وضمان وجود الصغيرة هنا، أبلغها بالأمر، فقتلت وزيرها في الحال، إنها تستشيط غضباً.

- وهذا قد أتيتكم بالصغيرة وسنساوم عليها لأننا الطرف الأقوى، ألا تستحق الشكر على ما قدمته لكم؟

قال أحدهم: «بالمناسبة، علمنا أنك أنت القاتل الحقيقي لبنات شيخ عشيرتنا أيها السفاح».

وجم الخاطف ولم ينبع ببنيت شفة، كان ينقل عينيه بين وجههم وهم ينظرون إليه ببرية وقد أدرك المصيبة التي وقع فيها، ها هم يجتمعون هنا ولم يقع عليهم ما وقع على الوزير، كما أنهم علموا بجريمه، هل سيكون هو كبش الفداء لينجوا بأنفسهم؟ ولا بد أنهم أبلغوا الملكة أنه الخائن بينهم، وأظهروا لها الولاء ومعهم الساحر «توديا» ليأمنوا مكرها.

كان يعلم أنهم سيغدرون به، وبخاصة بعد قتله لبنات شيخ عشيرتهم الثلاث لينتقم منه بعد حكمه على أخيه بالنفي من مدينة «بابل» منذ عام، فأخرج الشيخ أخيه ونفاه، فقتل وهو في طريقه إلى منفاه. كان يعلم أنهم ما اختاروه من بينهم ليُرسلوه لاختطاف «رواء» إلا لعلهم بأنه الأقوى بينهم، كما أنهم يهابون عالم «الوراقين» الذي يأتي منه أصحاب الدماء الحمراء.



حمل الصغيرة وأطبق على عنقها بيده وقال لهم: «سأقتلها بحركة واحدة. ابتعدوا من أمامي وأفسحوا الطريق».

أراد أن يستخدمها كرهينة ليفرّ منهم، لم ينتبه إلى أحدهم الذي كان يتربص له ويقف خلفه، وكان أكثر طولاً منه، ضريه على كتفيه وحَرَرْ «رواء» من بين يديه، لم تتحرك من مكانها وثبتت كتمثال من جليد، اقترب منها واحد آخر منهم وحملها بعيداً، ودار صراع بين الخاطف وبين الرهط الذين لاحظوا جرح ذراعه وأدركوا أنها عضة من عضات تلك الوحوش التي تسكن الغابة القرية، اجتمعوا عليه، بين نهش لجسده وجراحه بمخالبهم ومقاومته لهم، لم يُفلح إلا في قتل اثنين منهم، وبعد تقطيع أوصال ونزف شديد لفظ الخاطف أنفاسه الأخيرة.

قال كيبرهم: «ظننته الأقوى بيننا!».

قال أكثرهم حكمة: «لهذا أوكلنا إليه تلك المهمة».

لحظات قليلة مرت سريعاً ورأوه أمامهم بلامحه الأصلية قبل أن تُمسخ بأثر السحر، وقفوا يتأملون وجهه، حتى إنهم طفقو يتحسّسون جلدِه بأطراف أصابعهم هو والقتيلين الآخرين، فقد تبدّلت ملامحهما أيضاً، أدركوا أن تلك اللعنة زالت بالفعل بموتهم.

قال أحدهم متحسّراً: «هل من الضروري أن نموت لكي نعود كما كنا سابقاً؟».

- سيزول هذا، حتماً سيزول.

- الآن نستطيع حمل جنته إلى قصر الملكة «عشتار»، هو الخائن وقد لقي جزاءه هنا، ولن ينكشف أمرنا.

- والطفلة؟

التفتوا تجاهها، كان أثر التعويذة قد زال بموت خاطفها، فانطلقت تصرخ وتبكي وهي تنقل عينيها بين وجوههم، لم يهدئ من روعها صوت أحدهم الحاني وهو يقترب



منها، كانت تتنفس من شدة الخوف والفزع. عندما حملها شهقت ثم فقدت وعيها بين يديه.

ران عليهم صمت ثقيل، أخذوا يحصون أنفاسها ليتقنوا من كونها لا تزال على قيد الحياة.

وعندما اطمأنوا قال كبيرهم: «ليرحل بها أحدها شمالاً ويُخفِّيها في بيت من بيوت حلفائنا، لا بد أن نساوم الملكة «عشتار» لترفع ذلك السحر عن عشيرتنا، الطفلة مقابل رفعها لتلك اللعنة، ولن نسلمها لها إلا إن نفذت ما نطلبها، لكي نعود كما كنا سابقاً».

- وإن لم نفلح في إقناعها؟

- لا بد أن نحاول من أجل أبنائنا.

- باقي العشيرة وحتى أولادنا لا يدركون خطورة الأمر، يطيعونها طاعة عمياء ويخافون من بطشها.

- تعلم أن تعويذتها أثرت في عقولنا بشكل متفاوت، على الرغم من نجاحها في مسخ أشكالنا لم ينجح الأمر مع عقولنا بشكل كامل، ولا بد أن نتحمل ونتحلى ببعض الحصافة.

- و«توريا»؟ هل تثق به؟

- لا تنس أنه من الأسرة الحاكمة، وقد برع في فنون السحر التي درسها سابقاً، وعندما تتحرر جمياً من سحر «عشتار» سنعود كما كنا على قلب رجل واحد.

- لا أثق أبداً بساحر!

- لكنه لم يشي بنا، فقد أخبر الملكة «عشتار» أنه لم يعلم بأمر اتفاق الوزير مع «غدفان» الذي فور أن علم أنهم يختطفون «الوارقين» أسرع بالاتفاق معهم عن



طريق الوزير ليختطفوا له الصغيرة ليقتلها انتقاماً من أبيها، وأن الوزير خدع «توديا» نفسه وأخبره أنها هي من طلبت هذا وأمرت بتنفيذـه.

- يا له من داهية! لقد أجاد حياكة التهمة وألصقها بالوزير.

- لقد أخبرها «توديا» أيضاً أنه أراد العون فقط ودفع بواحـد منا لاختـاطف الصغيرة ليرضـيها.

- لقد حـول مسار الأمور بذكـاء.

- ولم يـشـ بـنا. لو أراد أن يـنجـو بـنـفـسـه لـأـخـبـرـها بـأـمـرـنـا جـمـيـعـاـ.

- لكنـهـ سـاحـرـ وـهـيـ أـيـضـاـ سـاحـرـةـ،ـ لـهـذـاـ لـأـثـقـ بـهـمـاـ!

- لـتـرـسلـ الصـغـيرـةـ أـوـلـاـ قـبـلـ أـنـ يـعـودـ «ـتـوـدـيـاـ»ـ،ـ فـلـوـ طـالـتـهـ يـدـ «ـغـدـفـانـ»ـ سـتـمـوـتـ وـلـنـ نـجـدـ مـاـ نـسـاـوـمـهـاـ عـلـيـهـ.

- دـعـونـاـ تـخـفـيـ عـنـهـ مـكـانـهـاـ عـلـىـ الـأـقـلـ،ـ حـتـىـ نـتـأـكـدـ مـنـ وـلـائـهـ لـنـاـ.ـ ثـقـواـ بـيـ أـرـجـوـكـمـ.

- حـسـنـاـ،ـ وـلـكـنـ...ـ

- ماـذـاـ؟ـ

- ليـكـنـ الـأـمـرـ كـذـلـكـ،ـ لـنـخـبـرـهـ أـنـ أحـدـنـاـ تـمـرـدـ وـاـخـتـطـفـ الصـغـيرـةـ وـرـحـلـ بـهـاـ مـثـلـاـ.

- ليـكـنـ ذـلـكـ.

تقدـمـ أحـدـ الـ«ـسـيـرـوـشـ»ـ،ـ ذـاكـ القـويـ الذـيـ حرـرـ «ـرـوـاءـ»ـ مـنـ الـخـاطـفـ،ـ الذـيـ اـقـتـرـبـ منهاـ لـيـطـمـئـنـهـاـ وـكـانـ قدـ فـقـدـتـ وـعيـهـاـ بـيـنـ يـدـيهـ،ـ وـكـانـ شـابـاـ فيـ أـوـاـخـرـ الـعـشـرـينـيـاتـ.

وقـالـ وـهـوـ يـرـنـوـ إـلـىـ «ـرـوـاءـ»ـ:ـ «ـسـأـرـحـلـ بـهـاـ،ـ وـأـرـجـوـ أـنـ يـنـجـحـ الـأـمـرـ»ـ.



- حسناً يا «سرجون»، ليُكِنْ هذا، فأنت أكثرنا تمرداً بالفعل. أسرع قبل أن يعود «توديا» من عند الملكة.

غطّى «سرجون» وجهه ليخفي ملامحه ليُطمئن له الصغيرة، فقد أفاقت وقررت إغماض عينيها حتّى لا تراهم، كانت تنصت لهم ودموعها لا تنقطع، حملها «سرجون» وظلّت تصرخ حتّى بُخَّ صوتها، ربّت على ظهرها محاولاً تهدئتها، زُودوه بالماء وبعض الفاكهة في كيس من الجلد وحدّدوا له وجهته والمكان الذي سيُخفيها فيه، وانطلق وهو يقبض على معصمهما. كان جسدها الضعيف يرتجف من شدّة البرد، فأشفق عليها وحملها على كتفه بعد أن دثّرها بإزاره، استسلم جسدها الواهن فغرقت في نوم عميق، كان قد قرر الفرار بها لينقذها وحسب، ليبعدها عن أياديهم جمِيعاً، لهذا قرر وضعها في أمانة من يثق به.

كان أبوه دائمًا يردد على مسامعه: «اصنع خيراً فهو الشيء الوحيد الذي لا يموت حين تموت أنت».

على الرغم من هيئته التي تُظهره كمسخ عجيب، فإنَّ قلبه لم يخلُ من الرحمة، عندما مات أبوه شعر وكأنه فقد ساقاً، كان يسير بقلب أعرج، وعندما ماتت أمّه عجز قلبه عن المسير، لم تنهضه إلا صنائع الخير التي أوصاه أبوه بها، وكان يُخفيها فهو يرى أنه ليس من الضروري أن يعلم الناس أنه فعل شيئاً صالحًا، فليكن نبلاً في الخفاء وحسب.

سار نحو ساعة ثمَّ توقف ليريح قدميه قليلاً، وكانت «رواء» تفيق وتتنام أو ربما تفقد الوعي أحياناً من فرط خوفها، لم يتمكن من التفريق بين الحالتين! لاحظ جراح قدميها وقد جفّت الدماء الحمراء على حوافارها، كان يتآكل لون الدماء الحمراء متوججاً، أشفق عليها فشقّ أطراف إزاره وأخذ يضمّد جراحها، شعرت به وكانت تخشى فتح عينيها، همس لها ليطمئنها ففتحت جفنيها ورأت مقلتيه المطلتين من فوق لثام وجهه، أصدرت أنيتاً خافتاً وهي تُراقبه وهو ينظّف جراحها بالماء ويضمّدّها، ثم عادت تغلقهما بقوّة وكأنها ترجو أن يكون هذا كابوساً مزعجاً وحسب. قطع الطريق وطواحين الهواء تدور في رأسه، ازدحم رأسه برتيلٍ من الأسئلة، وكانت تتواتي كالبروق لتضيء دهاليز عقله.



ما ذنب هذه الطفلة؟ وما الذي فعله أبوها لـ «غُدفان»؟ هل ستنجح خطة مساومتهم لـ «عِشتار» لكي ترفع لعنتها عنهم؟ ولكن... لماذا اختارت «عِشتار» مدينة «بابل» بالذات؟ لماذا اختارت ذلك الهجين الذي رسمه الأجداد على البوابات؟ الـ «سيِّروش» بالذات وليس الثور المُجَنَّح ولا الأسد ولا غيرهما؟ هل لأنَّه هجين؟ أم لأنَّه بلا أجنة؟ فهي لن تمنحهم فرصة التحليق بجناحين بالتأكيد، لماذا لم يتأثر سكان نصف المدينة الآخر بلعنة «عِشتار»؟ وعلى الرغم من هذا يخافون منها وكأنَّها إلهة وهي ليست بِالله! كيف تغيَّرت ملامحه هو ومن حوله؟ هل هي سحرت أعينهم وحسب؟ يكاد يكذب نفسه أحيانًا ولكنه عندما يرى انعكاس وجهه ويتبين ملامح الـ «سيِّروش» يدرك أنه بالفعل قد تغيَّر، كما أن ساقيه وذراعيه تغيَّرت! لماذا لم يتأثر عقله هو وبقي رفقاء وإنَّما تأثَّرت أشكالهم فقط؟ بيد أنَّ الحرَّاس والجنود تأثَّروا بشكٍ كامل! أين ذهبت عقولهم؟ هل هُم واقعون تحت تأثير وهمٍ ما؟ أم هو نفسه الواقع تحت تأثير هذا الوهم؟ هل هو وهم بالفعل وسيزول؟ أم هو سحرٌ حقيقي لن يزول؟ أم ماذا؟!

وما الأوهام إلا سحرٌ للعقول! أن تنخرط في أمر لا وجود له، تعيش كل لحظة وأنت تترقبه، قد تصدقه أكثر مما تصدق أن نفسك التي بين جنبيك تنكر وجوده، قد يكون هاجسًا غير كائن ولا موجود لكنك تبعَّت أول الخيط وعلقت به! فتعانى شتات فكرك لأنك توهمت فكرة غير معقولة ينكرها عقلك الوعي ويظل رأسك يتجلجح حتَّى تنفِضها.

وصل «سرجون» إلى تلال الرماد وكانت «رواء» لا تزال فاقدة لوعيها، اقترب من البيوت المُتقاربة وسط التلال وهو يحملها، وصل إلى بيت أحد الذين يثق بهم من الأسرة العريقة في «بابل» وكان من القضاة، وقد غادر عائلته فور علمه بوصول «عِشتار» للمدينة، وبعد رؤيتهم لـ «سيِّروش»، وكان وأهله على طبيعتهم حيث لم تصبهم التعاوِذ ولم يُمسخوا، طرق الباب ففتحه، وفور أن رأى وجهه تراجع إلى الخلف.

سارع «سرجون» بطمأننته وقال: «لا تخَف يا سيدي، أنا «سرجون»».

- «سرجون»؟!



أدخله إلى ساحة الدار وسطم الباب واستدار بحذر فأقبلت زوجته وبناته وجلسوا يُراقبون «رواء» بقلق.

قال «سرجون» وهو يضع «رواء» على الأرض أمامهم: «أتيت لأضع هذه الصغيرة في أمانتك».

- من هي؟ وما تلك الثياب الغريبة؟!

قالت إحدى بناته وهي تتفحّص قدميها: «دماء حمراء!».

قال «سرجون» بتشكّك: «هل أتحدث أمامهن يا سيدي؟».

هزَ رأسه موافقاً، فبدأ «سرجون» يسرد الحكاية بالتفصيل من بدايتها، وأخبرهم عن اتفاق الـ«سيروش» مع «غُدفان»، وحديثه مع الساحر «توديا»، والوزير الذي قتلته «عشتار»، وأمر المُحاربين الذي عرفوه مؤخراً، وعن سبب اختطاف «رواء» من عالمها لتهديد عائلة «أبادول»، والثأر الذي بين «غُدفان» وبينهم.

انتهى من سرده لقصة «رواء»، فقال الرجل: «المسكينة!».

- يُريدون استخدامها لتحقيق رغباتهم.

ابتسم الرجل وهو يتأنّل نظراته الحانية إلى «رواء»، وقال: «أنتقول هذا وقد تكون تلك الصغيرة سبباً في عودة ملامحك إلى سابق عهدها؟».

- لدى يقين أنّ لعنة «عشتار» ستزول بشيء آخر، شيء فيه قوة وردع لجبروتها، ربما عندما يجتمع شعب «بابل» على كلمة واحدة، وليس عن طريق إهدار روح تلك البريئة.

- لم يخب ظيّ بلّ قط يا «سرجون»، لا يزال قلبك رحيمًا، وعقلك واعيًا.

التفت صاحب الدار إلى زوجته وقال: «سنحميها كما نحمي بناتنا».



أقبلت ابنته الكبّرى وحملتها وقالت وهي تتشمّمها: «رائحتها زكية، ساليسها من ثياب أخي».

التفت نحو «سرجون» وسألته: «منذ متى وهي نائمة؟».

تختبّط في حيرة قبل أن يقول: «ألقى الخاطف عليها تعويذة علمها له «توديا» لكي يتمكّن من اختطافها، وأظن أن أثرها زال فور موته، ثم فقدت وعيها من شدة الهلع عندما رأت وجوهنا، كانت تصرخ وتتبكي طوال الطريق وأظنهما نامت من شدة التعب».

هَرَّتْ رُأْسَهَا وَانْصَرَفَتْ إِلَى غُرْفَتِهَا وَتَبَعَتْهَا شَقِيقَتَاهَا، جَلَسَ الْقَاضِي وَهُوَ يَتَأْمِلُ وَجْهَ «سَرْجُونَ» فِي تَحْسُنٍ، فَقَدْ كَانَ «سَرْجُونَ» مِنْ أَوْسَمِ رِجَالِهِ، قَرَّأْنَ يَسْتَضِيفَهُ فِي دَارَهُ لِيَسْتَرِيحَ مِنْ رَحْلَتِهِ الْعَسِيرَةِ، فَخَلَدَ «سَرْجُونَ» إِلَى النَّوْمِ بَيْنَمَا اسْتِيقَظَتْ «رِوَاءُ» وَاسْتَرَاحَ قَلْبَهَا لِوُجُودِ بَنْتَيْنِ مِنْ عُمْرِهَا، أَمَّا أَخْتَهُمَا الْكَبِيرِيَّ فَجَلَسَتْ تُمْشِطُ شَعْرَ «رِوَاءُ» بِلَطْفٍ.

وسألتها: «ما اسمك أيتها الجميلة؟».

رواء -

\* \* \*

«عشتار»

فوق عرش من البلور وكأنَّ الماء حُبس فيه ويجري في قوامه من أعلى إلى أسفله عاكِسًا ألوان الطيف السبعة، كانت الملكة «عشتار» تجلس بزهو وخيلاء وعلى



رأسها تاج من الذهب مطعّم بالياقوت، تهرب من تحته خصلات شعرها الأسود لتُبرز بشرتها الناصعة البياض، هكذا كانت تظهر للجميع بفعل سحرها، بينما حقيقة وجهها لا تختلف عن قلبها في ظلمته، فلو رأوها على حقيقتها لتوقفت قلوبهم عن النبض، كيس من الجلد القائم مشدود على جمجمة تحوي عقلاً حقيرياً، لا يحمل ذرة خير أو جمال فيه، لكنّها لاعبيها التي تعلّمتها من أبيها.

كان كل من بالقصر ينحني لها في خضوع ولم يجرؤ أحد على الحديث إلا عندما تسمح له، وهذا هو أحد سحرة «بابل» هناك، إنّه الدهنية «تُوديا»، على الرغم من سخطه لأنّها مسخت ملامحه فقد استطاع كسب ثقتها إلى حدّ ما، دخل اثنان من الـ «سيروش» وألقوا بجثة الخاطف أمام عرشها، ارتبكت عندها وجدت ملامحه البشرية ظاهرة، فهي تكره أن ترى زوال تعويذتها عن أجسادهم.

سألته وعينها تخترقانه: «من هذا؟».

- القناص الذي أرسله الوزير لاختطاف الصغيرة التي طلبها «غُدافان».

- وأين هي الآن؟

تلجلج قائلاً: «فرّ بها أحد الشباب المتمردين من الـ «سيروش»».

التفت يسارها وهدرت وشفتها ترتعشان: «كيف خرج بها من متأهات «بابل»؟».

ظهر أحد جنّ «الغضافر»<sup>(١)</sup> فجأة فأرعب الحضور بوجهه القاتم، كان بينهم دون أن يشعروا به.

انحنى أمامها في خنوع وأجابها: «شُغِلتا بغرير كان يُحاول اختراق أسرار «بابل»».

- لا عذر لكم، المتسللون يموتون في المتأهات، لم ينجح أحد في الخروج منها دون خريطة يستدلّ بها.

---

(١) الغضافر جمع غضنفر، والغضنفر هو الأسد شديد الخلقة، وتُطلق أيضًا على الرجل الضخم غليظ الجثة.



أحنى رأسه أكثر وهو يقول: «لو علمت من هذا الذي شغلنا يا مولاتي لعذرتنا». .

- ومن هو؟

- والد الطفلة! وهو من أحفاد «أبادول».

هبت واقفة وقالت بفزع: «أحفاد «أبادول» هنا؟!».

احتقن وجهها وكأن رأسها قدري بالدماء ويدخن ويحرق، اندهش الحضور من اضطرابها، حتى «الغضنفر» الذي يطيعها طاعة عميم بسبب تسخير أبيها له ولعشيرته ليكونوا طوع أمرها اندهش هو الآخر، لم يعهدوا هذا على المملكة الجباره التي لا يعرفون حقيقتها حتى الآن، «عشتار» ذات

الروح القاتمة التي لا تهاب أحداً، كيف تقلق من محارب؟! أمرت «الغضنفر» بالبقاء وصرفت الحضور بحركة من يدها، حتى الساحر «توديا»، لكنها طلبت منه البقاء في الخارج حتى تستدعيه، حملوا جثة الخاطف مرة أخرى وخرجوا بها.

عادت تسأل «الغضنفر» الذي كان لا يزال على يسارها: «وأين هذا المحارب الآن؟».

- لا أدرى.

تمعر وجهها وضررت الأرض بقدميها في غضب وهي تسؤاله: «أئي طائفة من الجن أنتم؟! كيف يخفى عليكم أمره؟ وكيف خرج من المتأهات؟».

- طواف آخر كالعادة.

صرخت صرخة مجلجلة لتتنفس عن غضبها ثم قالت: «سحقا للطوافين! أتدرى ما الذي تفلت من بين أياديكم؟ فرد من عائلة فريدة تضم رتب المحاربين المختلفة، جدهم الأكبر من حرس المكتبة العظمى، وهم محاربون ومستكشفون،وها هي صغيرتهم ستكون من «الوزاقين»، لقد انتقلوا جميعا إلى المملكة هنا وخاضوا



معاركهم معاً، هل تعي هذا؟».

- علمنا أن بين جدّهم وبين «المجاهيم» عهداً قدِيماً.

التفتت إليه غاضبة ونهرته قائلة: «أتخشي «المجاهيم»؟».

- لا، ولكن...

قاطعته قائلة: «أريد الصغيرة هنا في قصري، وحذار أن يُقتل أبوها، حينها لن يكون لك عذر عندي».

أدانت الأمر في رأسها وقررت أن تساوم «غُدافن» أولاً ليكون لها ملك مملكة الديجور، وإن لم يوافق ستتركه لهذا المحارب ليخلّصها منه، وبعدها تساوم «أبادول»، ومن يعلم؟ قد تساوم «الزاجل الأزرق» نفسه على عرشه.

كان للغضافر خصومة قديمة مع «المجاهيم»، وكان زعيمهم يدرك أنّهم سيصلون بطريقٍ ما لينالوا منهم إن أذوا أحد أفراد عائلة «أبادول».

لاحظت «عشتار» قلقه فقالت لُغريره: «سامِكْنَك من الفتاة التي تعشقها، سيكون عقلها وجسدها طوحاً لك».

صمت هنيهة ثم تراجع إلى الخلف وتلاشى في الهواء، واستدعت «عشتار» الساحر «توديا» مرة أخرى، فدخل وقد بدا على وجهه الضيق.

قالت له وهي تتأرجح على عرশها: «هل التقى بـ«غُدافن» كما انْفَقنا؟».

- نعم، وكنت قد أخبرته أن الصغيرة قد وصلت إلى أرض «بابل»، وأنّ عليه الحضور للقاء الوزير كما أمرت يا مولاتي، فهو لا يعلم أنّه قد أُعدِم بأمرِ منك.

- لا تُخبره أن هناك من فرّ بها من «بابل».

- مولاتي، هل تسمحين لي؟



تململت وقالت بذوق وهي تمُظِّ حروف كلماتها: «ستكرر الطلب السخيف نفسه: (أزيلي التعويدة عنّا لنعود كما كنّا وسنظل في خدمتك)».

- مولاتي، أخشى أن هذا الشاب اختطف الصغيرة لِيساً وِمِك على هذا بالفعل، لا تنسى أن تعويذتك لم تؤثر في عقول الكثرين.

- فلتذهب الصغيرة إلى الجحيم، أخبر من خلفك أن أمرها لا يعنيني.

انصرف «توديا» وعاد إلى رفاقه، وبعد شرود طويل قررت «عشتار» استدعاء تلك الفتاة الذكية التي عينتها لكي تُشرف على معبد قديم حُجز الوَرَاقون فيه، والتي عقدت معها اتفاقاً، وهو أن تقنع «الوراقين» بتدوين الكتب التي يحفظونها مقابل نيلهم حرفيتهم، فأبانتها على عجل.

\*\*\*

## لارسا

كان معبد «الوراقين» محفوفاً بأعمدة عريضة مكسوة بكمالها بالمرمر الأزرق والرخام الأبيض والقرميد الملون، على جانبي مدخل المعبد المؤدي إلى الحجرة الرئيسية كان هنالك تماثلان لأسددين مصنوعين من الفخار ومنحوتين ببراعة. كان على رسول الملكة «عشتار» أن يعبر الساحة العريضة غير المسقوفة ليصل إلى تلك الحجرة



حيث كانت «لارسا»<sup>(١)</sup> تجلس بهدوء هناك، بثياب أنيقة تُشبه ثياب الكهنة، كانت تبدو قوية وكأنها من فولاذ، وتلزم حجرتها طوال الليل ولا تخرج إلا صباحاً وقد حوقَ الكحل المُختلط بالدموع عينيها اللوزيتين، وكان هذا دائمًا يُحير الجميع، فهي لا تُجيب طرقالهم على باب حجرتها أبداً حتى لو حدثت مُصيبة، وكأنها ليست هناك! وكانوا يتساءلون عن السبب، ويتعجبون أيضًا من إعراضها عن الزواج وتكرار رفضها للخطاب من أفضل شباب «بابل» الذين وقعوا في غرامها، وقد عشقها أحد الأمراء حد الصباية لكنها أبت الزواج به، كانت جميلة لكنها غامضة.

مَرْ رسول «عشتار» ببعض «الوراقين» الذين رشقوه بنظرات غاضبة، فقد كانت هيئته وهو على صورة «سيروش» تبعث في قلوبهم الرعب، وبخاصة أن الجنود الذين اختطفوهم من ديارهم ومن حضن أهاليهم كانوا جميًعاً يُشبهونه. كان الذكور جميًعاً في طور المراهقة، بيد أن قمح رجولتهم كان قد أثمر مُبكراً، أمّا الفتيات فكَنْ أيضًا تحت العشرين وأكبرهن قد بلغت منذ أسبوع التاسعة عشرة من عمرها، وكانت على الرغم من رقتها وضعف بنيتها الجسدية- الملاذ والقلب الحنون لهنّ، واستقبلت كتفها الكثير من عبراهن وكفكفتها بيديها الرقيقتين، أظهرت الفتيات ثباتهن على الرغم من صغر أعمارهن، فبنات أرض الرافدين فيهن عزة وإباء يحول بينهن وبين إظهار هشاشتهن في تلك الأوقات. أصغر الذكور كان في الثالثة عشرة من عمره قد بلغ ولا يزال جسده الضئيل يوحى بأنّه غلام من الحزاورة، لكن الطيف الذي ظهر حول جسده قد فضح أمره، فأدرك أهل قريته أنه من الوراقين، واشتهر بينهم، وعندما داهم الجنود القرية اكتشفوا أمره وحملوه مع غيره من أبناء تلك القرية.

أكبر الوراقين عمراً كان في العشرين من عمره، وكان حاذقًا ذكيًّا وقويًّا الشكيمة ذا بأس شديد، قامة متينة وصدر قوي وملامح نبيلة، كان لديه اعتزاز عظيم بذاته، فهو يرى أنه مرصود لـلماثر عظيمة. أعطته سمات شخصيته مع

مظهره وعضلات ذراعيه المجدولتين هيبة بينهم، وكثيراً ما دار جدال طويل بينه وبين «لارسا»، وكان «الوراقون» يعتبرونه زعيهم وقادتهم، وهو الذي نصحهم بأن

---

(١) لارسا اسم مدينة سومرية أثرية مهمة تقع جنوب العراق (تل سنكرا).



ينقشوا على الألواح التّر القليل كل يوم ليطيلوا مُدّة احتجازهم لعل أهلهما يصلون إليهم في الوقت المناسب، لأنّه يظنّ أنّ من يخرج من المعبد يُقتل في الحال، هذا ما وقع في قلبه وقرأه في أعين جنود الملكة، وكان الوحيد الذي يستطيع التّحديق إلى أعينهم بلا خوف، كما أنه كان يكسر الألواح عن قصد عندما يجد أحد الوراقين قد دوّن ما يكفي لإطلاق سراحه، إنه «ريموش» العنيد.

كان قد مرّ في بداية اعتقالهم له بتجربة لم ينسها قط، ولم يسردها على مسامعهم حتّى لا يُخيفهم، فقد كان مع أول دفعة من الوراقين الذين تم اختطافهم، لا يزال يذكّر ما فعله جنود «عشتار» بعد التّفتيش الدقيق لثيابهم، انتقدوا ثلاثة من صفوّف تمتد إلى فرسخ، وكان واحداً منهم، أعادوا البقية إلى المعبد المحتجزين به، وصعدوا بهم درجاً عالياً، أرادوا تقديم الثلاثة كفراين بشريّة لشياطينهم، كان محموماً فسقط على الأرض وأخرج ما في جوفه فلم يقدّمه، فالقرابان لا ينبغي له أن يكون ذا علة، وسحبوا زميلاً وانتزعوا قلبيهما بطنّات مُدّى مصنوعة من حجر السجّ، كانت أيديهم تقطّر دمّاً وهم يركلون جسديهما لتتدرج على الدرج إرضاءً لأصنام نحتوها لتلك الشياطين التي يعبدونها، ورفعوا القلبيين على رؤوس الرّماح قبل أن يرثّلوا ترانيم غريبة، كان حينها يرجف وهو لا يدرى هل يرجف من الحمّى أم من الرّعب!

سُجن عدة مرات بأمر من «لارسا»، فقد منحتها الملكة صلاحيات عدّة تخصّها، لكن باقي الوراقين كانوا يضربون عن التدوين حتّى يخرج، فكان «ريموش» القوي ذو البأس يعود بعينيه المتورّمتين وجروحه المفتوحة وهو يجرّ ساقيه جرّاً من شدة التعذيب، وكان هذا يُخيفهم فهو الجدار الذي يتّكئون عليه.

وصل رسول «عشتار» إلى حجرة «لارسا» وألقى عليها التّحية وهو يجول بعينيه في المكان.

ثم قال: «الملكة تطلبك».

هزّت رأسها وانصرف لتبّعه وهي تشدّ عليها الثياب التّخينة.



قال «ريموش» وهو يتبعها بنظرات صارمة: «ستندمِين يوماً على طاعتكِ العمباء لها».

- أَيْهَا العَنِيدُ، انصرِفْ عَنِّي وحاوِلْ أَنْ تَكْتُبْ شَيْئاً وَأَرْجِ رَأْسِكَ مَمَّا يَحْمِلُهُ.

- لَنْ أَكْتُبْ شَيْئاً، سَتَظْلَمُ الْأَلْوَاحَ بِرَأْسِي حَتَّى أَخْرُجَ مِنْ هَنَا.

- لَنْ تَخْرُجَ إِلَّا بَعْدَ كِتَابَتِهَا، هَكَذَا وَعَدْنِي «عِشْتَار»، فَورَ أَنْ تُفْرَغَ مَا بِعَقْلِكَ سَتَسْمِعُ لَكَ بِالْعُودَةِ إِلَى أَهْلِكَ.

- لَوْ أَرَادْتَ هَذَا لِتَرْكَتَنَا فِي دِيَارِنَا وَكَنَا سَنَدُونَ الْمُخْطُوطَاتِ وَالْأَلْوَاحِ الَّتِي فِي رُؤُوسِنَا وَوَرَثَنَاها عَنْ آبَائِنَا وَأَجَدَادِنَا! لَكَنَّهَا حَبَسَنَا هُنَا لِأَنَّهَا تَنْوِي قُتْلَنَا.

- لَنْ يُقْتَلَ أَيُّ مِنْكُمْ.

- سَتُقْتَلُنَا.

- لَا.

- لَقَدْ قُتِلَ الْكَثِيرُ مِنْ «الْوَرَاقِينَ» سَابِقًاً، وَلَنْ...

قاطَعَتْهُ «لَارْسَا» قَائِلَةً: «كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ أَكُونَ رَاعِيَةً عَلَيْكُمْ».

كَانَ يَجْرِ السَّلَاسِلَ لِلْيَالِيِّ خَطْوَاتِهَا الْمُتَسَارِعَةِ.

قال ساخراً: «تعاوِيدِ ملْكِتِكِ الْقَمِيَّةِ لَمْ تَؤْثِرْ فِي الْوَرَاقِينَ».

- لِلأسف!

- لَوْ كَانَ هَذَا لِقْتَلَنَا «عِشْتَار» بِإِشَارَةِ مِنْهَا بَعْدَ أَنْ تَأْمَرَنَا بِتَفْرِيغِ مَا بِعَقْلِنَا مِنْ عِلْمٍ، وَكَنَا حِينَهَا سَنْطِيعُهَا طَاعَةً عَمِيَّاءً.

- هَذَا صَحِيحٌ، لَكَ أَنْ تَفْرِحَ بِهَذَا.



أدار عينيه في المكان وسألها: «ما سر تلك النقوش على أبواب المعبد هنا؟ هل تلك  
تعاويذ «عشتار»؟».

- هذا ليس من شأنك.

كان يزوم كالذئب من شدة الغضب، فرفع صوته قائلاً: «أخبريني لماذا لم تمسخي  
مثلكم؟».

لم توقفت واستدارت ببطء لتجده بنظراتها الثاقبة وهي تقول: «الكثيرون مثلني لم  
يتآثروا، وهناك من مُسخت صورهم فقط وعقلهم هي ما ذهبت كعقلك هذا يا  
«ريموش»، انظر إلى طيفك».

كان الطيف الذي يحيط بجسده شديد التوهُّج.

صمت هنية وعاد يقول بعناد: «يا لك من مهينة ذليلة! أتعبدينها؟ أما علمت أن  
كل الآلهة التي رددوا في الملاحم أسماءها كانوا ملوّغاً وحسب؟ وأنهم نفقو وماتوا؟!  
وأن الإله واحد في السماء وهو حي لا يموت!».

صرخت بحنق شديد: «أنا لا أعبدها!».

- كاذبة.

النفت وهي تصر على أسنانها قائلة: «صه أيها الأحمق، وكف عن تأخيرهم عن  
تدوين الكتب، أنت تمنع عنهم حريةهم».

حَتَّى خطاها نحو البوابة فتبعها وهو يجر السلسلة التي رُبطت بها قدماه. ضيق  
عينيه ورم شفتيه وهو يقول: «تقصد�ّين تأخير موعد قطع أعناقهم؟».

قالت بترق: «تظن أن أهلك سيأتون لتحريرك؟».

- نعم سيأتون.



- ألم أخبرك أنك أحمق!

همست بحنق شديد: «لقد نبدوك لأنك مختلف، أنت في أعينهم غريب أطوار لا ينبغي له العيش بينهم».

لم يتمكّن من جر الحديد والسلالس أكثر من ذلك، لوح بقبضته في الهواء في عنايٍ آخرس ووقف هنيهة ليهداً ويرتاح قبل أن يعود إلى باقي «الوراقين» الذين كانت أعينهم معلقة به وهو يتبع عن مجلسهم ويُجادلها، كانوا يقفون بجوار بعضهم بعضاً وأطيافهم المتوجهة تختلط بشكل لافت، كان اجتماعهم هنا يعُد ثروة لا يعرف قيمتها إلا أهل العلم وخاصة، وكان «ريموش» ينظر إليهم بحسرة، فقد كانت «لارسا» صادقة، فلم يظهر أيٌ من أهاليهم حتّى الآن ولم يأتهم أيٌّ خبر ينبيء ببحثهم عنهم.

قال أحدهم وكان قزماً: «لا ريب أنهم يمنعون أهلنا من دخول «بابل»».

قال شاب أصهب له لحية قصيرة: «لن يأسوا، نعم، ولن ييأس أخي، لم نعتد الاستسلام قط في ديارنا، لقد تربينا وسط الجبال، سيعود ليحررني».

قالت فتاة رقيقة البنية لها صوت محملٍ دافٍ: «هيا لنحطّم الألواح قبل عودة «لارسا»، فقد دوّنت الفتيات الكثير مما في رؤوسهنّ ظنًا أن هذا سيحررهن، خدعتهن «لارسا» بوعودها الكاذبة».

أومأت برأسها لـ «ريموش»، فهو الوحيد الذي يستطيع تحطيم ألواحهم بعد انتهاءهم من النقش عليها دون أن يعارضوه، حتّى ذلك الشاب الأسيف الهادئ الذي وصل حديثاً إلى المعبد حطّم «ريموش» ألواحه، وكانوا جميعاً يتساءلون عن الحروف التي نقشها على الألواح، فأخبرهم أنها حروف العربية الفصحى، لكنّهم لم يلتفتوا إليها ولم يفهموها، حتّى اسمه كان غريباً عليهم.

\*\*\*



وصلت «لارسا» إلى القصر، وكانت تسير في ردهاته بخطى وئيدة، ما عادت تشعر بالحماس كأول عهدها بتلك المهمة، لكنها تصر على تنفيذ ما وعدت به «عشتار». كانت تعشق قوتها، ودَّت لو تكون ذات نفوذ ومُلك مثلها! أرادت أن تتعلم منها السحر وكانت تداهنهما من أجل ذلك. كانت سردية الحزن، ضاق صدرها بما يعتمل فيه من هواجس، لا تدري هل هي على صواب أم لا، ودَّت لو استطاعت إخراج قلبها من بين أضلعها لتغسله بماء بارد لتزيل عنه أدرانه وأحزانه، ثمَّ تعيده إلى مكانه. كانت تلزم غرفتها طوال الوقت، لا ترغب في فتح فمها، وكأنها مُمددة في تابوت مفاتها معها لكنها مسلولة، هي هنا لأنها لا تملك رفاهية الرحيل، ولا تملك فرصة للانسحاب، قد تمارس حياتها بشكل طبيعي ولكن هذا لا يعني أنها من فولاده، وهذا لأن ابتسامتها المصطنعة عندما تردد أنها بخير جعلتها تفقد تعاطف المحيطين بها، الناس يتعاطفون مع غيرها، أمَّا هي فلا لأنها تبدو قوية، اعتادوا أنها بخير لأنها تبدو كذلك!

صارت علاقتها بالجميع باردة، مُتعبة هي من ارتداء الأقنعة، تبحث عن ملاذ آمن، ترغب في البوح ببعض مشاعرها لكنها لا تجد من تبوح له بذلك، لتخبره أن روحها متعبة، وأنها ليست بخير.

أحکمت قبضتها على ردائها ودلفت من بوابة غرفة الملكة «عشتار» التي كانت ترفل في ثيابها الفاخرة، رفعت عينيها ورأت حُرّاسها من «سيروش» وهم يقفون بجوارها، التفتت إليهم «عشتار» وأشارت إليهم ليخرجوا.

اقتربت «لارسا» لتقف أمام عرشها مباشرة وقالت: «مولاتي».

- مرحباً عزيزتي، كيف الحال في المعبد؟

- لم ينتهِ الوَراقون من تدوين ما لديهم، امنحني بعض الوقت.

- أرى أن نعود إلى ما كنَّا عليه.

- لا، أرجوكِ يا مولاتي لا تعذبيهم، سيؤثر هذا على ما يدُونونه، وسيُنسِّيهم الألم الكثير مما كتب في الألواح والمخطوطات، وأنا أعلم حاجتكِ إليها.



- سحقاً لرؤوسهم وما تحمله، فلنقتلهم وينتهي الأمر.

- مولاتي، أليس من الأفضل استخراج العِلم من رؤوسهم ثم تعديله كما تحيّن؟ وبخاصة بعد اختفاء المكتبة التي كَتَأْمَلَ في الوصول إليها، وأنتِ تعلمين أن مملكة البلاغة فيها من يهتمُون بالعلم والكتب والمخطوطات والألواح، وهنالك ورّاقون لم نصل إليهم بعد، ويستطيعون نشر عِلمِهم، إن أكملنا خطتنا سيكون هنالك كتب لنناطح بها كتبهم، وعلِم نواجه به علمهم ونشوّش عليه، سيُفتح ألف باب للجدال والنقاش، وهذا وحده يكفي لإدخال الريبة والتشكيك في نفوس الناس، حينها سيكون إقناعهم بأفكارنا أسهل.

- حسناً أيتها الذكية، سأمنحك بعض الوقت. المهم، لم يكن هذا سبب استدعائي لكِ.

- خيراً يا مولاتي؟

- هنالك محارب وصل للتو إلى أرض الراfeldin، وحاول دخول «بابل» عبر المتأهات. اضطربت «لارسا» واجتاحت جسدها قشعريرة جعلت ثوبها يرتجف وكأنها أصيبة بصاعقة.

قالت بخفوت: «كيف سمح له الغضافر؟».

- أنقذه أحد الطوّافين.

بدا عليها الانزعاج الشديد.

قالت وهي تقترب من عرش الملكة: «لا بد أن نحمي المعبد».

- الحرّاس يُحاصرُون المعبد طوال الوقت، هو لم يأتِ من أجل الوراقين المحتجزين، بل من أجل ابنته، طفلة صغيرة يقولون إنها من الوراقين.

- طفلة صغيرة؟ وكيف عرفتم أنها من الوراقين؟ الأطیاف لا تظهر إلا بعد البلوغ!



- سأخبرك بكل شيء، ولكنك ستكونين مسؤولة عن إحضارها إلى القصر، وستُرِّجِّبَين الأمر مع زعيم الغضافر للبحث عنها.

انتقضت فور سمعها لاسم زعيم الغضافر وهدرت بعصبية شديدة: «لا أرغب في رؤيته ولا التواصل معه».

- تعلمين أنه يعشقاً.

- سحقاً له!

- ستتعاونين معه، وهذا أمر، وإلا...

أغلقت «لارسا» فمها مُرغمة، فهي لا تستطيع مُجادلة «عشتار» التي لم تتمكّن من الاستحواذ على عقلها، لكنها أذلتها بطريقتها الخاصة. جلست تستمع لقصة «غُدفان» وأحفاد «أبادول»، وبعد انتهاء لقائهما بالملكة خرجت من القصر وهي تخلج، وعادت إلى المعبد ودلفت أمام الجميع وكأنّها عمياً لا تراهم، حتّى إنها لم تلتفت إلى الألواح المحطمة في ساحة المعبد.

\*\*\*

## "طيفور"

الأحلام حرة لا قيود لها، تخترق أرواحنا بشفافية كما يخترق الضوء رُجاج التَّوافذ، لا يملك أحد أن يوقف عقله عن جديلة أحلامه المُرسلة، فرغائب القلب تُناجي الآمال وترنّم بها على إيقاع دقات القلوب. كان قراره بالرحيل ضروريًّا ليثبت لنفسه أنه يستطيع إدارة أمور حياته وحده، وأنه رجل يعتمد عليه ولا يخاف المجهول، تلك الرحلة ستمنحه الشعور بالاستقلالية لبعض الوقت، لم يتمكّن من إخبار أهله، وأخبر فقط صديقًا عزيزًا له ليُساعده على الرحيل. بجسده المشدود وبروحه المفعمة بالحماس وبقوسه وسهامه مضى سيرًا على قدميه في تلك البقعة التي لا يعرف عنها شيئاً، كان ماهراً في الرماية، فسهمه لا يخطئ أبداً، وكان هذا يُسلّيه ويخفّف عنه جرح كبرياته قليلاً. أراد أن يكون فارسًا مقداماً يتقدّم الصفوف الأولى في الحروب التي يخوضهاأتراها، كان الشيء الوحيد الذي يحول بينه وبين هذا هو إشفاقه على خصمه في اللحظات الأخيرة في تدريباته القتالية العادبة، وكثيراً ما خسر نزالاته بسبب هذا الأمر، فقد يتوقف كي لا يؤذني من يصارعه شفقة عليه، بينما من أمامه يسعى للتمكّن منه وهزيمته. لم يتمكّن من التخلّي عن عاطفته، وألوان القتال كالمطاعنة بالرماح والمداورة بالسيوف وحتى الرياضة لا تحتمل تلك العاطفة ولا هذا التردد، أخبره أبوه أنَّ الأمر سيحتاج إلى وقت ليعتاده، وأن عليه أن يزيد من تدريباته ليُصبح أكثر جسارة في مواجهة خصومه، ويعرف العدو الحقيقي الذي يهدّد حياتهم باستمرار وكيف سيحصد أرواحهم حصداً لو تمكّن من هزيمتهم، ولهذا عليه أن يقهره وإلا سيهلك وسيهلكون! وقد عدَّ له غدراته وفجراته التي جرت من قبل ليُبيّن له خطره.

كانت وتيرة العناد تصاعد في صدره، فهو يرغب في المغامرة وخوض المجهول ليكون جديراً بنيل لقب فارس، شعر بوحشة لغياب جواهه المفضل الذي كان رفيق جولاته



بين غابات المملكة وهم يشقّان الطريق بين أشجارها بسرعة فائقة شهد بها الجميع لهما، فقد كان بينهما انسجام من نوع خاص. أما اليوم فهو يخوض تلك المغامرة وحده، على قدميه يسير وهو لا يعرف أين هو ولا من أي اتجاه ينبغي له أن يسير، متحفّرًا كدیدبان يقظ كان يتقدم وقوسه ييرز خلف ظهره وبجواره جُعبة السهام، تحسّس خنجره ولم يوقفه صوت من تلك الأصوات التي يتربّد صداها هنا وهناك، فقد اعتاد غققة الصقور ونعيق البويم وغيرها من طيور غريبة، حتّى الأفاغي لم تخيه وكان يركلها دائمًا بقدميه ويُكمّل الطريق، أما الدّئاب فقد كان صيدها تسليته. تذكّر كيف تسلّل دون علم أمّه فور أن قبّل رأسها بعدما غلبها النعاس وهي تُثثّر معه، فقد كان أقرب أبنائهما لها وكانت قبل قليل تسأله لماذا لم يفكّر في الزواج حتّى الآن كأشقائهما، فأخبرها الله لا يُفكّر في هذا الأمر وأن هدفه الوحيد هو أن ينال ثقة أبيه، نعم، كان يشعر أن أكبر تحدياته أن يثبت له أنه قد تغلّب على مخاوفه وفهر نقطة ضعفه. وقف هنيهة ودار حول نفسه متتسائلاً أي بستان هذا الذي علق فيه! رأى بيّنا هادئاً على طرف البستان فقرر التوجّه إليه في الحال ليطرق بابه ويسأّل أهله عن الطريق، وبينما هو في طريقه في ممر محفوف بأشجار قصيرة على الجانبين استوقفه ما سلبه لبّه!

لو لم تكن لها مقلتان تتجوّلان في البستان لظنّ أنها شجرة ليلك<sup>(١)</sup>، كانت رقيقة كعود ريحان، بشرتها مخلمية وردية كبتلات الذهور، ولها وجه ملاك ويطلُّ من تحت غطاء رأسها شعر أشقر مُضيء، أمّا عينيها فتُحاكيان أوراق الأشجار في خضرتها، وكان عليها ثوب طويل ليلي اللون. بقامتها القصيرة وقفت تلف أصابعها الرقيقة في الهواء وكأنّها تُحيك ثواباً أو تعقد خيطاً، بين هممات بكلمات غير مفهومة وكلمات أخرى واضحة، كانت تجرب التعاوين التي علمتها لها جدتها وتنفس يدها في الهواء أمامها مراراً وتكراراً، أشعلت النار في غصن بدلاً من رفعه في الهواء، فهرولت تجّهه من طرفه لتلقّيه في جدول ماء قريب لتطفئه، وعادت تكرّر ما فعلته من قبل في أوراق غصن

(١) أشجار الليلك من الشُّجيرات الريبيعة المُزهرة الجميلة ذات اللون الخلاب والراطعة الجذابة، لون أزهارها بنفسيجي فاتح، زهورها ترمز عبر التاريخ إلى الحب والرومانسية، وهي هدية شعبية تقليدية للخريجين. العديد من المعاني الأخرى العميقية لأنواعها الخلابة.



طويل يتذلّل من شجرة سنديان كانت تقف تحتها، فانفجر جذع الشجرة، وسقطت خلية نحل كانت على أحد أغصانها وطاردها سرب من النَّحل فهرولت بعيداً وتعثّرت وسقطت فتلطّخ وجهها بالطين. هكذا كانت تقضي «أورماندا»<sup>(١)</sup> وقتها كل يوم في الصباح وسط بُستان جدّتها، فقد علمتها السّحر بعد انتقالها إلى بيتها مُنذ سنوات، لكنّها كانت تُخفق دائمًا ولا تُحسن استخدام مهاراتها التي أخبروها أنّها ورثتها عن أمها التي وافتها المنية وهي في الرابعة من عمرها، التي ورثتها بدورها عن جدتها التي تعيش معها الآن.

قرّرت استخدام تعويذة خاصة على كرمة عنب غير ناضجة لكي تجعلها تنضج بشكل أسرع، فذابت وضمّرت حياتها فجأة فوقفت تتأمّلها في يأس، أخيراً نجحت في تحريك صخرة من مكانها وعلقتها في الهواء وأدارتها فوقفت تصقّق لنفسها، أطلّ فجأة من بين الأشجار شابٌ قويّ البنية، له جبين شامخ، وعينان نابهتان، وأنف أقنى، وقد علق قوساً على ظهره وجعبة تملئ بالسّهام، كانت خصلات شعره الأسود الناعم تموج حول وجهه المستدير وتَكاد تصل إلى كتفيه.

قال وهو يرنو إليها: «أنتِ ساحرة؟».

أجفلت والتفت تجاهه بوجهها الملطّخ بالطين فاندفع الحجر الذي علّقته في الهواء نحوه.

تفاداه قائلاً: «تعويذة أخرى فاشلة».

- فاشلة؟! من أنت؟ اخرج من البستان وإلا...

- وإلا ماذا؟ ستُحوّلني إلى أربّ؟

رفعت يدها وحرّكت أصابعها في الهواء وقالت شيئاً ونفضت يدها تجاهه فشعر بحرارة تغمر رأسه وفجأة سقط شعر رأسه جملة واحدة.

---

(١) أورماندا: الغزالة.



فصاح ساخطاً عليها: «أيتها الحمقاء!».

أخذ يتفحص جمجمته بيديه، لم تبق خصلة شعر بمكانها.

هدر بغضب: «كلُّ تعاويذكِ فشلت إلا تلك التي أقيتها على رأسي!».

- تتلخص علىَّ وتصفني بالحمقاء أُّها الأقرع!

- أقرع!

قالت وهي ترمُّ شفتيها: «تستحق، لأنك تباهي به».

قال في ذهول: «ومتى تباهيت به؟ لقد رأيتِ للتو! لا أعرفكِ ولا تعرفيني!»

- اخرج من بُستانِي.

لملم شعره الساقط من فوق كتفيه وقال بضيق شديد: «أمي ساحرة لكنها تُحسن استخدام سحرها».

استدار وتركها وقد فاجأها بما قاله فعلا صوتها وهي تسأله: «هل قلت إن أمك ساحرة؟».

لم يجدها، فقد كان غاضباً للغاية.

انصرف من البستان فتبعته راكضة وهي تسأله: «الساحرات في أرضنا لا يُنجبن الذكور».

تجاهلها فأردفت في تخبُط: «أقصد لا يعيشون، ويموتون بعد ولادتهم مباشرة».

- لست من أرضكم، والساحرات يُنجبن الذكور حتّى تأتي ساحرة فاشلة وتسقط شعر رؤوسهم.

- انتظر، سأحاول إعادته.



توقف والتفت نحوها وقال بمرارة: «تعيدين ماذا؟ هل ستصدقينه بالغراء؟!».

- كنت أقصد تغيير لونه فقط عقاباً لك.

- كفي عن إلقاء تعاوينك المجنونة واتركيفي وشأني وعودي إلى اللعب بالطين.

قالت غاضبة: «اذهب إلى أمك لتعيد شعر رأسك. ألم تقل إنها ساحرة؟».

- نعم، ساحرة وملكة.

- كاذب أيضاً! ليس هذا بوجه أمير!

لم يأبه بكلماتها وأكمل طريقه فرفعت صوتها قائلة: «الأمراء لا يتسللون ولا يتلصّصون، ولا يُراقبون النساء خلسة».

استوقفته كلماتها هذه المرة فعاد مسرعاً ووقف أمامها وخفض نبرة صوته وهو يقول:  
«لم أراقبكِ خلسة!».

بدا عليه التوتر، أردف معذراً: «آسف لما حدث، لم أقصد التلصّص، ولم أرغب أصلاً في أن أكون هنا!».

هرول مبعداً وكانت تقف كالصينم تراقبه، التفت تجاهها فجأة وسألها: هل تلك التعويذة ستجعلني أقع إلى الأبد؟».

تمتمت في تردد: «لا... لا!».

ابتسم وهزَّ رأسه ومضى مبعداً، كان يتلفّت يمنةً ويسرةً، ويبحث عن أحد ليأسله عن الطريق إلى «بابل».

\*\*\*



«عليك أن تكون ذكياً لترضي من حولك، وشريفاً ليرضوا عنك، وتقىّاً نقىّاً ليرضى الله عنك». كانت تلك الكلمات تتردد في رأس «سرجون» بصوت أبيه وهو يقف في سكون قبل أن يغادر تلال الرّماد ويترك «رواء» هناك، لم ينتبه إلى من كان يتبعه ويرافقه، كان هناك من يتربّص لتلك الأسرة وينتظر خروجهم بـ«رواء» أو من دونها لينتهز الفرصة ويصل إليها، مرّ الوقت ولم يخرج أحد من باب الدّار، وكانت «رواء» هناك واجمة صامتة غير مطمئنة، لم يغادرها الخوف لكنّها أنسّت بالبنات وبقيت معهنّ في غرفتهنّ، سألت أكبرهنّ مراراً: «متى سأعود إلى البيت؟»، وعندما ملّت من تكرار الإجابة نفسها التي تحصل عليها في كل مرة تسأّلها فيها، بددلت بسؤالها: «أين أبي؟»، و«أريد أبي»، وأخيراً نفذ صبرها فبكت بحرقة شديدة، كانت تشعر بالخوف والرهبة، وكانوا يُشفقون عليها. انصرف الملّم الذي كان يتربّص لها عندما يئس من خروجهم وقرر العودة في اليوم التالي، وحلَّ الظّلام وهي لا تزال تبكي في تلك الدّار، وعندما أنهكها البُكاء استسلمت للنوم وعيناها مضمّختان بالدموع.

\*\*\*

بابل

## «حمرة»

كانت الرّياح الشديدة تصفعني وتؤرجحني وأنا أتعلّق بقوائم الصقر الأسود الذي لم يُصدر صوتاً وكأنّه قطع وعداً لا يُحدّثني أبداً، فقد سأّلته مراراً، تارةً عن اسمه، وتارةً عن المكان الذي سيوصلني إليه، وتارةً عن «المغاتير» و«المجاهم»، وهل سيستطيعون الوصول إلينا في «بابل» أم لا؟ لكنَّه لم يُجبني!

اقتربنا من برج «بابل»، على ضوء نار عملاقة تتوسّط قمته لاحت خيالات المجنحّات وهي تترافق فوق السطح، كانت أعينها ثُضيء وكأنّها جمرٌ مُنّقد، بسط أحدهم جناحية وتوجّه نحونا كقذيفة مدفع، ظلَّ الصقر الذي يحملني يرتفع



وينخفض في مناورات كان يدور فيها وينقلب ليفرّ منه، كاد المُجّنح يسحب ساقه لكن الصقر استطاع الانسلاال من تحت جناحه بمهارة، زاد الصقر من خفق جناحه وأوهم المُجّنح أننا سنبعده، لكنه في حركة فُجائية اندفع وولج طابقاً من طوابق برج «بابل» بسرعة جنونية، فولجنا دهليزاً قاتماً مطربماً ذُكرني ببُوابَةِ ممر «أمانوس» التي ولجتها من قبل بحثاً عن أخي «خالد»، لاح في آخر الدهلizia بصيص من نور، خرجنا منه لأجد «بابل» أمامي وكانت أسوارها الضخمة تظهر لي بوضوح، انعكست أضواء الشُّعل على سطح الماء في الخندق القابع بين الأسوار فبرق الماء كاللُّجين، وبرزت أبراج المراقبة على أطراف الأسوار، اقتربنا أكثر فتعرفت على «بُوابَةِ عشتار»<sup>(١)</sup> عندما رأيتها مُزيّنة بالمرمر الأزرق والرُّخام الأبيض والقرميد الملؤن، وعليها العديد من النقوش لأشكال الحيوانات البارزة، ثيران وأسود وحشى «سيروش» رأيتها، امتدّ أمام عيني شارع الموكب الطويل الذي يربط بينها وبين الجَنَّةِ المقدس الذي يربض القصر الأكبر وسطه، والشُّعل مصقوفة على جانبي هذا الشارع بشكٍّ أنيق، فقد رأيت تلك البوابة الشهيرة في صورة، فقد هم أخي «خالد» مستخدماً هاتفه بالبحث عن ذلك المسلح الذي اختطف ابني «رواء» فور أن ذكره جدّي «أبادول» ليُريه لي لأنظر على هيئته، فرأيت ضمن الصور صورة لتلك البوابة وهي معروضة في متحف «بيرغامون» في «برلين».

كان ضوء القمر يلعق الضباب بلسانه الأبيض كاشفاً عن سكون المكان كالمقبرة، والبيوت مغلقة على أهلها الذين أتوا إليها ليترکوا الطرق خالية من الأرواح والأنساس، أخذ الصقر يبطئ سرعته وينخفض تدريجياً تجاه متاهات حجرية مبنية على حدود «بابل» بنيت لحمايتها، تعجبت عندما أسقطني وسطها وحلق في الهواء وتركني غارقاً في حيرتي، وانطلق كالقذيفة مبتعداً عني، تلقّت يميناً ويساراً وأنا حائق

(١) غير الألمان على بُوابَةِ عشتار الأصلية في أيام الدولة العثمانية، وُنقلت إلى ألمانيا ووضعَت في متحف «بيرغامون» في «برلين» بعد ترميم أحجارها وإعادة تركيبها هناك، ولا تزال موجودة في المتحف إلى الوقت الحالي، وبُوابَة على اسم الزهرة (عشتار) كما زعم قدّيماً أنها من الآلهة، وقيل إن «نبوخذ نصر الثاني» بناها حباً لزوجته، وكانت مُزيّنة بـ ٥٧٥ شكلًا حيوانيًا بارزًا، منها الأسد والثور المُجّنح والحيوان الخرافى المسمى (سيروش)، وكانت تُعتبر بُوابَةِ «عشتار» واحدة من إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم حتى القرن ٦ إذ استُبدلت.



على هذا الصقر الذي دفعني إلى تلك المتأهة، فأنا لست في حاجة إلى المزيد من التعقيد، كان قلبي يعتصر في صدري قلقاً على «رواء»، تُرى أين هي الآن؟

بدأت أسير في المتأهات من التواء إلى آخر، ومن حائط مسدود إلى آخر يُعيديني بدورانه إلى حيث كنت من قبل، مضى الوقت سريعاً وشعرت بالتيه والدوار، أين أنا؟ ومى سأخرج من تلك المتأهة؟

كانت النقوش على جدران المتأهة تُضيء من آنٍ إلى آخر، لم يستوقفني هذا فقد اعتدتُ ما هو أغرب منه. بدت لي الكتابة المسماوية جلية واضحة لكنني لم أفهمها. بدت لي الصور وكأنها تحرك وتکاد تطفر من الجدران لتتمثل أمامي، حاولت أن أحفظ كل جدار وأعْلَم به برمز لكنها كانت متشابهة لم أفلح في الخروج من تلك المتأهة، وعندما بدأ صبري ينفذ بدأت أطرق الجدران بيدي في غضب، عادت الصور تتحرّك وتهتز فوقفتُ أترنّح وأغمضت عيني للحظات، وعندما فتحتها فوجئت بكيان مُظلم لرجل غليظ الملامح يقف أمامي، بنظرات قاتمة حدق تجاهي وببدأ يقترب فتراجع إلى الخلف، أصدر صوتاً كزئير الأسد فالتفتُ وببدأت أركض في المتأهة، ظننتُ أتنى فررت منه فوجدته أمامي مرة أخرى، فمررت من خالله! كان كطيف يتهادى ويتعمّل ويتنفس ويظهر ويختفي فجأة، تذكري خنجرى الحلزوني فآخر جنته وتأهبتُ لأنقض عليه، وعندما بدأت أسحب كيانه الأثيري تجاه خنجرى أصدر صراخاً يُشبه صوت الذبيحة وهي تُنزع فارتَّجَت الأجواء على أثره، وسرىعاً ما استطعت التقامه بخنجرى لكنه تبعثر في الهواء وتلاشى ولم يُحبس كما حدث معى من قبل مع أشباهه من الجن، ما أدركته خلال ثوانٍ أن صوت صراخه جلب رفاقه إلى المكان، شعرت بستار أسود يُرْخى على عيني لأتيا فلأيا حتى أظلّمتا، غرفت في عتمة سوداء للحظات قصيرة قبل أن يتجلّوا لي فاقشعر بدني عندما رأيتهم أمامي، فقد كانت وجوههم ظاهرة بكمال ملامحها وتفاصيلها، حلّقوا حولي وتعالت وسوساتهم فارتَّجَ رأسى وازدحم بالأصوات، كادوا يدفعونني إلى حافة الجنون، كنت أرُزح تحت ضغط شديد، حاصروني من كل حدٍب وصوبٍ، في طرفة عين ظهر أمامي مُباشرة شابٌ كثيف شعر اللحية والرأس، له عينان لامعتان كعبيّ قَطْ. احتضنني بذراعيه القويّتين ووثب وثبة فانتقلنا إلى مكان آخر خارج المتأهة، سقطنا على الأرض معًا



فوثبت واقفاً ووجّهت خنجرى تجاهه، ظلّت عيناه تُضيئان وسط الظلمة، لم أتبّع غيرهما فقد كانت الظلمة حالكة.

كدت أنقضّ عليه فقال بصوت واثق: «لا بد أنك «حمزة»!».

- من أنت؟

- «عُمر»، أنا مُحارب.

- لماذا تبدو عيناك هكذا... وكأنّهما عيناً فقط؟

- لأنّني مُحارب طوافاً!

تنهدت بعمق وقلت وأنا أتأمل بؤبؤي عينيه المُضيئتين: «يبدو أنّ جدي «أبادول» لم يُخبرنا بكل شيء عنكم، أخبرنا فقط أنّ هناك محاربين طوافين لهم ميزات خاصة».

- لا عليك، حتّى جدي لم يُخبرنا بأمر «المُستكشفين» إلا بعد تداول قصص عائلتكم في مُعسكرات الطوافين.

أخرج من حقيقته حجراً وفركه بين يديه فأضاء فرأيت ملامحه مرة أخرى بوضوح أكبر.

منحنى ابتسامة عندما رأى وجهي متوجهماً وقال: «لكي تراني جيداً وتطمئن».

أراحتي الضوء فأظهرت امتناني له، تلقتْ حولي فبدت لي أسوار «بابل»، لكنّا كنّا بالداخل وقد تخطّينا الأسوار والمتاهات، رأيت البيوت والطرقات الخالية وكان المكان هادئاً كالمقبرة، عادت عيناي ل تستقرّ على وجه «عُمر» الذي أظهر الضوء سحنة وجهه، وكانت عيناه تعكسان نظرة تشي بپأسٍ وقوّة.

بدا لي أنّه يصغرني بسنوات قليلة فسألته: «أنت ترى في الظلام بوضوح وتستطيع الانتقال من مكان إلى آخر بقفزاتك، أليس كذلك؟».



- بلى.

- هل علمت شيئاً عن ابني؟

- ليس بعد، وصلت للتو بعد أن تسلّمت كتابي الخاص، وقد أخبرني المغاتير، بما حدث لابنتك.

- هل سيأتون؟

- «المغاتير» و«المجاهيم» والصقور والهداهـ يصعب عليهم اختراق نطاق أرض بابل، وبالكاد الصقور المُقاتلة تستطيع ولوـج سماء المدينة.

- تبدو الأمور مُعَدّة هنا.

- لن تكون أكثر تعقيداً من أمر الشعوب المنسية وما مررت به بنفسك.

- صدقت. إنما هو القلق الذي ينخر رأسي، أخـى على ابني.

- سأبدأ البحث عن أصحاب الكتاب المسروق الثلاثة الذين وصفوا في كتابي، وأبحث عن كتابهم الذي دونوا محتواه بأنفسهم وأرده إليـمـ، ليزول أثر السـحرـ عن سـكانـ «بابـلـ» ونـسـتـطـعـ الوصولـ إـلـيـهـ.

- ثلاثة؟!

- نـعـمـ، ثـلـاثـةـ.

- لكنـ هـذـاـ سـيـسـتـغـرـقـ وقتـاـ.

- سأبدأ مهمـيـ فيـ الحالـ وأـعـدـكـ أـنـ أـبـذـلـ قـصـارـيـ جـهـدـيـ لـكـيـ أـعـثـرـ عـلـىـ اـبـنـتـكـ.

- أناـ هـنـاـ مـنـ أـجـلـ «ـرـوـاءـ»ـ، وـكـذـلـكـ أـبـيـ وـأـخـيـ وزـوـجـهـ، لـكـنـنـاـ تـفـرـقـنـاـ.

- سـنـعـثـرـ عـلـيـهـمـ جـمـيـعـاـ بـإـذـنـ اللهـ.



- أخبرنا «أبادول» أن لكل طابق من طوابق برج بابل عالمه الخاص، فكيف سأعرف مكان ابني؟

- لتسودعها الله، فحتى وهي في حضنك الله وحده من يحميها!

- هذا ما تعلمناه من أبي.

- سأتجول في طوابق برج «بابل» بحثاً عن الجميع، فقط لنضع خططنا معاً.

ران علينا صمت ثقيل، قطعه «عمر» قائلاً: «الغضافر» سيبحثون عنك كل مكان، فقد قتلت وغضنفراً منهم للتو».

- عجيب أمرهم! لا يشبهون «المجاهيم»، وكيانهم يختلف عن كيان «الدّواسر»! ظننته لن يموت عندما أسحبه بخجري وسيتعلق به لكي أحبسه في جوف أحد الوحش فيظل يركض في البراري إلى الأبد، لكنه تبعثر في الهواء فور أن سحبته.

- «الغضافر» عدو لا يُستهان به، أقسم كبيرهم على الولاء لـ«عشتار»، فقد سخره أبوها لخدمتها، وجميعهم طوع أمرها.

- لماذا لم توكل مهمة اختطاف ابني إليهم؟ فهم من الجن، لماذا «سيروش» بالذات؟ .

- «المجاهيم» يتربصون للغضافر على بوابات ممرات مملكة البلاغة، لم يمروا إلى عالمنا قط، وأنت تعلم مكانة «أبادول» لدى «المجاهيم»، لو علموا بأمر تسللهم سيقوضون عليهم.

- حسناً. ماذا سنفعل الآن؟

- سأحاول نقلك إلى قرية أخرى خارج «بابل» لتكون في أمان.

أحاطني بذراعيه، لكن الأمر لم ينجح! كرر المحاولة حتى إنه اختفى من أمامي وعاد.



قال أخيراً: «يبدو أنك ستظل هنا لسبب ما».

- ماذا تعني؟

- لم أتمكن من إخراجك كما ترى! أرض الراfeldin تتمسّك بزّوارها، لكل خطوة هنا سبب، ويبدو أنّبقاءك هنا ضروري.

- ماذا سأفعل مع الـ «سيروش»؟

صمت هنية ثم بدأ يحدّثني عن سكان «بابل»، كان الحجر المُضيء يخفّت تدريجياً فآخر حجراً آخر وفركه ليُضيء المكان وقال: «الناس هنا ثلاث فئات، الفئة الأولى أثّرت عليهم تعويذة «عشتار» بالكامل، فهم يُطیعونها طاعة عمیاء، فقد سحرت عقولهم ومسخت صورهم وهؤلاء كالوحوش التي تطارد فریستها على الدّوام، وهم في القصر وحوله، وإن خرجوا منه سیبحثون عن «الوراقين» وبخاصة بعد ظهور الأطياف حولهم عند بلوغهم. والفئة الثانية تأثّرت ملامحها فقط وبقيت العقول تعمل كما هي دون خضوع للملكة الساحرة، وكانوا من الأسرة الحاكمة والوزراء، والعاقة من الناس يحدّرون منهم كما ينفرون من جنود الملكة لأن التعامل معهم فيه مغامرة، فأنت تقترب ولا تدری هل عقل من أمامك تأثر أم لا.

وفئة ثالثة وهم عامة الشعب الذين لم يتأثروا بالتعويذة، إما لسبب لا نعرفه وإما لأنّ ما وقع من سحر يُضعف من قوة «عشتار» ولهذا اكتفت بحراسها والجنود، لكن هؤلاء العامة تأثروا بما هو أخطر من تعويذها.

- ما هو؟

- الخوف والجبن والذلّ، عصارات تجري في دمائهم وهذا يمنعهم من التفكير، ابتلعوا ألسنتهم من أجل البقاء على قيد الحياة ومن أجل لقمة العيش، هم كالأشباح يسرون في الظل ويلتصقون بالجدار حتّى لا يراهم أحد وليس لهم صوت؛ لقد أخرسهم الهلع.

- على الرّغم من الحضارة والبناء العقري حولنا يخضعون لها!



- أتدرى يا «حمزة»؟ عندما تتأمل وأقف للتفكير أكاد أجن.

سكت هنيهة وقال وهو يُدْقِّق في عيني: «أتدرى أن أول من سكن «بابل» هو نبي الله نوح عليه السلام؟ وهو أول من عمرها مع قومه، وكان قد نزلها بعد الطوفان، فسار هو ومن خرج معه من السفينة إليها لطلب الدُّفَء، فأقاموا بها وتناسلوا فيها وكثروا، وملَّكُوا عليهم ملوًّا، وابتزوا بها المداهن، واتَّصلت مساكنهم بدجلة والفرات، فلن تزل مملكتهم قائمة إلى أن قُتل آخر ملوكهم، ثم قُتل منهم خلق كثير فذُلوا وانقطع مُلْكُهُم<sup>(١)</sup>، لتأتي أعوام يضل الناس فيها ويشركون بالله ويعبدون آلهة لا حول لها ولا قوة».

أحببت أن أخفِّ عنه فقلت وأنا أشير إليه: «وها أنت أمامي، عراقيٌ مُسلم موحد ولله الحمد، وكل أهل العراق كذلك».

- الحمد لله على نعمة الإسلام.

- للأسف يا «عمر»، سأختبئ بين صفوف الفتنة الثالثة حتى أصل إلى ابني.

- ليس أمامك إلا هذا.

- لكنهم سينكروني لأنّي غريب.

- لا تقلق، هذه ليست أول رحلة لي إلى «بابل»، هناك تاجر يدخل من بوابة «أوراش» كل صباح ويبحث عنَّ بضاعته، سأعرِّفك بنظام البيع والشراء وأصحابك إلى البوابة التي يدخل منها، ستعرفه من هيئته فلديه بقعة كبيرة حمراء تفترش نصف وجهه وقد ولد بها، وأهل المدينة للأسف يسخرون منه، لهذا يأتي مبكّرًا ويبحث عنَّ بضاعته وينصرف ليتفادى حفل التنمر والاستهزاء الذي يُعد له، وكثيرًا ما يُسرق وسط الجلبة التي يُحدثونها فهو لا يرد على إساءتهم ويستسلم لانكسار نفسه، اذهب إليه فور أن تراه، سيظنك من أهل «بابل»، وعلى الجانب الآخر سيعرف أهل «بابل» بخمامعته لأنها مميزة وسيظنونك من طرفه.

---

(١) المصدر: كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي.



- حسناً، ماذا يبيع؟

- أوانٍ فُخَارِيَّة بديعة الصُّنْع لا يوجد مثيل لها في «بابل».

- اشرح لي كيف يتم البيع والشراء هنا.

- فلنبدل ملابسنا أولًا فقياسنا مُتقارب كما ترى، وملابسك الكتانية تلك لا تُشبه ملابسهم، وحاول أن تغطي رأسك كما يفعلون في السوق، وأرجوك راقب في صمت ولا تُحاول دخول القصر حتى نصل إليك.

- وإن ساءت الأمور؟

- لا تكن بيدهاً، كن أنت اللاعب!

بدأ يشرح لي وصحتي إلى بوابة «أوراش»، اختبأنا من الحراس وجلسنا لدقائق حتى اطمأننت للمكان، ثم وثب «عمر» فاختفى من أمامي بعد أن وعدني بالعودة للاطمئنان عليّ.

\*\*\*

أنس

هبت رياح شديدة عاتية تحمل الرماد وبعثرتنا في سماء مملكة البلاغة، حالت بيبي وين البقية سحابات سوداء، ما عدت أسمع صوت «فرح» وهي تُنادي وتنادي «سليمان»، تفرقت الصقور بسبب الرياح الداريات، طال تحليق الصقر الأسود الذي كنت أتعلق به، وطال صمتنا، تحدّر وجهي من شدة البرد ولسعات حبات الرمال المتطايرة والمختلطة بالرماد. لم يذر بيبي وين الصقر حوار كهذا الذي كان يدور بيبي وين الرمادي، ليته هنا الآن، فقد شعرت بوحشة لغيابه، رأيت برج «بابل»



فأجللتُ عندما رأيت المجنحات تحلق حول قمّته، ظل الصقر يروح ويجيء بخفة ومهارة، كان يتحين فرصة مناسبة كي لا ينتبهوا إلى اقترابنا من البرج، بسط أحد المجنحات جناحيه وحلق مبتعداً وكانت أعين البقية تُشيعه بانتباه شديد، دار الصقر من الجهة الأخرى واقترب بحذر وزاد من سرعة خفق جناحيه، شعرت أنّنا سنصطدم بطوابق البرج عندما دَنَونا من قاعدته فأغمضت عيني للحظات وفتحتها لأفاجأ بلوجنا إياه، وكان دهليزاً فتح لنا، كان الظلام يحيطنا من كل صوب ظهر عالم من عوالم بابل، حلقتنا لوقت يسير وبدا لي الوقت وكأنّنا في آخر الليل، لاحت من بعيد بُقعة سوداء كبيرة، عندما انخفضنا أدركت أنّها غابة كثيفة الأشجار، كانت مهيبة ومُخيفة تحت جنح الليل، بدأ صوت نعيق البوم يصل إلى مسامعي، اقتربنا من الأرض، تركني الصقر بجوار نهر يجري ماؤه موازيًا للغاية، وقع في نفسي أنّه «الفرات»! ثمَّ حلَّ الصقر المُقاتل مبتعداً كقذيفة مدفع وكأنَّه يهرب، انقبض صدري لفعله هذا، مررت لحظات كنت أحْدَق خلالها حولي وسط تلك الظلمة الحالكة، جذبت عصا جدي «أبادول» من خلف ظهري وكلماته التي همس لي بها لا تزال تتجلج في رأسي: «انتبه لها».

تدَرَّكت كل مرة ضرب بها «أبادول» الأرض بعصاه، وكيف كانت تُنزل الأرض وتشقّها، وكيف ضرب بها الساحر «حنطيرية» فأسقطه أرضاً وهو يخور كثور يُصرع، أصابني بعض الخوف ممَّا سُلِّقَيه، شدَّدت قبضتي عليها وأخذت أتحسّس بها الطريق واقتربت من النَّهر مستهدِيًّا بضوء القمر وغسلت وجهي بمائه، ووقفت أنفُس الرَّماد عن ثيابي وأنا أتعجَّب من هذا العالم الذي فتح لنا من خلال بُرج «بابل»، وكأنَّ الأمر يُشبه دروب «أوبال» التي ولجتها أخي «حبيبة» وزوجها!

كنت خائفاً، نعم.. تعلق الخوف واستحال قميصاً ألبسه، عاودني هذا الخوف الذي كان يسكن قلبي عندما كان «خالد» و«حمزة» صغيرين، أخشع على «رواء» من المجهول الذي ينتظراها، ولكن ليس لي إلَّا أن أندفع في أتون تلك الأحداث التي داهمتنا وستُحيطنا حتَّى نخلصها بإذن الله. نفضت الهواجس عن رأسي وبدأت أذكر نفسي أنّها مملكة البلاغة التي التقيت فيها حُبِّي الأول «مراٌم» الغالية، وهي نفسها التي التقيت فيها صديقي «كلودة» الذي علَّمني درساً بليغاً من دروس الحياة، وهي نفسها مملكة البلاغة التي قرَّبت بين أفراد عائلتنا فصرنا كنسٍّ قويٍّ مُترابطٍ بكلٍّ



تفاصيله، وجمعتنا تحت سقف بيت واحد، وكل لحظة أمضيتها هنا زادتني يقينًا بالله. تنهدت بعمق فلامس الهواء البارد أحشائي، قبضت على عصا جدي «أبادول»، كانت تلك عصا «حن بش» و«حن بريت» نفسها التي أعطياها لنا في «كويكول»، لماذا منحها لي؟ أخذت أحركها في الهواء وأضرب بها الأرض فلم أر شيئاً، تذكري خنجرى فأخرجته من حقيبتي وجربته مراً ولم أفلح في الانتقال إلى أي مكان، أصابني اليأس فجلست أفرك يدي من شدة البرد.

جلست محزوناً، فقد أوجعني مجرد تصور أن «رواء» قد أصابها مكروه، أشفقت على «حمزة»، ووددت لو كان بجواري الآن. قررت انتظار بزوغ الفجر لأسير بمجادلة ذلك الهر الذي يجري خارج الغابة، لعل التقى أحدهم وأصل إلى خيط يقودني إلى مكان حفيدي الغالية. كنت عالقاً بين خوفين يقتنان على نفسي، الخوف على «رواء» ينهش قلبي، والخوف على جدي «أبادول» ينهش عقلي. فقد بدا مريضاً وواهناً، وكان يحاول إخفاء هذا لكنني أعرف جيداً أنه قد هرم، وعلى الرغم من علمي بأعمار حُرَّاس المكتبة العظمى وكيف تخطى الكثير منهم المائة عام، كنت أخشى أن أفقده.

شرعت في اجترار ما حدث لعائلتنا خلال الساعات الأخيرة، وازدحم رأسي بالأسئلة، كيف سننقذ «رواء» ونحن وحدنا هنا من دون «أبادول» و«الزاجل الأزرق» و«المغايير» و«المجاهم»! ضربت الهواجس بتطارقها على رأسي فدوّختني، فوجئت بصوت «أبادول» يتردد في رأسي قائلاً: «اثبت يا «انس»!».

تخشب لسانى في فمي، تلقت يمنة ويسرةً وأنا أحدق إلى الظلام، عاد صوته يتجلج في رأسي وهو يقول: «الأشجار الراسخة لا تخلعها عواصف الابلاء».

مسحت وجهي بيدي، هل فقدت عقلي؟ هل هذه هلوسات سمعية من أثر القلق الشديد؟ وقع في نفسي أن جدي عندما مسح على رأسي وألصق جبينه بجبيني في بيتنا بالفيوم قد فعل شيئاً ليبدأ التّواصل معى كما يتواصل مع أبي بالخاطر، فوجدتني أقول: ««أبادول»! أتسمعني؟».



كَرَّت السُّؤال ورفعت صوتي، مِرْت لحظات كادت تطich برباطة جأشِي قبل أن يصل إلى صوته مَرَّةً أخرى: ««أَنْسٌ»! يكفي أن تستحضر الكلمات في رأسك، لن تحتاج إلى نطقها بصوت مسموع».».

حاولت أن أفعل هذا، وأنا لا أدرِي هل يصل إليه ما أفكَر به أم لا.

سمعت صوته أخيراً يتَرَدَّد في جمجمتي وهو يقول: «حضور «المغاثير» لن يمنع عنك أقدار الله، وجود «الزَّاجل الأزرق، لن يمنحك القوة، و«المجاهيم» ما هم إلَّا نفر من الجن، أنت قوي بالله وحده يا «أَنْسٌ»!».

- ونعم بالله.

غاب صوته هُنيهة وعاد بنبرته الحانية وهو يقول: «أنت تحتاج إليك، تحتاج إلى نفسك، وروحك، أصدق من تتكئ عليه من البشر عندما تسقط هو أنت، يدك هي المتكأ لك، نهوضك لن يكون إلَّا عندما تستيقظ عزيتك وتنهض لِأياً فلائِيَا، الأيدي الممتدة التي ما هي إلَّا من تسخير الله لك قد تنتظر وتحملك، لكنك ستبقى في حاجة إلى عونها لتحملك طوال الوقت، وإن غابت ستبقى مكانك، كما أنت كأي جماد آخر يُحمل، فلا تستسلم. ثقتك بذاتك لن تتحقق إلَّا عندما تكون على يقين أنَّ ما أنت فيه مجرد ابتلاء من ربِّك، عثرة قد توجع قلبك لحكمة لن تراها الآن، وربما تعرَّفُها في وقتٍ لاحق، فالكون كُلُّه بما فيه لا يسير إلَّا بتدبير الله، حتَّى حياة النملة الضعيفة مقدرة بكل تفاصيلها المجهريَّة، وكذلك أنت!».

انسلَّ صوت جدي «أبادول» من رأسي بنعومة، وكانت كلماته كافية لرد اليقين بالله إلى قلبي فهدأت جوارحي.

جلست أرتَل آياتٍ من القرآن لتوئس قلبي المُتعب، وبعد لحظات تناهى إلى مسامعي صباح شاب يُنادي: «من؟ من هناك؟؟».

- «أَنْسٌ».

- استمر في القراءة لأهتمي إليك.



عُدَتْ أَرْتِلُ الْقُرْآنَ، وَسَرِيعًا مَا لَاحَ لِي ظُلُّ يَقْرَبُ مَيْ تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ، ثُمَّ دَنَ فَوْجَدَتِه شَابًا عَشْرِينِيًّا نَحْيَلًا تَبَدُّو عَلَيْهِ عَلَامَاتُ الْإِرْهَاقِ، كَانَ مُتَعَبًا مُغَيَّرَ الثِيَابِ وَالْخَوْفُ يُطْلُعُ مِنْ عَيْنِيهِ.

عِنْدَمَا وَقَفَ قَبَالِي تَبَيَّنَ وَجْهِي فَانْفَرَجَتِ أَسَارِيرِهِ وَتَعَلَّقَ بِذِرَاعِي وَأَخْذَ يُرَدِّدُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ».

- ما بك يا بُني؟

- كُنْتُ مَعَ شَقِيقِيَّ فِي مَهْمَةٍ كَلَفَنَا بِهَا الْخَلِيفَةُ وَمَعْنَا رَفَاقَنَا، وَحَدَثَ أَمْرٌ غَرِيبٌ.

ازدرد ريقه وأكمل قائلاً: «لَقَدْ رَأَيْتَ الْجَنَّ بِأَمْ عَيْنِي!».

حاوَلَ أَنْ يَشْرِحَ لِي لَكَنَّهُ كَانَ يَخْتَلِجُ وَكَانَ أَنفَاسُهُ مُتَسَارِعَةٌ، لَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ تَبَيَّنِ تَفاصِيلِ مَا حَدَثَ لَهُ، أَشْفَقْتُ عَلَيْهِ وَهَدَأْتُ مِنْ رُوعِهِ وَأَجْلَسْتُهُ بِجَوَارِيِّهِ، كَانَ الْبَرْدُ قَارِسًا وَلَيْسَ مَعْنَا مَا نَتَدَثِرُ بِهِ.

تَكَوَّرَ بِجَوَارِيِّهِ فَأَحْطَطَهُ بِذِرَاعِي وَسَأَلْتُهُ: «مَا اسْمُكِ؟».

- «الْحَسْنُ».

ثُمَّ هَمَسَ وَهُوَ يَرْتَجْفُ: «أَشْعَرُ بِالْبَرْدِ».

كَانَ يَرْتَدِي قِبَاءً أَسْوَدَ خَفِيًّا مَفْتوحًا عَنْ الرَّقْبَةِ، وَتَحْتَهُ قَفْطَانٌ زَاهِيًّا كَمَامَهُ ضَيْقَةٌ، وَالْبَرْدُ قَارِسٌ، وَكَنْتُ أَعْنَى مَا يُعْنِيَهُ، فَمَلَابِسِي مِنَ الْكَتَانِ وَهِيَ خَفِيفَةٌ مُثْلِ مَلَابِسِهِ.

قَلْتُ لِأَصْبَرِهِ: «لَيْسَ مَعِي مَا أَدْتَرَكَ بِهِ، فَلَنْ نَتَظَرْ حَتَّى تُشْرِقَ الشَّمْسُ».

مَرَّتْ لَحَظَاتٌ ثَقِيلَةٌ وَهُوَ لَا يَزَالْ يَرْتَجْفُ، ضَمَّمَتْهُ كَمَا أَضْمُّ وَاحِدًا مِنْ أَبْنَائِي، وَجَلَسْنَا مَعًا نَنْتَظَرُ لَعَلَّ اللَّيْلَ يَرْحُلُ سَرِيعًا وَالشَّمْسُ تَعْجَلُ وَتَحْنُو عَلَيْنَا، غَرَقَ فِي النَّوْمِ مِنْ شَدَّةِ التَّعبِ، أَوْ رَبَّما فَقَدَ وَعِيَهِ! لَا أَدْرِي، وَأَخْذَتِنِي سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ وَظَلَّ رَأْسِي يَسْقُطُ وَيَتَأْرِجِحُ، وَلَمْ يَوْقُظْنِي إِلَّا صَوْتُ سُعالِ «الْحَسْنِ».



\*\*\*



## كُرْدِسْتَان

### "فرح"

كانت صور المعارك التي خاضها الصّقر الذي يحملني تتتابع على رأسي، رأيته يقتل وينبش بمنقاره حتّى تسيل الدّماء، ويحمس بمخالبه ويصرع خصمه، قتال شرس مع مُجنّحات وغربان وطيور غريبة لم أر مثلها قط، ورأيته يُحلق ويرتفع في السماء مع كوكبة من الصُّقور المقاتلة مثله في صفوف متوازية خلف قائدهم. الانقضاض على الفريسة، جراحه الغائرة، لوي عنقه، نتف ريشه، غرغفتة التي رجّت رأسي، صراعه مع المُجنّحات ذات الرؤوس المُخيفة، وددتُ لو تركته وأفلتُ يدي حتّى يتوقف توارد تلك الذكريات على رأسي، ليتني ارتديت قفازاتي فقد وضعتها في حقيبتي ونسيت أني بمجرد لمس هذا الصّقر سأرى ما مرّ به. ظللتُ أنادي أبي و«سليمان» و«حمزة»، لكنّي لم أسمع أصواتهم ولم أرّهم. أطل النّخيل كظلال سوداء أطراها تلمع تحت ضوء القمر، ثمَّ لاح لي بُرج «بابل»، ارتعدت فرائصي عندما رأيت المُجنّحات التي مرّت صورها برأسِي منذ لحظات، أطلق أحدّهم صيحة رجّت قلبي في صدري، ثمَّ حلَّق مُبعداً فتبّعه البقية، بدا لي أنّهم رأوا شيئاً ما جعلهم يتوجّهون نحوه، راودني الخوف على أبي وأخي و«سليمان» اندفع الصّقر الذي يحملني نحو بُرج «بابل» وزاد من سُرّعته، أصابني الخوف فأغمضت عينيَّ وكنت أرتّجف، شعرت بتيار هواء شديد يلفح وجهي فجأة! ففتحت عينيَّ ووجدته يدخل بي في تجويف بأحد طوابق البرج ثمَّ دلفنا دهليزاً مُظلماً، غرقت في دياجير الظّلام وكأنّي فقدت بصري، خرجنَا من الدهليز وألقى الصّقر بي على تل صغير من القش وفرَّ مُبعداً، وكانت الخيول والأبقار حولي في كلّ مكان في بستان يحيطه سياج عاليٌ والشُّعل على أطرافه الأربع معلقة على أعمدة من حديد، وأضواؤها تراقص وتشيء المكان، بدوا لي وكأنّهم جميعاً يحدّقون تجاهي. ثار جواد منهم وظلَّ يصهل ويقفز على قوائمه



الأربعة، واستجابت له الخيول الأخرى فأحدثوا جلبة وبدأت أشعر بالخوف والقلق. وقفَتْ أنفُض القشَّ عن رأسي وتراجعت إلى الخلف عندما بدأ الجواد يقترب ممّي ويرفع قوائمه، كاد يدهسني لولا ظهور فتاة صبيحة الوجه كانت تحمل مصباحاً في يدها وتضع شالاً من الصوف على كتفيها، ومن خلفها أطلَّ شابٌ وبدأ يصبح بصوته الجهوري فهدأت الخيول فور سماعها لصوته.

سألتني الفتاة وهي تُقرّب المصباح من وجهي: «من أنتِ؟»

- اسمي «فرح».

كنت أرتجف، وكان صوتي يرتجف، حتّى جفوني كانت ترتجف وأنا أنظر إليهما.

سألني الشاب وهو يُمشط المكان بعينيه وكأنّه يبحث عن شخص آخر رُبّما يكون برفقتي: «ما الذي أتي بك إلى هنا؟».

- كنت مع أبي وزوجي وأخي وضللت الطريق.

لم أتمكن من إيقاف ارتعاشات جسدي، لم أدرِ حينها هل أرتعد من شدّة البرد أم من شدّة الخوف، احتضنْت نفسي بذراعي كما علمّني «سليمان»، حيث كان يُخبرني أن أطبق «عنق الفراشة»<sup>(١)</sup> عندما أشعر بالخوف. أشفقت الفتاة عليّ وأخذت تهدي من روعي، ثم تأمّلت حقيبتي القماشية، وكانت مطرقة التي حصلت عليها من «كويكول» معه، ويبدو أنّ هذا أعاد القلق إلى رأسها فانتزعت ممّي الحقيقة وسألتني: «إلى أين كنتم ذاهبين؟».

- «بابل»

---

<sup>(١)</sup> يُدرّس «عنق الفراشة» ويُطرح في كتب علم النفس كتقنية علاجية، لجأت إليه طبيبة تسمى لوسي أرتيجاس، في أثناء عملها في أكابولكو مع التاجين من إعصار بولينا في عام ١٩٩٧، فقد كانت أمام عدد كبير من المنكوبين ونصحتهم بفعل هذا.



تأملتني الفتاة وتفحّصت وجهي هُنّيَةٌ وبِدَا الشَّاب حذْرًا وهو يُراقبنا، تراجعا إلى الخلف ودار بينهما نقاش لم يصل إلىَ منه غير همّهات، بدا لي أنهما قلقان من استضافي.

هَبَّت رياح شديدة فأطافت الشُّعل، تبادلا النظارات قبل أن تقول لي: «هيا، تعالى معنا إلى داخل البيت فالبرد قارس، وغداً نبحث عن أهلك». .

سرت بجوارهما نحو دارهما، وعندما وصلنا وفور أن دلفت من بابه شعرت بالأمان، أمسكت بيدها لأشكرها فمَرَّ مشهد برأسِي، فرأيتها تركض مع ذلك الشَّاب في بستان زاهر وخلفهما يطل جبل أيهم.

جلست أراقب خط الدُّخان المُتصاعد من شريط المصباح الصَّغير الذي أطفأه للتو وقد ملأت رائحة فتيله المُحترق أنفي، أشعلت مصباحاً آخر أكبر حجمًا فنشر الضوء بالغرفة، أحضرت الماء ثم ألقت شالاً عتيقاً ملوّناً على كتفي ودثري به وهي تقول: «هذا شال أمي».

لمست يدها دون قصدٍ وهي تضبط الشال فرأيت امرأة وقع في نفسي أنها أمها تفتح ذراعيها لها وهي تركض نحوها لتحتضنها، وسمعت صوت ضحكاهما، وكانت تبدو أصغر عمراً من الآن. عندما ربت على يدها لأشكرها بامتنان على الشال رأيتها في مشهد آخر وسط عرسها وحولها الفتيات في أبيه زينة، كانت جميلة في ثوب زفافها المزركش، أدركت أنها مغمورة بالحب من كل من حولها. على الرَّغم من نظراتها الثاقبة عندما عثرت عليَّ بالبستان.

وإيماءات وجهها التي أوحت لي بقوَّة شخصيتها وبأسها، طالعني بإشفاقٍ بعينيها الرائقتين، ثم جلست أمامي فسألتها: «ما اسمك؟».

- «دروكانا»<sup>(١)</sup>.

---

(١) روكانا: اسم كردي معناه الشَّمس الباسمة.



ثمَ ابتسمت وهي تُشير إلى زوجها: «وهذا زوجي «خاندان»<sup>(١)</sup>.».

ناولتني خبراً، ووضعت أمامي صحنًا من الفخار فيه عسل فشكرتها بلطف لأنّي لم أكن جائعة وسألتها: «هل نحن في «بغداد»؟».

- بل «كردستان»<sup>(٢)</sup>.

جاء صوت زوجها من خلفها وهو يقترب قائلًا: «من أين أنتم؟».

- مصر.

- ماذا؟! وما الذي جاء بكم إلى بلادنا؟

ترددت في البداية، شعرت أنه يستجوبني، ولكنني عذرتهما، فأنا غريبة عنهم، ولا مفتر من إخبارهما ببعض الحقيقة على الأقل.

قلت وأنا أتمسّك بشال أمها: «لقد اختطف لصٌ من «بابل» ابنة أخي، ونحن هنا للبحث عنها».

شهقت «روكانا» قائلةً: «يا إلهي! هل اختطفها الـ «سيروش»؟».

- وهل تعرفانهم؟

قال «خاندان»: «بالتأكيد، أصبح وجود «عشتار» وأعوانها في «بابل» خططًا علينا جميعاً، فقد سحرت أعين الناس هناك، جنودها يختطفون الغلمان والشباب ويتيحون أفضلهم وأكثراهم ذكاء وبخاصة الوراقون منهم».

---

(١) خاندان: اسم كردي معناه النبيل الرأقي.

(٢) كردستان: إقليم كردستان يقع شمال العراق.



تنفست الصعداء عندما وجدتهما على علم بأمر «عشتار» و«الوراقين» والـ «سيروش»، لكنني لم أكن على يقين بعلمهما عن أمر المحاربين، اندھشا

عندما علما أنّ ابنة أخي طفلة، فهما يعرفان أنـ الـ «سيروش» لا يختطفون الأطفال الصغار، ران علينا صمت خفيف. أخبرتني «روكانا» أنـها ستصحبني إلى غرفة أخرى لأبيت فيها.

قبل ذهابنا داهمني «خاندان» بسؤال مفاجئ: «هل أنتِ من المُحاربين؟». كانت دقات قلبي تتواثب وأنا ألتفت لأجيبيه بسؤال آخر: «ماذا تعرف عن المحاربين؟».

- يزورون مملكة البلاغة هـنا باستمرار لاسترداد الكتب التي تخفي أخبارها، ويأتون من مكان آخر خارج مملكتنا، تحملهم الصـقور إلى مكان خاص كان أبي قد زاره من قبل عندما كنت في السابعة من عمرـي وعاد ليحكي لنا عنه، فيه مكتبة عظيمة يـقيـمـ فيها رجال لـحـامـ طـولـيةـ، يـحمـيـهمـ جـيشـ منـ الفـرسـانـ يـطلقـ عـلـيـهـمـ «ـالمـغـاتـيرـ».

رفع حاجبيه وكان يـنـتـظـرـ مـيـ إـجـابـةـ عـنـ سـؤـالـهـ، فـهـزـزـتـ رـأـسـيـ موـافـقـةـ فقالـ: «ـتـوقـعـتـ هـذـاـ».

- لكنـيـ فيـ الحـقـيقـةـ لمـ أـسـتـرـدـ كـتاـبـاـ بـنـفـسـيـ، لمـ أحـظـ بـرمـزـ حـتـىـ الآـنـ.

- كيفـ هـذـاـ؟

- الأمرـ معـقـدـ، لقدـ تـعـرـضـتـ عـائـلـتـنـاـ لـكـثـيرـ مـنـ الأـحـدـاثـ الغـرـيبـةـ.

قالـتـ «ـرـوـكـانـاـ»ـ بـحـمـاسـ: «ـأـخـبـرـيـنـاـ بـكـلـ شـيـءـ عـنـ عـائـلـتـكـ ياـ «ـفـرـحـ»ـ»ـ.

تـنـاهـيـ إـلـىـ مـسـامـعـيـ صـوتـ بـكـاءـ طـفـلـ صـغـيرـ، هـرـولـاـ خـارـجـ الغـرـفـةـ فيـ شـوـقـ وـتـلـهـفـ



وكانهما يتسابقان، وعادا ومعهما طفلة صغيرة فاتنة عمرها شهور، إنّها «مورال»<sup>(١)</sup> أو «مومو» كما يُناديانها. قطعت بكاءها فور أن رأني، ومنحتني ابتسامة بفمها الصغير فأزالـت بعض الهم عن صدري، حملتها وجلست أروي لهاـما عن عائلة «أبادول» وأنا أمسـك بـكفـها الرـقيقة، كان لـمسـ كـفـوف الصـغـار عـلاجـاً لـنـفـسي المـتـعبـة مـمـا أـرـاه بـسـبـبـ المـيرـاثـ الذي عـلـقـ بيـ، لمـ أـخـبرـهـما بـتـفـاصـيلـ ماـ حـدـثـ بـجـزـيرـةـ «ـسـقطـريـ»ـ، خـشـيتـ أنـ يـعـلـمـاـ بـأـمـرـ

ميراثـ «ـطـرـجـهـارـةـ»ـ العـالـقـ بيـ. نـامـتـ الصـغـيرـةـ بـيـنـ يـديـ فـحـمـلـتـهاـ أـمـهاـ عـيـ وـصـحـبـتـيـ إـلـىـ غـرـفـةـ أـخـرـىـ لـكـيـ أـبـيـتـ لـيـلـيـ فـيـهـ، وـكـانـ النـومـ عـصـيـ، فـرأـيـ يـزـدـحـمـ بـالـأـفـكـارـ، وـالـقـلـقـ يـنـهـشـ قـلـبـيـ عـلـىـ أـبـيـ وـأـخـيـ وـ«ـسـلـيمـانـ»ـ.

\*\*\*

## سليمان

كان برجـ «ـبـابـلـ»ـ مـهـيـباـ بـإـطـالـلـتـهـ، وـمـرـوـعـاـ بـغـمـوـضـهـ، وـمـرـبـعـاـ بـمـجـّـحـاتـهـ الـتـيـ تـطـوـفـ بـقـمـتـهـ فـيـ عـشـوـائـيـةـ، عـلـىـ ضـوءـ نـارـ عـظـيـمـةـ تـتـأـجـجـ فـوـقـ الـقـمـةـ رـأـيـتـ رـؤـوسـهاـ الـمـخـيـفةـ تـتـحـرـّـكـ يـمـنـةـ وـيـسـرـةـ لـتـرـاقـبـ الـأـجـوـاءـ، اـنـتـبـهـوـاـ إـلـىـ وـصـولـنـاـ فـهـاجـوـاـ وـمـاجـوـاـ، بـسـطـ أـحـدـهـمـ جـنـاحـيـهـ وـاقـتـرـبـ وـكـادـ يـلـتـهـمـ الصـقـرـ الـذـيـ يـحـمـلـيـ وـيـلـتـهـمـيـ مـعـهـ، نـجـونـاـ بـأـعـجـوبـةـ!ـ وـدـلـفـنـاـ كـوـةـ بـالـبـرـجـ فـأـسـقـطـنـيـ وـابـتـعـدـ فـتـدـحـرـجـتـ كـالـكـرـةـ فـيـ دـهـلـيـزـ طـوـيلـ مـظـلـمـ وـأـصـابـنـيـ دـوـارـ شـدـيدـ، عـنـدـمـاـ لـفـظـنـيـ هـذـاـ الدـهـلـيـزـ سـقـطـتـ وـاقـفـاـ ثـمـ اـنـزلـقـتـ سـاقـايـ عـلـىـ دـسـاكـرـ<sup>(٢)</sup>ـ جـبـلـ لـوـلـاـ ضـوءـ النـارـ الـقـرـيـبـةـ مـنـهـ لـتـوـقـفـ قـلـبـيـ مـنـ هـوـلـ مـنـظـرـهـ، كـانـ هـنـاكـ شـابـ ثـلـاثـيـيـ يـتوـسـدـ عـمـامـتـهـ وـيـتـلـفـعـ بـعـيـاءـ حـنـطـيـةـ اللـوـنـ وـيـنـامـ قـرـبـ النـارـ الـتـيـ أـلـقـتـ

(١) مورال: اسم كردي معناه الأماني.

(٢) الدسакر جمع دسكرة وهي الأرض المستوية.



بضوئها عليه وعلى حقيبة من القماش بجواره، اقتربت فإذا به وقد خط حوله دائرة على الأرض من الأحجار الصغيرة وعندما دنوت منها قرأت آيات من القرآن مخطوطة على الرِّمَالِ رُيْمًا ياصبح أو بعود حطب، وقع في نفسي أَنَّه فعل هذا ليحمي نفسه من الوحوش والسباع، تلَّقَّتْ حولي وحدقت إلى الظَّلام فلم أجد غيره، صفت لكي أَنبهه وأخذت ألقى السلام بصوت جهوري لعله ينتبه، فلم أرغب في اقتحام دائنته ولا الاقتراب منه إِلَّا عندما يستيقظ حَتَّى أشعره بالآمان، انتبه إلى وجودي ووثب قائماً كالفهد وأخذ يتمعن في ملامحي، وعندما اطمأن قال بصوته الرَّخيم: «اقترب يا صاح».«.

أشار إلى لينبني إلى ما كتبه من آيات، فرفعت قدمي وتحطّتها واقتربت منه قائلاً: «السلام عليك، أنا «سليمان».

- وعليك السلام، وأنا «ياقوت».

أجلسني بجوار ناره ومنحني حفنة من التمر، فرددتها برفق وشكرته فسألني: «هل ضللت الطريق؟؟».

- نعم.

- أين متاعك؟ ومن أين أتيت؟

- ليس معي متاع، وأنا من «مصر».

- وأنا من «بغداد».

تمعن في ملامحه فوجدتها لا تشي بأنَّه عربي، بيد أَنَّه يتحدث بلغة عربية ناصعة!

فقلت بشيء من التوجس: «لكنَّك تبدو لي...».

قاطعني بلطف قائلاً: «أنا روبي، أسرت وباعوني لرجل صالح من «بغداد» عاملني

بالحسنى وعلمى القراءة والكتابة بالعربية، لسانى عربي. أنا مُسلم!».



- هذا من لطف الله بك!

- نعم، ولقد أحسن إلى مولاي «عَسْكُر» وألحقني بحلقة علم بأحد المساجد  
فحفظت القرآن كاملاً.

- كأنك ولد له.

- قد كان، وعملت على تجارتة، حملت إلى العراق بتقدير الله فكانت نعم الملاذ لي.

صمت هنئية وأضاف: «العراق أمني وأماني وملاذي. وأنت يا «سليمان»، ماذا  
تعمل؟».

- أنا طبيب.

لاح على شفتيه شبح ابتسامة وهو يقول: «التقييت طبيباً في جزيرة «قيس»<sup>(١)</sup> عندما  
زرتها مع مولاي في رحلة من رحلات تجارتة، وكانت تلك أول رحلة لي. وهأنذا الآن  
وقد أتيحت لي الفرصة لأسافر وحدي فقد أدمنت السفر والترحال واكتشاف أسرار  
البلاد والعباد».

أردت أن أوسع معه في حديثي لأنوادي إليه قبل أن أفصح له عن حقيقة عائلتنا وأمر  
المحاربين فسألته قائلاً: «كيف ضلللت الطريق يا «ياقوت»؟»

- كنت أسير خلف قافلة تجارية لأستأنس بهم، عندما هبت رياح ذاريات منعتنا من  
المسيير، فأسرعنا خلف هذا الجبل لنحتمي به، وعندما هدأت الرياح كان الليل قد  
ألقى عباءته على المكان واغتسلت الأبنية بضياء القمر فأشعغلنا النار وخلدنا إلى النوم  
جميعاً، وعندما استيقظت لم أجد أحداً منهم وكانت النار قد انطفأت! أشععلتها مرةً  
أخرى لأندفأ بها فظهر لي نفر من الجن وحاولوا جرّكتابي هذا حتى إنني رأيته معلقاً

---

<sup>(١)</sup> تقع جزيرة «قيس» أو «كيش» في وسط الخليج العربي بين إيران وعمان والإمارات. تقول بعض الروايات  
إنها أول مدينة أسست بعد طوفان نوح.



في الهواء وصفحاته تقلب بسرعة والكلام يُضيء على السطور، وعندما شرعت في قراءة القرآن فرُوا وسقط كتابي على الأرض.

ثم أشار إلى كتاب غلافه من الجلد البني الذي خالطه السواد، مشبوب بُقُع برتقالية، تبرز منه أوراقه الصفراء وقد خيطت معًا يدوياً، فقلت وأنا أتأمله: «لقد صنع هذا الغلاف بمهارة».

- صنعته بنفسي في دكاني المتواضع، في جانب الكرخ<sup>(١)</sup> من «بغداد»، فهناك أنسخ الكتب لمن يقصدني من طلاب العلم، لدي هناك الكثير من الكتب، ليتك تأتي معي وترتها بنفسك، أقضى جل وقتي هناك، وفي الليل أتفرقع للقراءة.

- يبدو أنك كما يُقال «تنفس الكتب».

لمعت عيناه وهو يقول: «أعشق اللغة العربية والأدب والتاريخ والشعر، لقد نظمت لنفسي أوقاتاً لدراسة اللغة والأدب».

أشرت إلى كتابه وسألته: «هل هذا كتاب تألفه بنفسك؟».

- نعم، أدّون فيه ما أرّاه خلال رحلاتي، عن البلاد وما فيها.

- ما اسم کتابک؟

مدّ إلى كتابه فأمسكته وقرأت عنوان الكتاب «معجم البلدان»<sup>(٢)</sup> ، وقرأت اسمه أيضًا فارتفع صوتي دون قصد ميًّا وأنا أقول: «ياقوت الحموي!». ابتسם وقال بصوت خافت: «بُنادونني هكذا نسبة إلى مولاي «عسکر الحموي»».

(١) الكرخ هو اسم سوق كان يوجد ببغداد.

(٤) كتاب مُعجم البلدان موسوعة هامة ومصدر تاريخي يحتوي على وصف بلدان ومدن عديدة وهو من تأليف الأديب والشاعر الشيخ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي.



اقشعر بدني، أدركت أنَّ من أمامي هو الرحالة والجغرافي والأديب الشاعر «ياقوت الحموي» صاحب كتاب «مُعجم البلدان»، ولكنَّه ياقوت ابن مملكة البلاغة، فتحت الكتاب لأقرأ ما فيه فاللتقت عيناي بكلمات لم أنسها قط: «والعراق أعدل أرض الله هواء وأصحُّها مزاجاً وماءً، فلذلك كان أهل العراق هم أهل العقول الصحيحة، والآراء الراجحة، والشهوات المحمودة، والشمائل الظرفية، والبراعة في كل صناعة مع اعتدال الأعضاء واستواء الأخلاط وسمرة الألوان».

سألته في تلهف: «هل زرت مدينة «بابل»؟».

- نعم، منذ سنوات، ورسمت لها خريطة، فالمدينة لها تخطيط وتنظيم خاص، وكل زاوية فيها تعد تحفة معمارية في ذاتها، الخريطة هنا بكتابي، انظر...

- هل المدينة قائمة بكل تفاصيلها؟

- نعم.

- هل رأيت الـ «سيروش»؟

- رأيتها على ألواح الطوب الممزوج باللون الأزرق والأخضر، مع الثيران المجنحة، كانوا يظلون أنَّها ستتحميهم!

- أقصد مسوخ الـ «سيروش» الذين ألقى عليهم الملكة «عشтар» تعويذتها.

- سمعت هذا بالفعل، ولهذا كنت في طريقي إلى الرحلة الثانية إليها لأتيقن بنفسي من الأمر، فأنا لا أكتب إلا ما أراه بعيوني.

- أخبرني المزيد عن «بابل».

- يُقال إنَّه يوجد الكثير من الألواح الدينية والعلمية والمدرسية، قد عُثر عليها وهي بالخط المسماوي القديم الذي استُخدم في تدوين اللغة «السومرية» وأيضاً اللغة



«الأكادية» التي كان يتكلّم بها البابليون اللغة عليها والآشوريون. انظر.

وأخرج من حقيبته خريطة لمدينة «بابل» أعلاها كُتب الاسم بحروف مسمارية.

أردف قائلاً وهو يتأنّى الخريطة: «اللغة البابلية لا تُشبه لغتنا في نطقها، فلفظها لا يشتمل على حروف التضخيم والتخفيم، ولا على حروف الحلق».

لاحظت تقسيم الخريطة إلى ثلاثة ألوان فسألته: «لماذا زُسّمت الخريطة بثلاثة ألوان؟».

- هذا تقسيم للهيكل العام للمدينة، الكيان الأول على الضفة اليسرى لنهر «الفرات»، والكيان الثاني على الضفة اليمنى للنهر نفسه، والكيان الثالث قطعة أرض مثلثة محمية بسور خاص، بها القصر الصيفي ومساحات واسعة للزراعة، وعدة قُرى تابعة لـ «بابل» تمثل البنية الاقتصادية للمدينة، وفيها الكثير من العمل والنشاط لهذا أحبيت الإقامة هناك عندما رأرتها سابقاً، كنت في ضيافة تاجر يُدعى «شولايا»، هو وجميع أفراد أسرته يعملون بالتجارة.

- ما هذه العلامات الثمانية؟

- بوابات «بابل» الثمانية، وهناك أيضاً عشرات من أبراج المراقبة على مسافات منتظمة.

شردت قليلاً، فما بقي من «بابل» في زماننا أطلال، وربما «ياقوت الحموي» الذي عاش في عالمنا لم ير كل هذا كما رأه «ياقوت» مملكة البلاغة الذي يجلس أمامي.

قلت وعيناي عالقتان بالخريطة: «لقد حُصِّنت «بابل» بأسوارها جيداً».

- هناك عيب واحد.

- ما هو؟

- عيب دفاعي، وهو عدم وجود امتداد للسور جهة الغرب على طول نهر الفرات.



- المدينة رائعة، والخريطة دقيقة.

هي لك هدية.

- لماذا؟!

- لدى نسخة أخرى منها كما أتّي أحفظها عن ظهر قلب، ولعلك تذكرني عندما تعود إلى «مصر».

صمت هُنّيَّة وسألني: «لم تُخبرني حتّى الآن كيف ضللت الطريق أيّها الطبيب».

- سأخبرك بقصتي من بدايتها، لعلك تصدقني، فأنا على يقين أنّك سمعت الأعجيب خلال رحلاتك.

- هات ما عندك يا «سليمان».

- بدأ الأمر عندما تحركت الكتب في مكتبة جدّي و...

بدأت أحكي له عن مملكة البلاغة، وعن عائلة «أبادول» وما مرّت به، وعن ابنة وحمة» التي اختطفها مسخ الـ «سيروش»، وعن حفل زفاف الذي تغيرت أجواءه فجأة، وعن عروسِي التي لا أعرف أين هي الآن، كان يُنصت لي بتركيز شديد، كانت الدّهشة تملاً عينيه، وكان يؤرّجح رأسه ويُقلب كفيه دون أن يُقاطعني، طال حديثنا حتّى إن بشائر الفجر الشاحبة كادت تُطل من خلف الجبل، قمنا وتوطّأنا من قربة ماء كان يحملها، وبعد صلاتنا التفت نحوي قائلاً: «ستكون الصّغيرة بخير بإذن الله».

- قلبي يُحدّثني بأنَّ الله سيسخر لها من يصدّ عنها ويرعاها.

رنا إلى بطرف عينه وقال: «لا ريب أنَّ فؤادك مجروح لفارق حبيبك، رأيتُ في عينيك الشوق والحزنة والخوف وأنت تحكي ما مررتما به قبل وصولكم إلى هنا».

- قلبي يعتصر في صدرِي، سأجُّن إن لم أعثر عليها سريعاً.



شد «ياقوت» قليلاً ثم قال بهيام:

«كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَمَا لِي عَنْكَ مِنْ بَدَلٍ

أَنْتَ الرُّلَالُ لِقَلْبِي وَهُوَ ظَمَانُ».».

دمعت عيناي وكانت صورة «فرح» لا تغادر مخيالي، أدركت حين سأله أن هذا البيت منأشعار الغزل التي نظمها، وأنه دونه مع قصائده في كتاب آخر أسماه «معجم الأدباء».

رَبَّتْ «ياقوت» على كتفي وقال وهو يحمل متابعه: «فُمْ بنا لنتبع آثار أقدام القافلة التي رافقتها قبل أن أفضل عنها، لعلنا نستدل على الطريق، وعندما نصل إلى مكان معلوم سننطلق منه معًا بحثًا عن عروسك وبافي عائلتك».

علَّقَ حقيقة بكتفه ودسَ فيها كتابه وقال بحماس: «هيا بنا إلى «بابل»».

بدأ المسير وطبق «ياقوت» يحدثني عن رحلاته، وعن أدبه وكتبه وأشعاره، وكان ظريف الكلام، طويل الروح، إن سأله كان يجيبني بشيء من التفصيل، لطيف الشمائل مع سكينة ووقار، كنت أنصت له وقلبي يخفق شوًغاً وقلقاً على «فرح»، وبخاصة بعد علمي بأنَّ ميراث «طريحة» لا يزال عالقاً بها.

رفع حاجبيه وقال وهو يفرك يديه ليُدفِّئهما: «سأخبرك بحكاية خارقة للعادات، بعيدة عن المعهودات، ولو لم أجدها في الكتب القديمة لما ذكرتها في كتابي، فأنا أدون كل شيء، وقد رواها «دهقان الفلوجة» عندما سُئل عن عجائب بلاده».

- هات ما عندك يا «ياقوت»!

- إنَّها عن «بابل»، روبي أَنَّه قال...

وبدأ يتحَدَّث بكلمات دفَّاقة كنهر سial، وأخبرني بأمور غريبة وعجيبة، وكأنَّ تلك القرى مسحورة! لكنَّني لم أندهش، فقد رأيت في «كويكول» و«سقطرى» ما هو



\*\*\*

بيت «أبادول.»

كانت «طيف» تجلس بهدوء عندما دلف «خالد» الغرفة ووجدها تتفحّص منديلاً ملطفًا بسائل أسود، فسألها: «ما هذا؟».

- منديل عمي «أنس» الذي مسح به دماء الـ «سيروش» الذي اختطف «رواء».

أجفل عندما رأه بين يديها وسألها: «ماذا تفعلين به؟؟».

- سأخبرك ولكن لدى بعض الأسئلة أولاً.

- تفضلي!

- لماذا اختارت تلك الساحرة العراق بالذات؟ لماذا «بابل»؟

- يا «طيف»! ظلت العراق وستبقى منارة للعلم وقبلة للعلماء، عباءة مسدلة تستر كل من يستجير بها، على أرضها هناك في نقطة التقاء مقدّسة بين دجلة والفرات عاشت حضارة دامت لأربعة عشر قرناً من الزمان، عمارة وهندسة وبناء، ونحت وفنٌ وذكاء، تاريخ تحكيه ألواح حجري دون عليها بالخط المسماري ما يعجز عقل واحد عن حفظه. لن يتركها ملوك الديجور، سيرغبون في تدميرها بالتأكيد!

همست بفضول: «أنا حّي لا أدرى معنى «بابل»!».



قال وهو يدنو منها ليجلس بجوارها: «أصل الاسم باللغة الكلدانية «باب إيلو»، أي «باب الله»، ويرادفه بالعبرانية «باب إيل»<sup>(١)</sup>.

- أشعر بالفخر لأنّي زوجتك، أرجو أن يكون ولدانا مُحبّين للقراءة مثلك يا «خالد».

أحاط كتفيها بذراعه وسألها: «والآن أخبريني، ما قصّة المنديل؟ وما الذي ستفعلينه به؟».

- لدى مظلة عتيقة ابتعتها من متجر لبيع التّحف، وكانت بسعر زهيد جدًّا، بها جيب داخلي لم أنتبه إلى أهميّته حتّى دلتني عليه الآنسة «خولنجانة»<sup>(٢)</sup>.

- يا إلهي! «باذنجانة» مرّة أخرى!

- اسمها «خولن جااااا نة»! وليس «باذنجانة»! لا أدرى لماذا تكرهها! إنّها لطيفة جدًّا، كانت رفيقتي طوال فترة مراهقتى.

- رائحتها سيئة! بل مُقرفة!

- ليس ذنبها أنّ كيانها يحتوي على كبريتيد الهيدروجين! لقد فحص أبي بقايا مسحوقه في علبتها وتأكدنا من ذلك.

- رائحتها مثل رائحة البيض العفن.

- أنت تسخر منها الآن!

رفع حاجبيه ووقف يتأمّلها وهي تلومه على سخريته من صديقتها الجنية التي تسكن حقيبة كانت تخصُّ كيميائية ومحاربة قديمة ماتت منذ أربعين سنة تحتوي على

---

(١) المصدر: كتاب التّحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) هو كتاب تفسير القرآن من تأليف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخ جامعة الزيتونة بتونس.

(٢) الخولنجان: اسم نبات عُشبي من فصيلة الزنجبيليات، أنواعه عديدة، ومنها الطبي ويُستخدم للزينة.



مجسمات لأكثر من شيء له علاقة بعالمنا مملكة البلاغة، منها حليٌّ وساعة عقاريها تسير إلى الخلف، وصفارة ليس لها صوت يُسمع وعلى الرغم من هذا تسمعه الجنيات، ومشط من عاج لم تظهر فائدته حتى الآن، وعلبة غريبة تسكنها تلك الجنية العجيبة، وأشياء أخرى.

تجاهلت «طيف» نظراته وأكملت: «عندما نبهتني «خولنجانة» لهذا الجيب أخذت أجرب وضع الأشياء فيه، ظننت المظلة ستمطرني بما أضعه فيه، وضعت نقوداً ولم تُمطر مالاً، ووضعت حلوي ولم تغرقني المظلة بأضعافها، كتبت بعض الأماكن على الورق ودسسته بالجيب مثلاً! لكنَّها لم تنقلني إلى المكان المكتوب، وأخيراً وضعت سواراً من عاج كان أبي قد أهداه لي عندما عاد من رحلاته إلى مملكة البلاغة، فوجدتني في قصر «الحوراء» التي ضحكت فور علمها بالأمر وأمرت «الرِّمادي» بإعادتي إلى بيتنا بعد أن أخبرتني بسر المظلة وسمحت لي بالاحتفاظ بها.»

- ما هو السر؟

- المظلة تستطيع نقلني إلى مملكة البلاغة.

- لماذا لم تستخدميها لتأتي إليَّ في «سقطرى» عندما كنت أراكِ في المرأة؟

- أنسيت أنَّ أمر «الشعوب المنسيَّة» يختلف عن باقي بقاع مملكة البلاغة يا «خالد»؟ وكيف سأسافر إليك وأنا لا أعرفك؟!

- صحيح. ولكن ما علاقة هذا بالمنديل؟! المنديل ليس سلاحاً ولا أداة من أدوات المحاربين.

- المنديل عليه دماء مخلوق من هناك، كما كان العاج من أثر فيل كان يعيش هناك، تلك الأشياء التي تربطها علاقة بمن عاشوا أو يعيشون هناك هي مفتاح المظلة.

- فكر معي، هل نضع غرضاً يخصُّ مملكة البلاغة ونذهب إليهم ونبث عن الخاطف أم ماذا؟



- لماذا لم تُخبرني أبي عن «بازنجانة»؟

توقفت «طيف» عن تصحيح اسمها، فقد يئست منه وقالت: «حاولت! و«نور» أخرستني، لقد كانت تبكي بهستيرية، أيضاً تكره «خولنجانة» وبخاصة بعد آخر زيارة لها إلى بيتنا عندما احترقت غرفتي».

- أبي كان سيفهم.

-رأيت كيف قال إنه لا يستطيع المجازفة بحياة «رواء»؟

- كان ينبغي لـك إخباره! أو حّى إخبار «أبادول».

- لا أطن «أبادول» يغفل عن هذا، السبب الحقيقي هو يعرفه.

- ما هو؟

- المظلة أحياناً تكون غداراً وقد تُخطئ بالفعل، وقد جرّبت هذا لأنّي لم أنجح في كل مرّة استخدمتها فيها.

- تُرى هل تعمل هنا أيضاً كما تعمل في مملكة البلاغة؟

- يقينًا لن تعمل هنا.

- كيف عرفت؟

- لقد حاولت تتبعك مرّة ووجدتني على سطح البيت هنا.

- لماذا تتبعيني؟

- ظننتك ستتزوج بأخرى.

- يا إلهي! ألم تكفي عن ظنونك تلك؟ لماذا سأتزوج بأخرى يا «طيف»؟



- زميلاتك في العمل يُرسلن إليك الكثير من الرسائل على الهاتف، وأنا... قاطعها قائلاً: «هاتفي دائمًا بين يديكِ بإرادتي وأنا أطلعك على تلك الرسائل لأنّها تخص العمل فقط وحديثي فيها بشكل رسمي وأنا حتّى لا أرفع الكلفة بيني وبينهنّ، وتعلميني أنّي لا أجيب على أيّ رسائل تنفرد بها إحداهن وأتجبّ هذا».

أمسك بكتفيها وطبع قبّلة على جبينها ووقفاً يتأنّلان ابنيهما.

قالت هامسة: «أخشي عليهمَا، إن لم ينجح عمّي «أنس» و«حمزة» في ردع «غُدفان» هذه المرة سنعيش دائمًا في حالة من الرُّعب».

- البيت هنا آمن بفضل الله.

- لن نظل خلف الأبواب الموصدة بتلك الأقفال إلى الأبد!

- أعلم هذا.

صمتا هُنّيهما ثمَّ قال «خالد»: «الحمد لله أنَّ المظلة لا تنتقل هنا في عالمنا، لا تخيل ظهورك وأنت تحملينها في مكتبي وسط زملائي».

- قلت لنفسي لأجرب!

- ماذا وضعت في جيبها لتتبعيني أيتها العبرية؟

- خصلة من شعر رأسك كنت قد قصصتها وأنت نائم.

- يا لجنون النساء!

ران عليهما صمت لطيف.

قال «خالد»: «لأجرب أنا المظلة وابقي أنت هنا بالبيت».

- لا أظنها ستعمل معك، فقد جربها أبي ولم ينجح، فهي ملكٌ لي، وفي الحقيقة...



- ماذا؟

- قبل زواجنا كنت أتنقل دائمًا مع «خولنجانة» في مملكة البلاغة في زيارات خاطفة.

رفع رأسه وأغمض عينيه في ضجر وقال: «يا إلهي! لا أحتمل رؤيتها مرة أخرى ولا أطيق رأيتها».

- لكنني أحبها! ولتعلم أنك تستطيع مُرافقتنا، ولكن أنا فقط أقودها من خلال الإمساك بها وفتحها فوق رؤوسنا، فقد صبحت أبي إلى مملكة البلاغة في إحدى المرات.

- إذن أنتَ من يتحكم بها لأنك المالكة، وتنقلك إلى المكان الخاص بالغرض المادي الموضوع بالجيب والمرتبط بمملكة البلاغة بشكلٍ ما.

- نعم.

- ماذا لو كان تفعيل أيّ أداة تخصُّ مملكة البلاغة هُنا الآن بالبيت يُعرضنا للخطر ويفتح ممّاً أو فجوة؟

- فكرت في هذا بالفعل.

- لِتُخبر الآخرين ونشاورهم.

- سيرفض عمي «كمال» حتمًا، وستعود «نور» إلى ثورتها.

- ما رأيكِ أن نسأل أيّ؟ فهي التي ستتولّ ، رعاية أبنائنا خلال غيابنا.

- لا أظُنّ خالي «مراٌم» ستتوافقنا، فهي حريصة للغاية على تنفيذ ما يطلبه منها عني «أنس» بحذافيره.

- هذا شيءٌ ممتاز! ألا ترين هذا؟



- أعرف وأحبّ هذا منها، فقط أفّكر معك بصوت مسموع.

- دعينا إذن نستشير عمتي «حبيبة» وعمي «يوسف».

- فلتفعل.

\*\*\*

## «حمزة»

جلست أنتظر وصول ذلك التاجر، كانت تتشابك في ذهني عدّة أسئلة، احتمم في ذهني حشدٌ من الذكريات وكان كل لحظة مرّت بي منذ ولادة ابني تحضر قصداً وبقوّة لتضغط على جرح قلبي. مرّ الوقت ثقيلاً على نفسي، وأخيراً بدأ أهل «بابل» يظهرون، كانت «بابل» تستيقظ ببطء، الحياة شرعت تدبُّ في المكان، راقبهم ورأيت كيف يسرون وكيف يربطون رؤوسهم ففعلت كما يفعلون بمنديل تركه لي «عمر»، طفق الباعة على جانبي الطريق في عرض سلعهم، جرار فخارية وتماثيل مختلفة للأحجام، وأدوات مختلفة، وحُليٌّ متنوعة من أحجار كريمة لم أر مثلها من قبل. ظهر التاجر وتعرّفت إلى عليه من البقعة الحمراء التي كانت تفترش نصف وجهه وكانت شعبـة من شعـاب المرجان قد التصـقت ببشرـته، كان نحـيـقاً وبسيـطاً في مظهـره، بدا لي أنه أصغر قليلاً من أبي، وكان يرتدي ثوباً دخـانـي اللـون أصـفـى علىـه مسـحة وقارـوسـكـينة، هرولـت نحوـه وهو يقف حـائـزاً وكـأنـه يـنتـظر أحـداً ليـعـينـه علىـالـبـيعـ.

ألقيت السلام وسألته: «أبحث عن عملٍ، فهل تستخدمني لأحمل بضاعتك؟».

ثقبـني بنـظـراتـ فـاحـصـة وـسـائـلـي: «أـنـتـ غـرـيبـ؟».

- نـعـمـ. تـعـلـمـ الحالـ هـنـاـ.



- أيتها المسكين.

وددت أن أسأله لم وصفني بهذا، لكنني آثرت الصمت.

قال وهو يمشط المكان بعينيه: «اعتدت ترك البضاعة لأحدهم لبيعها و كنت أنصرف لأنعود لاحقاً لتأسلم المال منه، لكنني سألازمك اليوم حتى تعتاد نظام السوق هنا».

وأشار إلى فتبعته حتى السوق وكان لا يزال خالياً، فهو يأتي مبكراً قبل أن يصل التجار الآخرون، بدأنا نرتّب بضاعته التي كان يحملها على دابته، أظهرت إعجابي بالأواني وطريقة صنعتها والتّقوش عليها، وسألته: «هل تصنعها بنفسك؟».

- لا.

كان يُراقبني خلسة فتجاهله، سأليه وهو ينظر إلى قدمي: «هل أعجبتك الأواني؟».

- نعم.

انتهينا فأجلسني ومال على رأسي وسألني: «أخبرني إذن، لماذا أنت هنا؟».

- للعمل.

- قدماك ليست بقدّي عامل، ولا يداك! تبدو منعماً ولم تعمل في حرف، أصدقني القول وسأعاونك.

لم أخف ولم يربكني سؤاله، فقد كنت يائساً أتلئف على قشة لأتعلق بها، فأجبته بحرص: «ضلت ابني الصّغيرة، وأنا هنا لأبحث عنها».

- كيف ضلت؟

- قيل لي إن الـ «سيروش» هم من اختطفوها.



- هم لا يخطفون الصغار، الوراقون هم فرائسهم.

انقضى قلبي في صدري عندما وصف الوراقين بالفرائس، لم أحب أن توصف ابني بأنّها فريسة.

لاحظ اضطراب ملامحي فقال: «ألم تسأل أهل المدينة هنا؟».

- لا، ولا أرغب في أن يشيع الأمر.

- لو ضاعت ابني لصرخت في الناس ليبحثوا معي، أخبرني بسرّك الذي تخفيه عيّي أيّها الغريب.

أخبرني أنّ لديه ابنة شابة من الوراقين وأنّه لا يعرف عنها شيئاً منذ عام، أخبروه أنّها قُتلت مع من قُتلوا من الوراقين، لكنّه لا يصدق ولا يستطيع منع نفسه من القدوم كل يوم على أمل أن يعثر عليها، حاول مراضاً اقتحام القصر لبيع لهم الجرار والأواني لكنّه فشل، فالحراس يمنعونه قبل أن يتخطّى حدوده. أمعنت النظر في وجهه وكان عليه علامات حزن نبيل، وعندما أدركت أنّ ما يؤلمني يؤلمه قررت أن أتخلى عن المراوغة والتحايل كما فعلت مراضاً في رحلاتي إلى مملكة البلاغة، فالأمر هذه المرة يتعلق بقرة عيني وابنتي ووجدتني أخبره بقصّتي.

سألته بفضول: «كيف شعرت ابنتك عندما ظهر طيفها؟».

- كان ذهنها نشطاً للغاية، أخبرتني بالكثير عن أجدادنا، وكانت تعرف الكثير عن الطب والأدب وتاريخ الملوك، حتّى الأشعار ردّتها بطلاقه.

- هل خافت عند بداية ظهوره؟

- قليلاً، لكنّها اطمأنت عندما بدأت التدوين، أليس هذا رائعاً؟

. أراه أمراً مُخيّفاً، عقلها كمنزل يجده بعضهم فريسة ويرغب في قنصها ليقضي عليها، أسأل الله أن يردها إليك، ويرد إلّي ابني.



- هل قلت «الله»؟

- نعم، الله الواحد الأحد.

- أخبرتني ابني أنَّ في ذهنهما ما كُتب عن هذا قبل بناء بابل، حتَّى إنَّها كتبت نصوصاً ذُكر فيها هذا على لسان نبي أرسله الله إلى البشر.

- نعم، ما اسم ابنتك؟

- «جولا».

- اسم ابني «رواء».

صمت هنِيَّة ثمَّ قال مستأنسًا بحديثه معي وقد أحبه أن يسترسل في الكلام عن ابنته الغائبة: «ابنتي رقيقة البنية وضعيفة، لم تؤذ أحدًا قط في حياتها، أخشى عليها من قسوتهم، وأحياناً أشعر أنَّها ماتت وهذا يؤلمني، لكنَّني أتندرُّ عندما نجت من الغرق، ومن حريق شبَّ بدارنا، ومن حمَّ شديدة، فأتعلق بهذا الأمل».

وجدتني أقول بثقة وكأنَّ جدِّي «أبادول» يُلْقِنِي الكلمات: «سينقذها الله كما يفعل في كل مرة وسينقذ ابني أيضًا».

مَرَ النهار ونحن نبعي الأواني، وكان يصف لي كل شاردة وواردة تخُصُّ أهل «بابل»، رأيت الـ «سيُرُوش» ومُرُوا بجواري فانخلع قلبي وأشفقت على ابني، كيف كان شعورها وهي ترى وحشاً كهذا يحملها ويختطفها؟ علمت أنَّ من يتجلبون بالقرب ممَّا هم من تأثرت أشكالهم فقط وبقيت عقولهم حَرَّةً. كدنا نُهْيَّ ببعض اعتنا وبقيت جرَّتان، فاقتربت امرأة أدركت من النظرة الأولى أنَّها من الأقزام، كانت ترتدي ثوباً مزرَّكاً كستنائي اللَّون، ابتعات جرَّة واحدة ممَّا وانصرفت، فسألت التاجر عنها فقال: «هذه «ميسيون» وهي من واحدة خادمات القصر، فجمِيع الخدم هُنَاك من الأقزام».

- عجيب أمرها!



- صار كلُّ ما يحدث في «بابل» عجيناً يا بني.

- لماذا تسير بسرعة وكأنَّها تهرب ممَّن يطاردها؟

- يسخرون منها في السُّوق. أتدرى؟ لم أبقَ في السُّوق منذ مدة طويلة كما فعلت اليوم، لقد شجعني على البقاء، كنت أترك بضاعتي وأفرُّ من المكان، فالجميع هنا يسخرون من وجهي.

فور أنْ أنهى عبارته بدأ بعض التجار يسخرون من وجهه، تعجبتُ منهم من أين أتوا بتلك الجرأة! وكيف يسخرون من شيء لا يملك أنْ يُغيِّره؟ ولا يملكون أنْ يمنعوه عن أنفسهم!

كان هادئاً وصابراً، بدؤوا يقتربون أكثر، ثمَّ انتقلوا إلى رشقه بالخضروات. وقفت قبلتهم وصحت قائلاً: «توقفوا! لماذا تفعلون هذا به؟».

ضربني أحدهم في صدري فدفعـت يده وأسقطـته أرضاً فأقبلـوا وأحاطـوا بي.

قال التاجر وهو يسحبـني من ذراعـي مُبتعداً: «ليس هناك داعٍ للشـجار».

- لماذا؟ أيجرؤ أحدهـم على رشقـنا «سيـروش» كما يفعلـون معكـ؟!

كادوا يفتكـون بي لولا صراخ «ميـسون» التي كانت تتبعـ مـنـ الجـرةـ منـذـ قـلـيلـ، فقد أقبلـتـ واصطـدمـتـ بالـرـجـلـ الذـيـ كانـ يـضـرـبـيـ فـسـقطـتـ الجـرةـ وـكـسـرتـ فـأـخـذـتـ تـصـرـخـ وـتـصـيـحـ وـتـبـكيـ بشـكـلـ هـسـتـيرـيـ، انـصـرـفـ الرـجـلـ فـأـرـأـهـ مـنـهـ، فـهـوـ يـعـرـفـ أنـهـ مـنـ خـادـمـاتـ القـصـرـ وـتـبـعـهـ رـفـاقـهـ خـوـفـاـ مـنـ الـ«ـسيـروـشـ»ـ أـقـبـلتـ عـلـيـنـاـ وـسـأـلـتـنـيـ:ـ «ـهـلـ أـنـتـ بـخـيرـ؟ـ»ـ.

- نـعـمـ.

قال التاجر: «شكـراـ لـكـ ياـ «ـميـسـونـ»ـ، لـقـدـ رـأـيـتـكـ وـأـنـتـ تـصـطـدـمـينـ بـهـ عـنـ قـصـدـ وـتـسـقـطـيـنـ الجـرةـ لـإـنـقـاذـ صـدـيقـيـ»ـ.

- أـرـيدـ الجـرةـ الـبـاقـيةـ.



- لك هذا وهي مجاناً.

حملتها في حضنها وكانت سعيدة للغاية، أطالت النظر إلى وجهي ووجه التاجر، همست لها قبل أن تصرف: «اللَّوَّاقُونَ» في المعبد، لم يقتلهم الجنود حتى الآن».

اجفلت عندما أخبرتنا بهذا، وكأنها كانت تُنصرت لحوارنا.

سألها التاجر وكان ينظر إليها بارتياح: «لماذا تُخْبِرِينَا بهذَا؟».

- لأطمئنك على ابنتك «جولا».

تبادلنا النظارات، كانت دقات قلبي تتواكب في صدري.

سألتها: «هل هُنَاك طفلة بينهم؟».

- لا! «رواء» ليست معهم، لكنّها بخير.

قال التاجر وهو يتلألأ في فلق: ««ميسون»! كيف تعرفي كل هذا؟».

حدّقت إلى وجهينا وقالت وهي تحرّك سبابتها في الهواء: «سأخبركم ولكن على شرط».

- ما هو؟

- أن تساعداني على العودة إلى عشيرتي أنا ومن معي من النساء.

قلت لأطمئنها: «أخبرينا بالحقيقة، وأعدك أن أساعدك قدر استطاعتي».

طلبت مثـاً «ميسون» أن تتبعها إلى مكان معزول على أطراف «بابل»، وعندما وصلت جلست على الأرض تنتظرنا تحت شجرة وارفة الظلـال، فهرولنا تجاهها وجلسنا أمامها.

قالت وهي تنقل عينيها بيننا بعد أن قلبت الجرة أمامنا على فوهتها وأسندت يديها



عليها: «أنا من عشيرة «الكنادرة»<sup>(١)</sup>، ونحن نعيش في أرض غرب «بابل»، داهم جنود الملكة أرضاً وقتلوا من استطاعوا الوصول إليهم من الوراقين، وأسروني ومن معى من النساء لنخدم في القصر، فسكن «بابل» يرفضون العمل بالقصر خوفاً من الـ«سيروش»، وهؤلاء الممسوخون لا يحسنون العمل بالخدمة، فهم فقط يجيدون القتل والتعذيب والقنص وكأنهم كلاب صيد، والملكة تُبعد من حفظت عقولهم منهم عن بلاط القصر لأنها لا تأمن جانبهم، لهذا جلبتنا لنخدم فيه».

- هل ألقت عليكم تعاوينها؟

رفعت حاجبيها المقوسين وقالت: «حاولت ولم تنجح، لا أدرى ما السبب! لكن تعاوينها لم تؤثر في الكثير من أهل «بابل» أيضاً، وبخاصة في تلك الجهة من المدينة حيث السوق وتلك البيوت، وعلى الرغم من هذا يخافونها».

- حسناً، حتى الآن لم تُخبرينا كيف علمت بتفاصيل حديثنا عن «جولا» و«رواء»؟.

دمدمت في تردد: «لدينا في عشيرتنا ميزات عديدة، منها قدرتنا على سماع الأحاديث من خلال الجرار والأواني المجوفة الموجودة بجوار من يتحدث، فهي تحفظ الأصوات ونحن نسمعها تتكرر».

- تقصدين الجرَّة التي ابتعتها مناً.

هزَّت رأسها موافقة وقالت: «دار حديثكم بداخلها واستطاعت سمعه وعلمت كل شيء عنكم».

سألها التاجر في تلهُّف: «هل سمعت بأخبار عن ابني «جولا»؟».

---

(١) كنادرة: جمع كندر، ورجل كندر تعني أنه رجل غليظ وقصير مع شدة، والكندرة أيضاً ما غلط من الأرض وارتفع.



- ليس بالتحديد، لكنني أعرف أنّها ومن معها بخير، فهم يرفضون إكمال التدوين لكي يُطيلوا مدة احتجازهم، وعندما يُجبرونهم على التدوين يُحطم أحدهم الألواح، ويبدو أنه شاب قوي وعنيف.

فُلت والهوا جس تدور في رأسي: «ماذا سمعت عن «رواء»؟».

- سمعت في إناء خبراً عن وصول مُحارب ليبحث عن ابنته، والآن أعرف أنك هو هذا المحارب، وسمعت أن هناك شاباً من الـ «سيُروش» الشرفاء هرب بها من «بابل» ليحميها.

- يا إلهي! ابني ليست هنا على أرض «بابل»؟!

- لست على يقين من هذا الخبر، لكنني أعدك أن أبحث في الأمر وأعود غداً لأطمئنك.

- كيف تسير الأمور بالقصر؟

- «عشتار» تغلي كالقدر، ترحب في سحق الوراقين وحرق الكتب والسجلات، وهذا شغلها الشاغل طوال الوقت.

وقفت بقامتها القصيرة أمامنا وقالت: «سأذهب الآن وسأعود غداً كما وعدتك، لانتنس أنت أيضاً وعدك لي أيها المُحارب، ستساعدني على الفرار من هنا لأعود إلى عشيرتي».

أقامت الجرّة بطريقة صحيحة فأدركت أنّها قلبتها في البداية حتّى لا تلتقط تلك الجرّة حديثنا من فوّتها فيسمع صداحاً من خلفها من النساء من عشيرتها الخدمات بالقصر، واحتضنتها بذراعيها القصريتين ومضت تسير بخطوات سريعة ومتقاربة، انصرفت وتركتني في قلق على ابني، وددت لو ظهر «عمر» لأخبره عن خروج «رواء» من «بابل» مع أحد الـ «سيُروش» الشرفاء، حاولت الخروج من «بابل» مرة أخرى فلم أتمكن، ظلَّ التاجر معي ليؤنسني، رافقني وأنا أفتتش وأمشط «بابل» من أولها إلى آخرها بحثاً عن أبي وأختي وزوجها ولم أعثر لهم على أثر، أرهقني طول المسير فابتاع التاجر طعاماً وعدهنا لتناوله في المكان الذي أرشدتنا إليه «ميسون»، تركني بعدها



وانصرف، فقد أخذ النهار يميل إلى الأفول، وبقيت أنتظر حلول المساء تحت الشّجرة، وصورة ابني «رواء» لا تفارق مخيالي.

\*\*\*

## أوروك

### «أنس»

أرسل الفجر رُسله ليُضيء جنبات المكان، وكان سعال «الحسن» قد أيفظني، بدت لي ملامحه الآن واضحة، كان شاباً لطيف المحيَا، رقيق البدن، قمحى البشرة، له لحية خفيفة وشارب رفيع وكأنه رُسم بقلم. رأيت شفتيه الرقيقتين تختلجان فوضعت يدي على رأسه فإذا به وقد أصابته الحُمَّى، أيقطعته وأعنته على السير معِي تجاه النهر، غسلت رأسه بالماء فانتفض من برودته، أُسقط في يدي ولم أدرِ ما أفعل، قررنا السير على صفة النهر بمحاذاة الغابة، كثُنا نسير ببطء، اقتربنا من حدود الغابة شيئاً فشيئاً فدللناها مُستأنسين بأصوات الطُّيور، لعلنا نحظى بشمرة فاكهة لهذا الشَّاب العليل، سحرتنا الغابة بأشجارها فتوغلنا فيها، أحاطتنا الثمار فقطفنا منها وتناولوا «الحسن» شيئاً يسيئاً وأكملنا طريقنا، بدأ يروي لي عن أخيه وكيف أنَّهما يعملان معه في فريق بحثي ويدرسون العلوم والهندسة والفلك في بغداد، وأنَّهم خلال مهمتهم لقياس قُطر الأرض التي كلفهم الخليفة بها تعرَّضوا ل العاصفة شديدة، وداهمتهم كوكبة من مخلوقات عجيبة يظنُّها من الجن، فقد كانوا يختفون فجأة ويظهرون وكأنَّ الأرض تتبعهم وتلتفظهم أمامهم في غمضة عين، ظهروا على هيئة رجال طوال وجوههم تُشبه وجوه الأسود وما هم بأسود، فرقتهم تلك المخلوقات وأطاحت بكلِّ منهم في جهة، حتَّى إِنَّه رأى أخيه يطيران مع الزَّياح ويختفيان، انتزعت منهم كتاباً كانوا يحملونه معهم حتَّى في رحلاتهم البحثية نظرًا إلى أهميَّة ما يدوِّنونه فيه.



ثمَّ قال بانفعال: «هُنَاكَ شَيْءٌ غَرِيبٌ، أَشَعَرَ أَنَّ الْأَجْوَاءَ حَوْلِي قد اخْتَلَفَتْ، وَكَأْنِي فِي عَالَمٍ آخَرٍ! ضَاعَ أَخْوَايٍ، وَضَاعَ كِتَابُ «الْجَيل»». .

طرق اسم الكتاب مسامي بقوَّة، حينها سأله و قد شعرت بقلبي ينبع في صدري: «ما اسم أبيك يا فتى؟».

- «موسى بن شاكر<sup>(١)</sup>».

عقدت الدَّهْشَة لسانِي، أَهْذَا الابن الأصغر من بني «موسى بن شاكر» حَقًا؟ كُنْت أعلم أَنَّه شَابٌ آخر يُشَبِّه الشَّابَ الَّذِي عَاشَ فِي عَالَمِنَا، وَأَمَّا هَذَا الَّذِي يَقْفَ أَمَامِي فَهُوَ مِنْ سُكَّانِ مَمْلَكَةِ الْبَلَاغَةِ، لَكِنَ الدَّهْشَةُ لَمْ تُغَادِرْنِي وَأَنَا أَقْفَ أَمَامَهُ. تَأْمَلْتَهُ طَوِيلًا وَهُوَ يَحْذِثُنِي عَمَّا يَفْعُلُهُ مَعَ أَخْوِيهِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هُوَانِهِ وَمَرْضِهِ لَمْ يَتَوَفَّ عَنِ الْكَلَامِ عَنِ التَّجَارِبِ وَالْمِيكَانِيَّكَةِ وَالْهِنْدِسَةِ وَالْفَلَكَ، وَكَانَ الْقَلْقُ يَنْهَشُ رَأْسِي عَلَى «رِوَاءَ».

سَأَلَنِي وَقَدْ لاحظَ شِرودِي: «مَا بَالِ الْهَمِّ مَعْقُودًا بَيْنَ حَاجِبِكَ يَا عَمَاهُ؟».

- خُطِفتْ حَفِيدِي وَخَرَجَتْ لِلْبَحْثِ عَنْهَا.

- رُبَّمَا تُجَارِي العَبِيدِ!

- بَلْ مَسْوَخٌ تُسَمَّى «سِيرُوش».

- أَلِيسْ هَذَا تَنِينُ «بَابِل» الْهَجَنِ الْمَنْقُوشُ عَلَى بُوَابَاتِهِ؟

- بَلِي.

- لَكَنَّهُ غَيْرِ مُوجُودٍ، كُلُّهُ أَسَاطِيرٍ.

---

<sup>(١)</sup> موسى بن شاكر الخراساني، من كبار الفلكيين الذين عاشوا في عصر الخليفة العباسى المأمون وقد اشتهر بإتقانه الأزياج الفلكية، كما اشتهر أبناؤه فيما بعد بالعلوم الفلكية والهندسة الميكانيكية.



- يقولون إنَّ ساحرة ألقت سحرها على بعض سُكَان «بابل» ومسختهم إلى هيئة «سيِّروش»، وهي تسكن قصراً من قصور «بابل» الآن.

- سنعثر عليها وعلى أخويٍ بِإِذْنِ اللَّهِ.

- أثق بِأَنَّ اللَّهَ سِيَحْفَظُهُمْ.

توقَّفَ وأمسك رأسه وقال بخفوت: «أشعر أنِّي سأموت يا سيِّد «أنس»،رأسي يؤلمني بشدة».

أجلسته بجواري ليستريح، من بعيد لاح لي جواد يحمل رجلاً بديناً فاستبشرت خيراً، لكنَ ثيابه كانت غريبة، وكأنَّه أتنا من قديم الأزل، حتَّى الجواد كان غريباً! حثثنا السير نحوه وعندما التقينا كانت نظراته إلى ثيابنا تحمل نظرات التعجب التي كانت تحملها أعيننا نفسها، فكلانا غريب عن الآخر، وأنا غريب عنهم!

كان الرجل وقوراً ذا هيبة، وكان حازماً في قراره السريع بأن يحمل «الحسن» خلفه على جواده عندما لاحظ مرضه، واستدار عائداً من حيث أتي، وسرت بجوارهما تجاه مدینته.

قال مُتعجِّباً عندما أخبرته بسامي واسم «الحسن»: «أسماء غريبة!».

- ما اسمك؟

- «شين أيقي أونيني».

همس «الحسن» من خلفه: «تقول عن أسمائنا غريبة!».

أدركت أنَّ الحال كما هو دائماً في مملكة البلاغة، عوالم عجيبة، يختلف كلُّ منها عن الآخر.

سألته: «ما اسم مدینتك؟؟».



- «أورووك»<sup>(١)</sup>.

- ما مهنتك؟

- أنا كاهن.

ثم قال بجدية شديدة: «سأخذكم إلى المعبد ليعالج هذا الفقى، سيعرض على «الآسو»<sup>(٢)</sup> و«الأسيبو»<sup>(٣)</sup>، وعِدِّنِي أَيُّهَا إِلَى «أنس» ألا تخرج أنت وصاحبك من المعبد، فأنتما من الغرباء، وكل مدينة هُنَا مملكة مستقلة بحد ذاتها، وأورووك أكبر مدينة في منطقتنا، وقد تؤذيان من حرس الملك الخاص، فهم لا يتوانون في قتل الغرباء».

\*\*\*

## الجدة

ظننت أن دورها في الحياة قد انتهى، وأن الأولان لترتاح. كان يكفيها مهام السحر التي أتعبتها كثيراً واستهلكت شبابها، منذ وفاة ابنتها وزوجها وهي تحدب على ابنتيهما «روكانا» و«أورماندا» لتربيتهما بعد أن نحت لهم كهفاً في قلبها وأقام فيه إلى الأبد.

غطّت الطعام بمنشفة من الكتان لمنع الذباب من أن يحيط عليه، وطفقت تُفكّر كيف تمنع نظرات الشباب من التطفل على حفيدتها الصغرى «أورماندا»، التي كانت

(١) أورووك: الاسم القديم لمدينة (الورقاء)، هي المدينة التاريخية للحضارة السومرية والبابلية بالعراق، وتعتبر أحد أوائل المراكز الحضارية في العالم التي ظهرت في بداية العصر البرونزي، وفيها اخترعت الكتابة وظهر الحرف الأول في العالم حيث كانت في بداياتها كتابة صورية ثم تطورت فيما بعد لتصبح الكتابة المسماوية وظهرت في هذه المدينة أيضاً ملحمة جلجامش.

(٢) الآسو: لقب سومري يُطلق على الطبيب المعالج بالأعشاب والعقاقير بعد التشخيص.

(٣) الأسيبو: لقب سومري يُطلق على المعالج الروحاني الذي يستخدم السحر.

- المصادر: ارتباط الدين بالطب في حضارة بلاد الرافدين للدكتور «بقة بلخير، أستاذ التاريخ بجامعة ابن خلدون.



لحسن الحظ غافلة عنهم، فهي لا تختلط بأحد وتکاد لا تخرج من البستان، كانت تخشى عليها من الوقوع في الحب، فالكثير من الحوذين والمُزارعين وباعة الحليب وحملة الماء يمرون عليهم بالبستان وقد يرونها، حتى الطبيب الشهير بمنطقتهم كان يمر متعللاً بالبحث عن عشبة يعالج بها علة ما ليراهما، لكنّها كانت تأمرها بالبقاء في البيت تتخبّط بين أنوثتها وطبعها الطفولي، وكانت تُطيعها دون اعتراض، وما عاد أحد منهم يرى طرف ردائها، آه لو وقعت في غرام شابٌ لا يُقدر ما رُزقت به من موهبة! أرادت أن تزوجها بشاب شريف الأرومة، ولكن من أين سيأتيها؟ ودّت أن تطمئن عليها كما اطمأنَّت على شقيقتها بعد زواجهما من «خاندان».

كان «خاندان» هو المفضل والقريب من قلبها، فقد وجدت فيه رجل العائلة المنشود، تسلم موقعه بالأسرة كسنِّد لها وكزوج لحفيدتها بحماس. بعد زواجه من «روكانا» صارت تستشيره في كل أمورها، فهو يملك ذهنًا حاضرًا وحصيفًا وملحوظاته دائمًا ثاقبة، كما أنه يحفظ الأمانة في حفيديثها «روكانا». لم تعد تقلق عليها، لكنّها قلقة على «أورماندا»، ليس لقلة نضجها فقط، بل لأنّها لم تُعطِها كل نجاعتها وخبرتها لكي تواجه الحياة بموهبتها من دون أن تتأذى. تركت الطعام الذي كانت تُعده وجلست مهدّلة الكتفين، لقد داهمتها ذكري أوجعتها عن تجربة تحطم من جرائها توازن حياتها، بدأت فأس الذكريات تنقب في تربة قلبها، لم تستطع التملّص من الآلام، شعرت بالإنهاك وأحسّت أنها عاجزة عن الكلام، اضطررت إلى وضع أحزانها في حقيبة سرية كي تُكابدها فيما بعد، كفكت دموعها واستعادت رياطة جأشها ونصبت ظهرها وحملت الطعام إلى بيت حفيديثها «روكانا».

«روكانا» الجميلة، التي كانت تشعر في وجود زوجها وكأنّها طفلة، فهو كل شيء في كونها الصَّغير، هو حبّها وسندّها ولذاتها الآمن، في كل المرّات التي شعرت فيها بالخوف كان صدراً مفتواحاً لها تختبئ فيه من كل مخاوفها، ولهذا خفضت له جناحها عندما أراد التّحليق، وبسط لها جناحه عندما أرادت السكون، أصبح الابن الصالح لجذّتها، فقد رأت فيه رجولة ودماثة خلقٍ فقرَّبته ووظفته ليقوم بأعمالها، وهي تعلم مكنون صدره وما يحمله من حب تجاه «روكانا»، فقد طفرت أحلامها من وهذه السّكون عندما مرَّ من أمامها كشهاب يمرق في كبد السماء، وكانت الجدة حاضرة لتقرأ هذا على صفحة وجهها اللطيف. كما كانت حاضرة عندما رنا إليها بنظرة هشّة



تسيل حبًّا وغراًماً فانزلقت الكلمات فوق وعيه وطلبتها للزواج عندما جفت آخر قطرة للصبر وكان لا يملك درهماً ولا ديناراً، وقفـت جدتها تُنـصـتـ إـلـيـهـ وـهـوـ يـبـعـثـ كـلـمـاتـهـ فيـ اـضـطـرـابـ شـارـحـاـ ماـ يـعـلـجـ فيـ صـدـرـهـ، خـافـضـاـ صـوـتـهـ عـنـدـمـاـ يـعـرـجـ بـحـدـيـثـهـ عـنـ الـمـالـ، رـافـعاـ لـنـبـرـتـهـ عـنـدـمـاـ يـتـحدـثـ عـنـ وـعـودـهـ، مـخـتـلـجـاـ وـهـوـ يـحـاـولـ وـصـفـ إـعـاجـابـهـ بـهـاـ، لـمـ يـكـنـ لـدـيـهـ رـأـسـ مـالـ سـوـىـ طـمـوـحـهـ وـأـخـلـاقـهـ وـحـبـهـ لـهـاـ. اـبـتـسـمـتـ الجـدـةـ التـيـ كـانـتـ تـعـرـفـ كـيـفـ نـشـأـ هـذـاـ الشـابـ فـيـ بـيـتـ طـاهـرـ لـاـ تـرـقـيـ إـلـيـهـ جـرـاثـيمـ الـفـسـادـ وـهـزـتـ رـأـسـهـ مـوـافـقـةـ وـكـانـاـ يـقـفـانـ فـيـ بـسـتـانـهـاـ، فـجـاءـتـ رـائـحةـ الزـهـورـ هـدـيـةـ لـحـوـاسـهـ. خـرـجـ مـنـ الـبـسـتـانـ مـسـرـعـاـ نـحـوـ دـارـ وـالـدـيـهـ وـكـانـهـ دـلـفـ بـوـابـةـ فـخـرـجـ مـنـ الـوـاقـعـ إـلـىـ بـعـدـ آـخـرـ، فـيـ الـيـوـمـ التـالـيـ عـادـ بـهـمـاـ وـهـوـ يـتـضـوـعـ بـعـطـرـهـ، عـنـدـمـاـ رـآـهـاـ اـنـتـفـضـ قـلـبـهـ فـيـ صـدـرـهـ كـآلـةـ مـجـنـونـةـ. جـلـسـتـ تـتـأـمـلـهـ عـلـىـ اـسـتـحـيـاءـ، أـنـفـ بـارـزـ وـعـيـنـانـ مـعـبـرـتـانـ وـحـاجـبـانـ مـقـوـسـانـ وـشـارـبـ أـنـيـقـ، كـانـ يـومـيـ بـحـرـكـاتـ حـاسـمـةـ وـيـتـحدـثـ مـعـ جـدـتـهـاـ بـرـصـانـةـ فـأـجـبـرـهـاـ عـلـىـ اـحـتـارـمـهـ.

كان الزواج بسيطاً ولهذا كان عظيماً، بني بيئاً صغيراً ببستان جدتها وملاه بالحب، ونال كلُّ منها حظاً من اسمه، فكان «خاندان» نبيلاً راقياً معها، وكانت «روكانا» شمسه الباسمة.

لكنَّها كانت عنيدة وكان هذا يُحنته، فهي منذ أن علمت بأنَّها لن تكون ساحرة كباقي نساء العائلة وهي ترغب في خلق عالمها الخاص، والآن ترغب في تعلم كل شيء بمنهم شديد، الصيد وركوب الخيل والزراعة وحتى المبارزة بالسيوف، وكانت تبذل جهداً عظيماً لتعلم، وكان يكره أن يراها تعاني، فتلك الحياة الخشنـة لا تلائمها، لكنَّها تأبـي أن تترك هذا الأمر. أصـبـيـتـ فـيـ يـدـيـهـ عـدـةـ مـرـاتـ وـكـانـ يـدـاوـيـهـ بـرـفـقـ وـيـرـجـوـهـاـ فـيـ كـلـ مـرـأـةـ أـنـ تـعـوـدـ إـلـىـ الدـارـ مـعـزـزـةـ مـكـرـمـةـ، لـكـنـّـهـاـ كـانـتـ تـلـحـ عـلـيـهـ وـكـانـ يـسـتـسـلـمـ فـيـ النـهـاـيـةـ، فالـبـسـتـانـ بـسـتـانـهـمـ، وـهـيـ تـشـارـكـهـ فـيـ الـعـلـمـ، لـكـنـّـهـ يـأـبـيـ لـهـاـ تـلـكـ الـخـشـونـةـ. كـانـ يـشـكـوـهـاـ لـجـدـتـهـاـ وـكـانـتـ تـخـفـفـ عـنـهـ قـائـلـةـ: «عـنـدـمـاـ تـنـجـبـ سـتـوـقـفـ مـنـ تـلـقـاءـ نـفـسـهـاـ وـتـنـشـغـلـ بـأـطـفـالـكـماـ».»

وحدث هذا بالفعل، فقد أرهقتها شهور الحمل، وعندما رُزقت بابنتها تحولـتـ إلىـ حـمـلـ وـدـيعـ، بـدـلـتـ نـشـاطـهـاـ فـطـفـقـتـ تـصـنـعـ فـطـائـرـ لـذـيـذـ الـحـشـوـةـ، مـتـمـاسـكـةـ وـلـدـنـةـ،



بعد تجاربها العديدة استطاعت إتقانها بمهارة فائقة، وكان «خاندان» يبيعها في أول اللّهار، وهكذا أصبحت تشعر أنّها تُساهم فرضيت نفسها وسكنت قليلاً. لكنَّ العناد بقي عالقاً بها ويُطلِّ أحياناً في أثناء حواراتها مع «خاندان»، وكانت تُجادله بحدٍّ أنيق، وهو يتغافل ويُغمض عينيه متظاهراً بالنعاس ليوقف الجدال، فهو يعشيقها ولا يرغب في إحزانها، وكثيراً ما كان يخرج ليُكردح حول البيت عندما كانت تُصرُّ على الجدال، تعلمت أن تسترضيه وكانت تخُج لتبث عنْه وهي تحمل صغيرتها وعيناها تحملان اعتذاراً وديعاً على استحياء، وكلما كانت الاختلافات تطفو على السطح كان أصلهما الطيب ينزعها بعيداً لتستمرُّ الحياة. فهو يعلم أنّها نقية السريرة وما تلك إلا هفوات، فهي تصبر على طباعه وعصبيته ولا تُفشي سره، وتُجلُّ والديه لهذا كان لديها رصيد عظيم في قلبها.

\*\*\*

## «أنس»

وصلنا أوروك، ودلغناها وسرنا في طرقات خارجية، فرأيت من بعيد رهطاً من الرجال الأشداء يُشيدون بناءً عظيماً ويصفون الأحجار بنظام وهندسة بدعة، وآخرون ينقشون الصور والعلامات على ألواح من طين ليُن بآداة كالمسمار يُمسكونها بخفة، وغيرهم يصنعون الأواني الفخارية الملوونة على دولاب يدور أمامهم، كثيًّا في «أوروك» العريقة، لو لم يكن قلبي يعتصر ألمًا على «رواء» لبقيت هنا ردها من الزّمن. وصلنا إلى المعبد، وبدأ «الآسو» الذي علمت أنَّه الطبيب الذي يعالج بوصفات طبية من أعشاب خاصة يفحص «الحسن» الذي صار يهذى من شدَّة الحمَّى ونحن في الطريق، وكان «الآسو» طبيباً شاباً بدا لي في أوائل العشرينات من عمره، سقوا



«الحسن» منقوع عُشبة ما، وصَبُوا على رأسه الماء، ومنحونا ثياباً من عندهم تُشبه ثيابهم.

أطعمة حسأ نافذ الرائحة صنعواه خصوصاً له، وكان يسند رأسه على صدرى، انتبهت حواسه بعد ربع ساعة تقريباً فأدركت أنه أثر الحسأ والدواء.

جلس أمامي وقال وهو يحدق إلى وجهي: «أين نحن؟».

- في «أوروك».

صمت هنيهة ثم قال: «لعلنا نجد شقيقاً «محمدًا» و«أحمد» هنا».

- سنبحث عنهما بعد أن تُشفى يا بني.

- أنا بخير. دعنا نخرج للبحث عنهما.

- اهدأ يا بني، ما زلت متعباً، حاول أن تنام قليلاً.

- ماذا أفعل في هذا؟

وأشار إلى رأسه وما زالت حدقته متسعتين، وقال: «سيد «أنس»، أشعر أن خلايا ذهني نشطة للغاية! رأسي يشتعل بالأفكار».

ثم أمسك بيدي متوسلاً وقال: «حدثني قليلاً يا عماء، أخبرني عنك وعن حياتك».

ثم أSEND رأسه على كتفي وهمس سائلاً: «لماذا لم تبتسم ولو لمرة واحدة منذ لقائنا؟».

تخشب لسانى في فمي، كنت محزوناً ولم يكن لدى الحماس لأخبره بأى شيء عن نفسي.

لاحظ شرودي وعزوفي عن الكلام فقال: «حسناً. سأخبرك أنا عن نفسي».



ازدرد ريقه بصعوبة وقال: «كان أبي يقطع الطريق ثمَّ تاب إلى الله، وصار صديقاً مقرّباً لل الخليفة «المأمون»، ثمَّ أتقن علوم الرياضيات والفلك واشتهر بحساباته الفلكية الدقيقة.

- ها أنت ماهر مثله.

لم أتلقَّ العلم عنه، فقد مات ونحن صغار، وعهد بنا إلى «المأمون» فتكفَّل بنا وفاء لأبي رحمة الله.

-- (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعفاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليرقولوا قولًا سديداً)، [سورة النساء، الآية ٩].

شد «الحسن» قليلاً وظننت الحمَّى عاودته، كدت أضع يدي على رأسه فوجدته يُكمِّل حديثه قائلاً: «نشأنَا نحن الْثَلَاثَةُ فِي رَحَابِ «بَيْتِ الْحِكْمَةِ»<sup>(١)</sup>». .

شعرت بمرارة في حلقي عندما تذَكَّرت سقوط «بغداد» وإلقاء كتب مكتبة «بيت الحكمة» في نهر دجلة حَقَّ استحال لونه أسود، وتجرعت المرارة في صمت وقلت له وأنا أتنزع الكلمات من حلقي انتزاعاً: «حذني عن مكتبتها، أرجوك صفعها لي جيداً».

لمعت عيناه وكأنَّه سيتحدث عن محبوبته وقال: «وَكَانَهَا مَدِينَةُ الْكِتَابِ يَا عَمَّاهُ! فِيهَا كُتُبٌ عَنِ الْعِلُومِ كُلِّهَا، وَمَلَائِينَ الْمَجَدَاتِ وَالْمَخْطُوطَاتِ، وَقَاعَاتٌ عَدِيدَةٌ لِلْمَلْتَقَيَاتِ الْعَلَمِيَّةِ، وَغَرَفٌ لِلْجَلُوسِ وَالْحَوَارَاتِ الَّتِي تَجْمَعُ كَثِيرًا مِنْ طَلَابِ الْعِلْمِ الَّذِينَ يَفْدُونَ مِنْ مُخْتَلِفِ بَقاعِ الْأَرْضِ».

---

(١) بيت الحكمة: أول دار علمية أقيمت في عمر الحضارة الإسلامية، أُسست في عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد، وأنْجَدَ من بغداد مقراً لها. كان أبي جعفر المنصور مهتماً بعلوم الحكمة، فُرجمت له كتب في الطب والنجوم والهندسة والآداب، فخصص خزانات للكتب في قصره لحفظها حَقَّ ضاق قصره عنها. عندما توَّلَ هارون الرشيد الحكم أمر بإخراج الكتب والمخطوطات التي كانت تُحْفَظُ في جدران قصر الخلافة. لتكون مكتبة عامة مفتوحة أمام الدارسين والعلماء وطلاب العلم وسهلاً بها بيت الحكمة، نشأ بيت الحكمة أولاً كمكتبة ثمَّ أصبح مركزاً للترجمة، ثمَّ مركزاً للبحث العلمي والتأليف، ثمَّ أصبح داراً للعلم تقام فيه الدروس وتحتاج فيه الإجازات العلمية، ثمَّ أُلْحقَ به بعد ذلك مرصداً فلكياً هو مرصد الشمسية.



هزرت رأسي لأشجعه ليُكمل فأضاف: «الأندية الأدبية أصبحت مُزيّنة بالذهب والفضة والعقيان والإبريز!».

- زينتها الحقيقية في رؤوس علمائها.

- الآن تُنقش الأشعار والحكم على السجاد وحمائل السيوف والجدران والسُّقوف.

- ماذا عن المساجد؟

- المساجد بالعراق ليست بيوقاً للعبادة فقط، بل هي معاهد للتعليم، يرتادها الشباب ليلتقطوا حول العلماء والأساتذة فيكتبون ما يتعلمونه، ولم يكتفوا بلون واحد من المعرفة، بل أخذوا بطرف من كل لون، نحن نُسمّيهم «المسجديين»، ولهم حلقات خاصة بالمساجد.

ثم سكت هنيهة وأردف قائلاً: «لقد حظيت تلك الطائفة بالاحترام والتَّوقير من الجميع، وبخاصة الخلفاء الذين أغدقوا عليهم بالأموال والعطايا».

- لا ريب أنَّه قد نبغ الكثير من الشعراء.

- نعم، وأغلبهم من الطَّبقة الْدُّنيا من الشعب، هُناك في «البصرة» شاعر فصيح أبوه طيان يضرِّب للبن، ويتميم آخر في «الكوفة» أظنه سيكون علماً من الأعلام، أمَّه تغزل الصوف لتعوله.

- بوركت العراق وأهلها.

- انتشرت المجالس الأدبية وشهدت معارك حامية الوطيس، احتمم فيها النقال، فهناك تتناطح الأفكار، وأهل بغداد يتبارزون بألسنتهم الفصيحة، وقد يُخمر الرأي العقل فيشرد، فيحتاج إلى من يرده إلى الحق.

- هذا خطير!

- بغداد تموج بالناس الذين اختالفت مشاريهم، وتخالفت مآربهم، وزخرت بأنواع



المعارف والفنون، فيها القراء والمتصوفة وعلماء اللغة والفلسفه.

- أخشى ما أخشاه من الفلسفة!

هزّ رأسه موافقاً وقال: «مررتُ ببعض الفتياں بأحد أروقة بيت الحكمه في «بغداد»، يتناقشون في أمرٍ ما، وعندما وقفت معهم مللت من فلسفة بعضهم، كدت أنصرف لولا أحدهم قد جذب انتباھي بفصاحته وعقله وحكمته، وإذا به الفتی الذي عرفناه منذ سنوات، إنه «أحمد بن حنبل»».

«عزيزي القارئ، إن كنت تقرأ هذه النسخة على شكل كتاب مطبوع فتأكد من أنك تقرأ نسخة مسروقة وليس لمن طبعها الحق في البيع والشراء.. وهذه النسخة بالأصل هي نسخة إلكترونية تم تجهيزها من فيليق مكتبة ضاد الإلكترونيه على تطبيق تيليجرام! فتأكد من أنك تحمل هذه الرواية وتقرأها من قناتنا الرسمية. نعتذر على المقاطعة، قراءة ممتعة..

- ماذا؟! «أحمد بن حنبل»؟!

- وهل تعرفه؟

- سمعت عنه. ولكن كم عمره الآن؟

- ستة عشر عاماً، فقد ولد بعد وفاة أبي بسیع سنوات، مسکینه أمه، هي من ترعاھ وتتنفق عليه الآن، أخبرني أنه سيرحل إلى «البصرة» بعد أن ينتهي من دراسة الفرع الذي يدرسه من العلوم ليطرق باباً آخر من أبواب العلم.

- لا رب أَنَّه أحسن الرد على هذا الأمر الجدالی.

- نعم، ولكن... أتدری؟ دراسة علوم الفلك والهندسة أيسر على عقلي من کلام الفلسفة.

- الحديث في الفلسفة يُشبه السير على حد السيف يا بني، ولا ينبغي لنا الخوض في الأمور الشائكة وبخاصة إن لم ندرس العقيدة بشكل صحيح.



- لكنَّ الحق يعلو دائمًا، وعلى أي حال، لم يبق عالم صالح في بغداد إلَّا ونال جائزة من الوالي وَكُرْم، وهذا يعني الكثير.

ازدحم رأسي بكل ما قرأته في التاريخ عن الفتن، قلت في حسرة: «لن تهدأ الفتنة، وستظل تتوالى كقطع الليل المظلمة».

ذبل وجه «الحسن» وشجب لونه، وسريعاً ما وهنت أنفاسه، تحسست جبينه فإذا بحرارته عادت ترتفع، سقيته بعض الماء ورجوته أن يكف عن الحديث ليهدأ، صار يئن ويتألم فسمعه أحد الكهنة فاستدعي الطبيب أو «الآسو» كما ينادونه، فأقبل مسرعاً وعندما رأاه يتوجّع من رأسه سقاوه مشروباً آخر وجلسنا نُراقبه، فاستسلم وسكن وكان يضحك ويهلوس، فسألت الطبيب: «ما هذا المشروب؟».

- «مفتاح القلب الفرح والكبش الرَّاضي»، وهو شعير مخمر، يُطهى حتَّى يُصبح كثيفاً ثمَّ يُرِشَّح، له أثر عجيب على البدن والروح.

همس «الحسن» وعيناه مغلقتان: «يا إلهي! أسكرتموني!».

أصبت بالذهول وجلستُ وعلى رأسي الطير، خلد «الحسن» إلى النوم فقد كان مُتعباً للغاية، وبدأت أشعر بالقلق، وندمت على ثقتي بهذا الكاهن وطبيبه.

أتي «الأسيبو» وكانت عليه ثياب غريبة ملوَّنة، وكان يُرغني ويزيد ويردد تتممات وحلقة سخيفة من النحاس عالقة بأنفه ترتجف مع أنفاسه المتسارعة بينما ضُمِّرت لحيته بشرط ملوَّنة! وبدا لي أنَّه يُعزم بكلمات غريبة فأدركْت أنَّه سحر، فطلبت من الكاهن أن يصرفه ففعل بهدوء وكنت أتوقع غير هذا منه! وتركونا وحدنا. رقيت «الحسن» بآيات من القرآن وجلست بجواره حتَّى هدأت أنفاسه المتسارعة فتحسَّست رأسه ووجدت حرارته قد انخفضت وكان قد تعرق بشدة.

كان «الآسو» يجلس في غرفة مُجاورة وينقش شيئاً على لوح من الطين فدنوت منه وسألته: «هل تسمح لي أن أسألك عمَّا تكتبه؟».



- أعمل على تكوين سجل طبي لينتفع به الأطباء من بعدي، واليوم أكتب عن مرض يُصيب الأطراف، تمكنت من علاجه بخلطة من منقوع الأعشاب.

تلقتُ حولي فوجدت الكثير من الألواح، اقتربت منها وكانت مُبهمة لي، تحسستُ الألواح الطينية اللينة التي لم تجف بعد، وكانت أعرف أنّهم يصنعنها من الطين ويكتبون عليها ثمَّ يحرقونها فسألته: «لماذا تكتبون على تلك الألواح؟ ألم تسمعوا عن ورق مصنوع من النباتات؟».

سمعنا أنَّه يُصنع في بلاد نائية من ورق نبات البردي، لكنَّ الورق يفنى، والجلود تهلك، وأنا أرغب في أن يخلد علمي لسنوات طوال.

وقفت أتعجب من إصراره على تخليل علمه لي ينتفع به أجيالٌ أخرى، علقت في فقاعة وابتلعتني حيرتي وأنا أنفكَّر في حالنا بمملكة البلاغة وكيف نتحدث معًا بالعربية الفصحى! وتساءلت في نفسي هل ما يخرج من فمه وينطقه لغة عربية بالفعل؟ أم هذا من سحر مملكة البلاغة العجيبة؟ وهل أنا أسمع ما يقولونه بلغتي الأم، ويسمعون هم ما أقوله بلغتهم السريانية كما يحدث في الأمازيغية والنوبية!

شردت طويلاً فسألني: «ما بك؟».

- لا شيء. هل تكتب عن الطب والأعشاب فقط؟

- بل وعن الأدب. هل تحب الشعر والقصص؟

- نعم.

أشار إلى مجموعة من الألواح المصقوفة بعضها فوق بعض بركن الغرفة وقال وهو يمسح يديه من أثر الطين اللين: «أنسخ نصاً دينياً أعجبتني القصص التي وردت به من تلك الألواح الخاصة بكير الكهنة، وذلك قبل أن أعيدها إليه، فقد استعرتها منه، وددت أن أحافظ بنسخة منها لنفسي».

- عن أي شيء تتحدث تلك النصوص؟



- تحكي عن ملك من ملوك «أوروك» يقولون إنَّه الخامس لها، وهو الذي بناها هكذا كما رأيتها لتتميز بأسوارها العالية وجمال مبانيها فعمل واجتهد لكي تكون أقوى من أي مدينة أخرى حولنا.

- «جلجامش<sup>(١)</sup>».

- أتعرفه؟

هززت رأسي فقال وهو يُحدِّق إلى الألواح أمامه: «كان خارقاً!».

- كيف؟

- ثلثه بشر وثلاثاه إله.

- هذا مُحال!

التفت نحوي وحَدَّق طويلاً إلى وجهي ثمَّ عاد إلى التدوين، فقلت وأنا أراقبه: «هل تصدق حقاً أنَّه إله؟».

- لا، فقد مات، والإله لا يموت!

- لا وجود لآلهة تمشي على الأرض، إنَّما هو إله واحد في السماء.

هزَّ رأسه وقال دون أن يرفع عينيه عن اللوح: «شاع هذا في البلاد، والكثير يصدقونه».

---

(١) جلجامش: هي ملحمة شعرية سومرية مكتوبة بخط مسماري على ١٢ لوحاً طينياً، وجلجامش يُعتبر خامس ملوك أوروك حسب قائمة الملوك السومريين، ويوجد أكثر من نسخة منها أقدمها تعود إلى الحقبة السومرية، لكن أكثرها اكتمالاً تعود إلى الحقبة البابلية، كُتبت منذ نحو ٢٨٠٠ / ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد اكتُشفت لأول مرَّة عام ١٨٥٣ م في موقع أثري اكتُشف بالصدفة وعُرف فيما بعد أنَّه كان المكتبة الشخصية للملك الآشوري آشوريانبيال في نينوى في العراق، وكان يحتفظ بالألواح الطينية التي كُتبت عليها الملحمة، والألواح محفوظة في المتحف البريطاني ومكتوبة باللغة الأكادية، ويحمل في نهايته توقيعاً لكاهن اسمه «شين أبيقي أونيني» الذي يتصور البعض أنَّه كاتب الملحمة التي يعتبرها البعض أقدم قصة كتبها الإنسان.



- دسَّ أحدهم السُّموم في أدمنتهم.

- ماذا تقصد؟

- الوهم. الوهم أحياناً يتسلل إلينا من أفواه الآخرين، تارةً عندما نسمعهم ونصدقهم وهم غير أهلٌ لذلك، وتارةً عندما نقرأ ما يكتبوه فيخدعوننا، حتّى سُلِّم رؤوسنا للوهم؟!

- لا تقلق أيها الـ «أنس»، سأعمل لتحليل وفهم رموز هذا النص.

ابتسمت من لقبي الجديد الذي صاروا يُنادوني به، الـ «أنس»!

قلت موضحاً له وقد بدا لي أنه يُعمل عقله: «هي ملحمة شعرية فريدة من نوعها وملحمة بالخيال، قد تُدرّس للشعراء والأدباء، علينا الاعتراف بأنَّ ما يخص الآلهة بها مجرد رموز وضرب من ضروب الخيال، «عشتار» هي الْدُّنيا، وتلك الملحمة تحكي صراعات النُّفس البشرية».

كان يُنصت لي وعيناه عالقتان باللَّوح وكأنَّه مُنومٌ.

همس وهو يُدوّن: «سأكمل تدوينها على كلٍّ حال فأنا أجمع الألواح لأكون مكتبي الخاصة».

جلست أرافقه وهو يكتب بعد أن انسحب من النقاش بوقار، كانت الانفعالات تتغير على ملامحه تأثراً بما سمعه ميًّا، تذَكَّرت تفاصيل تلك الملحمة الشعرية الشهيرة، وجلستُ أهُزُّ رأسِي تعجُّباً من خيال مؤلفها الجامح وكيف تواردت تلك الصور التي قرأت عنها سابقاً على ذهنه ليصف الصراع بين «جلجامش» و«أنكيدو»، فكتبها ليخلدها التاريخ، ملحمة «جلجامش» التي لا تخلو من زعم وجود آلهة وأبناء آلهة على الأرض! وكيف كانت تُعبد قديماً ك «مردوك» و«عشتار» وغيرهما، وكما كان المصري القديم أيضاً يعبد «آمون»، و«رع»، و«حورس».



حمدت الله على نعمة الإسلام وأنا أقف أمامه، اقتربت وكانت نفسي تلُّحُّ علىَ  
لأنَّ الحديث معه أكثر، لكنَّ صوت جدِّي «أبادول» انسَلَ إلى رأسي بهدوء وهو يقول:  
«أعلم أنَّك ترَغب في نقاشِه، ولكنَّ ليس الآن يا «أنس»، لا تلتفت الأنْظار إلَيكَ وَاخْرُجْ  
سريعًا إلى «بابل»».«

وقف «الآسو» فجأة واستأذنني في الخروج ليتفقد حال زوجته ببيتها، عُدْتَ إلى  
حيث كان «الحسن» غارقًا في سباتٍ عميق وجلست بجواره فأخذتني سِنة من النوم.

\*\*\*

## «فرح»

لم أدق طعم النَّوم، فقد كنت غاية في القلق على أبي وأخي و«سليمان»، حاولت أن  
أغمض عينيَّ، وكلما أوشكت على النَّوم كانت «مورال» تستيقظ وتبكي وكنت أسمع  
أمها وهي تهددها. مرَّ وقت قبل أن تطرق «روكانا» الباب لتوقظني.

قالت وهي تدفع الباب برفق: « جاءت جدِّتي وتودُّ أن تراكِ ».«

خرجت معها إلى البستان الذي أسقطني فيه الصَّقر الليلية الماضية، كانت هناك امرأة  
عجزت ترتدي ثوبًا حنطليًّا وتلفُّ رأسها بشالٍ من الصُّوف عليه زخارف ملوَّنة، كان لها  
وجه مُتعَضِّن بأيام العُمر وسنواته، ولاح في ملامحها بقايا جمال يُعافِر ليبقى، بدت  
الصَّغيرة «مورال» فرحة بوجودها وكانت تصْحَلُّ كثيًّراً، عندما وقفت أمام الجدة



تأملتني طويلاً بعد أن تبادلنا التحية ثمَّ أمسكت بيدي واحتضنتها بكفيها، لم أرُّ أي ذكريات لها! بقيت ساكنة هنية، لولا مشهد لها وهي تركض خائفة من شيء يطاردها مَّرْ بذهني لظنت أنَّني تخلصت من ميراث «طرجهارة».

تركت يدي فجأة وقالت: «أنتِ إذن حفيدة «أبادول»».

أتعرفينه يا جدَّتي.

- أخباره لا تُخفى عن جيلنا، كان محارِّاً شجاعاً في شبابه.

قالت «روكانا» وهي تضع خبزاً شهياً أمامنا: «لقد أخبرت جدَّتي بما حكите لنا».

هززت رأسِي والتفت نحو وجه جدَّتها ووجدتها لا تزال تنظر إلي بتمعن.

أردفت «روكانا» قائلةً: «هل سترحلين إلى «بابل» للبحث عن أفراد عائلتك يا فرح»؟.

- أخشى ألا يكونوا هُناك، رُّيما هم في «بغداد» أو «الكوفة»، أو...

قاطعتني الجدة قائلةً: «سأحاول البحث في الأمر أولاً».

- كيف؟

تجاهلت سؤالي ولم تُجبني، أزعجني هذا الغموض منها وأصابني التَّوْرُّثُ لكنني لم أظهر هذا قط. تناولت الجدة الإفطار معنا، استعذبت نسمات الهواء الباردة والجلوس وسط البستان وهو يعقب برائحة الريحان، كان الجو رائقاً، لولا نقرُّ في صدري وغمٌّ لم يغادره منذ اختفاء ابنة أخي لكان لوجودي هُنا شأن آخر.

رشفت الجدة رشفة من قدح الحليب الساخن الذي قدمته لنا «روكانا» وقالت: «كنت أنتظر وصولكِ».

- أنا!



- نعم، سأخبرك بعد أن أتيقّن من وجود أفراد عائلتك في «بابل».

- ولكن كيف ستعرفين؟

ران علينا صمت قصير، لاحت على وجه «روكانا» ابتسامة فمالت على قائلةً:

«سأخبرك بسر عن جدّتي».

- ما هو؟

تبادلـا النـظـرات قبلـ أنـ تـهمـسـ: «جـدـتيـ سـاحـرـةـ!».

أردفت وهي تُراقب تعابير وجهي: «لـكـنـهاـ سـاحـرـةـ طـيـبـةـ،ـ فـيـ الحـقـيـقـةـ أـيـضـاـ رـحـمـهـاـ اللـهــ.ـ كـانـتـ سـاحـرـةـ،ـ وـكـذـلـكـ أـخـتـيـ وـرـثـتـ عـنـهـمـاـ تـلـكـ الـمـهـارـةـ،ـ أـمـاـ أـنـاـ فـلـمـ أـرـثـ هـذـاـ عـنـهـمـ،ـ رـُبـّـمـاـ تـرـثـهـ اـبـنـيـ،ـ لـأـدـرـيـ!ـ».

تغيـرـ وجهـ الجـدةـ،ـ كـانـ الحـزـنـ بـادـيـاـ عـلـىـ مـلـامـحـهاـ.

قالـتـ «روـكانـاـ»ـ وـهـيـ تـضـعـ بـدـهـاـ عـلـىـ كـتـفـهـاـ:ـ «ـرـعـتـنـاـ جـدـتيـ بـعـدـ وـفـاةـ والـدـيـ.ـ خـرـجـاـ فـيـ قـافـلـةـ تـجـارـيـةـ وـقـتـلـاـ بـشـكـلـ وـحـشـيـ وـلـاـ نـعـرـفـ حـقـيـقـةـ الـآنـ مـنـ قـتـلـهـمـاـ،ـ وـكـنـتـ وـشـقـيقـتـيـ فـيـ أـمـانـتـهـاـ حـيـنـهـاـ،ـ كـنـاـ نـجـلـسـ بـجـوارـهـاـ كـهـرـرـتـيـنـ صـغـيرـتـيـنـ ضـئـيلـتـيـنـ عـنـدـمـاـ وـصـلـ إـلـيـهـاـ الـخـبـرـ،ـ لـأـنـسـيـ أـبـدـاـ دـمـوعـهـاـ،ـ اـحـدـوـدـيـتـ عـلـىـنـاـ وـرـعـتـنـاـ وـهـأـنـدـاـ قـدـ تـزـوـجـتـ وـأـنـجـبـتـ»ـ.

- رـحـمـ اللـهــ وـالـدـيـكـ ياـ «ـرـوـكانـاـ»ـ.

كـادـتـ الـجـدـةـ تـُخـبـرـنـيـ بـشـيـءـ لـوـلاـ دـلـوفـ فـتـاةـ مـلـيـحـةـ الـوـجـهـ كـانـتـ تـهـرـولـ نـحـونـاـ كـالـفـراـشـةـ.

سـأـلـتـهـاـ الـجـدـةـ وـبـدـاـ عـلـيـهـاـ الـقـلـقـ:ـ «ـمـاـ بـكـ يـاـ «ـأـورـمـانـدـاـ»ـ؟ـ»ـ.

نـظـرـتـ إـلـيـ وـسـأـلـتـهـمـاـ:ـ «ـمـنـ هـيـ؟ـ»ـ.



- إنّها «فرح» وهي من المُحاربين.
- حقاً؟ وددت دائمًا أن ألتقي أحدهم.
- عادت تسأل جدّتها بعفوية دون تحفظ: «هل أتحدّث أمامها يا جدّتي؟».
- أنتِ في أمان، «فرح» تعرف أئّك ساحرة.
- لمعت عيناهَا وقالت: «الحقيقة أميّرًا الآن».
- أين؟
- هنا في البستان خلف بيتنا يا جدّتي، لم تُشاهدنه وهو يخرج من البستان؟
- تحسّست الجدة جيّنها ثمَّ قالت وهي تلکّزها في كتفها: «كَفَى عن أحلام اليقظة».
- صدقيني، رأيته وتحدّث معه، كان قوياً وطويلاً ويحمل قوساً وسهاماً وأخبرني أنَّ امه ساحرة.
- غضّنت جدّتها حاجبيها وقالت: «تعلمين أنَّ ساحرات أرضنا لا يُنجبن إلَّا البنات».
- قال إنَّه ليس من أرضنا.
- ما اسمه؟
- لا أعرف. لقد خرج غاضبًا عندما ألقيت عليه تعويذة وأسقطت شعر رأسه.
- يا إلهي! هل آذاكِ لكي تفعلي هذا؟
- لا. لكنّي فزعت عندما رأيته، كما أنَّه كان يُراقبني حُلسة، وجذبني أردد تعويذة الفناء دون تفكير.



- ألم أخبرك ألا تنطق بتلك الأسماء وألا تعوّدي لسانكِ عليها؟ ألم نتفق على تسميتها بتعويذة الصحن الخالي؟

- آسفة يا جدّتي، على العموم صار رأسه خالياً من الشعر كالصحن الخالي.

أخفت فمها الرقيق بيدها وهي تبتسم في خجل فضحكتنا جميعاً.

قالت جدّتها بجدية: «غريب أنّه لم يتلاشَ في الهواء ما زالت قواكِ كامنة يا «أورماندا»، اجتهدي أكثر فقد صرتِ فتاة ناضجة، أخبريني، ما أخبار التدريبات؟».

- آه يا جدّتي، تعبت من تكرار التجارب نفسها، سأحرق بستانكِ يوماً ما بسبب إخفاقاتي المتكررة، أخبرتني مراً أن أستخرج مهاراتي وأستخدمها لكنّي فشلت، رُيّما السّحر الأبيض ليس لي.

- شيشش، لا ترفعي صوتكِ، لا بد أن نخفي الأمر كما أخبرتكم، لقد وُهينا هذا السّحر لنُساعد الناس لأنؤذيهم، والناس لن يدركون هذا ولن يصدقوه لهذا نحن دائمًا عرضة للقتل.

- ماذا أفعل لو عاد مع أمه؟

- لا أظنه سيعود، ولو أراد أذىكم لفعل، ألم تخبريني أنّه قوي ويحمل قوسًا وسهامًا؟

- بلى.

- لن يعود.

بقيت «أورماندا» ساهمة حالمه ولزمت الصّمت لدقائق ثم انطلقت تسألني بفضول من أين أتيت وما قصتي، انشغلت «روكانا» بشؤون بيتها، وانشغلت معها الجدة وبقيت «أورماندا» معي، أحبتت النظر إلى وجهها البريء وعلامات الاندهاش تطفو عليه كلما أخبرتها بشيء عنّا.

وفجأة! اقترب شابٌ طويل القامة يربط رأسه بعصابة زرقاء.



قال وهو يحنّ رأسه ليحييّني بتوقير شديد: «آنسة «فرح» كيف حالك؟».

- الحمد لله، ولكن... أتعرفني؟!

وقفت «أورماندا» تثب في مكانها من شدّة التوتُّر وكأنَّها عقرب ثوانٍ يتواكب.

سألني الشَّاب: «ألم تذكريني؟».

رنوَت إلَيْهِ ولم أعرفه، فقلت وأنا غارقة في حيرتي: «لال».

- أنا «طيفور»<sup>(١)</sup>، أصغر أبناء «الزَّاجل الأزرق»، التقينا عندما عدتم من «سُقُطري»، ودار بيّني وبين «سليمان» حديث طويل، وتجوَّلنا معاً حول قصر جدّي «الحوراء» هنا، كنت حينها تلتصقين بجذع والدكِ وتحيطينه بذراعك وتسيرين معه خطوة بخطوة، بدا عليك القلق والخوف حَتَّى إنَّمَّا لاحظت هذا.

- الآن تذَّكرت، لكنَّي لم أعرف اسمك حينها، مرحباً «طيفور»، الآن اطمأن قلبي لوجود «المغاتير» معنا على أرض الرَّافدين.

همس قائلاً: «في الحقيقة... أتيت وحدِي».

- وأين البقية؟

- لقد تسلَّلت إلى أرض الرَّافدين دون علم أبي.

- لماذا؟

---

<sup>(١)</sup> طيفور هو ظائر صغير يُشبه العصفور له منقار مميز. وأطلق لقب (ابن طيفور) على أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر الماروزي، وهو مؤخّر وأديب وجغرافي مُسلم ولد في بغداد، وهو صاحب أول مؤلف تاريخي عن بغداد وهو (تاريخ بغداد).



- تدور الآن معارك طاحنة بين جيش «المغاتير» وجيش مملكة الديجور بقيادة «غُدفان»، فقد عاد بعد أكابر والدي وأشقائي هُنّاك على حدود مملكة البلاغة.

- لن يُهزم «المغاتير» بإذن الله، أخبرني، كيف حال من بالقصر؟ وكيف حال جلاة الملكة «الحوراء»؟ ووالدتك الملكة «زمردة»؟

كانت «أورماندا» تُنصلت باهتمام شديد، تبادلت النّظرات مع «طيفور» الذي قال لها وهو يُشير إلى: «أسمعتِ؟».

- هل تعرف «أورماندا»؟

- التقينا منذ قليل.

كانت الجدة قد انضمت إلينا وأنصبت لكلام «طيفور»، فسألته: «أنت إذن ذلك الشّاب الذي أسقطت «أورماندا» شعر رأسه؟».

قال وهو يمسح على رأسه الخالي من الشعر: «للأسف أنا!».

ضحكَت الجدة لأول مرّة منذ لقائِي بها فأشرق وجهها.

قلب «طيفور» شفتِيه مُتسائلاً: «أورماندا»! اسم غريب!».

غضّبَت «أورماندا» جيئنها وقالت بعصبية: «ليس أقل غرابة من اسمك! طويل القامة وأسمك «طيفور»!».

كانت «أورماندا» تتخبّط بين أنوثتها ورقتها وطبعها الطفولي، أدركت أنّ لقاءهما لم يكن وردياً، تجاهل كلّ منهما الآخر، عاد «طيفور» ليجيئني عن سؤالي قائلاً: «أمي وجدتِ بخير، وهما أيّضاً لا يعرّفان بوصولي إلى هنا، أحبيت اللقاء بعائلة «أبادول» مرّة أخرى، والوقوف بجواركم في تلك المحنّة».

- هل يعلم جدي «أبادول» بما تفعله؟



- لا، عندما وصل الخبر إلينا في القصر عزمت على الرحيل ولم أخبر أي شخص بوجهٍ، إلّا صديقاً واحداً.

- من هو؟

- «الرمادي»، فأنا لا أستطيع التواصل مع الصُّقور السوداء، فكما تعرفين هي صقر مقاتلة لها مهام خاصة، وهي الوحيدة التي تستطيع اقتحام سماء «بابل».

رفعت بصرى إلى السماء وسألته: «ما الذي يختلف في سماء «بابل»؟ أليست كلها سماء مملكة البلاغة؟ لماذا الصُّقور والهداهـد لا يحلّقون هنا؟ لماذا فقط تحلق الصُّقور المقاتلة؟».

- لدىَ الكثير من الأسئلة عن أرض الرَّافدين، فهناك الكثير من الأسرار التي لم أعرفها عنها حَتَّى الآن.

- ظننتك ستعرف خبایها لأنك تعيش في مملكة البلاغة.

صمت هنية وسألني: «أين باقي أفراد العائلة ممّن أتوا معك؟».

- لا أدرى، فرقتنا الصُّقور. سأرحل إلى «بابل» للبحث عنهم.

قالت الجدة بجدية شديدة: «فرح»، ابقي هُنا مع «روكانا» يا بنقى، ولا تُعرّضي نفسك للخطر، ولا تخرجي من البستان قبل أن أعود إليك».

وأمسكت بذراع «طيفور» وقالت له: «لا تتركها وحدها حتّى يظهر زوجها أو أبوها، هي الآن في أمانتك».

سأفعل باذن الله.

مضت الجدة نحو بيتها في الطرف الآخر من البستان، أعادت «روكانا» إلى حقيبتي ومطرقتي وهمست لي: «أشعر أن جدّي تخفي عنّا شيئاً ما!».



جاء «خاندان» والتقى «طيفور»، وابتعدا وهما يتبادلان الحوار، كان «خاندان» متوجّسًا من هذا الغريب الذي اقتحم البستان، فانطلق يستجوبه ويختبره بطريقته الحذرة، وبقيت «أورماندا» شاردة بجواري.

\*\*\*

### بيت «أبادول»

كانت «حبيبة» تُنصلت لـ«طيف» بتركيز شديد، بينما أخذ «يوسف» يمسح زجاج عويناته وهو يتفكّر في تواضع ما يُخطط له «خالد» وزوجته.

قالت «حبيبة»، بحماس: «ماذا تنتظر يا «خالد»؟ اذهب وعاون أخاك في إنقاذ ابنته!».

قال «يوسف» بهدوئه المعتاد وهو يضبط عويناته على أربنة أنفه: «الأقفال التي وضعناها تُعطل كل شيء، هذا ما فهمته من عمي «كمال»، لن تعمل تلك المظلة وحّتى «خولنجانة» لن تظهر».

قالت «حبيبة»: «لنفتحها لهما».

- حذرنا «أبادول» من هذا.

- لو انتقلنا مباشرة إلى مكان الخاطف الذي معه «رواء» سيعودان في الحال وهي معهما.

- هذا غير مضمون، قد يعلقان هناك. كما أنّنا لا نعرف شيئاً عن هذا المخلوق وقد يقتلهما.

ران عليهم صمت مهيب قطّعه «خالد» قائلاً: «لو كان «حمزة» مكاني لأنّي في الحال، ولن يجلس ليُفّكر بتعدد هكذا، لقد خاطر بحياته في ممرات «أمانوس» ليُنقذ حياتي».



أضافت «طيف»: «وأنا لست خائفة، فالموت مكتوب ولو أراد الله أن أموت الآن سأموت، وولداي سينشأن هُنا بالبيت كوالدهما وسيكونان مُحاربين بإذن الله».

ابتسم «يوسف» قائلاً: «وكانَ «حبيبة» من تحدث!».

تمعّنت «حبيبة» في وجه «طيف» وقالت: «حسناً. فلتخرجا من البيت وتذهبا إلى بيت والدك وتنتقلا من هناك».

- فكرة جيدة.

- واعلما أن ولديكما سيكونان في عهدي وتحت عيني ولن أتركهما للحظة بإذن الله، وأظن أن «مرام» بعد أن تكتشف ذهابكما ستتوّلى الأمر عّي، لكنّي سألازمها.

وافق «يوسف» على مضض، كان يعلم أنّ ما يفعله سيُسبّب المشكلات بينه وبين حماده، فالسيد «كمال» شديد الانضباط ولا يقبل بمخالفة القواعد، وعلاقتهما كانت دائمًا جيدة، لكنّه انتبه فجأة لشيء مهم وقال: «مفاتيح الأقفال! كيف سنحصل عليها وهي محفوظة في الخزنة بغرفة المكتب؟».

- للأسف! سأضطر إلى استعارة مفتاح الخزنة من أبي.

- قولي إنك ستسرقينه يا «حبيبة».

- لا تقل هذا يا «يوسف»! أخبرني أنت، ماذا سنفعل؟

- سأتحدث إلى عمّي «كمال» بنفسي، لا أحب أن تسير الأمور بتلك الطريقة يا «حبيبة»!

صعد الثلاثة إلى غرفة «خالد»، فقد أرادت «حبيبة» معرفة بعض الأمور عن الصغارين، وتركوه وحده، كان يفرك كفيه في قلق، فوجئ بالسيد «كمال» يقترب منه قائلاً: «سأصعد للنوم فرأسي يؤلمني».

- هل أراففك يا عماد؟



- لا، لكنني سأطلب منك شيئاً آخر.

- على الرحب والاسعة.

وضع مفاتيح الأقفال بين يديه، ثمَّ أعطاه مفتاح الخزنة وقال وهو يتجمَّب النظر إلى عينيه: «ضع مفاتيح الأقفال في خزانة غرفة المكتب وتأكد من غلقها جيداً».

انصرف «كمال» بخطوات وئيدة دون أن يلتفت، جلس «يوسف» مرتبغاً، كان لا يدرى هل سمع حوارهم أم لا، لكنه شعر وكأنَّه يمنحهم الموافقة، وفي الوقت ذاته لا يستطيع التصرُّح! أو يتجمَّب أن يكون طرفاً في هذه الطريقة المخالفة لقواعد البيت، تذكر للتو أنَّ مفاتيح الأقفال كانت بالخزانة بالفعل!

تسارعت دقات قلبه ولم يخرج من فقاعة التفكير إلَّا عندما رأى «خالد» و«طيف» أمامه، وكانت «طيف» تحمل حقيبة على ظهرها وتُمسك المظلة العتيقة في يدها. خرج معهما من باب البيت وفتح قفل الباب الرئيسي فخرجا ووقفا يراقبانه وهو يُغلقه جيداً، أصدر القفل هممات من جديد ثُمَّ أخرج صوتاً وكأنَّه يزار. من النافذة أطلَّ وجه «حبيبة» وهي تمنحهما ابتسامة بنقة، هَزَّت رأسها ولوحت لهما وأسدلت التُّجود<sup>(١)</sup> والسُّجوف<sup>(٢)</sup> مَرَّة أخرى، وكان «كمال» قد طلب منها إسدالها جميعاً فور رحيل «أنس» ومن معه، وكأنَّه أراد أن يُخفي كل نواخذ البيت بإحكام، التفت نحو التوءمين الصغيرين وقد كانوا غارقين في نوم عميق، ابتسمت عندما تذَكَّرت «خالد» و«حمزة» في طفولتهما وكيف كانوا رائعين.

\*\*\*

(١) التُّجود: ستور تعلق على جدران البيت ليزين بها.

(٢) السُّجوف: جمع السجف وهو أحد السترتين المقرندين، بينهما فرحة.



وقفت «طيف» وسط بيت أبيها الذي كان يعقد ذراعيه ويراقبها هي و«خالد» بثيابهما الكثانية، ومن خلفهم كانت أمها تنقل عينيها بينهما في ترقب، لم يكن والدها على علم بما حدث لابنة «حمزة»، أحزنه هذا وأراد الذهاب إلى بيت «أبادول» في الحال لكن «خالد» أخبره عن الأقفال فبدأ على وجهه أنَّ أمر الأقفال يشي بوجود خطر عظيم يهدد العائلة. أخرجت «طيف» العلبة من حقيبتها وفور أن رفعتها ظهرت «خولنجانة» وعقب المكان برائحتها النَّفاذة، فتراجع والد «طيف» وزوجته ووقف «خالد» وهو يقلب شفتية، كانت شديدة الجمال ممتلئة قليلاً، لها وجه ساحر وعليها ثياب واسعة مزركشة وملونة، ترتدي في أصابعها ثمانية خواتم، ويداها متrosstan بالأساور التي كانت تصلصل وتتشخش وتقرقع كلما حركتهما، ومن أذنها يتدلل قرط كبير، وكانت تربط رأسها بعصابة حمراء، كانت رؤيتها مبهجة لكنَّ رائحتها بدت كريهة للغاية.

قالت ضاحكة فور أن رأت «طيف»: «صديقي العزيزة، اشتقت إليكِ».

- «خولنجانة»، أنا في حاجة إلى مساعدتكِ.

- ماذا حدث؟

شرحت لها «طيف» ما حدث باختصار، ولاحظت انزعاجها عندما ذكرت اسم «غُدافان»، أنصبت لها «خولنجانة» وقالت في النهاية: «هذا يعني أننا سنرحل إلى أرض الرَّافدين، وأننا لا أرغب في الذهاب إلى هناك!»..

- لماذا؟

- لقد طردت من هناك! لا أرغب فعلاً في العودة.

- أرجوك يا «خولنجانة»...

استطيع نقلك إلى أي بقعة أخرى في مملكة البلاغة إلا هذه.

- ما السبب؟



وقفت «خولنجانة» واجعة ولم تنبس ببنت شفة.

قالت «طيف» وهي تلومها: «ظننتك حنونة وطيبة القلب، ولكن يبدو أنَّ قلبكِ فيه قسوة، لا ريب أنَّ «رواء» الآن تعيش حالة من الذعر والفزع، ورُبَّما يقتلها «غدفان» لينتقم من «حمزة»!».

تململت «خولنجانة» وطلبت لحظات لتفكير وتنفذ قرارها بأريحية، ووقفت تُحدث نفسها بصوت مسموع.

همست أم «طيف» التي كانت تُراقب كل شيء بعينين مفتوحتين على وسعهما: «وكانَها من الغجر! غريب أمرها! كل هذا الجمال الخلاب ولا تملك حجب تلك الرائحة المقرفة عن نفسها!!».

فرَّت من الغرفة ولم تحتمل، وكان «خالد» يكتم أنفاسه، عادت إلى حديتها مع «طيف» التي كانت تنتظر قرارها، بدا عليها الخوف والارتياح من العودة إلى أرض الرَّافدين، لكنَّها وافقت في النهاية.

أحضرت «طيف» مظلتها ووضعت المنديل الذي مسح به «أنس» دماء المخلوق الغريب داخل جيب المظلة الداخلي ومعه أداة من أدوات مملكة البلاغة كما اقترح والدها، أقبل «خالد» ووقف بجوارها بعد أن سحب نفساً عميقاً وحبسه في صدره.

اقربت «خولنجانة» منهما وهمست وهي ترشقه بتقزز: «لماذا تحبس أنفاسك أيها المغرور؟!».

غمغم في حرج: «لا شيء».

- ستعتاد الرائحة كما اعتادتها «طيف».

قالت «طيف» بجدية شديدة: «سيُصاب أنفك بالخدر وستنسى الرائحة تماماً».

قالت «خولنجانة» وهي تتشمّم ثيابها: «والله إنَّ رائحتي لجميلة!».



وذَعْوا والد «طيف» الذي لم يملك منع نفسه من قول «خولنجانة». بدأ المظلة تدور بسرعة شديدة، ونقلتهم إلى غابة حيث كان هنالك جثمان لشاب مقتول ومُلقي على الأرض، كانت ملامحه عاديّة ولم يكن هنالك أي أثر لـ«سيريوش» ولا «رواء».

وقفوا يتخيّلُون في حيرة، أخذت «خولنجانة» تتشمّم المنديل واقتربت من جراح الشاب المقتول، وأكَّدت لهم أنَّه صاحب الدّماء التي على المنديل وكانت على يقين من أنها دماءه، فتنَّشَّ «خالد» ثيابه فعثَر على وردة من تلك الورود اللامعة التي كانت تُزَينُ ثوب «رواء» في جيبيه، فأدرك أنَّ «خولنجانة» على حق.

تناول إلى مسامعهم صوت صهيل فاختبئوا خلف شجرة، كان الجواد يحمل رجلاً على هيئة «سيريوش»، أُجفل «خالد» عندما رأاه، وكانت «طيف» ترتجف، أمّا «خولنجانة» فكانت تطوف بالمكان بعد أن احتجبت عن الأعين.

ترجَّل الممسوخ عن جواده وتوجَّه نحو جثمان الشَّاب ووقف يتأمّله في أسى ثمَّ خلع عنه إزاره وسَجَّاه به، كان يحمل معه أدوات للحفر فحفر قبًّا ودفنه فيه ورمى قبره قبل أن ينصرف.

همس «خالد» لـ«طيف» أن تلزم مكانها وأظهر نفسه له، لم يهاجمه ولم يصدر منه ما ينمُّ عن أيِّ سلوك عدواني، بل سأله ببساطة: «من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟».

قال «خالد» متعجّلاً وهو يتمعّن في ملامحه العجيبة: «ظننتكم لا تتحدثون مثل البشر».

هزَّ الممسوخ رأسه قائلاً باستنكار: «وكيف لا نتحدّث مثل البشر؟ إنما أصابت وجوهنا لعنة «عشتار» وحسب، أمّا عقولنا فلم تصيبها اللعنة كما حدث مع جنود القصر».

وأشار خالد إلى القبر وسأله: «هل تعرّفه؟».

- صديقي.



- لكنه لا يجدو مثلك! أقصد... لا يُشبهك!

تنَهَّد وقال في أسي: «كان مثلي تماماً، لكن أثر لعنة «عِشتار» يزول بالموت!».

- أظنه كان مقتولاً بوحشية شديدة.

أدرك المسلح أنَّ «خالد» رأى الجثة قبل دفنتها فقال له: «قتله الـ «سيُروش الشرفاء»، من وضعنا أيدينا في أياديهم!».

- لا ريب أن هذا يحزنك.

أعرض بوجهه قائلاً: «استحق هذا فقد كان سفاحاً، حذرته مراً من هذا المصير لكنه لم يستجب، ظننته يُريد فعلًا أن يكون شريفاً، لكنه لم يصدق».

- لكنك أتيت لتدعنه!

انزعج المسلح من كلمات «خالد» الأخيرة، فقد كان يكره أفعال صديقه السفاح، لكنه كان في الوقت نفسه يحبه لأنَّه رفيق طفولته، وهذا كانا ذئبين يتصارعان في صدره.

سأله بضيق: «ومن أنت؟ ومن أين أتيت؟».

- اسمي «خالد»، وأتيت بحثاً عن ابنة أخي، فقد اختطفها أحد الـ «سيُروش».

- أنت إذن من المحاربين!

- نعم.

أشار إلى القبر قائلاً: «هو من اختطفها من أجل الصفة التي بين الشرفاء و«غدافان»، والآن صارت «عِشتار» طرفاً فيها، وقد غسلت يدي من اتفاقهم».

- لماذا؟



- لم يُعجبني اختطاف طفلة بريئة للضغط على الطرف الآخر وإن كانت «عِشتار»  
أو كان حتى «غُدفان»!

- لماذا قتلوا صديقك؟

لأنهم اكتشفوا خلال غيابه في عالمكم أنه قتل بنات زعيم عشيرتنا وهي من كبرى  
العشائر في «بابل»، وكانوا يبحثون عن القاتل فأشارت الدلائل إليه فانقضوا عليه  
وقتلوه.

- وابنة أخي؟

- هرب بها «سَرْجُون» إلى تلال الرَّماد. واعلم أنَّ لا أحد يعرف بهذا، فلم يره إلَّا  
«سِيرُوش» وهو يغير وجهته، لكنَّني رأيته.

- ومن هو؟

- لا تخفي، فهو شابٌ صالح، رأيته وهو يحملها مُبتعدًا قبل أن تعرف «عِشتار»  
بوجودها في «بابل».

- كيف أصل إلى «تلال الرَّماد»؟

تلفَّت إلَى «سِيرُوش» حوله ثُمَّ قال: «خذ جوادي هذا وانطلق نحو الغرب، ستتعرف  
على مكان التَّلال من لون رمالها الرمادية».

مضى وتركه، فرفع «خالد» صوته لیسألة: «فُلت إِنَّ «سَرْجُون» غير وجهته،  
لماذا؟».

- إلَى «سِيرُوش» الشرفاء يريدون مساومة «عِشتار» على الصغيرة، سيطالبونها برفع  
تعويذتها لنستردَّ ملامحنا الحقيقة، وهي تُريدُها لنساوم «غُدفان» على ملكه، لهذا  
طلبوا من «سَرْجُون» أن يخبئها في مكان آمن حتَّى يصلوا إلى اتفاق مع «عِشتار»،  
لكنَّني رأيته وهو يفرُّ بها إلى جهة أخرى، وأظنه خالف أمرهم ورحل بها إلى تلال الرَّماد



لينقذها من مكر الطرفين، وأظنه سيسِّلّمها لأحد النازحين من «بابل»، فقد رحلوا خوفاً من أن تُصيبهم لعنة «عشتار»، وكانوا من القضاة والحكماء، بيوتهم متظاهرة وسط التلال.

### - لماذا تُساعدني؟

تنهَّد بعمق ثمَّ قال: «ابنتي من عمر ابنة أخيك، ولو لم يهرب بها «سرجون» لهربت بها، ليس لاحفظ على حياتها من أجل الصفة، بل لأخلصها منهم».

ابتعد بخطوات سريعة وكأنَّه يفرُّ من هذا اللقاء، فخرجت «طيف» من خلف الأشجار وظهرت «خولنجانة» وكانت تتلهَّف على العودة إلى علبتها وكأنَّها تخشى شيئاً ما، فأعادتها «طيف»، وبدؤوا رحلتهم تجاه «تلال الرَّماد».

\*\*\*

### «فرح»

عادت الجدة بملامح تختلف عن تلك التي غادرتنا بها، جلست بيننا ونادت «خاندان» و «طيفور» فأقبلَا وانضماً إلى مجلسنا.

قالت بعد أن استقرَّت نظراتها على وجهي: «كنت أنتظر وصول مُحارب لأرحل معه إلى «بابل»».

صاحت «روكانا»: «جدّتي! لم سترحلين إلى «بابل»؟».



- لمساعدة «فرح»! لن أتخلى عنها بالتأكيد!
  - ستتعرّضين للخطر.
  - لن يحدث شيء، أحتاج إلى تلك الرحلة بشدة.
- قال «خاندان» رافعًا صوته: «أخبرينا بالحقيقة يا جدّي! لماذا كنت تنتظرين محاريًّا لترحلي معه؟».

أخذت «روكانا» تُحدّق إلى وجه زوجها و جدّتها تنتظر إجابة السؤال والحيرة تطل من مقلتيها، تكافف الصمت والغموض حولنا.

تنهَّدت الجدة بعمق وجلست منكفة إلى الأمام وقالت: «سأخبركم بالحقيقة، ولكن لا يقاطعني أحد، فالحديث ثقيل على قلبي».

داهمتها دوامة من الانفعالات ورفعت رأسها وتعرّقت وانتفضت ثم طفرت الدموع من جفنيها فسارعت بكففتها وقالت بصوت يرتعش: «كنت في الخامسة من عمرك يا «روكانا» عندما أحضرتك أمك أنتِ و«أورماندا»، طرقت باب داري بعد الفجر، وقعت طرقات يدها على قلبي كما وقعت على باب الدار، هرولت لأجدها وأبكيَّ يقنان أبيامي ويطلبان ميًّا رعايتكمَا حَتَّى يعودا، وكان قد شاع في الأرجاء وصول «عشتار» وأعوانها من جنود غلاظ شداد كالوحوش فانتشر الخوف والذعر بيننا، احتضنتني وشعرت أنّها لن تعود مرّة أخرى، إنذار مستمرٌ أخذ يتعدد في رأسي لأنّي لن أرى وجهها بعد هذا اللقاء، طلبت ميًّا إغلاق الباب بتعويذة كي لا يتمكن أحد من فتحه ففعلت، وانطلقت مع أبيكِ لتردع تلك المأفوونة وأعوانها، حاولت إثناءهما عن الذهاب ورجوت أمكِ أن تنتظر كي أذهب معها وترك أبيكِ معكما، لكنّها رفضت وأخبرتني أنَّ الأمر هيin وأنّها ستنتهي من مهمتها وتعود مع أبيكِ. حينها كان هُنَاكُ محارب يُحاول ردع جنود «عشتار» لإنقاذ أحد الوراقين، فتعاونيذ «عشتار» لا تؤثّر في المُحاربين وأبنائهم، وكذلك الوراقين من بلادنا، وكان معه أبناءه الثلاثة، علمت بعدها أنهم من الطوافين، ولو لا وجوده لاستحوذت تلك الساحرة على عقول رجال إقليمنا ومسختهم إلى «سيروش»، كانت تطوف في البداية مع جنودها لتصيّد



الوَرَاقِينَ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَسْتَقِرَ عَلَى عَرْشِهَا وَتَتَخَذَ اسْمَ «عِشْتَار» لَهَا، وَصَارَتْ لَا تَخْرُجُ مَعَهُمْ إِذَا شَتَّدَ نَفْوَذُهَا، لَكِنَّهَا أَتَتْ خَصْوَصَةً عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَيْهَا خَبْرُ ذَلِكَ الْمُحَارِبِ وَمَا يَفْعُلُهُ، قَرَرَتْ ابْنَتِي مَعَاوَنَةَ هَذَا الْمُحَارِبِ وَأَبْنَائِهِ خَلْفَ هَذَا الْجَبَلِ وَدَارَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ «عِشْتَار» سِجَالٌ عَظِيمٌ شَهِيدُهُ سَاحِراتُ الْوَادِيِّ، لَكِنَّهَا قَتَلَتْ أَبَاكِ أَمَامَ عَيْنِيهَا لِتَكْسِرَهَا أَوَّلًا، ثُمَّ قَضَتْ عَلَيْهَا بِوْحْشِيَّةٍ شَدِيدَةٍ، لَقَدْ مَرَّقَتْ أَحْشَاءَهُمَا،

يَقُولُونَ أَيْضًا إِنَّهَا قَتَلَتْ الْمُحَارِبَ وَأَوْلَادَهُ لَكِنَّهَا لَمْ أَرِ إِلَّا جَثَةَ ابْنَتِي وَزَوْجَهَا».

بَكَتِ الْفَتَاتَانِ وَرَأَيْتِ الْجَدَةَ تُظَهِّرُ الْبَأْسَ وَالْتَّمَاسَكَ مِنْ أَجْلِهِمَا وَقَسْمَاتَ وِجْهِهِمَا تَرْتَعِشُ.

قَالَتْ بِحَزْمٍ وَهِيَ تَنْظَرُ إِلَى عَيْنَيْ مَرَّةً أُخْرَى: «سَأَرْجِلُ مَعِكِ يَا «فَرَح»». صَرَخَتْ «أُورْمَانْدَا» وَكَانَتْ فِي انْهِيَارٍ شَدِيدٍ: «سَأَرْجِلُ مَعِكِ لِأَثْأَرِ لَأْمِي وَأَبِي».

- لَا.

صَرَخَتْ مَرَّةً أُخْرَى فَأَشْعَلَتِ النَّارُ فِي الطَّاولةِ أَمَامَنَا وَقَفَزَنَا جَمِيعًا فِي فَزْعٍ. التَّفَتَ «خَانِدَان» إِلَى الْجَدَةِ قَائِلًا: «أَظْنَاكِ تَرِينَ بِعِينِيْكِ أَنَّ «أُورْمَانْدَا» تَحْتَاجُ إِلَيْكِ».

أَطْفَافُ الْجَدَةِ النَّارِ بِإِشَارَةِ مَنْ يَدُهَا وَقَالَتْ: «سَتَتَعَلَّمُ وَحْدَهَا كَمَا تَعْلَمْتُ أَنَا عَنْدَمَا كُنْتُ فِي عُمْرِهَا، لَنْ يَرْتَاحَ قَلْبِي إِلَّا بَعْدِ انتِقَامِي مِنْ «عِشْتَار»».

تَعَالَى صَوْتُ نقاشِ الْجَدَةِ وَحْفِيدَتِهَا، دَارَ بَيْنَهُمْ جَدَالٌ طَوِيلٌ.

مَالَ «خَانِدَان» عَلَى «طِيفُور» وَهَرَّ رَأْسَهُ قَائِلًا: «سِينِتَهِي الْجَدَالُ بِأَنْ نَرْجِلُ جَمِيعًا إِلَى «بَابِل»».

- لَدِيكِ طَفْلَةٌ صَغِيرَةٌ!



- أنت لا تعرف زوجتي، «روكانا» عنيدة، كما أنها مُقاتلة شجاعة، ولن يغمض لها جفن حتى تثار لوالديها.

- ما رأيك أن أذهب أنا برفقة وفرح، والجدة، لعلنا نصل إلى باقي أفراد عائلة «أبادول»، وابق أنت مع زوجتك وابنتك و«أورماندا».

- لن تتركا جدتهما وأنا لن أتركهن أبداً، نحن نتحدث عن ساحرتين وزوجة عنيدة! هذل «خاندان» كفيه في يأس وهو يقول: «سأذهب إلى جاري لكي يرعى البستان وما فيه من خيول حتى نعود».

كنت أتابع حوارهما في صمت، أعطاني «خاندان» ابنته فحملتها، بدا لي أنه يفهمهن جيداً، تبعه «طيفور» ليعاونه، وبقيت أراقب ثلاثهن وهن يتحدثن في آن واحد، وكانت الصغيرة تضحك وهي تراقبهن وقد أطلت من فمها سن صغيرة تكاد تبرز من لثتها الوردية.

صحت لأقطع عليهن معارك الجدال الطاحنة: «لقد ظهرت أول سن لـ«مومو»!». توقفن فجأة وهرولن نحوي، وأطفأت الصغيرة ثورتهن بفمها الصغير.

قالت الجدة بهدوء بعد تنهيدة طويلة: «فلنرحل غداً بإذن الله».

جررت الساعات بعضها جرراً، وخلدت إلى النوم وطواحين الهواء تعمل برأسى بشكل جنوني، وكنت أتساءل في نفسي أين «سليمان» الآن؟ وأين أبي وأخي؟ وأين رواء الغالية؟

\*\*\*

«حالد»



خرجنا من الغابة وكانت «طيف» خلفي وأنا أركض بالجoad الذي منحه لي الـ «سيروش» نحو الغرب، كنت أسابق اللحظات لعلّي أصل إلى «تلل الرماد»، عبرنا نهرًا ساجيًّا بين الصفاخ الخضر الممتدة على مدى البصر لا يقطع انسياقه إلا أغصان الأشجار المُتتكّسة وشذرات من طحالب تطفو على سطحه، لاحت لنا قمم عالية لقصر في مشهد مهيب أطلَّ من بعيد، كان الضباب الهش يحيطها من كل الجهات ماحيًّا بعض الملامح على أطرافه وكأنَّا في حلم جميل، بالكاد رأينا قباه المزيَّنة بالنقوش، هدَّأت من سرعة جوادي عندما توغلنا داخل المنطقة العابقة بالضباب تبيَّن لنا القصر بوضوح! كان أجمل من قصر «الحوراء» الذي كنت أعدُّه أجمل القصور قاطبة، وكان بناؤه أتعجب من كل بناء رأيته من قبل على أرض مملكة البلاغة! من بعيد تظهر عليه مجموعة من الحدائق على شكل تل تتكون من طبقات ترتفع الواحدة فوق الأخرى، تُشبه المسارح اليونانية.

ترجَّلت عن الجoad وريبيته بشجرة قريبة وكان الجواد هادئًا وكأنَّه تخدر عند دخولنا ساحة القصر، سرنا في ممرٍ يُظلله نخيل صنوان وغير صنوان، ومررنا بنافورة كبيرة تتوسَّط السَّاحة الأمامية، نفر الماء منها فجأة وكأنَّه سيف مجَّرد فأجلفنا، أكملنا وأعيننا معلقة بشرفات القصر العاشرة بالنباتات، وكأنَّ تلك الحدائق معلقة في الهواء! بدا القصر شاهقًا ومهيبًا يأخذ الألباب! هبَّت نسمات خفيفة فجاءت رائحة الزهور كهدية لحواسنا.

أخرجت «طيف» علبة «خولنجانة» وحرَّرتها فشهقت فور خروجها قائلةً: «يا إلهي! أتمزحان معِي؟ «حدائق بابل» نفسها!».

- ماذا؟! «حدائق بابل المعلقة»!<sup>(١)</sup>

- نعم هي.

<sup>(١)</sup> تُعد حدائق بابل من عجائب الدنيا السبع التي شَكَّلت موضوعاً لدى علماء التاريخ، إذ لم يبقَ أثر ماثل إلى يومنا هذا يدل على وجودها، ويُقال إنَّها مجَّرد أسطورة لا تمت للواقع القديم بصلة، كما تؤكِّد بعض الافتراضات المستندة على بعض الحفريات أنَّ حدائق بابل تقع في القصر الملكي في مدينة بابل، ويعتقد البعض أنَّها في «نيينوي».



صرخت «خولنجانة» كالمجنونة وقفزت في علبتها ولم نتبين السبب.

سألتني «طيف»: «إذن نحن الآن في «بابل»، أليس كذلك؟».

- الإجابة تحتمل الوجهين!

- ماذا تعني يا «خالد»؟

- موقع بناء حدائق بابل المعلقة أمرٌ مثيرٌ للجدل.

- لماذا؟ أليس اسمها حدائق «بابل»؟!

- في عالمنا وواقعنا لم يعثر على أي آثار للحديقة تدل على وجودها هناك، فمع أنَّ اسمها يوحي بأنَّها بُنيت في بابل، فإنَّ البعض يعتقد غير هذا، ومع ذلك فإنَّ الأقرب إلى الصحة هو أنَّها تقع في مدينة «بابل».

- إذن نحن خارج «بابل».

- «طيف»! نحن في مملكة البلاغة أصلًا، فموقعنا هنا الآن لغز من الغازها، تذكري هذا جيدًا.

مررنا ببركة كان ماؤها يضوی وكأنَّ أحدهم صب اللُّجين فيها، مرت نسمة هواء فارتعش سطحها وأزهار الزَّبْق تطفو عليه، أطالت «طيف» النَّظر إليها لتشرب المنظر الخلاب ثمَّ رفعت عينيها وجالت بنظراتها في جمال الحدائق الخلاب وقالت: «وكأنَّها قطعة من الجنة!».

- انظري كيف يصعد الماء إلى أعلىها!

- لماذا بُنيت هكذا؟



- يُقال إنَّ الملك «نبوخذ نصر، بناها لزوجته»<sup>(١)</sup>.
- رأيت ما يفعل الزوج ليُسعد زوجته؟
- ليس لدى المال لبناء حدائق يا «طيف»، لديك حديقة جدّي «أبادول» بالفيوم، ازرع فيها ما شئت من الخضروات حين نعود يا جلاله الملكة.
- سأفعل يا مولاي.

كان هذا دأبنا، تُخَفَّف عن بعضنا بالمزاح الخفيف حتّى في أصعب اللحظات، وكان لهذا أثر في توطيد علاقة الصداقة بيننا، فأسعد الزيجات تلك التي يكون فيها الزوج أقرب الأصدقاء لزوجته، وتكون هي فاكهته ومكافأته في الحياة، وكانت «طيف» كذلك بالنسبة إلىَّ.

- أخرجت «طيف» علبة «خولنجانة» فخرجت وهي تتلفت في فزع.
- هرولت تجاه شجرة وارفة الظلال وأشارت لنا لنقترب فقلت ساخراً: «وكانَ جذع الشجرة سيخفي كيانك!».
- الشجرة ستُخفِّيكما أمّا أنا فأمرني سهل.
- ممَّن تخبيئين يا «باذنجانة»؟
- من قومي.
- ماذا؟ هل يسكنون هنا.

---

<sup>(١)</sup> يُروي أنَّ السبب وراء بناء هذه الحديقة الغنَّاء وسط العراق، هو شعور زوجة الملك نبوخذنصر الثاني بالحزن لفارق وطنها، فقد كانت تسكن مملكة ميديا (شمال غرب إيران حالياً)، وهي ابنة ملك الميديين آنذاك، فرُوَجت من نبوخذنصر لأغراض سياسية لتسهيل التعاون بين الملوكين، وقد كانت طبيعة موطنها جميلة للغاية، وبسبب حنينها للوطن قرر الملك بناء حدائق بابل المعلقة، وإهداءها هذه الحدائق التي تُحاكي طبيعة موطنها الأصلي، لعلَّها سعد الزوجة وتطفئ هذا الحنين.



- نعم.

- أين بالتحديد؟

مالت على «طيف» وقالت على استحياء: «سأفعل شيئاً ولا تنزعجاً».

- حسناً.

- عدّيني يا «طيف» بآنك لن تغضبي ولن يغضب زوجك.

- أعدك آنني لن أنزعج منك ولن يغضب «خالد»!

نفخت «خولنجانة» في وجهينا فلم أحتمل الرائحة، فشرعت أمسح وجهي من حرارة أنفاسها، وبدأت أصيح في غضب، ولكنني عندما فتحت عيني اكتشفت سبب فعلها، لقد مكنتنا أنفاسها الكريهة من رؤية سُكَان المكان! رأينا الحدائق مزدحمة ببطوائف من الجن عليهم ثياب مزركشة كثيابها تماماً، مرّ موكب لملك وملكة وكان يطفو ويرتقي نحو الحدائق العلوية، غابة من الأيدي ارتفعت نحوهما، أمواج من الجن تُحاول الوصول إلى أطراف ثوبيهما لتمسحها في ذل وخنوع، شاعت في الأجواء رائحة خُزامي وأقحوان، فأمسكت عقولنا ووقفنا نُراقبهم في اندهاش.



## أرض "الكنادرة"

### «سلیمان»

كنت أسيير بجوار «ياقوت» وقلبي مُفعم بالحنو لعروسي التي لم أهنا بها، فعندما أغلق عينيَّ أرى صورتها مطبوعة فوق أجفاني في دفق ضيائِي بديع بردائها الأبيض ذي الثناء المدهشة، وهي تُطالعني بعينيها الرائعتين، وفي أعماقي تضطرم مشاعر عديدة تطفو فوقها الغيرة وبيؤججها القلق. بدا لي أنَّ «ياقوت» يشعر بما أُعانيه فحاول أن يُلهي بيديه عن كتبه. كانت آثار أقدام القافلة واضحة فنتبعناها، وسرىعاً ما تغيرت التُّربة تحت أقدامنا، فنحن نقترب من نهر الفرات»، سرنا بمحاذاته لفترة طويلة، كان ماء النهر يجري كالفضة السائلة، لاحت لي من بعيد أرض خضراء يحفلُّها النَّخيل والبيوت تتراص فيها بنظام، فابتعدنا عن النَّهر وتوجّهنا نحوها، وعندما اقتربينا منها قلت متعجّباً: «ما بال تلك الرَّساتيق<sup>(١)</sup>؟».

- أين؟

- تلك هُناك!

- هذا رُستاق جفت أشجاره وأرضه صفراء يا «سلیمان»!

- كيف هذا؟! ألا ترى ما أراه؟ انظر يا «ياقوت»، أوراق الأشجار خضارها يختلف عن لون أوراق الأشجار المعهود، وتلك الثمار الأرجوانية غريبة ما رأيت مثلها من

---

<sup>(١)</sup> رساتيق: هي المواقع التي فيها زرع وقرى أو بيوت مجتمعة.



قبل! وهذا النخيل قصير وجريده غريب الشكل، وتلك البيوت من أي شيء بُنيت؟  
لماذا سقوفها منخفضة!

- هل ترى كل هذا؟

- نعم.

ركضت نحوها و«ياقوت» يُلاحظني وهو يتعجب.

وقفت أمام بوابة نحاسية وقلت له: «تلك البوابة النحاسية غريبة الطراز أيضًا، تبدو منخفضة ومريبة، ولا يوجد لها أسوار!».

قال «ياقوت»: « بوابة بلا أسوار؟! لماذا أقاموها إدًا؟ «سليمان»، أشعر أنك ترى مكانًا مسحورًا أو تلك رُبما ألاعيب الجنّ».

كان المكان هادئًا وكأنه مهجور.

قلت لياقوت، وأناأتَمَل البوابة: « هناك طائر نحاسي فوق قوس البوابة».

وانحنىت في الحال ومررت منها وشعرت بصاعقة خفيفة، وكان صوت «ياقوت» يدوي في أذني وهو يقول: « يا إلهي! الإوزة النحاسية التي تصيح! أهذا ما حكاه «دهقان» عن عجائب قرى «بابل»؟!».

أطلقت الإوزة النحاسية صوتًا عالياً ارتجت له الأجراء، حاولت الخروج مره أخرى لكنني لم أنجح، رأيت «ياقوت» يقف وهو يتَمَلَّ مكاني ويقلب كفيه في حيرة، كان يُحدِّثني لكنه لا يراني ولا يسمعني!

قال وعيناه تجوسان في حيرة: ««سليمان»، لا أدرى هل تسمعني أم لا، أنت الآن في رحاب القرى المسحورة، سترى ما أخبرتك به من عجائب، لو نجحت في الخروج من القرى ستجد مدينة «بابل» أمامك، وسأكمل طريقي إلى هناك، لعلنا نلتقي مره أخرى».



ظللت أنا ديه ووقفت أرافقه وهو حزين، لم يدرِ ما يفعل وقد اخترفـت من أمامـه في لمح البصر، حاولـت الخروج من جوار البوابة لكنَّ شيئاً خفيـاً وغير مرئـي كان يـحجبـني، وكأنـي حـبـستـتـيـ فـيـ بـيـتـيـ مـنـ زـجاجـ! جـلـسـ «يـاقـوتـ» يـقـرـأـ القرآنـ، بـداـ ليـ آنـهـ يـحـاـولـ أنـ يـسـاعـدـنـيـ بـطـرـيقـةـ مـاـ، وـعـنـدـمـاـ لـمـ يـزـلـ عـيـنـيـ مـاـ حـبـسـتـ فـيـهـ وـوـجـدـتـنـيـ أـقـرـأـ مـاـ يـقـرـؤـهـ وـكـنـتـ بـخـيـرـ، أـدـرـكـتـ آنـيـ هـنـاـ لـسـبـبـ قـدـرـهـ اللهـ وـكـتـبـهـ لـيـ، فـبـدـأـتـ اـسـتـعـيـدـ رـيـاطـةـ جـاـشـيـ.

من بعيد لاحت قافلة، رأها «يـاقـوتـ» فأـسـرـ نـحـوـهـاـ بـعـدـ أـلـقـىـ عـلـيـ السـلـامـ واستـوـدـعـنـيـ اللهـ وـدـعـاـ لـيـ، وـكـانـ هـذـاـ يـعـنـيـ لـيـ الكـثـيرـ، أـدـرـكـتـ آنـهـ قـافـلـتـهـ الـتـيـ ضـلـلـ عـنـهـاـ، رـاـقـبـتـهـ وـهـوـ يـبـعـدـ وـيـتـلـفـتـ مـنـ آـنـ إـلـىـ آـخـرـ فـشـعـرـتـ بـضـيقـ شـدـيدـ.

دـسـسـتـ الـخـرـيـطـةـ الـتـيـ أـهـدـاـهـاـ لـيـ فـيـ حـقـيـقـيـ وـأـهـمـسـ: «وـدـاعـاـ يـاـ «يـاقـوتـ»!».

عادـتـ الإـلـوـزـةـ النـحـاسـيـةـ إـلـىـ الصـيـاحـ، وـعـلـاـ صـوـتـهـاـ بـشـكـلـ مـزـعـجـ حـتـىـ إـنـيـ وـضـعـتـ يـدـيـ عـلـىـ أـذـنـيـ، جـذـبـ صـوـتـهـاـ رـهـطـاـ مـنـ الرـجـالـ غـلـاظـ المـلـامـحـ قـصـارـ القـامـةـ، حـاـصـرـوـنـيـ وـفـيـ أـيـادـيـهـمـ الرـماـحـ الـمـوجـهـةـ إـلـىـ.

قال أحد هؤلاء الأقزام وبـداـ ليـ آنـهـ قـائـدـهـمـ: «كـيـفـ وـصـلـتـ إـلـىـ هـنـاـ؟ـ».

قـلـتـ وـأـنـاـ أـرـفـعـ يـدـيـ مـسـتـسـلـمـاـ: «عـلـىـ أـقـدـامـيـ!ـ».

- أـتـهـأـ بـيـ؟

لم أـجـبـهـ، فـقـدـ كـانـ رـأـسـ رـمـحـهـ الطـوـيلـ فـيـ نـحـرـيـ، وـكـانـتـ مـلـامـحـهـ الـغـلـيـظـةـ تـشـيـ بـغـضـبـ شـدـيدـ.

عاد يـسـأـلـيـ: «مـنـ أـينـ أـتـيـتـ؟ـ».

- مـنـ «مـصـرـ».

علـتـ هـمـمـاتـهـمـ وـبـدـتـ عـلـيـهـمـ عـلـامـاتـ الـدـهـشـةـ.

دمـدـمـ أـحـدـهـمـ بـغـضـبـ قـبـلـ أـنـ يـصـبـحـ قـائـلاـ: «كـيـفـ اـقـتـحـمـتـ الـأـسـوـارـ؟ـ».



فُلت وأنا أدفع رأس الرمح برفق لأبعده عن نحري: «أيُّ سور؟ لا يوجد سوى تلك البوابة!».

التفت لأشير إليها وإذا بسور عظيم يحيط بالمكان قد بدا لي للتوا قصب من الببور يتراص بجانب بعضه بعضًا في نظام بديع، وينعكس عليه ضوء الشمس لينزلق راسماً ألوان الطيف على الأرض حيث كثاً نقف.

فُلت ولم يخل صوتي من الاندهاش: «لم أره إلَّا الآن!».

- كيف هذا؟

- رأيت الرَّساتيق من بعيد وسرت نحوها مع صديقي، ثم دلفت من تلك البوابة.

- وأين صديقك هذا؟

- رحل، ولم يَرْ مارأيته!

دُهشوا جمِيعاً، أشار إليهم قائدهم، فأخذوا يدفعونني ببرؤوس الرماح حَتَّى ظننت أنَّ واحداً منها سيخترق صدري، دفعوني نحو قفص من حديد وأدخلوني إليه، وكانت الدَّماء تغلي في عروقي، أغلقوا القفص ووقفوا يُحدِّقون إلى وجهي، ثم تناهى إلى مسامعي أصوات طبول غريبة، انصرفوا عَيْيٍ في الحال وتركوا ثلاثة منهم ليحرسوني.

سألت أحدهم: «أين نحن الآن؟».

أتمنى الإجابة ولكن ليس منهم، بل من رجل ثلاثيَّيْ كان يجلس في ركن القفص وقد بدت عليه آثار الإِرْهَاق، طالعني بعينين تسكتهما نظرة مُتَجَهَّمة كئيبة توحى بما عاناه من وحدة هنا.

قال بصوت يشوبه أنين: «نحن في «أرض الْكَنَادِيرَة»».

- ما «الْكَنَادِيرَة»؟



- قوم قصار القامة غلاظ الملامح كما ترى، اسمهم يصف حالهم.

- ما قصة السُّور؟

- ضريره «شيخون» حول قريتهم ليحجبهم عن الإنس.

- لماذا؟!

نحن في قرية غريبة، فكل قزم من هؤلاء لديه مهارة عجائبية خفية.

- وكيف تعرف كل هذا؟

- عندما رأيت البوابة ودلفت القرية وبعد أن ألقوا القبض علىيَّ كما فعلوا معك تركوني وحيداً هنا، فأخبرني أحد الحراس بقصصهم، على الرغم من ملامحه التي تشي بنفوره ممّيٍّ وجدته يعطياني قدحاً من الفخار فيه ماء، ثمَّ منحني ثمرة فاكهة، فأدركت أنه طيب القلب حتّى وإن لم يظهر على ملامحه.

- لماذا هم ساخطون غاضبون؟

- دبت بينهم وبين إحدى العشائر عقارب الشّقاق، ودارت حروب وقتل منهم الكثيرون، وأسرت الكثيرات من بناتهم ونسائهم، ولم يستردوهن حتّى الآن، والآن هم يخشون فناء عشيرتهم، لهذا ضرب «شيخون» السُّور لحمايتهم حتّى يتمكّنوا من استرداد نسائهم وبنائهم.

التفت وأخذتُ أحدّ نحو البوابة، ثمَّ سألته: «من هو «شيخون»؟».

- «شيخون» هو زعيم عشيرتهم، وهو أعظمهم مهارة كما أنه ساحر، أمّا الطبول فلا أعرف قصتها.

- أنا أعرف.

- كيف هذا؟!



- أخبرني صديق التقىته عن غرائب تلك القرى فقد وجد أخبارها في الكتب، الطبول المعلقة على أبواب البيوت يضربيها أبناء الغائبين الذين لم يعودوا حتى الآن، فإن دقت وأصدرت رنيناً مدوياً فهذا يعني أنَّ الغائب لا يزال على قيد الحياة.

- لقد ضربت بعد دخولي وتحديداً بعد صياح الإوزة.

- أظنهم قد ضربوا عليها بعدهما أطلقت الإوزة صيحتها فور دخولي أيضاً. ولهذا هرول الجنود ليخبروهم أننا لسنا من الغائبين منهم.

سألته وأنا أتأمل وجهه: «ما اسمك؟ ومن أين أنت؟».

- أحمد، وأنا من «بغداد».

- كيف وصلت إلى هنا؟

- كنت مع شقيقِي «محمد» و«الحسن» في مهمة كلفنا بها الخليفة المأمون، لقياس محيط الأرض.

- يا إلهي! «بنو موسى»!

- نعم، نحن أبناء موسى بن شاكر، هل تعرفنا؟

- سمعت عنكم. أين أخواك؟

- سأخبرك بما حدث لنا، لقد داهمنا طائفة من الجن وفرقوها بيننا.

بدأ أحمد بن موسى بن شاكر، يروي لي ما حدث له وكيف فرق الجن بينه وبين شقيقيه، وأدركت سبب وجودي هنا، تذكرت كلام جدّي «أبادول» عن الطوافين وعن الكتب التي تُسرق فسألته: «هل سُرق منكم كتاب علمي؟».

- نعم، رأيته بعيوني معلقاً في الهواء قبل أن يختفي ويتبخر.



- عن أي شيء يتحدث هذا الكتاب؟

- عن الحِيل الهندسية، وقد جمعنا فيه تجاربنا واحترازاتنا. لستُ حزيناً على ضياع الكتاب فنحن نستطيع إعادة تدوينه، ما يقلقي هو مصير أخي، وبخاصة «الحسن» فهو أصغرنا.

- هُون على نفسك، سيكونان بخير بإذن الله.

غمر الحزن والهم وجهه وانطفأت عيناه، زفر رفقة كادت تتتساقط لها أضلاعه وأمسك رأسه بين يديه فأشفقت عليه، أردت أن أخفّ عنه فقلت له: «سمعت أنكم تستخدمون مركز ثقل الجسم محمول لتحريك الآلات، وابتكرتم طريقة لتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية».

- نعم، والحمد لله.

عاد لسكونه، ولكن يبدو أنَّ الحديث عن العلم أشعل سراح عقله مَرَّة أخرى فقال: «منذ أيام وصلنا إلى طريقة مبتكرة لرسم الشكل الإهليجي». (١)

- أتدرى من سرق كتابكم؟ لقد سرقه الجن بأمر من ملكة أطلقت على نفسها «عشتر» تُسيطر الآن على «بابل».

- سمعنا عمما حدث في «بابل» لكننا لم نُصدق! صحيح أنَّا نرى العجائب عندما نخرج من «بغداد»، فكل بقعة ندخلها نخرج ونحن نتعجب من حال أهلها ونتركهم وهو يتعجبون مَنَّا. لكننا لم نصدق أن يحدث هذا لـ «بابل»! ومن امرأة واحدة بفعل الجن!

- ما رأيك الآن وقد رأيت بنفسك أرض «الكنادرة»؟

- نعم والله، وسورها وبوابتها وإوزتهم الغريبة، وتلك الطبول.

---

(١) الإهليج شكل هندسي ابتكره بنو موسى رسموه مُستخدمين دبوسين وخيطاً يُساوي طوله ضعف طول المسافة بين الدبوسين وقلم يتحرك في نهاية الخيط المشدود.



- يبدو أن طبولهم مسحورة. أخبرني صديقي عنها وعن أمور أخرى.

- تلك ميزة في عشيرتهم، فكل ما يصنعوه بآيديهم يُصدر صوتاً، تماماً كالإوزة النحاسية التي فوق البوابة، شيء يتسرّب من كفوفهم للجمادات فنهتز كما سمعت، وقد همست كل ربة بيت في جوف طبلة دارها قبل أن تعلقها، اعتدن هذا منذ القدم.

قطع الحرس حديثا وأتوا على عجل وأخرجونا من القفص وسلسلونا، وسرت خلفهم نحو دار زعيم العشيرة، شعرت حينها أنّي عملاق وهم يجروني خلفهم، وورائي حملة الرماح يستعدون لوحزي في أي لحظة.

وصلنا إلى ساحة واسعة وسط أرض «الكنادرة»، وأرغموني أن أجثو على ركبتي ففعلت، اقترب زعيمهم «شيخون» برأس يغمره شعر رمادي مجعد، كان قزماً غليظ الملامح تطفر عيناه بذكاء شديد، أشار بيده فتراجع الحرّاس وتركونا وسط الساحة، شعرت فجأة أن هناك أطيافاً سوداء تظهر خلفه، كانت الأطيافي تزداد طولاً وكثافة، وازدحم المكان بها وبدأت تتحرّك نحونا وتُحيطنا من كل صوب، بدأ «أحمد بن موسى» يصرخ، ثمَّ فقد وعيه فجأة وسقط على الأرض، أمّا أنا فأصابني صداع شديد، لكنّي لم أسقط. ضربني أحد الحرّاس على ساقي بمطرقة جعلت عظام ساقي ترتجّ وكان جسدي شوكة رنانة فأخذت أصيح في ألم، سقطت على الأرض واحتضنت ساقي وصحت محاولاً إيقافه: «سأخبركم أين نساؤكم».

رفع «شيخون» يده فاختفت الأطيافي في لمح البصر.

قال وهو يحدّجني بنظراته النافذة: «هات ما عندك!».

- ليس قبل أن أطمئن على رفيقي.

أمر جنوده ليحلوا قيودي فأسرعت نحو «أحمد» لأفحص نبضه، حاولت إفاقته ففتح عينيه ونظر إليّ بهوان ولم يتمكّن من تحريك لسانه.

التقفت غاضباً ووجهت كلماتي لـ«شيخون» قائلاً: «ماذا فعلت به؟».



- هات ما عندك من أخبار واحذر أن تخدعني.

كان رأسي يضجُّ بالأفكار، تذَكَّرت ما رواه لي «ياقوت» من عجائب، بعد أن هدأت عظام جسدي اجتهدت لآقف ثابتاً وقلت وأنا أساعد «أحمد» على الجلوس: «هناك مرأة حديدية عتيقة بأرضكم هنا، إن نظرتم إليها سترون حال الغائبات من نسائكم».

تعالت همماتهم، ركض كلُّ منهم إلى داره وجلبوا العديد من المرايا، بعضها مكسور، وبعضها إطاره من خشب، وبعضها إطاره من حديد. أخبروني أنَّ النساء توارثنها عن أمهاتهن، وأمهاتهن عن جداتهن، وأنَّها مرايا عتيقة جدًا، وكلَّ منهن قصة، وضعوها أمام زعيمهم وسط السَّاحة. أخذ الجميع ينظر ويحملق إلى المرايا واحدة تلو الأخرى، حتَّى زعيمهم انضم إليهم، لم يروا شيئاً فوقيع في حرج.

عاد «شيخون» يحدِّجني بنظراته الثاقبة وقال: «أئُها الكاذب».

- لم أكذب، هذا ما سمعته عن أرضكم، وعن الإلوزة النُّحاسية، وعن حوضكم الذي تصبُّون فيه أشريفكم التي تحضرونها من بيوتكم وتمزجونها وتشاركون الشراب من الخليط جميعاً، وعن تلك اللوحة المجسمة التي في بيت زعيمكم لأرض «الكنادرة» هنا ببيوتها وأنهارها وخبارها.

هتف أحدهم: «انظروا إلى المرأة، انظروا!».

كان يمسك بمرأة عتيقة إطارها من حديد يُغطِّيها رماد أسود، وكان قد مسح سطحها بشوبه عندما رأى بريئاً يلوح له ويترافق تحت ضوء الشَّمس، فوقف يُناديهم في انهاش شديد، اندفعوا نحوه وأخذ الجميع يُحدِّقون إلى المرأة، كانت الغائبات من نسائهم يظهرن في المرأة وهن في مطبخ قصر الملكة «عشتار»، وكان الـ «سيروش» يراقبونهن وهو يمسكون السُّيَاط لضرب من تتكلس عن العمل. ران على «الكنادرة» حزن عميق، فهم يرون نساءهم في حالة بائسة وقد أعيادهن العمل في خدمة أهل القصر، والحزن يطفر من أعينهن، تراجع «شيخون» إلى الخلف.

تناول أحدهم المرأة وقال بصوت أثقله الأسى: «تُرى أين هذا المكان؟».



- لعلهن في قصر «عشتار» في «بابل».«

- هل زرت هذا المكان من قبل؟

قرَبَ المرأة من وجهي لأرى المكان الذي يقصده فانطافت ثم عادت ولمعت كاللُّجِنْ، فرأيت «فرح» وهي تضع شالاً عتيقاً ملوّناً على كتفيها، فصحت دون قصد ممّيًّا: «فرح!».«

ظننتها تسمعني، لكنّها لم تسمعني! كانت تجلس في بستان واسع ومن خلفه قمم الجبال تبدو شامخة والضباب يلفها في غموض، وأمامها تجلس عجوز تمسك بيديها ونُحَدِّثُها.

اقرب «شيخون» ونظر معي إلى المرأة وتعجبَ ممّا رأه وقال باندهاش: من هذه؟.«

- زوجتي، يبدو أنَّ المرأة تُظهر لنا الغائبين عَنَّا من أحبابنا.

عقد حاجبيه في غضب وسألني: «من أنت؟ ومن أين أتيت؟».«

- أتيت مع زوجتي للبحث عن طفلة من عائلتنا اختطفها الـ «سيروش».«

اخترق أسماعنا صوت انفجار هوائي ودوّي صوته في الأجواء ففزعوا، أخرج «الكنادرة» مطارقهم ووقفوا في تأهُّب، تذَكَّرَت مطرقة «فرح» التي عثرت عليها في «كويكول»، أخذت أتمالها وأتأمَّلَ وجوههم، شعرت للتو أنهم يُشبهون القرميين «حنبيش» و«حنبريت»، كيف لم أنتبه إلى هذا الشبه الشديد بينهم؟!

أخرجت الكرات الثلاث التي منحها لي «حنبيش» و«حنبريت» في أثناَّ رحلتنا إلى مدينة «كويكول»، وكانت معي في جيب بنطالي، فقد طلب ممّا خالي «أنس» أن نُحضر أدواتنا معنا، أدرتها بين أصابعِي، فتعالت صيحاتهم، ألقىتها في الأرض فدارت حولي أنا و«أحمد» وأحاطتنا بحلقة من نار وعادت إلى فالتقمتها بأصابعِي.

وقف «شيخون» في ذهول وانداحت فوق وجهه سحابة خوف وقلق وسألني:



«كيف حصلت على الگرات؟».

- من صديقين عزيزين.

- ما اسمهما؟

- «حنبيش» و«حنبريت».

سرت الهممات بين الحضور كالطنين، فغر فاه في دهشة وسار نحو حي حيٌّ صارت النار بيننا وسألني وهو يُدقق النظر إلى عيني: «من أنت؟».

- أنا «سليمان» من أحفاد «أبادول». نحن من مُحاربي مملكة البلاغة.

لمعت عيناه وهو يقول: «مرحباً بالمحاربين».

تغيرت نبرة صوته ونظراته، حيٌّ النار انطفأت وحدها، مدّ يده مرحباً بي، حيٌّ إنّه أعنان «أحمد» بنفسه على التهوض، أعطانا الأمان واعتذر عمّا بدر لنا منهم، وأدخلنا داره وأجلسنا، دار بيننا حوار طويل أدركـت منه أنّه يعرف بقصص المُحاربين، علمـت أنّ «حنبيش» و«حنبريت» من جنّ أرض «الكنادرة» الذين كانوا يسكنون معهم، لكنـهم غادروا الأرض من سنوات طويلة لسبب غامض يخصـهم، لقد شـتـّتوا وتفرـقوا في الأـجوـاء، فـهـمـ من الجنـ الـهـوـائـيـ، هـيـنـاـهـمـ تـشـبـهـ «الـكـنـادـرـةـ» تـامـاماـ، بـيدـ أنـ كـيـانـاـهـمـ أـثـيرـيـةـ، وـأـنـهـ لـمـ يـكـنـ عـلـىـ عـلـمـ أـنـهـمـ يـعـيـشـانـ مـعـ أـبـنـاءـ «ـسـرـمـدـ»!

فـسـأـلـهـ عـنـ سـبـبـ إـخـفـائـهـ لـأـرـضـهـمـ بـهـذـاـ السـوـرـ، فـقـالـ بـتـأـثـرـ: «ـدـاهـمـتـنـاـ مـجـمـوعـاتـ مـنـ رـجـالـ غـرـبـاءـ يـشـبـهـوـنـ وـحـشـ الـ «ـسـيـرـوـشـ»ـ وـيـسـيـرـوـنـ كـالـبـشـرـ، وـمعـهـمـ طـائـفـةـ مـنـ جـنـ «ـالـغـضـافـرـ»ـ، وـتـلـكـ الطـائـفـةـ مـنـ جـنـ بـيـنـنـاـ وـبـيـنـهـمـ عـدـاـوـةـ مـنـذـ الـقـدـمـ، اـخـتـطـفـواـ بـعـضـ نـسـاءـ قـرـيـتـنـاـ لـيـخـدـمـنـ فـيـ «ـبـابـلـ»ـ، فـأـحـبـبـتـ أـنـ أـحـمـيـ مـاـ تـبـقـيـ مـنـ العـشـيرـةـ، حـيـّ نـسـرـدـ نـسـاءـنـاـ»ـ.

لـأـعـرـفـ مـنـ هـمـ «ـالـغـضـافـرـ»ـ، لـكـنـنـيـ التـقـيـتـ عـنـدـ وـصـولـيـ صـدـيقـاـ أـخـبـرـيـ عـنـهـمـ، أـمـاـ الـ «ـسـيـرـوـشـ»ـ فـسـمـعـتـ عـنـهـمـ أـيـضـاـ مـنـ «ـأـبـادـولـ»ـ.



- ماذا تعرف عن الـ «سيُوش»؟

- لم أرهم حَّى الآن، لكنّي أعرف كيف مسختهم الملكة «عِشتار» في «بابل»، لقد اختطف أحدّهم حفيدة خالي، ونحن هُنا الآن لاستردادها.

- لماذا اختطفوه؟

- هل سمعت عن «الوَرَاقين» يا سيد «شيخون»؟

- نعم، وكان هذا سبب مُداهمة وحوش الـ «سيُوش» وجن «الغضافر» لأرضنا، لقد قتلوا الوَرَاقين جميًعاً.

- يا إلهي!

- لدينا في أرضنا آخر واحد من «الوَرَاقين» من عشيرتنا، المسكين، قتلوا أبيه لأنَّه لم يُفصح عن مكانه، فقد هرب حينها ليختبئ منهم، واختطفوا زوجته وكان قد مرَّ على زفافه أسبوع فقط، عندما عاد من مخبئه انفطر فؤاده، أراد أن يخرج للبحث عن زوجته فمنعته كما منعت البقية من الخروج، ثم سقطت أمُّه حسرة على وفاة أبيه فبقي وحيداً، وعزل نفسه عن الجميع.

كان هذا كصَب الملح على جرح قلبي، فقد تذَّكرت عرسي أنا و«فرح». سأله: «لماذا منعته من الخروج؟».

- هو الوحيد الباقي من تلك الفتاة النادرة، في رأسه تاريخنا، كان أبوه وجده من المؤرّخين في عشيرتنا.

- لكن هذا ظلم له! على الأقل أرسل من يبحث عن زوجته.

- هناك من خرج من الرجال لاسترداد النساء، لكنَّهم رجال عاديون وليسوا من الوَرَاقين، الوَرَاقون كنز لا ينبغي التفريط فيه!.

- أين هو الآن؟



تنَهَّد «شيخون» قبل أن يقول: «سنذهب إليه، فقد أمرت بحبسه في داره».

\*\*\*

«أنس»

أفقتُ على صوت الطبيب وهو يلکزني في كتفي ويهمس قائلاً: «أسع أيها الـ «أنس»، فهناك من انطلق ليخبر حَرَّاس الملك بوجودكما، وسيأتون فور علمهم لاعتقالكما».

- لماذا؟

- لأنكم غرباء!

- لكننا لم نفعل شيئاً مخالفًا ولم نؤذ أحداً.

- لقد طلبت اتصال «الأسيبو»، ويبدو أنَّ هذا أغضبه، فأبلغ حَرَّاس الملك بوجودكما.

- لكن «الحسن» لا يزال مخدراً أيها الطبيب... أقصد أيها «الآسو».

- سأسيه مشروباً ليفيق.

- أرجوك، لا تسقيه من هذا الشراب المسكر مرة أخرى.

- لا تقلق.

صبيباً الماء على رأس «الحسن» فأفاق ولكنَّه كان في حالة من الاسترخاء والكسل، صبَّ «الآسو» قطرات من سائل معنَّق في فمه.



سألته و كنت أخشى أن يصل الحراس إلينا: «هل سيستغرق ذلك الشراب وقتاً؟».

- سيعمل بعد قليل، دعنا نعاونه على السير حتى يظهر مفعول الشراب.

أسندناه و هرولنا خارج المعبد و سرنا من طريق خلفي إلى خارج المدينة.

رأنا أحد المارة فسأل «الآسو»: «من هذان؟».

لم يُجبه، فصاح قائلاً: «تعاون الغرباء؟ يا لك من خائن!».

أخذ يصرخ وينادي رفاقه فأسرعنا نهرول، سحب «الحسن» من بيننا و انهال عليه ضريأً فعدنا وخلصناه من بين يديه، وكان هذا سبباً لينتبه «الحسن» أكثر، بدؤوا يلاحقوننا ليحتجزونا قبل أن يصل الحراس إلينا، أقبل فارس ملثم بجواب نحونا، وكان يسحب جواداً آخر خلفه، عندما وصل إلينا همس فكان صوته أنثويّاً. قالت الفارسة الملثمة للآسو: «اركب خلفي ودع لهما الجواد».

قلت وأنا أتلتفت في حيرة: «لا أجيد ركوب الخيل».

صاح «الحسن» وكان الضرب قد نبهه و حفظه وأصاب نشاطاً من أثر الشراب الذي سقاوه له الآسو: «اركب خلفي يا سيد «أنس»».

ارتقي «الحسن» الجواد بوثبة رشيقة ومدّ يده ليعاونني لأركب خلفه، وانطلقنا خارجين من مدينة «أوروك». كانت الفارسة الملثمة ترکض بجوابها ونحن نتبعها. التفت لأرى «أوروك» وهي توارى خلف الرمال التي كان الجوادان يبعثرانها في الهواء، وعندما ابتعدنا بقدر كافٍ توقفنا وترجل «الآسو» وأقبل نحونا وتبعته الفارسة الملثمة، وقفأ أمامنا وكشفت عن وجهها.

قال «الآسو» وهو يقدمها لنا: «هذه زوجي، كنّا قد اتفقنا على الخروج معكما إن انكشف الأمر ونحن نتسدلل من المدينة».

- لماذا تعرضا للخطر؟ كيف ستعود معها إلى أوروك؟؟



قالت زوجته بثقة: «لن يؤذونا، فـ«الآسو» له مكانة عظيمة لدى أهل «أوروك»، الكثيرون هُنّاك سيدافعون عنه لأنَّه يعالج أبناءهم ونساءهم».

- وماذا عن هؤلاء الذين تبعونا وطاردونا؟

قال «الآسو» مؤكّداً كلامها: «لا تقلق أيّها إلٰه «أنس»».

قال «الحسن» مستنكراً: «لماذا تُناديَه بأيتها إلٰه «أنس»؟ قل له يا سيد «أنس»».

ابتسِم «الآسو» لأول مرّة منذ أن التقينا.

سألته وأنا أرقب الأفق وقد أحاطتنا الرّمال من كل حدب وصوب: «لماذا تُساعدنا؟».

- لا أحب القتل، وجندوَن الملك يقتلون الغرباء دون أن يرجعوا إليه ودون نقاش، كما أنَّ الحديث معك أراح عقلي قليلاً.

- تقصد حديثنا عن الملوك التي يعبدُها البشر ويضعونها في مقام الآلهة؟

- نعم، يشغلني هذا الأمر كثيراً، أشعر...

- أكمل.

- أنَّ هُنّاك إلٰهًا عظيماً واحداً لهذا الكون.

- صدقت.

قال «الحسن» وهو يمسح وجهه: «ما زلت سقيتني أيّها الطبيب؟ أشعر أنَّ جسدي يحترق».

- شرابةً منشطاً.

- إياك أن يكون «مفتاح القلب الفرح والكبش الرّاضي»!



قال «الآسو» ضاحكاً: «لا. اطمئن يا «حسن»».«.

- اسمي «الحسن»!

غضّن حاجبيه وسأله باستكرا: «ألم تُخبرني أن أقول «أنس» وألا أقول «الأنس»؟!»

- بلى، أمّا أنا فقد أسماني أبي «الحسن»!

فلا تحذف منه شيئاً.

كان الطبيب لطيفاً، وكانت زوجته ساكنة هادئة، على العكس مما ظننته في بداية ظهورها وهي ملثمة على جوادها، اتفقنا على أن يصحبانا حتّى نهر الفرات ثمّ يعودان، وسرنا معًا حتّى بدا لنا النهر فعبرناه بالجoadين، وبعد عبورنا وتفنا لنودعهما، طال الوداع ورأييهما لا يرغبان في تركنا، لاح لنا بناء من بعيد، كانت أرضه ترتفع بشكل لافت للنظر كلما نقترب وكأنه يُناديانا لنتوجه إليه. دفع الفضول «الآسو» وزوجته لي ráfakan إلى هذا البناء الحجري العتيق، وصلنا و كان الصّمت يلفُ المكان، بحثنا عن بوابته فدرنا حوله حتّى عثنا على كوة مُنخفضة فانحنينا لندخل منها.

كانت الجدران تحتوي على فتحات علوية يتسلّل منها الضوء والهواء إلى المكان، التهمتنا الحيرة ونحن نُراقب البناء الخالي من البشر والممتنئ بألواح من الطين مكتوب عليها بالخط المسماري.

قرأ «الآسو» المكتوب على جدار البناء ورفع صوته قائلاً: «مكتبة آشور بانيبال الملكية».

ثمّ أشار إلى كتابة أخرى على لوح عريض وأردف وهو يُشير إليها ويقرأ ما نقش عليها: «عنابة الحاكم الآشوري المثقف «آشور بانيبال» ملك العالم وملك الآشوريين جُمع كل ما عُثر عليه في القصور الملكية للملوك السابقين، وأضيف إليها كل ما جُمع من ألواح تمثل تراث حضارات أرضنا في جميع فروع المعرفة».

سألته زوجته بفضول: «من هذا الملك؟».



- لا أدرى. لم أسمع عنه!

كنت أنصرت إليهما، علقت الكلمات بطرف لساني، وددت أن أخبرهما أنهُ الحاكم الذي بني أول مكتبة على أرض الرَّافدين، وأنَّها كانت سبباً في حفظ الكثير من النصوص الدينية والتَّاريخية والشعرية، لكنَّي كنت أعي تماماً أنَّني في مملكة البلاحة حيث يلتقي الغرباء من بقاعٍ مختلفة وقد لا يعرفون بعضهم ولا هذا الحاكم، فلزمت الصَّمت.

كان البناء مُقسماً إلى ممرات على جانبيها صُفت الألواح بنظام وهندسة بد菊花ة، أخبرنا «الآسو» أنَّها مصنفة ومرقمة، وأخذ يُشير في انبهار ويقول: «هذا ممرٌ سجلات القصص، وهذا ممرٌ سجلات الطب، وهذا ممرٌ سجلات شؤون الدولة، وهذا سجلات الزراعة، وهذا سجلات تاريخ الملوك، وهذا سجلات النصوص الدينية».

فأدركت أنَّها مُفهرسة. تناهى إلى مسامعنا سعال ففرغنا، اقتربينا من الصوت فرأينا شيخاً له لحية طويلة بيضاء كالحليب، كان يجلس في سكينة وكأنَّه شجرة بلوط عتيقة، لا يتحرك منه إلَّا عيناه الغائرتان، وكان تحته بساط من الجلد وبجواره قنديل كان فتيله يتوجَّه بشدة ناشراً ضوءه بفيض في أرجاء المكتبة.

قلت وأنا أقترب بحذر: «السلام عليك».

عندما رأنا نقترب وقف وحينا في حبور قائلاً: «وعليك السلام يا «أنس»».

أصابني اضطراب فسألته وأنا أحاوِل التفتيش في ذاكري عن صورة وجهه: «أتعرفني؟!».

ابتسم قائلاً: «حاول أن تذكري أيُّها المُحارب».

تمعَّنت في وجهه، شيخ وله لحية طويلة بيضاء!

قلت وعيناي تكادان تخرجان من محجريهما: «أنت من حُرَّاس المكتبة العُظمى!».



- أحسنت!

- لماذا لم أرك في المَرَات التي عُدْت فيها إلى المكتبة العَظِيمَيْ مَرَّةً أُخْرَى؟

مَرَّ بعينيه على وجه «الحسن»، ثُمَّ انتقل إلى وجه «الآسو» وزوجته ومال علىَّ وسائلني: «هل نحن في أمان؟».

- هم أصدقائي، هذا «الحسن بن موسى بن شاكر»، و«الآسو» أنقذنا من بطش جنود الملك هو وزوجته في «أوروك»، كادوا يقتلوننا.

لمعت عيناه عندما ذكرت اسم «الحسن» بأكمله.

تنَهَّد بعمق ثُمَّ قال: «كنت في مهام خاصة، وأحياناً كنت هُنا! هل تذكر اسمي يا «أنس»؟».

همس «أبادول» باسمه في رأسِي قائلاً: «جلوان(١)».

فأسرعت أخباره باسمه الذي همس لي به «أبادول» في رأسِي للتو: سيد «جلوان».

- أحسنت، ظننتك نسيته.

- لا بد أن يعلق بذهني لطيب معناه، ولكن ماذا تفعل هُنا يا سيد «جلوان»؟

- هل سمعت عن «الطَّوَافِينَ» أم لم يُخبرك «أبادول» عنهم حَتَّى الآن؟

- أخبرنا جَدِّي بعد اختطاف حفيدي.

- ماذا؟! من اختطفها؟

- إل «سيِّروش».

---

(١) جلوان اسم مذكر عربي معناه كاشف الحقيقة.



- كيف هذا؟

كدت أبدأ في سرد ما حدث، لكنَّ السيد «جلوان» استوقفني ودعانًا إلى الجلوس، حلَّقنا حوله على بساطه الجلدي وبدأت أروي القصة من بدايتها وكان «الحسن» و«الآسو» وزوجته يُنصلتون لي باهتمام شديد، أجبت عن الكثير من الأسئلة التي تتعلق بمملكة البلاغة والمُحاريين وعالمنا، فقد كان فضولهم شديداً.

قال «الآسو» وقد كانت نظراته تشيه بالحيرة: «هُنَاكِ في «أوروپَ» من ظهرت لهم تلك الأطيافي، عددهم قليل يُحصى على أصابع اليدين، وأهل المدينة يُقدّسونهم ويزيرونهم في ديارهم طلباً للبركة، فقد ظنُّوا الأطيافي هبة من الكواكب والآلهة، ولم نكن على علم بأمر تدفقُ العلم وما دُون بالألواح لرؤوسهم».

قالت زوجته: «ولم نسمع عن المُحاريين وإنقاذ الكتب من قبل! وأنت تقول إنَّ الورَاقين أبناء «المُحاريين فكيف هذا؟».

هزَ «الآسو» رأسه وأكمل بعدها قائلاً: «أعرفهم جميعاً، ولم يُصرّح أحد منهم بما يعرفه من معلومات دون أن يقرأها، أو زُيَّما لا يُحسنون استخدام ميزاتهم تلك».

قطع «الحسن» صمته وقال: «هُنَاكِ الكثيرون في «بغداد» من أصحاب الذاكرة القوية، التقيت الكثير من العباقرة ممَّن يحفظون صفحة الكتاب بمجرد النَّظر إليها من المسجديين، وكثيراً ما اندھشت من علمهم بما في الكتب دون قراءتها، لكنَّ أطيافيهم لا تظهر للناس!».

قال السيد «جلوان» بهدوء: «الورَاقون من سُكَّان المملكة يختلفون عن الورَاقين من أبناء المُحاريين، والمهم الآن أنَّ الورَاقين مُعرَضون للخطر، فالـ«سيِّروش» يبحثون عنهم لقتلهم، وكلَّما أذَى طَوَافَ مهمَّته ورَدَ كتاباً لصاحبِه ليزول السُّحر ثُعيد «عِشتار» الكرة، وتدور الذاكرة مَرَّةً أخرى».

قال «الحسن»: «عندما يُرْدُ إلينا كتاب الحِيل سيزول السُّحر بإذن الله».

- نعم، ومهماً الطَّوَافُ هي البحث عنك وعن شقيقيك وجمعكم ثمَ العثور على



الكتاب ورده إليكم.

أدركت أنَّ الأمر يزداد تعقيداً، فنحن نبحث عن ثلاثة، وحَتَّى يجمعهم الطَّوَاف ستكون حفيدي غُرْبَة للخطر. أدركوا جميعاً ما أُعْنِي به في صمت فأخذوا يُحَفِّفُون عَنِّي.

بدأت زوجة «الآسو» تسأل كثيراً عن «عِشتار» وما فعلته في «بابل» بسحرها.

قال السيد «جلوان» ليوضح لها وقد لاحظ حيرتها: «ليس هنالك آلية على الأرض، إنَّما هو إله واحد لا شريك له».

- والأساطير والتصوص الدينية!

- لدى هنا الكثير من الألواح التي تحتوي على تلك الأساطير، والتي كُتِّبت تخليداً للملوك، وفيها الكثير من الخيال والشَّعر وتشبيههم بالشَّمس والكواكب وربطهم بالنجوم، وفيها تموت تلك الآلهة! والإله لا يموت أبداً.

سألته زوجة «الآسو»: «ما الذي دفع الشُّعراء والكتَّاب إلى هذا؟».

- قديماً على أرض الرَّافدين هنا اكتُشفت الزَّراعة في شمال وادي الرَّافدين، وكانت المرأة هي أول من اكتشفت الزراعة، ولذلك أصبحت زعيمة المجتمع القرمي لاعتقادهم بأنَّ في جسدها قَوَّة خارقة تجعلها تُنجب وتُزرع، وظهرت صورة تخيلوها ورسموها لأول الآلهة وهي «الإلهة الأم» التي ترمز للخصوصية، وكانت صورتها توضع في الحقول تبركاً.

- ومن هنا جاءت صورة «عِشتار».

- وصاروا يتَّخذونها في أشعارهم رمزاً للخصوصية والحياة.

- وهل قَبِيل الرجال بهذا؟

- لم يتوقف الرجال عن العمل، واكتشف الرجل في وادي الرَّافدين النَّحاس والتعدين،



فظهرت قوّته وسيطرته في مجال آخر، وتهمنش دور المرأة ونشأت المدن والمعابد وأصبح الرجل زعيم المجتمع والمرأة تابعة له، وظهر «الإله الأب» كما زعموا كرمز للهواء والمطر بينما بقيت المرأة رمزاً للخصوصية.

قال «الآسو»: «كنت أشعر دائمًا أنَّ هناك ربيًّا واحدًا لكلِّ هذا الكون».

ران علينا صمت قصير، قطعه سائلاً السيد «جلوان»: «لماذا تُقيم هنا وحدك؟».

- يزورني «الطَّوَافون» يوميًّا، فهم لا ينقطعون عن أرض الرَّافدين، وهم في شغلٍ مستمرٍ، أبناء العراق حريصون على تاريخهم يا «أنس».

- ألا تفتقد عائلتك؟

- أعود إليهم من آنٍ إلى آخر كما يفعل «أبادول» معكم.

ثمَّ ابتسم قائلاً وهو يرنو إلى: «أنا من «بغداد»، وعندما انتقلت إلى مملكة البلاغة وعشت فيها طويلاً بعد أن كبر أبنيائي وتزوجوا، وبعدما أدركت ما يحدث في أرض الرَّافدين هنا قررت البقاء لحراسة مكتبة «أشور بانيبال» وتناوיב أنا وحارسان آخران من حُرَّاس المكتبة العظيم، وثلاثتنا من «العراق». أتدرى يا «أنس»؟ كانت المكتبة هنا تحت وابل من الأحجار والصخور التي سدت أبوابها فنسيها الناس وهجروها وبقيت تحت الأنقاض وتلال التراب لفترة طويلة حتَّى أخرجها المُحاربون من تحتها».

جلت بناطري في المكان وسألته: «ماذا يوجد هنا؟».

- كلُّ شيء عن تاريخ العراق، وجميع الألواح هنا بالكتابة المسмарية.

همس «الآسو» وهو يتأمل الألواح وقال وعيناه تضويان: «وددت لو عشت حياتي كُلُّها هنا إلى الأبد، لدى رغبة جامحة لقراءة كلُّ الألواح الموجودة هنا».

التفت السيد «جلوان» نحوه وقال بحزم: «لن تحمل الوحيدة».



قالت زوجته: «سابقى معه».

- لن تتحملا! الأمر ليس سهلاً كما تظنّ، وكلاكم في ريعان الشباب.

تبادل النّظرات في صمت، قال «الحسن» لهم: « تستطيعان العودة من آن إلى آخر لزيارة المكتبة وقراءة ما تُحبّان».

قال السيد «جلوان»: «ليت هذا سهلاً، لن يتمكّنا من العودة إلى هنا أبداً».

- لماذا؟

- لا يعرف الطريق إلينا إلا الطّوافون والمُحاربون، وكل ما هنا يُنسخ على الورق ويُضمّ إلى المكتبة العظيم هناك، المكتبة هنا لحفظ الألواح من «عشتار» و«غُدفان» وأعوانهما، ومملكة البلاغة تخفيها طوال الوقت.

هز «الحسن» كتفيه قائلاً: «وكيف وصلنا إليك الآن يا سيد «جلوان»؟».

- بسبب «أنس»، كل الأبواب هنا تفتح للمُحاربين الذين استردوا كتب المكتبة العظيم، ولو لم يكن معكم لما أظهرت أرض مملكة البلاغة تلك المكتبة العظيمة.

وقفت قائلاً وقد عاد قلبي يعتصر ألماً وقلقاً على حفيدي وأبني: «سنرحل الآن، لا بد أن أصل إلى «بابل» في أسرع وقت».

قال «الحسن» بحماس: «وأنا معك، لعلي أُعثر على أخي».

قال «الأسو»: «ونحن سنعود إلى مدینتنا».

انتفض السيد «جلوان» فجأة وكأنه اكتشف شيئاً للتو.

اقرب من «الأسو» وأشار إلى أذنه وسأله: «من ألبسك هذا القرط؟».

. أبي.



- أخلعه الآن.

حاول خلعه فلم يستطع، كان مثبتاً بحلقة من حديد تجعل الحجر الأسود المتصل به ملاصقاً لشحمة أذنه، فأقبل «الحسن» وحلّه بسهولة وأعطاه إلى السيد «جلوان»، وفي غضون لحظاتٍ كان الطَّيف يضوی ويتألق حول جسد «الأسو».

صاحت زوجته في ذهول: «أنت من الوراقين!».

- يا إلهي!

سأله وكانت دقات قلبي تتواكب: «ما العلاقة بين القرط والطَّيف؟».

- هذا الحجر الأسود يمنع انبعاث أطياف الوراقين، هل لاحظت تدفق المعلومات إلى رأسك من قبل أيها «الأسو»؟ ألم تتساءل عن المعلومات التي كنت تعرفها دون أن تقرأ لوحاً واحداً عنها؟

قال «الأسو» في تخبُط وحيرة: «كنت أتساءل في نفسي، ولم أجد الإجابة قط، ظننت أني سمعتها من الحكماء والكهنة! تمُر بذاكري كتابات عن الطُّوفان، وكلامنبي كان يدعو الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، ويدعوهم إلى توحيد الله ويرشدهم إلى طريق النور وينهفهم عن عبادة الأصنام، الآن اتضحت الأمور لي.. يبدو أن أحد أجدادي قرأها أو رُيَّما نقشها بنفسه على الألواح، سألت أبي مراراً عنها وكان يلزم الصمت».

قاطعه السيد «جلوان» بجدية قائلاً: «عليك ارتداء القرط مرة أخرى، ولا تُخبر أحداً أثرك من الوراقين، فأنت في خطر، أبواك يُخفيان عنك شيئاً، أو رُيَّما يخافان عليك من النّاس لهذا البساك هذا القرط».

تحسّس القرط بأنامله وقال: «عندما ازداد طولي واخشوشن صوتي، وكنا في ليلة من ليالي الشّتاء مرضت وأصابتني الحمّى، وكنت أرتجف في فراشي وتعرّقت بشدة، كان والداي يُراقباني في ذهول، أفقت الصباح التالي ووجدت القرط في أذني ولم أخلعه منذ ذلك اليوم».



- هل يرتدي أبوك مثله؟

- نعم.

ران علينا صمت كثيف مليء بالفضول، عاون «الحسن» الطبيب وأعاد إحكام القرط على أذنه فاختفى الطيف، تبادل النظرات مع زوجته، كانا خائفين لكنهما تمسكا ببعضهما وبقى كلُّ منها على كف الآخر ليستمدّ منه الأمان.

قال «الآسو» بصوت مرتعد: «لا بدَّ أن أعود إلى المدينة، لدِيَ الكثير من الأسئلة سأطرحها على أبي».

تنحنح السيد «جلوان» قائلاً وهو يسير تجاه أحد الممرّات: «قبل أن ترحل أُيها «الآسو»، أردت أن أريك نصّا قدِيمًا».

تبعناه جميعاً فأرشدنا إلى لوح من الطين منقوش عليه عبارة واحدة وطلب من «الآسو» قراءتها، فقال: «الله رب السماوات وملك الأرض، لا رب غيره، هو الله وحده».

- هذا أقدم لوح هنا، كان التوحيد على أرض الرافدين بعد الطوفان، وما جاء بعده من شرك بالله سيزول، وسيبقى الله وحده لا شريك له، وسيُبقي الله بحكمته بعض أمجاد أهل بلاد الرافدين من عمارة وبناء وهندسة وعلم وطبّ ولغة ليشهد البنيان وتشهد الألواح لهم بحضارتهم، حتى الأساطير والأشعار التي كُتبت لتمجيد الملوك ووصفهم بصفات الآلهة سيبقى بعضها، والفتنة ستظل قائمة، فانجُ بنفسك يا بني واتبع فطرتك التي أنبأتك دائمًا أنَّ هناك إلهاً واحداً لهذا الكون.

- سأفعل، سأفعل.

أخرج السيد «جلوان» من خلف أحد الألواح جراباً من الجلد، وأعطاني قطعة كبيرة من الحجر الأسود الذي صنع منه قرط «الآسو»، وقال بجدية: «رِبِّما تحتاج إلى هذا يا «أنس»».



وضعته في حقيبتي مع خنجرى الذى لم يعمل كما كان من قبل، وسألت السيد «جلوان» عن سبب تعطل خنجرى فقال: «معك ما هو أكثر نفعاً من الخنجر، فقد منحك «أبادول» عصاته! فانتبه لها».

شدّدت قبضتي على عصا جّدي، وشعرت بحنين جارف نحوه. خرجنا من مكتبة «آشور بانيبال» وودّعنا السيد «جلوان»، وابتعدنا بخيولنا لمسافة قصيرة، التفت «الحسن» فجأة وشهق نادرنا رؤوسنا لنرى ما أفرزه.

لقد اختفت المكتبة من هُناك! وكأنّها لم تكن! وكأنّنا لم ندخلها ونجلس فيها ونسير في ممّاها! وكأنّ الأرض ابتلعتها!

وقفنا نتخيّط في حيرة، وجاء وقت الفراق، ودّعنا «الاسو» وزوجته وانطلقنا نحو «بابل»، كان «الحسن» ينطلق بالجواب وكنت ردّيفه ورأسي يقتات عليه القلق، وكان يُدرك هذا فلم يُرهقني بالحديث.

\*\*\*

## «سليمان»

سرنا خلف السيد «شيخون» بين البيوت، كان الجميع يُطالعوننا بأعين يلمؤها الفضول، لاحظت أنّ أغلبهم من الرجال والشباب، وهُناك قلة من النساء وبعض الأطفال كانوا يركضون هنا وهُناك. كانت الرياح تتلاعّب بالطبول الصغيرة المعلقة على جدران البيوت، تأثرت عندما تخيلت أحدهم وهو يعلق أمله بصوت ضرية بيده على واحدة من تلك الطّبول ليتأكد من بقاء أمّه أو زوجته على قيد الحياة.



وصلنا أخيراً إلى بيت صغير يحيطه الزّرع ويتسق على جدرانه وكأنّه يلتهمه، وكان مُحااطاً بالحرس، وقف السيد «شيخون» أمام الباب وطرقه ثلاث مَرَّات، بعد قليل فتح الباب وخرج منه قزمٌ نحيف يموج جسده في جلباب كركمي اللّون، كان الطّيف المُضيء يحيط بجسده ويموج بألوان مُداخلة وخلابة، عندما التفت نحو رأيت الحزن قابعاً بين عينيه، كان السيد «شيخون» يتحدّث إليه بتوقير، رأيت على كتفه قبل أن يدخل معه بيته، وأشار إلى أنا وأحمد» فدخلنا خلفهما، اضطررنا إلى الجلوس على الأرض بينما جلسا هما على مقعدين مناسبين لحجميهما، أخبرته باختصار عن سبب وجودي على أرض مملكة البلاغة وبخاصة بلاد الرّافدين، كان يُنصرت لي في هدوء مشوب بالحزن.

خطر ببالي أن أخفف عنه فسألته: «هل لديك مرآة قديمة هنا بالبيت؟».

- نعم، تلك المرأة أهدتها والدة زوجتي لزوجتي، يرثنها عن الجدات.

طلبت منه أن يحضرها، وأخذت أمسحها بكم قميصي ظهرت «فرح» مرأة أخرى وهي تحمل طفلة صغيرة فاطمان قلبى وأدركت أنها قد التقت بصحبة تؤنسها.

أعطيته المرأة ليرى فيها زوجته، فوثب فور ظهور وجهها بالمرأة وصاح في اندهاش: «إنّها ميسون!».

أخذ يتأملها في ذهول، وسرىعاً ما انقلبت الفرحة التي زينت وجهه إلى ألم وحزن عندما رأها تعمل في مطبخ القصر وقد ظهرت علامات الإرهاق على وجهها.

وقف وهو يردد في إصرار: «سأرحل إلى «بابل»!».

قال «شيخون»: «ممنوع!».

- أرجوك يا سيدي.

- لا، فطيفك ظاهر للجميع، وخروجك سيعرّضك للموت سريعاً، وما عاد بيننا ورّاقون غيرك!



- لكنّها زوجتي وحبيبي ومن بقي من أهلي!
- أنت الوحيد الذي يعرف عن تاريخنا وماضينا، لو قتلوك لن يكون لنا تاريخ.
- ما ذنبي؟! وما ذنب زوجتي؟ ونساء عشيرتنا المقهورات!
- تعلم أنّ من خرجنوا لاستردادهنّ لم يعودوا.
- فُلِت للسيد «شيخون» مُحاولاً إقناعه: «ليس من العدل أن تمنعه عن الخروج لاسترداد زوجته».
- قال «شيخون» ليُعجزه عن الخروج: «لو استطعت منع طيفك من التوهج سأتركك لترحل!».
- بدأت أسأل القزم الشاب الذي علمت أنّ اسمه «برهوم»: «هل هناك من سبيل لإخفاء انبعاث الطيف؟».
- لا أذكر أنّه توّقف عن الانبعاث منذ أن وصلت إلى طور البلوغ.
- قال «أحمد بن موسى» وهو يتأنّل الطيف: «هل جربت ارتداء ثياب سوداء لتمتصّه؟».
- لم أجرب، لم نكن في حاجة إلى إخفاء أطيافنا، كان الأمر عاديّاً، فعشيرتنا تتميز بالكثير من الأشياء التي قد تبدو غريبة للآخرين، فكل ما نصنه بأبادينا يُصدر صوتاً، وهذا هي المرأة قد أظهرت ميزتها بعدما غابت النّساء عن البيوت، لهذا لم يكن الطّيف شيئاً غريباً لنُخفيه!
- عاد يمسك بالمرأة ويتطّلع إلى وجه زوجته فيها، وانخرط «أحمد» في تفكير عميق، قطع شروده فجأة وهو يقول: «فلنصنع له رداءً أسود ولنراقب ما سيحدث للطيف».
- ما رأيك أن نجرب إغرائه بالماء؟



## - أو نفطِي جسده بالشحْم!

خرجنا من الدار وكان «برهوم» مستسلماً لتجارينا، لم ينجح شيء في إخفاء طيفه المتوجّح، لا الماء ولا الطين ولا الرداء الأسود، حتى إنّهم ضربوه بمطارقهم لكنَّ هذا لم ينجح أيضاً، وكان «شيخون» يُراقبنا في ضجر، شعرت أنَّه قد يضحي بنساء العشيرة الغائبات من أجل الحفاظ على تاريخهم، وأنَّه قد ضرب هذا السُّور للحفاظ على ما تبقى من النساء والبنات، فهو يخشى على جنسهن من الانقراض، لم يُعجبني هذا لكنَّني آثرت الصَّمت.

اقرب قزم عندما رأنا نقف أمام الدار، كان يبدو مُراهقاً، سحب قلادة كان يرتديها ويُخفيها داخل قميصه، كانت من خيط غليظ مجدول ومعلقاً فيها حجر أسود مُعتم ليس له بريق، فور أن خلعها ظهر الطَّيف حول جسده، وكان الضوء خلَّاباً كموج البحر يعلو وينخفض بألوانه البهيج و كان مُريحاً للعين، أخذت أتأمله وهو يتحرك مع أطرافه، وكان لونه يتغير.

قال بحماس: «الحجر يمنع انبعاث الطيف».

اقرب منه «أحمد» وأمسك بالحجر وبدأ يُقلّبه بين أصابعه وقال: «هذا حجر السَّبَّاج<sup>(١)</sup>!».

قال الفتى: «أحضرته أُمِّي من تاجر كان يطوف بالبيوت وبيع الحُلُّي للنساء، قال إنَّه يحضره من أحد البراكين بعد انطفائها، ويرتدية الوراقون في المدن الأخرى في آذانهم، وأحياناً يخيطونه في الثياب من الداخل، وكثيراً ما يربطونه في أرجلهم.

دفعه «شيخون» في صدره وقال بغضب: «لماذا أخفيت أمر الحجر عنَّا؟».

(١) حجر السَّبَّاج أو حجر الأباش (بالإنجليزية - أوبسيديان): هو حجر أسود بركاني طبيعي يأتي من الحمم السوداء غني بحمض السيليسيك.



- كانت أُمّي تحبسني في الدار منذ بلوغي، لم أخرج إلّا بعد أن حطمت قفل الباب، فقد غابت أُمّي ولم تعد، وكان هذا بعد مداهمة الجنود لقريتنا، وعندما خرجت وسألت عنها قالوا إنّ الجنود أسروها.

أخذ بيكي بحرقة وكان جسده يختلж، ارتفعت نبرة صوت «شيخون» وهو يؤنبه: «لماذا أخفيت عناً أنك من الوراقين أنّها الخائن؟».

- لم أتمكن من السُّكوت فقلت مُعترضًا: «ليس بخائن!».

- بل هو خائن وكذاب، لماذا لم يخبرنا؟

- كنت ستحبسه في داره مثلما حبست «برهوم»!

- كيف تجرؤ على الحديث معي بتلك الطريقة؟

أمسك بذراع الفتى ثم قال: «أخطأت أمك بإخفاء أمر الحجر عَنَّا، لبتز عرفنا به قبل أن يُداهمنا أعداؤنا، أتدرى كم قتلوا منا؟».

كان الفتى يتالم وهو يلوي ذراعه، قلت مدافعاً عنه: «لماذا تعامله وكأنه مجرم؟! لماذا تعامل عشيرتك وكأنهم في سجن كبير؟».

هاج رجال العشيرة وماجوا، دارت بينهم حورات وجدلات دفعتهم لمعارضة «شيخون» وطالبوه بإطلاق سراحهم ورفع السُّور والسماح لرهط منهم بالخروج لاسترداد النساء، تركهم وانصرف إلى داره، وعلا هتافهم، اجتمع كلُّ من له زوجة أو أخت أو ابنة قد خطفها إلٰا «سيروش» وتبعوه، وقرروا التمسك بحقهم في الخروج ونبذوا الخوف وراء ظهورهم، بقي الأمر معلقاً حتى خرج «شيخون» من داره فألقى الصِّمت عباءته على الحضور.

قال بصوت مجلجل: «لن يخرج أحد من أرض الكنادرة».

ثم التفت نحوي وكانت عيناه تشعآن غضباً وتمتم بكلمات لم أفهم كنهها، شعرت



بشيء يلتف حول عنقي ويختنقني، ورأيت «أحمد» يُعاني ما أُعانيه فأدركت أنه عاد إلى سحره.

هدر غاضبًا وهو يرشقني بنظرة مقيمة: «قبضوا عليهمما». انقض علينا الجنود ووجهوا الرماح إلينا وسلسلونا مرّة أخرى وأعادونا إلى الزنزانة التي التقينا فيها، ومرت علينا ساعات ثقيلة. دَحْسَنَ اللَّيلَ وَأَنَا مَحْزُونٌ، أطْفَوْنَا الْقَنَادِيلَ وَالشُّعْلَ فَشَعَرْتُ بوحشة شديدة.

سمعت صوت «أحمد بن موسى» ولاح لي طيفه وهو يتهادي وسط الظلام، كان هناك بصيص نور يتسلل خلسة ليعكس التفاصيل قطارات الماء على جبينه، رأيته وهو يستقيم واقفًا وظل على حاله حتّى ظننته قد تسمّر مكانه فسألته: «ما بك؟».

جاء صوته ليوقظني من غفلتي وهو يقول: «ساقر ع باب الملك! لعله يُفرج كربتنا ويحفظ أخيه ويردهما إلى سالمين».

رفع يديه وكاد يُرسل تكيبة الإحرام من بين شفتيه، لكنه التفت وسألني بصوت يشوبه لوم أنيق: «أما دعاك الشوق إلى مناجاة الرّحيم؟».

خجلت من نفسي، وانتفضت أتلمس قدحًا من الفخار كانوا قد قدّموه لنا وتوّضأت من مائه ووقفت أصلي معه. خال لي أنّ بصيص الضوء الحاني قد خشع معنا، وأنّ الجدران تردد الآيات خلف «أحمد»، غمرتنا السكينة بعباته شعرت بارتجاف نبرة صوته وهو يُرثّل كل آية وكأنّ المدود تخرج من سويء قلبه، عندما سجدنا أطال السجود واخترقـت دعواته أذني وهو يهمـس قائلـاً: «إلهي، ظلل على أخيـي بغمـام رحـماتكـ، وأرسـل عـلـيـهـما سـحـائـب مـغـفـرتـكـ وـآنـس وـحـشـتـهـماـ إنـ كـانـاـ قدـ اـفـتـرـقاـ، وـرـدـهـماـ إـلـيـ سـالـمـينـ، رـبـنـاـ لـتـقـيمـ الصـلاـةـ كـمـاـ تـحـبـ، وـلـنـعـبـدـكـ حـتـىـ تـرـضـيـ، إـلـهـيـ أـعـيـيـ عـلـىـ نـفـسـيـ وـاسـكـ سـكـيـنـتـكـ عـلـىـ فـؤـادـيـ».

تغلغلت كلماته في أعماقي ومسحت على صدري، أدركت مدى الرباط العميق بينه وبين أخيه، وكان لدى حنين لـ«فرح»، كنت أخشى عليها والهوا جسـ تضرـب رأسـيـ



في جنون، دعوت كما دعا لأخويه لها ولخالي «أنس» و«حمزة» والمسكينة «رواء»،  
ودعوت لأمي وأبي، ردني الوقوف معه للصلوة لوشائج الوصال بعائلتي وإن كنت قد

فارقتهم فهم تحت جلدي، أنهينا الصلاة و كنت قد انتقلت من حال إلى حال آخر،  
وكان هناك من أخرج عقلي من جمجمتي وغسله بماء بارد ورده مكانه، هدأت  
هواجسي واستودعتهم الله. رفع «أحمد بن موسى» يديه وبدأ يبتهل في خشوع وردد  
بصوته الشاجي:

قلبي بِرَحْمَتِكَ اللَّهُمَّ ذُو أَنْسٍ

فِي السِّرِّ وَالْجَهَرِ وَالإِصْبَاحِ وَالْغَلَسِ

مَا تَقْلِبْتُ مِنْ نَوْمِي وَفِي سِنْتِي

إِلَّا وَذِكْرُكَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالنَّفْسِ

لَقَدْ مَنَّتْ عَلَى قَلْبِي بِمَعْرِفَةِ

بِأَنَّكَ اللَّهُ ذُو الْأَلَاءِ وَالْقُدْسِ

وَقَدْ أَتَيْتُ ذُنُوبًا أَنْتَ تَعْلَمُهَا

وَلَمْ تَكُنْ فَاضِحِي فِيهَا بِفِعْلٍ مَسِي

فَإِمْنُنْ عَلَيَّ بِذِكْرِ الصَّالِحِينَ وَلَا

تَجْعَلْ عَلَيَّ إِذَاً فِي الدِّينِ مِنْ لَبَسِ

وَكُنْ مَعِي طَولَ دُنْيَايِ وَآخِرَتِي

وَيَوْمَ حَشْرِي بِمَا أَنْزَلْتَ فِي عَبَسِ<sup>(١)</sup>.

أرسل القمر شعاعاً حانياً فتسلى من باب الزنزانة على الأرض، كان شاحباً ومريراً  
للنظر إليه، داعب عيني برفق حتى غلبني النُّعاس، ولم يوقظني إلا صوت أحد هم  
وهو يهمس في الظلام بعد أن حل رفيقه السلال عن أرجلنا: «اتبعاني».

(١) الأبيات من قصيدة من ديوان الشافعي رحمه الله.



الجمت الدَّهشة لساني، إِنَّهَا «حنبش»! «حنبريت»! وكان معهما «برهوم» والفتى الآخر الذي كان يرتدي الحجر في قلادة، شعرت بارتياح شديد لرؤيتهما، وددتُ احتضانهما لكنَّ هذا مُستحيل.

همس «حنبش» قائلاً: «كترت يا «سليمان» وصرت شاباً وسيماً!».

- كيف أنتما؟ وكيف هم أبناء «سرمد»؟ و«شفق»؟<sup>(١)</sup>

- الجميع بخير، لكنَّهم لا يقدرون على اقتحام أرض الرَّافدين.

قال «حنبريت» وهو يوقع كل حرف ينطق به: «لقد خاطرنا بالولوج إلى أرض «الكنادرة»، وربَّما نُقتل في أي لحظة، لهذا يجب علينا الخروج بسرعة».

قال «حنبش» وهو يتعرَّج لنا لتبصره: «علمنا بوصولك عندما استخدمت الكرات فأتينا في الحال، سنخرجك الآن مع رفيقك و«برهوم» و«صفوان»، ولا تخبروا أحداً أنكمرأيتمنا هنا».

- سيكتشفون أمرنا بسهولة!

- ستحجبكم عنهم، سر بينهم ولا تلتفت.

- والسُّور؟

- أمره سهل! أنسنتَنَا من الجنَّ يا صديقي؟

سرنا بين الحرَّاس ولم ينتبه أحد إلينا وكانت هواء، وصلنا إلى أقصى المنطقة حيث كان هناك الكثير من النخيل والأشجار.

التفت «حنبش» تجاه «برهوم» وقال له: «لا تنسَ أَيُّها الوراق، كما اتفقناه»

---

<sup>(١)</sup> أبناء سرمد هم عشيرة من الجنَّ التقتهم عائلة «أبادول» في رحلتهم السابقة إلى كويكول وشفق، هي ابنة زعيمهم.



أعاهدك أن أفعل ما اتفقنا عليه بإذن الله.

أدركت أن هنالك سرًا بينهما، لم أرغب في نبشه، فالملهم عندي هو الوصول إلى «بابل» بأقصى سرعة، لعلي ألتقي «فرح» هناك.

كان «حنبريت» يقف أمام السُّور ويفتح ذراعيه على وسعهما، قال شيئاً فانطفأ بريق السُّور وتلاشى تماماً، وأمّا إلينا برأسه فودعناه هو و«حن بش» وخرجنا نحن الأربع، هرولنا خارجين من أرض «الكتنادرة» وكان «صفوان» قد منح «برهوم» حجراً آخر كان لديه وكانا يسيران وقد حجب طيفاهما بسبب الحجرين. وصلنا إلى نهر «الفرات»، وقف «برهوم» وتلقت يمنةً ويسرةً قبل أن يُخرج من حقيقته بساطاً خفيقاً ويسطه على سطح الماء.

قال وهو يشير إلينا: «هذا البساط صنعته أمي، سينزلق بنا فوق سطح الماء إلى «بابل»، أقبلاً ولا تخافاً».

وقفنا على البساط، وانزلق بنا نحو «بابل» فوق سطح الفرات الفضي الذي تمور أعماقه بحيوات سرية، وعندما وصلنا إلى حدود «بابل» جلسنا قليلاً لنتفق على خطّة، وكان «برهوم» قد كسر المرأة وأحضرها معه، ومنح كلّاً منا جزءاً، فرأى «أحمد»: أخيه فيها، وأخبرته أنَّ «الحسن» في رفقة خالي «أنس» عندما رأيتهما يركبان جواً ويركضان به، أمّا «محمد» فكان يسير في أرض غبراء وكان وحيداً ومتعباً. اطمأن «صفوان» على أمه، و«برهوم» على «ميsonian» زوجته.

تذَّكرت الخريطة التي أعطاها لي «ياقوت» فأخرجتها، كانت هنالك كلمات قد دوّنها «ياقوت الحموي» على هامش الخريطة بخط صغير، قربت عيني وقرأتها:

«وإقليم بابل موضع الـ<sup>(١)</sup>بيتيمة من العقد، وواسطة القلادة، ومكان اللـ<sup>(٢)</sup>بية من المرأة الحسناء، والمحة من البيضة، والنقطة من البركار<sup>(٣)</sup>».

(١) الـ<sup>بيتيمة</sup>: الـ<sup>بيتيمة</sup> من الدرر ونحوها هي الثمينة التي لا نظير لها.

(٢) اللـ<sup>بية</sup>: موضع القلادة من العنق.

(٣) البركار: أداة هندسية (الفرجار). والاقتباس من كتاب مُعجم البلدان.



راق لي وصفه لمدينة «بابل»، شعرت برهبة، فأنا الآن على وشك دخول عالمها الساحر، جلسنا نبحث عن المنطقة التي أخبرني أن فيها عيباً دفاعياً لعدم امتداد الأسوار إليها، وكان لا بد من السباحة في النهر لنصل إليها، فالبساط سيلفت الأنظار إلينا لأنَّ له صوتاً كسائر ما يصنعه «الكنادرة» بأيديهم، ونحن نرغب في الدخول دون إحداث جلبة، فنزلنا إلى الماء وكان بارداً للغاية.

\*\*\*



## أسرار "مهربان"

### «فرح»

نصل اللَّيل من خضابه واقترب طلوع الفجر، كُنَّا جمِيعاً قد بتنا في بيت «خاندان»، أيقظتني الجدة هامسة لأتبعها، فوجئت بوجود «طيفور» و«خاندان» خارج البيت.

همست لي وهي تمسك بذراعي: «سُرِّحْلَ الْآنَ قَبْلَ اسْتِيقَاظِ «رُوكَانَا» و«أُورْمَانْدَا»، و«طِيفُور» سِيرَافَقَنَا».

هزرت رأسي موافقة، أمدنا «خاندان» بثلاثة خيول وأمدنا بالزاد وانطلقنا وسط العتمة والظلام يكتنفنا من كل حدب وصوب، و«طيفور» يحمل مصابحاً ويتقدمنا، سرنا ببطء وكان البرد قارساً، ابتعدنا عن البستان وبدأ اللَّيل يسحب أطراف ردائه فأطلَّت الجبال ببهائهما ومن خلفها النُّور، كانت الجدة تتحدث كثيراً عن ابنتها وكيف كانت رائعة، لمع في عينيها بريق ملوَّن بالحنين والأسف، ظلت تصفها لـ«طيفور» الذي بدأ هو الآخر يتحدث عن أمّه وقد شعر بالألفة لأنَّها ساحرة هي الأخرى، لكنَّي لمست في صوته شيئاً من الانكسار والحزن وكأنَّه محبط، استمتعت بحديثهما وشغلني هذا عن طول الطَّريق، تسألت أين «سُلَيْمَان» الآن وهل التقى فتاة جميلة أم لا، مرَّت الفكرة سريعاً كشظية بآور في ذهني، فشعرت بالغيرة تأكلني. جلسنا للراحة وأشعل «طيفور» ناراً لنندفَّا بهيبها.

قلت وأنا أتكوئ بجوار الجدة: «سُتَحْزِنْ «أُورْمَانْدَا»، فَهِي شَدِيدَة التَّعْلُقِ بِكَ».



- أعرف، لكنَّ ناري لن تهدأ إلَّا بقتل «عشتار».

قال «طيفور» وهو يمد كفيه تجاه التَّار: ««أورماندا» لم تنضج بشكلٍ كافٍ وأظنها تحتاج إلَيك».»

- سأعود إليها بِإذن الله، ولُسْساعديني في هذا يا «طيفور».

أخذت تتأنَّمله بعينيها الرَّائقتين فأوْمأ إليها موافقاً، نَدَّت عنه ابتسامة مُغتَصبة، أخذ يتطلَّع إلى خط الأفق شارداً، عبر فوقنا سرب من الغيوم الشفيفية التي أخذت تفسح فجوة ليمر شعاع الشَّمس من خلالها، وفجأة انبعثت فجوة بجوارنا وكانت أطرافها تتلاعب، أخذت تتَّسع وأطَّلت «أورماندا» من خلالها وهي تعقد حاجبيها في غضب، انفرجت أسارير «طيفور» وكأنَّه نشط من عقال.

وقفت «أورماندا» أمام جدتها بعناد وقالت: «أفلحت أخيراً في تطبيق التعويذة».

زفرت الجدة بحقن وهي تتأملها وهي مغبَّرة بالرَّاب، وقالت: «ما كل هذا الغبار؟».

وأطلت «روكانا» خلفها وهي تحضن ابنتها وقالت وهي تنهر أختها: «هل كان من الضروري أن نمر من ذلك النفق تحت الأرض؟ سيتأثر صدر «مومو»!..

دلَّف «خاندان» بعدهما ووجهه لا يظهر فيه إلَّا عينان وقد اختفت ملامحه تحت طبقة كثيفة من الغبار.

قال بضجر: «لم أفلح في كبح جماح «أورماندا»، و«روكانا» صمَّمت على مرافقتها، كان الحوار معهما حوار طريشان!».

هزَّت الجدة رأسها وبدا عليها التَّوْرُّ، جلسنا قليلاً بعد أن ساعدناهم في تنظيف أجسادهم وثيابهم، وخفف حضورهم عَنَّا كثيراً، لكنَّ الجدة كانت قلقة للغاية، أرادت أن يعودوا وظلَّت تقنعهم وأخبرتهم أنَّها تستطيع فتح بوَابة لهم ليعودوا بسلام، ولكن هيهات، سألتها أن تفتح لنا بوَابة ووصل إلى «بابل» بسرعة، فرفضت وأخبرتني أن هذا سيكون سبباً في معرفة باقي السَّاحرات وهي لا تثق بإداهن وتخشى أن يصل



الخبر إلى «عشتار» عن طريقها، فتلك التي لا تثق بها تثير كثيراً مع الجن. قسمنا أنفسنا على الخيول بوجهتنا الثلاثة وانطلقنا نحو «بابل».

كانت الخيول تسير خلف بعضها في تألف وانسجام وكأنَّ كلاً منها يعلم قدره ومرتبته، تركنا أنفسنا لهم وكان «خاندان» يقود المسيرة وجميعنا نتبعه، ترجل «خاندان» و«طيفور» عندما صعدنا أحد الجبال، فأمسك «طيفور» بزمام جواد الجدة وسار بجوارها لوقت طويلاً وتحدثا طويلاً، عربنا نهراً كان يقطع الطريق بعد الجبل، وجلسنا للراحة، بدأ «خاندان» يشعل النار، وكانت «روكانا» تعاونه لإعداد الطعام، فابعدنا عنَّا لكي لا يؤثر الدخان على صدر «مومو» التي استسلمت للنوم بجوار جدتها التي كانت شاردة طوال الوقت، أشفقت عليها فاقتربت لأتبادرل معها الحوار وأخفف عنها.

قطعت الحوار فجأة وقالت وهي تدقق النَّظر إلى عينيَّ: «هُنَاكَ مِنْ يَنْظَرُ إِلَيْكِ».

- ماذا تعنين؟

أغمضت عينيها وعادت تفتحهما وهي تقول: «يُطْلُبُ مِنْ مَرْأَةٍ».

سحبت حقيبتها وأخرجت بلورة زجاجية ومسحت بشيء وسريعاً ما ظهر «سليمان» فخفق قلبي بشدَّة، كنت قد اشتقت إليه ووددت لو قفزت في تلك البلورة لأصل إليه. كان يجلس مع قزمين! وكان معه رجل تبدو عليه علامات الوفار، كانوا يجلسون على صفة نهر وكلُّ منهم يمسك بجزء من مرآة محظمة، اختفت صورتهم فرفعت عينيَّ نحو وجه الجدة فقالت بحنان: «أَعْلَمُ أَنَّكِ تَشَاقِّينَ إِلَيْهِ، فليس من السهل أن يفترق زوجان يوم عرسهما».

- الحمد لله أنه بخير.

- معه قزمان وهذا جيد.

- لماذا؟



- الأقزام ممизون، وسيساعدونه.

- هل أستطيع رؤية أبي وأخي هنا؟

وأشرت إلى البلورة، فقالت وهي تهز رأسها نفياً: «المرايا والزجاج أعين مفتوحة هنا على أرضنا، رأينا زوجك لأنّه كان يطالع مرآة، ويبدو أنّ أباك وأخاك بعيدان عن تلك الأعين الآن».

ران علينا صمت خفييف، كانت «أورماندا» تحرك أصابعها في الهواء وكأنّها تحريك ثوباً، تتمتم بأشياء وتقدّف بحجارة هنا وهناك وتحركها وتديرها في حلقات، وتشعل النيران في الأشجار وفي كل مرّة تصيغ غاضبة، وكان «طيفور» يتبعها كما طلبت منه الجدة ليحميها، فتبعد عنها والقوس لا يزال على ظهره، ورؤوس السهام تضوّي، فسألت جدّتها: «أين تذهب «أورماندا»؟».

- تتدرب على السحر وإلقاء التعاويذ، وطلبت منها الابتعاد، فأنا أخشى على «مومو» من أخطاء «أورماندا». أخبرتني الليلة الماضية أنّها سترب الدار بتعويذة وانتهى الأمر برقص القدور في مطبخي وتفجير الوسائل لتخرج منها الخنافس! ومنذ أسبوع أحرقت لحية بائع في السوق لأنّه رفض تخفيض ثمن بضاعته.

أضحكتني تعابير وجه الجدة، عدت أراقبهما يبتعدان وكان بينهما مسافة واسعة فقلت للجدة: «ما بال «طيفور» يتبعها بحذر ويختبئ؟!».

- يقول إنّه يخشى أن تسقط شعر حاجبيه أيضاً.

ضحكنا معًا، وكان «طيفور» يختبئ خلف الأشجار، لكنّي كنت أعلم أنّ «أورماندا» على يقين من أنّه يتبعها.

قلت للجدة وأنا أدّاعب شعر «مومو»: «جدة «طيفور» ساحرة مميزة».

- أخبرني بهذا، ذاك الشاب لطيف ومهذب.



- لقد اقتحم أرض الرَّافدين وحده دون علم والديه لِيُساعدنَا.  
يُكَنْ لِعائِلَة «أَبَادُول» الْكَثِيرُ مِنْ التَّوْقِيرِ.

- أَلِيسْ مِنْ الْخَطَأِ أَنْ تُرْكِيهِمَا وَحْدَهُمَا يَا خَالَةً؟  
- طَلَبَتْ مِنْهُمْ هَذَا بِنَفْسِي.. وَلَمْ أَكُنْ لِأَرْسَلَهُ خَلْفَهَا لَوْ عَلِمْتُ مِنْهُ سُوءًا، كَمَا أَنَّنِي أَرْدَتُ  
الْانْفِرَادَ بِكِ لِأَمْرِهِمْ يَا «فَرْحَ»، وَلَا أَرْغَبُ فِي أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ بِحَوْارِنَا.

مَنْحَتِنِي ابْنِ سَامَةَ وَاسْعَةً وَأَطَالَتِ النَّظَرَ إِلَى عَيْنِيَ ثُمَّ قَالَتْ: «سَأَخْبُرُكِ بَسْرَ وَأَرْجُو أَنْ  
تَحْفَظِيهِ جَيْدًا، وَعَدَنِي إِنْ قُتِلْتَ فِي «بَابِلَ» أَنْ تُخْبِرِي «أُورْمَانْدَا» بِهِ.»  
شَعَرْتُ بِالْخُوفِ عِنْدَمَا ذَكَرْتُ الْقَتْلَ، تَسَارَعْتُ دَقَاتِ قَلْبِي وَأَنَا أَسْأَلُهَا: «حَفْظُكِ اللَّهُ  
يَا خَالَةُ، لِمَاذَا تَقُولِينَ هَذَا؟».»

وَضَعَتْ يَدِيهَا بَيْنَ كَفَيْهَا بَيْنَ كَفِيْ وَقَالَتْ: «أَعْلَمُ أَنَّكِ تَسْتَطِعِينَ قِرَاءَةَ مَا بِرَأْسِي مِنْ ذَكْرِيَاتِهِ،  
وَأَنَا أَيْضًا أَفْعُلُ ذَلِكَ، وَهَأْنَا أَضْعُ أَسْرَارِي بَيْنَ يَدِيكِ يَا «فَرْحَ»..».

ذُهِلْتُ عِنْدَمَا اكْتَشَفْتُ أَنَّهَا تَعْلَمُ بَسْرَ مِيرَاثِ «طَرْجَهَارَةَ» أَغْمَضَتْ عَيْنِيَ وَاسْتَسْلَمَتْ  
لَهَا، وَعِنْدَمَا قَبَضَتِ الْجَدَةُ عَلَى يَدِيَ شَعَرْتُ بِبِرْوَدَةِ تَسْرِي فِي أَوْصَالِي، فَتَحَتَّ عَيْنِيَ  
فَلَمْ أَجِدْهَا أَمَامِي فَضَمَّتُ يَدِيَ إِلَى صَدْرِي فِي خُوفِ وَوَجْلٍ، سَمِعْتُ صَوْتَهَا بِجَوارِ  
أَذْنِي وَهِيَ تَقُولُ: «لَا تَخَافِي يَا «فَرْحَ»..».

- أَينَ أَنْتِ؟

بَدَأَتْ صُورَتِهَا تَظَهَرُ أَمَامِي لَأَيَا فَلَأَيَا وَكَانَهَا طَيفٌ يَتَرَاقِصُ فِي الْهَوَاءِ، تَلَفَّتْ حَوْلِي  
لِأَتَفَحَّصُ الْمَكَانَ فَوَجَدْنَا وَقَدْ انتَقَلْنَا إِلَى مَكَانٍ آخَرَ يَحْفَهُ الضَّبَابُ، غَابَتْ مَلَامِحُ  
الْمَكَانِ السَّابِقِ حَوْلَنَا وَغَابَ الْجَمِيعُ وَبَقِيَتْ أَنَا فَقْطًا وَأَنَا لَا أَدْرِي هَلْ هِيْ حَقًّا أَمْ لَا!

عَادَتْ تُمْسِكُ بِيَدِي فَشَعَرْتُ بِدَفَعَهَا كَفِيهَا، تَسَارَعْتُ دَئَاتِ قَلْبِي وَشَعَرْتُ بِدَوَارِ  
خَفِيفٍ وَهِيَ تَسَاعِدُنِي عَلَى النَّهْوَضِ لِنَسِيرَ مَعًا فِي درَبِ يَسِيجٍ فِي ضَوْءِ نَاعِمٍ، سَأَلْتُهَا



بفضول: «أين نحن الآن؟».

- في رأسك!

- لماذا؟!

انعقد لساني وطفقت أتحسّس رأسي ثم عقدت ذراعي وسرت بجوارها وأنا أتخبط في اضطراب، قفزت الكلمة على لساني بعفوية وأنا أقول لها: ألقىتك على تعويذة؟!».

- تعويذة.. تعويذة<sup>(١)</sup>، مللت من تكرار تلك الكلمة، وددت لو أعدت إليها كرامتها.

- ما الذي حدث إذن؟

- فلنسمّها حيلة أو مهارة يا بنبي.

- حسناً.. ولكن لماذا ضايقتك كلمة «تعويذة»؟!

- شاع أنها تعني الاستعانة بالجَنَّ والشياطين، وهذا يشعرني بالضجر، فأنا أستعين بالله وحده!

- صحيح أنَّ كلمة تعويذة تعني الرقية والعوذ بالله، ولكن الجن يُساعدك... أليس كذلك؟

- بلـ، ولكنني لا أتعامل مع أي طائفة منهم، تلك الأمور محفوفة بالخطر يا «فرح»، فالجن الفاسق كي يستجيب للتعويذة لا بد من تقديم المقابل لهذا!!

- وما هو؟

- بعض التنازلات والمطالب الغريبة منها الكفر بالله.

---

<sup>(١)</sup> التعويذة في الفقه من العوذ بالله وهي ما يُتلي على الإنسان للتحصن من العين أو السحر أو نحو ذلك، وهي أعم في المعنى من الرقية، وشاع أنها تعني فقط الاستعانة بالجن.



- ماذا؟ لكنّكِ لستِ كذلك.. أنتِ من الساحرات الطبيات!

- لا يوجد ساحر طيب يا «فرح».

- كيف تقولين هذا؟

ران علينا صمت قصير، فسألتها مباشرة: «ما هو الشيء الذي قدمته للجن مقابل مساعدتك؟».

توقفت عن السير واستدارت لتكون قبالي وقالت وهي تغرز عينيها في عيني: «تلك هي مشكلتنا يا «فرح».. نحن لا نتنازل، لم نستجب قط لمطالب الجن والمردة، رفضنا الشرك بالله، ولولا هذا ما استمرّ نسلنا حيّ الآن».

- أهكذا! يتركونكم في سلام؟

زفرت زفراً كادت تخترق حجاب قلبها وقالت: «بل نخسر.. وخساراتنا عظيمة، نخسر أحبابنا يا بنقي، نحن نشقى بمهاراتنا تلك على أرض مملكة البلاغة».

طار الحزن في وجهها وأردفت قائلة: «هناك طوائف من الجن المؤمن فيها خير، يسخرهم الله لنا عندما نتَّوَدُّ به سبحانه ونركن إليه، كـ«المجاهيم» مثلاً، ألم يُساعدهم جدك وأبادول؟ وكذلك هم يساعدونكم؟ أنسيت؟ لقد وصلت إلينا أخباره وثبتنا هذا كثيراً».

سرت الطمأنينة في نفسي عندما تذَّرَّكتْ جدي «أبادول» وما يُرِّينَا عليه وكيف يذكرنا دائمًا بالاستعانة بالله وحده، عدت أسألها: «ولكن من أنتم؟».

- لم تُلْقِبْ أنفسنا بشيء، تستطيعين وصفنا بأي شيء ترينه مناسباً.

- هل كلّن نساء؟

- لا.. متنَّ رجال أيضًا، والجميع يعمل في الخفاء.



- تعملون في الخفاء كـ«المغاتير»! لا بد من لقب لكم.. فأنتم حَقّاً من المُحاربين!

لمعت عيناهَا وكأنّي قلّدتها وساماً للتو فقلت لها: «نعم أنتم مهاربون في درب آخر وساحة أخرى في أرض مملكة البلاغة».

أومأت برأسها وأضافت: «لكل مَنَّا معارك عُظْمى، فيها تتحرّر قوّاناً وتتجلى، ومن هُنا ننال لقباً يلتصق بنا، لا يعرفه إلّا المقربون مَنَّا».

- وما لقبك؟

حلّت حجاب رأسها وأرتني وشمماً منمنماً على عنقها وكان لطائر طويل العنق يبسط جناحيه وقالت: «بعد أول انتصاراتي في معركة كُبرى من معارك ظهر هذا الوشم على عنقي بعد أيام، إنّها «العنقاء»<sup>(١)</sup>، وهذا لقبِي».

تحسسته بأطراف أناملي بعد أن طلبت مِنّي هذا، فمر برأسِي لحظة ظهوره عالقاً في السماء وهو يلفع عدوّها بأجنحته النارية فُيحيِّله رماداً يتبعثر في الهواء، فقلت لها ولا يزال ضوء نار جناحيه يلوح في رأسي: «يا لهما من جناحين!».

سألتها في حرج: «وeddت أن أعرف اسمك الحقيقي يا خالة، فالجميع ينادونك بجذتي».

- «مهرجان».

- وما معناه؟

- الحنونة الرّحيمَة.

وأنت كذلك بالفعل!

---

<sup>(١)</sup> العنقاء: طائر أسطوري فيه قوّة وبهاء، وسميت عنقاء لأنّه كان في عنقها الطويل بياض كالطوق، وفيها من كل لون، ضربتها العرب مثلاً في أشعارها، ويُقال: ألوث به العنقاء المغرب، وطارت به العنقاء، وذلك للأمر الميسوس منه.



ابتسمت وهي تُعيد ستر رأسها وعُدنا إلى سيرنا الهدىء، ظننتُ أنّا ابتعدنا كثيراً فنظرتُ خلفي وكأنّا لا نزال وسط الضباب الحالم، سألتها: «هل «أورماندا» تعرف كلّ هذ؟».

- ليس بعد.. لا تزال على سجيّتها بريئة وغفوية، تعرف بوجود الوشم على عنقي لكنّها لا تعرف من أين أتى، لا أرغم في الإثقال عليها الآن، المهم أن تُجيد تطبيق ما تعلّمته وتزداد يقيناً في الله، نصحّتها أن تزيد من الصيام لتقوى عزيمتها وتشفي روحها، نحن نتصدّى للسهر الأسود في صمت وخفاء كما أخبرتك، وهذا يتطلّب الجلدة والثبات، تبعثرنا كما تبعثر الرّياح ذرات الرّمال، وتعاهدنا على العمل وإن فرقتنا الأقدار. المهم.. أنتِ هنا الآن لتحملـي أمانة عظيمة، «أورماندا» ستحتاج إليها يوماً ما.

- لماذا لم تُعيديها هي و«روكانا» إلى الدّار عندما تبعتنا؟ تستطيعـين فعل هذا في لحظة!

منحتني ابتسامة واسعة قبل أن تقول: «سأرسلهما إلى الدّار عندما نصل إلى بوابة «بابل»، فقط أردت أن تستمر معنا في طريقنا لغرض في نفسي سترـيفـينه لاحقاً، فـسـأـخـلـكـ الانـ إـلـىـ رـأـيـ! ولـعـلـيـ أـنـعـمـ بـصـحـبـتـهـماـ لـسـاعـاتـ أـخـرىـ قـبـلـ...».

- قبل ماذا؟

لم تُجبني وعادت تقبض على يديّ وقالـتـ قبلـ أنـ تغمـضـ عـيـنـيـهاـ: «بعـضـ الرـمـوزـ ستـكـونـ مـبـهـمـةـ لـكـ لـآنـيـ سـأـضـعـ عـلـيـهاـ أـقـفـالـاـ،ـ لـنـ تـفـهـمـ كـنـهـاـ،ـ لـكـنـاـ مـهـمـةـ».

أدركت أنّها تقصد تشفير الطلاسم حتّى لا أقرأها وأصاب بضرر دون قصدٍ ميّ، فقد نبهني أبي كثيراً العـدـمـ قـرـاءـةـ أيـ طـلاـسـمـ حتـّىـ لـأـقـعـ فيـ شـرـكـ ماـ أـجـهـلـهـ منـ السـحـرـ،ـ فيـكـيفـيـ ماـ حدـثـ لـنـاـ عـنـدـمـاـ قـرـأـتـ طـلـاسـمـاـ منـ قـبـلـ عـنـدـمـاـ اـنـبـقـتـ فـجـوـةـ فيـ غـرـفـةـ المـكـتـبـةـ فيـ بـيـتـ جـدـيـ وـابـلـعـتـ أـخـيـ «ـخـالـدـ»ـ،ـ عـادـتـ الجـدـةـ تـؤـكـدـ عـلـيـ قـائـلـةـ:ـ «ـإـيـاـكـ وـالـضـعـفـ أـمـامـ سـلـطـانـهـ،ـ لـأـتـسـلـمـيـ لـفـضـولـكـ،ـ أـجـوـاءـ السـحـرـ فـيـهـ لـذـةـ خـبـيـثـةـ وـمـغـرـيـةـ وـأـحـيـاـنـاـ نـهاـيـةـهاـ مـؤـلـمـةـ،ـ سـتـحـمـلـينـ العـلـامـاتـ وـالـرمـوزـ كـمـاـ هـيـ وـتـنـقـلـيـنـهـاـ إـلـىـ «ـأـورـمـانـدـاـ»ـ فـيـ



الوقت المناسب».

- بل ستنقلينها أنتِ بنفسك يا سيدتي، لن تصابي بالضرر بإذن الله.

ابتسمت بمرارة وقالت وهي تغمض عينيها: «ليت «أورماندا» تملك يقينكِ وثباتكِ يا «فرح»، حينها ستكون جاهزة لحمل أمانتها وإكمال الطريق، لا أدرى ما سبب تأخر نضجها حتي الآن».

قبضت على يدي بشدة فمُررت في ذهني الكثير من الذكريات، كانت تستحضرها لذهنها عن قصد لكي أراها، وكانت تهمس من آنٍ لآخر لتنبهني لشيء مهم، تسارعت دقات قلبي، سالت دموعي أحياناً، قهقهت أحياناً أخرى ولزمت الصمت طويلاً لكي أحفظ كل حرف يُنطق، وبعد انتهاء طلبت منها أن تعلمني كيف أعيد ذكرى نزعها من جبين أحدهم إليه مرّة أخرى لأنّي لم أكن على علم بهذا.. ففعلت!

\*\*\*

## «عمر»

من طابق إلى آخر، ومن بقعة إلى أخرى كنت أقفز وألجم إلى عوالم مُختلفة أفتّش بين الوجوه عن «أبناء موسى بن شاكر»، ذهبت إلى بغداد أوّلاً لاستقصاء أخبارهم، علمت بخروجهم لقياس محيط الأرض بأمرٍ من الخليفة «المأمون» وعلمت أيضًا بعودتهم رفاقهم وشكواهم من هجوم الجن عليهم واختفاء أبناء موسى، وكيف أنَّ كُلَّ واحد منهم طار في جهة وحملته الرياح الذاريات حيث غاب ببدنه وروحه عن المكان.

تركـت «بغداد» بعد أن علمت بانزعاج «المأمون» الشديد لغيابهم في تلك الظروف الغامضة، فهو يهتم لأمرهم وقد وَكَلَ مهمة التحقيق والبحث في أمر اختفائهم



لأفضل الجندي من بين حراسه، كان اللوج من بقعة إلى أخرى يُشعرني بدوار شديد لكنني قد اعتدت هذا، فانتقل إلى السريع كان يؤثر على اتزان جسمي. مر النهار وأنا أحاول اللوج إلى مدن أرض الرافدين المختلفة حيث كنت أعرف بقعاً محدداً فيها أشخاصاً أستطيع محاورتهم دون إثارة الشكوك لكي أعرف الجديد، ووصلت إلى «أوروك»، وسرت نحو المعبد حيث كان الكهنة هناك يهتمون بالمرضى والغرباء، وكان المرضى يجلسون في ساحة أمام المعبد ويتبادلون الحوار وكانت أعرف ما يدور من أحداث من خلال كلامهم. دلفت أشكوا ألمًا برأسِي، وكانت متعيناً بالفعل ورأسي يؤلمني، جلست بين الناس وأمسكت برأسِي وأغمضت عيني ورحت أنصت لحواراتهم.

قال أحدهم: «هل سمعت ما حديث اليوم؟».

- ماذا؟

- داهم الحراس المعبد للقبض على غريبين..

- كيف هذا؟

- أبلغهم «الأسيبو» بوجودهما بغرفة «الآسو»، لكنهم لم يجدوهما.

- ليست تلك المرأة الأولى التي يفتعل فيها «الأسيبو» مشكلة ليضر «الآسو»، بينهما عداوة قديمة، فـ«الأسيبو» يداوي بالسحر، وـ«الآسو» يُداوي بالأعشاب.

- المشكلة أنَّ «الآسو» قد اختفى!

قال ثالث وكان ينثني على بطنه من الألم: «يقولون إنَّه فرَّ مع الغريبين على جوادين وكان في رفقتهم فارس ملثم».

- إذن فقد صدق «الأسيبو» هذه المرة!

بعد لحظات صاح أحدهم قائلاً: «لقد ظهر «الآسو»».



اندفع الجميع نحوه وأحاطوا به.

هرول كبير حُرَّاس الملك نحوه وسألة: «أين كنت؟».

- مع زوجي!

- أين الغريبان؟

- أي غريبين؟!

- لقد أبلغ «الأسيبو» الحرس عن وجود غريبين بالمعبد، ورأك بعضهم وأنت تهرب معهما.

- لماذا سأهرب؟! ولماذا سأحمي غريبين؟

ران عليهم صمت قصير، أردف «الآسو» بثقة: «هأنذا أمامك! هل أحضر زوجتي لتأكد لك أَنِّي كنت معها؟».

- ومن رأوك وأنت تهرب بالجوداد؟!

- هل هم من رجال «الأسيبو»؟ فليست تلك المرأة الأولى التي يفتعل فيها «الأسيبو» المشكلات معى!

- حسناً، أخبرنا أين كنتما أنت وزوجتك.

- كنَّا نزور قبر والدنا.

أظهر الحضور الاحترام والتوفير عندما ذكر «الآسو» والد زوجته، فقد كان من كبار الكُّهان بمدينة «أوروك».

اعتذر جنود الملك وانصرفوا، وبقيتُ أنتظر الدُّخول للقاء «الآسو»، فتحتما هذان الغريبان من أبناء موسى بن شاكر.



انتظرت حّتى انصرف النّاس ودلفت أخيراً، وعندما جلست أمام «الآسو» سألني عن شكواي، فقلت له: «صداع برأسِي بعد سماعي عن خبر مُفزع».

أمسك برأسِي وأطال النّظر إلى عينيَّ، لم يسألني عن الخبر المُفزع الذي قصدت أن يسألني عنه، فانطلقت أخباره: «اختفى رفاقي فجأة، لقد اختطفهم الجن».

رشق عينيه بعينيَّ وصمت هُنّيَّة ثمَّ سألني: «كيف؟».

- كانوا يسرون في الصحراء، خرجوا في مهمة خاصة.

- من أين أنت؟

- «بغداد».

- ما اسم رفاقك؟

- «محمد» و«أحمد» و«الحسن».

بدأت نظراته تتذبذب، أدركت أنَّه قد التقى أحدهم فسألته مُباشرة واستعددت للقفز والهروب من المكان إن اقتحم أحد الغرفة: «هل كان الغربيان منهم؟».

هزَّ رأسه موافقاً ثمَّ همس: ««الحسن» فقط، وكان مريضاً».

- والآخر؟ هل كان شاباً أم رجلاً أقمر رأسه؟

تراجع إلى الخلف وسألني: «هل أنت الـ «حمزة» ابن الـ «أنس»؟».

- أتدرِّي عن «حمزة»؟

وانخرطنا في حوار طويل، علمت منه أنَّه من الوراقين، وأنَّ القرط في أذنه يمنع انبعاث طيفه، وأنَّه لم يعلم إلا بعد دخوله مكتبة «آشور بانيبال» مع السيد «أنس»، كان سعيداً بلقائي وأخبرني أنَّ «الحسن» مع السيد «أنس» وأنهما في



طريقهما إلى «بابل»، فاطمأن قلبي.

قبل أن أنصرف أمسك بذراعي قائلاً: «هل تعدني بشيء؟».

- ما هو؟

- أن تعود مرة أخرى لتنقلني للقاء السيد «أنس» بعد أن تنقذوا حفيته.

- أعدك بهذا أئياً «الآسو».

افترقنا على هذا الوعد، لاحظت كيف قد تعلق هذا الشاب بالسيد أنس، فأصبحت مشتاقاً إلى لقائه. قررت أن أطوف بمدينة أخرى للبحث عن «محمد» و«أحمد»، فقد اطمأن قلبي لوجود «الحسن» مع السيد «أنس»، لعلي أستطيع جمع أبناء «موسى بن شاكر» بأقصى سرعة. عدت أولاً إلى «حمزة» في «بابل» لأطمئنه أنَّ والده في الطريق إليه ومعه أحد أبناء موسى، فوجدته مع التاجر الذي دللُه عليه، فطمأنته وانصرفت سريعاً لأكمل مهمتي.

\*\*\*

## «غُدفان»

كان «غُدفان» قد فرَّ للتو من إحدى معاركه مع «الزاجل الأزرق» وجيشه، حط على سقف قصر «عشتار» وتقوَّس جذعه فضم جناحيه وجلس يلهث كالذئب الجريح، التصق الجنحان بجسده لايَّا فلائِي حتَّى اختفيَ، هبط درج القصر نحو غرفة «عشتار» ومرَّ بالـ«سيروش» واحداً تلو الآخر، ولم يلتفت إليه أحد مما جعله



يتعجب، جذب قميصاً من أحدهم وخلعه عنه وارتداه ليعطي جذعه فلم يجد مقاومة منه وكأنه منوم!

رفعت «عشتار» صوتها ونادته قائلة: «أقبل يا «غُدفان».

- ما بال حراسك؟ في كل مرّة أزورك فيها يهاجمني بعضهم وأضطر إلى قطع أعناقهم!

- عطلتهم من أجلك، فقد شعرت بوصولك، لا أستطيع المجازفة بأرواحهم الآن، فاللأعداء يزيدون عدداً بينما هم يتناقصون من حولي.

- ماذا سنفعل؟

كان الغضب يعصف به ويُرِجُّ كيانه.

قالت وهي ترنو إليه بعينين واثقتين: «أعطي ملك «الديجور، وأسلمك «حمزة» وابنته».

- كيف هذا؟! أنا الملك!

- كن وزيري يا «غُدفان».

- قطعت وعداً لوالدي أن أحافظ على مملكة الديجور ولن أخلف هذا الوعد أبداً.

- هدفنا واحد، ضع يدك في يدي ولنكمel المسيرة.

غمغم ولم يقل شيئاً، فاستدارت وقالت بأنفه وهي تسير نحو عرشها: «عجزت عشائر الجن في مملكتك عن كسر شوكة «المجاهيم»، لدى من الجن ما يفوقهم في قوّتهم، ويكيق لحرق جيش المغاتير بأكمله».

- وثبتت من قبل في ساحرات «ماذريون» وخزلوني، حتّى أنت لم تنجي في السيطرة على الوراقين.



- بل هم تحت قبضتي هنا.

- لماذا لم تقتلهم حتى الآن؟ ما دامت تعاويذك لا تؤثر بهم.

- لأنني لست ساذجة مثلك، الغضب يعميك يا «غدافان»، دعهم يفرّغون ما في رؤوسهم أولاً، ولأحيك كل كلمة في تلك الصحائف والكتب لتناسب كبرياتي وتاريخي الذي أصنعه.

- أيُّ كبراء تتحدى عنده؟! يا لك من مغروبة!

- العلم يُبارى بعلم آخر أيُّها الأحمق.

تمعر وجهه عندما سبَّته، وقبل أن يفتح فمه أردفت: «السيطرة على العقول ليست بالتعاويذ فقط، يكفي أن تزرع فكرة خاطئة في عقل واحد وهذا كفيل ببعث الشك في نفس عشرة عقول أخرى يُثرُّر معهم، العلم والأديان والعقائد، وحتى في العلماء الذين يثقون بهم ومؤلفي الكتب، أطلق شائعة واحدة أو خبراً كاذباً وراقب كيف يتختَّبَ الناس! أرسل السوس لينخر في النفوس التي تبحث عن العلم وتقرأ، حينها سيهدم الناس الحقائق بأنفسهم وسيصدّقوننا، وزِيَّماً يعبدوننا!».

صمتت هنيئة وأردفت: «تلك الجمامات التي تتارجح فيها عقولهم ستخضع لنا يوماً ما، سُنسطر على كل شيء وستكون لنا خيرات المملكة بأسرها؛ وستسقط رايات المحاربين تباعاً ولن يجدوا ما يُدافعون عنه من قيمهم التي يزعمون أنها تستحق».

أخذ «غدافان» يجتُّ كل اللحظات التي وثق فيها بمن يُشبهون «عشتر». «أوبالس» الذي خذله، «قلب العقرب» الذي فشل أن يكون زعيماً بحق للدواسر، «ساحرات ماذريون» الحمقاءات، وكيف أن هلاك هؤلاء الكبار كان دائمًا على يد فرد من أفراد عائلة «أبادول» الذي يبغضه من صميم قلبه، وهو قد عاد للتو من معركة مع «الزاجل الأزرق» الذي قهر جيشه وفرَّ منه إلى هنا، تذكر «حمزة»، أراد أن يشق صدره بخنجره، ليلوك قطعة من قلبه بين أسنانه، كان بعد ما فعله «حمزة» لوالديه لطحة شائنة في تاريخه.



رفع عينيه تجاه «عشتار» وقال بصوت يقطر غصباً: «حسناً. لكِ ملك الديجور إن مكتبني من «حمزة».

- سأستدرجه وأضعه تحت قدميك يا «غُدفان».

ثمَ أردفت بخيلاً: «وستكون مديناً لي بالولاء».

\*\*\*

«أنس»

مررنا بغاية تسافر فيها الأعين من فرط جمال أشجارها فوقنا لزير الجواد قليلاً، توغلنا فيها وأعيننا تنتقل من زهرة إلى أخرى في اندهاش شديد، مررنا بجدول ماء فغسلنا رؤوسنا وتركنا الجواد ينهل منه نهلاً، وجلسنا نستريح وننعم بعض الهدوء، لكنَ صيحة مُخيفة أفزعتنا فوقنا معاً في آنٍ واحد، كان هناك جمل عظيم الكراديس<sup>(١)</sup> يركض نحونا، كان نحيلًا على الرَّغم من بروز كراديسه، وكان عظامه تلبس كيساً من الجلد، وكان رأسه عظيماً ويقاد يلتهمنا بعينيه الجاحظتين، ركضنا خارجين من الغابة وهو يتربَّصنا، اقترب ميًّا وأوشك أن يُطبق بأسنانه على كتفي فضربيته بالعصا بين عينيه وفررت منه، عاد وهاجمني مرَّة أخرى وكاد يلتهم كفي وأنا أقاومه، ألقى «الحسن» عليه صخرة فابتعد، وعُدنا إلى الفرار منه، وفجأة صرخ صرخة ثمَ طفق يئنَ ويتوجع، فالتفتُ فرأيته وقد علقت ساقه بفخ عظيم وانغرزت أسنان الحديد في لحمه وسالت دماءه السوداء على العشب.

---

(١) الكزدوس: الكراديس هي كل عظمين التقيا في مفصل، نحو المنكبين والركبتين والوركين والجمع كراديس.



أخرجت خنجرى واقتربت منه فقال «الحسن»: «ماذا ستفعل؟؟».

- سأخلصه من الفخ لأريحه من الألم».

فُلت وأنا أتمعن في وجه الجمل الغريب: «يبدو نحيقاً للغاية».

- ولونه أسوداً وكأنَّ سقامه قد ضمر.

- رُبما هو نوع نادر من الجمال.

- اقتله يا عماه لثريحة من الألم.

- لا أستطيع.

اقتربت بخنجرى الذى جربته ماراً أنتقل إلى «بابل» بعد أن تركني الصقر ولم ينجح الأمر، فقررت استخدامه في منافعه الأخرى، وعندما دنوت التقت نظراتي بنظرات الجمل فأشفقت عليه وهو يتآلم، كان يبكي!

همست وأنا أمسح دموعه: «لن أقتلك أليها المسكين».

- أiii مسكين! كاد يقتلوك يا عماه!

- رُبما أخفته.

- فلتنتركه إذن قبل أن يظهر واحد آخر.

لا. سأحررُه أولاً، ولتنتركه ونمضي.

- سيلتهمنا فور أن تُحرره.

- لن يستطيع الركض بتلك الحالة.

أحضرت حجراً وبدأت في العمل على تحريره من الفخ، كنت أطرق على براugi الفخ



بقوة، وأتوقف من آنٍ إلى آخر وأمسح على عنقه وأربت عليه. أدرك «الحسن» أنّي لن أترك الجمل فاقترب ومعه قطعة من الحديد كانت ملقة بالجوار وحله ببراعة وكأنّه هو من صنعه. فتعجبت منه قائلاً: «وكأنك من صنعته!».

فقال وهو يهز رأسه: «وأصنع الأعقد منه إن أردت بفضل الله».

راق لي صنعه، قطعت جزءاً من قميصي وضمّدت ساق الجمل، ونظرت إليه فوجده يُطيل النّظر إلى عيني، وكأنّه يشكو الألم.

قال «الحسن»: «عجبًا لقلبك الرحيم يا عماد!».

تركنا الجمل خلفنا راقداً ومضينا في طريقنا وخرجنا من الغابة وصوت رغائه<sup>(١)</sup> في أذني.

ركبنا الجماد واكتشفنا أنّنا على مقرية من «بابل»، فقد أشرفنا بواباتها المميزة سريعاً، كان قلبي يخفق كلما اقتربنا، وددت أن أرى أفراد عائلتي الغائبين في آنٍ واحد ليس تاريخ قلبي ورأسي.

قال «الحسن» وكان صامتاً لوقت طويل: «أخشى لا أرى أخويّاً مراً أخرى».

- ظن بالله خيراً يا بني.

- ونعم بالله. من أين تأتي بيقينك هذا يا عماد؟ ما أخبرتك بها جس يتجلج في صدري إلا وأجبتني بكلمات ترددت إلى صوافي.

- هكذا ريانا جدي «أبادول».

- وددت لو التقيته، لا ريب أنّه رجل عظيم.

---

<sup>(١)</sup> الرغاء صوت الجمل.



- «أبادول» كجدران تلك البوابات التي تلوح لك من بعيد، عظيم وصامد نستند عليه جمِيعاً.

وصلنا إلى قرب بوابة من بوابات «بابل»، أ杰فلت عندما رأيت رسوم «سيُروش» بارزة، أخذت أتخيل شكل الخاطف، لم يكن هُناك حُرَّاس، بل وجدنا ممرات فور أن دلفناها أدركنا أنَّنا في متاهة، كنَّا نسير ونتقدم ونعود إلى المكان نفسه وكأنَّنا ندور في حلقة، وأحياناً نجد جداراً مسدوداً فنتراجع ونجد أنفسنا نعود إليه بعد دقائق من سيرنا، علقنا هُناك!

همس «الحسن» قائلاً: «لقد علقنا! هل ننادي لعل أحدهم يسمعنا ويدلنا على الطريق؟».

- لا أحبذ أن يكون دخولنا بتلك الطريقة، وددت لو دخلناها دون أن يلتفت إلينا أحد.

- لماذا هذا السكون؟ وكأنَّ المكان مهجوراً

رفعت رأسي تجاه السماء وقلت له: «الشَّمْسِ توشك على الغروب، لا بد أن نخرج سريعاً من تلك المتاهة».

عدنا إلى الدوران حتَّى أهلكنا طول المسير، بدأ «الحسن» يتواتر، غربت الشَّمْسِ ولم يبقَ من ضوئها على حاشية الأفق سوى حُمرة خفيفة، أكملنا المسير حتَّى حلَّ الظلام وما عدنا نرى ما حولنا وصعب الأمر علينا، وقفنا نتختبط في حيرة، ضربت الأرض بعصاي من شدَّة الغضب فأرسلت نوراً خافقاً وشعرت بأنَّها تجذبني إلى جهة اليسار فقبضت على ذراع «الحسن» وسرنا حيث أخذتنا عصا جدي «أبادول» حتَّى خرجنا من المتاهة لنجد أنفسنا في سوق «بابل».

كنت أترقب رؤية الـ «سيُروش» أمامي، لكنَّ الناس كانوا على طبيعتهم، فقد رأيت رهطاً من الرجال يسيرون معاً، اقتربت و«الحسن» منهم وعلمنا عندما سألناهم أنَّهم من ثُجَّار القرى المُحيطة ببابل وأنَّهم سيخرجون الآن إلى بيوتهم ليعودوا، غالباً ببعضائع جديدة، توجَّهوا نحو بوابة أخرى وكان الحُرَّاس هُناك فأ杰فلت عندما التفت



أحدهم ورأيت وجهه بوضوح، وبكل تفاصيله الغريبة والمُخيفية، فسرت القصعيرية بعظام جسدي كله، كان ممسوحاً على هيئة «سيروش»، أشفقت على «رواء»، لا ريب أنَّ شكل الخاطف أفرعها، أخذت أرقبهم فرأيت فيهم الكثير من الغلطة والقصوة، كانوا ينهرون الناس ويلكونهم بأيديهم الغريبة، سرنا في الطرقات وكان «الحسن» يتلفت يميناً ويساراً باحثاً عن أخيه، وكانت عيناي تعلقان بوجوه الصغار بحثاً عن حفيدي. سرنا طويلاً حتى لاح القصر والشعل تراقص الهبتها حوله، من بعيد رأيت الـ «سيروش» مرّة أخرى يحيطون بالقصر، مررت قزمه بجوارنا وحدّقت إلى وجهينا طويلاً، رأيتها توجه صوب القصر على عكس سُكّان المدينة.

لاحقتها سائلاً: «أين تذهبين؟».

- إلى القصرا!

- لماذا؟

- أنا أعمل هناك.

- ألا تخافين من تلك المسوخ؟

- أحياناً أخاف، لكنهم لا يستطيعون إيدائي بأمر من الملكة.

مالت برأسها وأضافت: «وجود أفراد عشيرتنا ضروري في هذا القصر».

- ومن أنتم؟

- الكنادرة! ألم تسمع عن عشيرتنا؟!

أضافت للتوسيع: «لقد فرَّ الخدم منهم، والمسوخ لا يحسنون إدارة شؤون القصر الداخلية، أمّا نحن فنحسن إدارة أي مكان نسكنه».

علق الاسم برأسى، أردت أن أعرف عنها أكثر فداحتني بسؤالها: «من أين أتيتما؟».



اقتجم الحسن الحوار وقال لها: «انصر في أيتها الفضولية».

غضبت القزمة منه وهرولت مُبتعدةً وأخذت ألومه على أسلوبه معها، فقال وهو يُغضض عينيه: «لاأثق أبداً بامرأة قصيرة».

- ما ذنبها!

أغمض عينيه قائلاً: «لابد أن نحذر من كل كلمة ننطق بها أمام أهل المدينة وخاصة النساء».

مررت الساعات ونحن ندور في طرقات «بابل»، أصابني إرهاق شديد، لم يكن معنا المال لشراء طعام، أدرك «الحسن» هذا عندما رأني أسير ببطء.

مررت امرأة تحمل وعاء فيه ماء وكانت تسقي المارة، طلبت منها الماء فدفع «الحسن» القدح وقال: «لَا تشرب من هذا».

انصرفت المرأة غاضبة وهي نسبه وتلعنـه، فسألته عن سبب ما فعله وقد استفزـها فقال: «لاأثق أبداً بامرأة طولية».

أضحكـي قوله فنسـيت عطشـي.

أردـف قائلاً: «لاأثق بأشـريـتهم! أنسـيـتـ ما سـقوـهـ ليـ فيـ «أـورـوكـ»؟ لـقدـ أـسـكـرـونـيـ».

أزـاحـ «الـحـسـنـ» بـعـضـ الـهـمـ عنـ صـنـدـرـيـ بـخـفـةـ ظـلـهـ.

قالـ وهوـ يـُـشـيرـ إلىـ مـكـانـ ليـجـلـسـيـ فيهـ: «ابـقـ هـنـاـ ياـ عـمـاهـ وـسـأـعـودـ إـلـيـكـ».

- أينـ ستـذـهـبـ؟

- أـعـدـكـ أـنـ أـعـوـدـ سـرـيـعاـ، سـأـبـحـثـ عـنـ طـعـامـ طـيـبـ، وـسـأـحـضـرـ لـكـ شـرـابـاـ غـيـرـ «ـمـفـتـاحـ القـلـبـ الفـرـحـ وـالـكـبـدـ الرـاضـيـ».



تذَكَّرَتْ ما فعله به هذا الشراب وكيف لعب برأسه، وتركتني وكلانا نبتسم على الرَّغم من القلق الذي نحمله على ذويينا، فأنا قلق على أبنيٍّ وهو قلق على أخيه. جلست أراقب القصر في صمت، تأخِّر الحسن فانطلقت باحثًا عنه في الطرق، رأيت الناس يتواوفدون على أحد التُّجَار وقد أحدهم جلبة حوله وهم يُراقبون شيئاً ما وسط حلقة صنعواها وقد تراصَوا بجوار بعضهم بعضاً، تسَلَّلت بينهم فوجدت «الحسن» بوجهه اللطيف وجيئه يتَصَبَّب عرقاً وهو يمسك بجَرَّة كبيرة ويده بداخلها ويصنع شيئاً وهو يَعْضُّ على شفتيه.

اقتربت منه وهمست في أذنه: «ماذا تفعل؟».

- أصنع جَرَّة تسكب الماء وحدها.

- ماذا؟!

- «الحصول على الفِعل الكبير من الجهد اليسير»، هذا هو المبدأ القائم عليه العلم الذي درسته، وما كنت أعمل عليه أنا وأخواي.

- الآن؟! والتجار يجمعون بضائعهم لينصرفو؟!

- اصبر يا عماه. أنت الآن مُساعدِي، لقد ثَبَّتَ الشريحة الفاصلة.

- لماذا تهمس؟

- كاد الحرَّاس يُلْقِون القبض عليَّ بعد أن تشكُّلوا في أمري، لولا أَنِّي أخبرتهم أَنِّي جئت أعرض صنعي على هذا التاجر، فقد كان يشكو من تاجر آخر استعمل شاباً اليوم وباع بضاعته كلها لأنَّ جراره أفضل، فطلبوا مِنِّي تنفيذ ما وصفته لهم أمام أعين الناس بالسوق.

ابتسم في توتر، وقال وهو يرنو إليَّ: «شكراً».

- على ماذا؟



- لأنك جئت، كنت خائفاً، والآن أشعر بالأمان.

عاد «الحسن» إلى عمله بثبات، كان خده يرتعش وبدالي أن أصابعه تثبت شيئاً دقيقاً داخل الجرة<sup>(١)</sup>، وأخيراً انتهى من إعداد الجرة التي بين يديه، طلب الماء ثم صبّه فيها، بدأت الجرة تصب الماء وحدها بمقدار محدد وتوقفه وحدها بعد تعديل مُحدد وإضافة لقطع صممها بذكاء، وبعد فاصل زمني معين ينساب الماء مجدداً، وتكرر الأمر فصاح الناس إعجاباً بصنعه، وانصرف الحراس، ومنحه التاجر المال مقابل صنعه للجرة المسحورة كما أطلقوا عليها، وانصرفنا على وعد منه بالعودة غداً ليصنع المزيد منها.

قال «الحسن» وهو يتفحّص عملتهم: «نستطيع الآن شراء الطعام».

أمّدنا سُكّان المدينة بالماء ورحباً بنا، ارتوى ظمأ فمي وبقي قلبي ينتظر الارتواء بـ«رواء»، بقيت مشغولاً بالقصر، فعدنا إلى المكان الذي تركي «الحسن» فيه من قبل، وكان الناس يعودون إلى ديارهم في تلك السّاعة، ألقى الصّمت عباءته على المكان، وجلست أفكّر في طريقة لأدخل قصر «عشّار»، بينما استغرق «الحسن» في النوم وقضينا ليتنا على قارعة الطريق.

\*\*\*

(١) كان من بين اختراعات بني «موسى بن شاكر» المدونة في كتاب الحيل جرة صديقة للبيئة، يخرج منها الماء بمقدار محدد عند فتح صنبورها ثم ينقطع، وبعد فاصل زمني معين ينساب الماء مجدداً، ويترکرر الأمر حتى يفرغ محتوى الجرة من الماء، وهذا الأمر يشبه ما نراه في مغاسل الحمامات العامة الحديثة اليوم التي تعمل بمستشعرات خاصة، فقد استخدمو السّداده والعوامة وصحيفة فاصلة لتفصل الجرة إلى جزئين، مع استخدام أنبوب معقوف يصل بينهما، وهي آلية متقدمة للغاية في التحكم بالمياه قبل اختراع الصنبور بمئات السنين.



## بِلْوَرَةُ "أُورْمَانْدَا"

هَرَّتْ «أُورْمَانْدَا» رَأْسَهَا غَاضِبَةً وَالْتَفَتْتْ نَحْوَهُ قَائِلَةً: «تَتَلَصَّصُ عَلَيَّ مَرْأَةٌ أُخْرَى!».

خَرَجْ «طِيفُور» مِنْ خَلْفِ الشَّجَرَةِ وَقَالَ وَهُوَ يَقْرَبُ: «أَنْتِ تَعْرِفِينَ أَنِّي أَتَبْعَكِ! وَتَعْلَمِينَ أَنَّ جَدِّتِكِ طَلَبَتْ مَمِّي هَذَا!».

- لَا. لَمْ أَعْرِفْ.

- بَلْ تَعْرِفِينَ وَرَأَيْتِكِ تَتَلَفَّتَيْنَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ.

- لِمَاذَا تَخْتَبِي إِذْنَ مَا دَمْتَ تَعْلَمْ أَنِّي أَعْلَمْ أَنَّكِ تَتَبَعَنِي؟

- خَشِيتَ أَنْ تُسْقِطِي شَعْرَ حَاجِي بِالْخَطَا!

كَرَّتْ «أُورْمَانْدَا» عَلَى أَسْنَانِهَا لِتُخْفِي ضَحْكَتِهَا وَقَالَتْ: «هَيَا لِنَعُودُ، لَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَسِيرَ هَكَذَا وَحْدَنَا، هَذَا لَا يَلِيقُ بِالسَّاحِراتِ الْأَمْيَارَاتِ».

- أَمْيَارَاتِ!

رَشَقَتْهُ بِنَظَرَةٍ غَاضِبَةٍ وَقَالَتْ: «نَعَمْ، أَنَا كَذَلِكَ، أَنَا أَمْيَارَة».

- وَأَيْنَ مَمْلَكَتِكِ يَا سَمْوَ الْأَمْيَارَةِ؟

- أَتَسْخِرُ مَمِّي؟

زَرَفَتْ بِحَنْقٍ وَطَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَنْصُرَفَ، فَابْتَعَدَ عَنْهَا وَبَقِيَتْ وَحِيدَةً، شَعَرَتْ بِالْخُوفِ



لوهله ثم أخذت تُطمئن نفسها وبدأت تردد ما تعلّمته من جدتها، رفعت يديها في الهواء وقررت استخدام تعويذة لفتح كوة في الهواء تنتقل منها إلى حيث جدتها مباشرة، دارت أوراق الشجر حولها ثم ارتفت وصنعت حلقة أمامها وكانت حافة بئر معلقة، تراجعت إلى الخلف وكانت دقّات قلبها تتواتب وهي ترى فعل تعويذتها، أضاءت الحلقة من وسطها وهبّت رياح شديدة ضربت بأطراف ثوبها فوقفت أمام الفجوة التي فتحت أمامها وهي تنظر من خلالها إلى جانب آخر لا تعرف أين هو، لم تجرؤ على الاقتراب لكنّها انجذبت إلى الفجوة كالمغناطيس، تلاشى شعورها بالخوف وأرادت أن تقفز من خلالها، رفعت قدمها لتخطو أول خطوة لهذا العالم، فالتقمتها الفجوة مما أفرز «طيفور» الذي كان لا يزال هناك فقفز خلفها في الحال، وقفّت «أورماندا» تتأمل الأرض التي وصلت إليها، أجهلت عندما لم تجد جدتها أمامها، ظنّت أنّ الفجوة التي فتحتها ستنتقلها إلى مجلسها هناك بجوار «فرح»، كان الغبار الرمادي يحيط بها من كل الجهات، كادت تعود إلى فجوتها التي لا تزال تتلاعب في الهواء لكنّ «طيفور» وثب من خلالها وكاد يصطدم بها ثم انغلقت الفجوة خلفه في الحال، فبدأت تصيح وهي تلومه: «لماذا تبعتنِي؟ ها هي قد انغلقت بسببك!..

- اصنيع غيرها!

دمدمت غاضبة وشرعت تتأهّب لإلقاء التعويذة فداهمها سؤال وهو يتأنّل المكان حوله: «أين نحن الآن؟..».

- لا أدري.

تحسّسَ سُرُّاب الأرض بكفيه فوجد غبارها يُشبه الرّماد فقال متعجّباً: «وكانَ رماد!..».

لم تنتبه إلى كلماته وكانت مُنشغلة بما تفعله، ففتحت فجوة أخرى وممّا من خلالها وعادا إلى المكان نفسه! عاودت الكّرة ولم تنجح في تغيير مكانهما، فقال «طيفور» ليهدئها بعد أن بدا عليها التّوّر: «بهدوء يا «أورماندا»، بهدوء حتّى تنجي!..».

- لا أدري لماذا لم تنجح الأمور معِي! لقد كان الأمر سهلاً ونحن ننتقل من البستان



إلى مكانكم.

- رُبما البقعة التي نقف عليها لا تُناسبِكِ، دعينا نسير قليلاً.

- حسناً.

سارا نحو تلال قرية وارتفعا بقدر ضئيل عن البقعة الأولى التي وصلا إليها، أطلت بيوت متقاربة من بعيد، استأنست «أورماندا» بها عندما رأتها، وعادت تُحاول فتح الفجوة مَرَّةً أخرى لكنَّها لم تنجح، بدأت تبكي فأخذ «طيفور» يخفف عنها وطلب منها أن تسير معه نحو تلك البيوت لعلَّهما يستطيعان الاستعانة بأحدِهم ليوصلهما إلى حيث تجلس الجدة مع البقية أو إلى «بابل» نفسها.

كانا يسيران بجوار بعضهما والطريق لا ينتهي! وكلما شعرا أنَّهما اقتربا تزداد المسافة طولاً.

قال «طيفور» متعجِّباً: «ماذا فعلتِ بنا؟ نحن نسير في طريق لا ينتهي!».

- أشعر أنَّنا لن نصل أبداً.

- أرجو أن يكون لديكِ حل قبل أن يهبط الظلام.

- يا إلهي!

صمتت قليلاً ثمَّ قالت: «لعلَّ جدَّتي تتنبه وتنقذنا ممَّا علقنا فيه».

- لعلها!

- تراني فاشلة، أليس كذلك؟

هزَّ رأسه نافياً، كان يشعر بالقلق من هذا المكان لكنَّه لم يرغب في بث الرعب في نفسها، خطر ببالها شيء فوقفت تُردد تعويذة وصنعت بلورة كروية كبيرة شفافة



حولهما، حاول «طيفور» لمسها فوجدها تُشبه المطاط لكيّها شفافة.

قال بتوتر: «سنموت حتماً مُختنقين هنا!».

- أهذا ما تظنه؟

- أخبريني أنتِ ما هذا التابوت البلاوري الذي حبسنا فيه! سينفد الهواء سريعاً.

أدارت أصابعها في الهواء فظهر ثقب بالأعلى وهبَّت منه نسمات خفيفة شعر بها «طيفور» على وجهه.

قالت بضيق وهي ترشّقه بنظرة ضجر: «ها هو الهواء، تنفسْ كما يحلو لك».

- ما حاجتنا إلى تلك الفقاعة؟ أخرجينا فضلاً من هنا!

- سترى الآن.

رفعت الفقاعة بهما في الهواء فطارت بهما فوق المكان، استطاعا رؤية المكان بجهاته المختلفة، بدت التلال رمادية تتوضّطها مجموعة من البيوت.

سألها بقلق: «أين ستطيرين بنا يا «أورماندا»؟».

- لا أدرى.

جلس «طيفور» وأخذ يراقب ما تحتهما بحذر وريبة.

جلست في الجهة الأخرى وبدأت تسأله: «هل أنت خائف؟».

- نعم.

- ماذا؟ خائف!

مسح على رأسه الخالي من الشعر وقال: «لا أثق بنجاح تعاويذك».



ثمَّ قال بجدية: «لو سقطنا على جبل سumont، فهلاً طرت بنا فوق نهر لعلنا نسبح بدلاً من أن نتكتَّسر؟».

أخذت «أورماندا» تُحرِّك أصابعها فانتقلت البُلُورة وحلقت فوق نهر قريب، كانت تشعر بخوف شديد.

شردت لفترة وجيزة قبل أن تبدأ الكلام قائلة لتسؤلني بحديثها معه: «كنت أنتظر عودة أمي كل يوم، ظننتها رحلت لتحضر لي شقيقاً كما طلبت منها».

- الأمهات لا يمْتن، بل يعشن في أبنائهن بطريقة ما.

- اشتقت إلى حضنها، لم أنس رائحتها حتى الآن.

- حمدًا لله أن جدتك كانت معكما، فالجدات حنونات.

افترَّ ثغرها عن ابتسامة ساخرة وهي تقول: «لأدرى لماذا يقع في نفوتنا ونحن صغار أنَّ الآباء والأمهات يشتروننا من السوق! أردت شراء أخي لي وكنت أحلم بهذا».

- حماقة صغار.

- هل تعلم أنَّ بعض الساحرات في وادينا أنجبن ذكورًا بالفعل لكنَّهم كانوا يموتون بعد ولادتهم؟

- غريب! ولكن كما تعلمين، الأبناء رزق.

ران عليهما صمت خفييف وكان كلاهما مسحورًا بمشاهدة الغابات والجبال والأنهار من تحتهما.

سألها بغتةً وكأنَّه يخطف سؤاله: «لماذا تغضبين بسرعة؟».

أجابته شاردة: «رُيَّما لأنَّني دائمًاأشعر بالخوف! وددت لو انطفأ خوفي».



- ممّ تخافين؟

- غادرني الشعور بالأمان منذ وفاة والدي، صار الغد دائمًا مُخيفًا.

- كنت أشعر بالحزن وبالوحدة والوحشة على الرّغم من وجود عائلتي حولي، أردت أن أرحل لأنفرد بنفسي.

- أنت حقًّا لا تقدّر قيمة وجود والديك معك.

- بل أقدّر، لكنّي فقط...

- ماذا؟

- شعرت أنّ لا أحد يهتم لأمرِي، والعجيب أنّي عندما ابتعدت عنهم اكتشفت أنّهما كانا يهتمّان بالفعل لكنّي جاحد وناكر للجميل. كنت على خطأ!

- يبدو أنّك علقت بأوهام كاذبة!

سحرتَهما المساحات الخضراء من تحتهما فجلسا كتمثاليْن من شمع، كان «طيفور» يُعاني ذلك الهاجس الذي يجعلك حزيناً بلا سبب، بل وتخلق لنفسك السبب أو تُفتش عنه وتسحب من تلال الوهم، الأمر يُشبه أن تتألم وأنت سليم لأنّك توهمت العلة، أن تحزن لأنّ أحدهم يُهملك وهو في الحقيقة لم يفعل لأنّك أنت الذي توهمت كل هذا من البداية. أو رُيّما هو لم يهتم بتلك الطريقة التي ظننتها وتطلبها! أن تتوهم أنّك ضعيف وأنّ القوي لكنّ الوهم قد شلّ أركانك، وتتوهم أنّك قبيح، وفاشل، ومُمل، ووحيد، وأنت غير ذلك كله لكنّك فقط تركت نفسك أسيّرا للوهم فوَقعت في فخ علقت به لأنّك لم تنتبه إلى انزلاق خطواتك، الوهم يتسرّب إلينا أحياناً من أنفسنا وعلينا حينها أن نبتر وشائجه.

لَاح جبل من جهة الشرق فأخذت «أورماندا» توجه الفقاعة التي تحملهما إلى هنالك، كان «طيفور» يُراقبها.



سألته بعد انتهاءها ممّا تفعله: «هل يخشى الناس من والدتك لأنّها ساحرة؟».

- بعضهم.

- وأنت؟

- لن أخاف من أمّي! وعلى أي حال فجدي وحالاتي كذلك كلهن ساحرات.

- أخبرني بقصتها.

جلس «طيفور» يخبرها عن قصة ساحرات «أوبالس»، بينما عبرت الفقاعة بهما الجبل ثمَّ مرَّت على منطقة تعرَّف عليها «طيفور» فقد سار فيها مع العجة و«فرح» فاستبشر!

همست «أورماندا» وهي تضع كفَّيها على جدار الفقاعة وتُلصق أنفها بها: «كانت جدّتي تأخذنا في جولة بتلك الفقاعات عندما نشعر بالضجر، لم أجرؤ على تجربتها وحدي، تلك هي مرّتي الأولى، لقد شجعني وجودك على خوض تلك التجربة».

- لكنِّي ماهرة في توجيهها وأحسنت تهويتها أيضًا.

قالت بفخر: «رأيت؟ ستكون جدّتي سعيدة بهذا، لقد راقبها مراًّا وهي توجهها حتّى إنّها كانت تتلوّن لنا».

- وأين تلك الألوان؟

أغمضت «أورماندا» عينيها فبدأت الجدران تتلوّن، كانت الألوان تتدخل وتموج في بعضها، غمرتهما السعادة وهم يراقبان الألوان.

التفت نحوه واقتصرت نظرة قبل أن تسأله: «لماذا أتيت إلى أرضنا؟».

رفع ناظريه نحو السماء وصمت هُنّيَّة قبل أن يجيبها قائلًا: «أردت مساعدة عائلة أبادول».



رفعت حاجبيها وقالت: «لا أظن أنَّ هذا هو السبب».

- لماذا؟

- ما يتعرّضون له أمر خطير ومن الصَّعب أنْ يُقدم شابٌ على هذا بنفسه تطُّوعاً!  
قال بانفعال: «أنتِ لا تعرفين من هم «المغايير»، لهذا تقولين ذلك».

- ومن هم «المغايير»؟

- قوم صالحون يفعلون الخير ويساعدون النَّاس، يخفون وجوههم، فهم لا ينتظرون الشُّكر، ولا يبتغون الأجر، استغناهم عن النَّاس فأغناهم الله عن النَّاس وصار الجميع يحتاجون إليهم، ودائماً هم في الطليعة.

- وهل أنت من «المغايير»؟

صمت هنية وقال وقد طاف الحزن بوجهه: «سأكون واحداً منهم، قريباً بإذن الله».  
- وكيف ستكون منهم؟

عندما أعود من رحلتي تلك مع عائلة «أبادول».

لم يُقنعها بإجابته؛ عادت تسأله: «لعله كذلك، ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد بالتأكيد!».

أطرق قليلاً، شعر بالفعل أنَّه يُريد أن يستخرج ما يُثقل صدره، فقال: «ربما أردت لنفسي شيئاً ما».

- ما هو؟

تدبرت عيناه، كان يُلمم كلماته ليقول: «أن أتحرر من أغلال سلسلة نفسي بها طويلاً حتى صرت أسيئاً لهواجسي، أن أكون على يقين أنَّني سأقدر على مواجهة خبابا



الأقدار وحدي، وحين أخوض معاركِ سأثبت دون أن ألتفت باحثاً عن أبي أو أخي، أن أرى عائلة «أبادول» وجهاً لوجه مرّة أخرى لألمس ثباتهم ويقينهم الذي تحدث عنه جدّي دائمًا، وأتعلم منهم لعلي أطمئن». .

- ألهذا يبدو عليك الحزن أحياناً؟

- لستُ حزيناً ولا سعيداً، أنا عالق في الوسط، لاأشعر بشيء أبداً.

زفرت زفراً واهنة وقالت بخفوت: «أنا أيضًا أريد اختراق الشرنقة التي حبسـتـ بها لأحلق بجناحي وأري جدّي وأختي أنني قد نضجـتـ بالفعل!».

أجفل عندما لاحظ ارتفاع البلورة بسرعة وقال لها: «حسـنـاً أيـتها النـاضـجةـ، أخرجـنـا من هذه الشـرنـقةـ وأعـيـدـنـا إـلـىـ الـأـرـضـ، فـنـحنـ فـيـ خـطـرـ!».

بدأت الفقاعة تدور بسرعة جنونية، لم تتمكن «أورماندا» من إيقافها، كانت تصرخ في فزع.

أخذ «طيفور» يهدئها وسألها: «كيف كانت تفعل جدتك في مثل تلك الحالة؟».

- لا أذكر.

- حاوي.

بدأت تُحاول السيطرة عليها فخفقت من ارتفاعها وهي لا تزال تدور، سقطت الفقاعة على الأرض وأخذت تتدحرج بهما، وعندما استقرّت بعد اصطدامها بجذع عريض لشجرة بلوط عتيقة انفجرت فطاح كُلُّ منها في جهة، وقف «طيفور» يتربّح، أمّا هي فكانت تشعر بدوار وتمسك رأسها بيديها، سأّلها إن كانت بخير ومَرْأَتْهُ قبل أن تُجيئه، وكانت حينها تنظر إلى البستان حولها حيث كانت تُجرب التعاويد ورأت الأشجار التي أحرقتها من قبل، فقالت بخفوت: «لقد عدنا إلى المكان نفسه».



- ألم أخبركِ أنّي أخشى من تعاويذك؟
- لم نسقط على جبل ولم ننكسر.
- أرجوكُ لا تجري أي شيء آخر.
- لقد كان هبوطًا رائعًا،رأيت كيف خَفَضْتُ من ارتفاعها؟
- الحمد لله. هيأنا بنا لنعود إليهم، لا ريب أنّهم غاية في القلق علينا.
- في أي اتجاه سنسير؟
- في أي اتجاه ليس من اختياركِ يا «أورماندا»! أنتِ أشأم من «البسوس» يا فتاة! أرجوكُ اتبعيني في صمت.

سارت خلفه وسط الأشجار الكثيفة، والأصوات المختلطة تحيطهما، بعضها لطير، وبعضها لضفادع، بينما رائحة الدخان تملأ الأجواء فتباعها لعلها النّار التي أشعلها «خاندان».

مَرَا بأول بقعة بـآ منها رحلتهما القصيرة تلك، فتيقنا أنّهما اقتربا من الجدة ومن معها، فجأة ظهر أمامهما ذئب وكَسَرَ عن أنبياه وأخذ يقترب منهما وعيناه تلمعان، امتعن وجه «أورماندا» وصارت ترتجف.

قالت بصوت متقطّع: «سأفتح فجوة لنهرب من خلالها».

- لا، لا تُجّري أرجوكِ.
- سنمومت.
- بل ساقتله!



تراجعا إلى الخلف ببطء وبدأ «طيفور» يسحب قوسه ببطء وحرص شديد لليستعد، وضع «طيفور» السهم في كبد القوس وسحبه إلى الخلف ووقف بثبات، بدأ الذئب يتحفز ويستعد للوثوب في الهواء فرأته «أورماندا» فسارعت بإلقاء تعويذة وفتحت فجوة بدأت تسحبها نحوها وانزلقت قدماها تجاهها، لم تلتفت لـ«طيفور» ولم تر هل استطاع قنص الذئب أم لا، لكنها شعرت به وهو يسحبها ويدفعها نحو شجرة حتى لا تلتقمها الفجوة، فاصطدمت بجذعها، وبقي هو عالقاً للحظات على حافة الفجوة يُقاوم دواماتها الساحبة، لكنها التقطته في الحال فصرخت «أورماندا» وهرولت نحو جذتها ولم تبال بالألم في رأسها من شدة الارتطام بجذع الشجرة. ظلت تركض وهي تخشى الالتفات حتى لا ترى الذئب، كانوا على مقرية منها فوصلت سريعاً ولم تتمكن من إخراج كلمة واحدة من جوفها، فقد كانت أنفاسها متسرعة.

سألتها جدتها: «ما بك؟ وأين كنت؟».

قالت بصوت متقطع: «صنعت.. فجوة.. في.. الهواء.. فاللتقت.. «طيفور»».

سألتها الجدة في غضب: «أين المكان؟ بسرعة!».

استدارت وأشارت تجاهه وركضت بساقين كالعجبين تجاه المكان، هرولوا معها إلى حيث كانت تقف، مروا بذئب مقتول ينغرز في صدره سهم من سهام «طيفور»، أدركت «أورماندا» أنه قد نجح في قنصه.

قالت وهي تُشير إليه: «لقد قتله «طيفور» الآن».

سألتها جدتها: «أي تعويذة أقيمت لصنع الفجوة يا بؤرة المشكلات؟».

- بوابة النجاة.

- نجاة؟ وأي نجاة تلك يا كبرى خيبات جدتك!

طلبت الجدة من «خاندان» سحب سهم «طيفور» من قلب الذئب ففعل وأحضره لها، فأمسكته في يديها وردت تعويذة لاسترداد الفجوة واستخدمت فيها سهم



«طيفور»، فعادت الفجوة للظهور، أطل «طيفور» منها فانفرجت أسارير «أورماندا» ووقفت تُداري خيبتها في خجل.

قال وهو ينظر إليهم: «الحمد لله! ظنتُ أنّي لن أراكِم مَرَّةً أخرى».

على الرّغم مما تعرض له خلال رحلته القصيرة مع «أورماندا» فقد كان يشعر بالراحة والسكينة، لقد أزاح ثقلًا عن صدره عندما تحدث عن نفسه، عندما اعترف أنه قد أخطأ، أنه أساء الظن بأهله، أنه لا يشعر بالسعادة ولا بالحزن، أنه يريد أن يثبت شيئاً لنفسه، استطاعت بعفوتها في حوارها معه أن تجعله يتحدث بلا تصّنُّع وكأنّه طفل يبوح بمخاوفه لرفيقه، وحده كان يعرف عدد المَرَّات التي سقط فيها قلبه من علوّ عندما كان يخاف، ووحده الآن يعرف سبب سقوط قلبهاليوم، فقد كان سعيداً لحديثه معها، ووحده كان يعرف عدد المَرَّات التي انزوت فيها روحه بعيداً لشعوره بالغرابة، وكان يسير بين الوجوه الضبابية جسداً بلا روح، وكأنّه ميت يسير بين الناس، أمّا الآن فقد بدأ يشعر بروحه تُرفرف بين جنبيه، لقد فتحت في نفسه نافذة من نور، أراد أن يشكرها لكنّه ابتعد عنها وعاد إلى سكونه وجلس بينهم يتأمل لهب النار وهي تقرع وترسل شرّاً والقدر يغلي فوقها. كان هُنالك سؤال يتلجلج في رأسه، هل هذا حبٌّ عابرٌ لا سبيل للحفاظ عليه؟ أم ماذا؟

اقترب «خاندان» ليتنشّله من شركِه هذا السؤال وبدأ يثرث معه.

\*\*\*

«أنس»

كدت أنام لولا ظهور شابٌّ أمامي مباشرة عيناه تبرقان كعيّيّ قط، أحاطني بذراعيه واحتضبني بقوّة ونقلني خلال دهليز مظلم إلى مكان آخر، وسقطنا معاً على الأرض، فرأيت ولدي «حمزة» أمام عينيّ.

فور أن رأيت «حمزة» فتحت ذراعي فألقى بنفسه في حضني وتعانقنا.

التفتُّ نحو الشّاب وسألته: «كيف نقلتني إلى هنا؟».



قبض «حمزة» على معصمي وقال: «هذا «عُمر» أتى من «العراق»، وهو من الطوافين يا أبي، وتلك هي الميزة الخاصة التي تحدث عنها «أبادول»، فهو يستطيع الوثب والانتقال من مكان إلى آخر كما فعل معك»، ويرى عينيه المُمْتَزِّتين في الظلام كما ترى القبط». .

- مرحباً يا «عُمر»، ومرحباً بالعراق، ولكن كيف علمت بمكاني؟

- من «الآسو»، التقيته في «أوروك».

- هل هو بخير؟

- نعم، استطاع الفكاك من الحُرَّاس بذكاء حواره معهم، لقد سمعته بنفسي.

- الحمد لله، أتدري أنَّه من الوراقين؟

هزَ «عُمر» رأسه وهو يقول: «نعم، لقد أخبرني».

- ألبسه والداه قرطاً فيه حجر ليمنع انبعاث الطيف، لم يعلم إلا بعد لقائنا في مكتبة «آشور بانيبال». السيد «جلوان» هو الذي لاحظ الحجر في قرط «الآسو».

رفع «عمر» حاجبيه وهو يقول: «ظهور المكتبة لكم شيء مدهش، فممملكة البلاغة تحاول إخفاءها من «الغضافر» باستمرار».

- من «الغضافر»؟

- طائفة من الجن، يشبهون الأسود، قتل «حمزة» أحدهم بخنجره في متأهات «بابل» هنا.

- إذن نحن ما زلنا في «بابل»؟

- نعم.



التفتُّ نحو «حمزة» وأنا أتعجب، فخنجرى لم يعمل كما ظننت وها هو خنجره لم يفقد ميزته.

سألته متلئقاً: «هل وصلت إلى أي خبر عن «رواء»؟».

- التقيت خادمة تعمل بالقصر أخبرتني أنَّها سمعت أنَّ أحد الـ«سيُروش» الشرفاء فَرَ بها من «بابل» لكنَّها ليست على يقين من صحة الخبر.

- كيف ستتأكد؟

- ستعود غداً لتوكيد لنا الخبر.

- هل تلك الطائفة من الجن تتبعنا الآن؟

قال «عمر»: «لا».

- كيف هذا؟ أليسوا جند «عشتار» في «بابل»؟

- هم يتفرقون حول «بابل» وبقصر «عشتار» أمَّا هنا فلا، فهناك سُرٌّ يمنع «الغضافر» من الطواف في طرقات «بابل»، وبخاصة في تلك الجهة التي يسكنها أبناء الشعب الذين لم يتأثروا بتعويذة «عشتار».

قال «حمزة»: «لكنَّهم ينصاعون لها على الرَّغم من هذا للأسف».

التفتُّ نحو «حمزة» فوجدت وجهه شاحبًا للغاية، أشفقت عليه، سألته وكان قلبي يتمزق من أجله: «هل أنت بخير؟».

- بخير يا أبي، لكِنَّك تعلم...

- أعلم يا ولدي. هل من خبرٍ عن أختك «فرح» أو «سليمان»؟

- لا.



اقتبست من «عمر» ورجوته قائلاً: «الشاب الذي كان ينام بجواري، ليتك تُحضره إلى هُنا، إله...».

قاطعني قائلاً: «الحسن بن موسى بن شاكر»، سأذهب حالاً لأحضره».

وثب «عمر» في طرفة عين وعاد ومعه «الحسن» الذي أجمل ممّا حدث وكانت آثار النوم لا تزال بادية عليه، تخفت عنه وشرحت له كيف ينتقل الطوافون، وقدّمت إليه «حمزة» فألفا بعضهما سريعاً، لكنّه كان متوجّساً من «عمر» لأنّه استيقظ ليجد عينيه تضيئان في الظلام فأجلف منه.

وكَّا في بستان تُسافر فيه الأعين من شدَّة جمال أشجاره، وكان عامراً بكرور العنب. أخبرنا «عمر» كيف تسير الأمور على أرض بلاد الرّافدين هنا وسط أجواء مملكة البلاغة، بسط خريطة كانت معه على الأرض، ورأينا كيف قسمت أرضها، علمنا أن برج «بابل» يتكون من سبعة طوابق، فيها طابق مُظلم كالليل البهيم حيث يُقيم «الغضافر»، وهناك طابق آخر فيه خزانة للكتب المسروقة بعد تزييفها، ومن أعلىه يُنشر رماد الكتب الأصلية بعد حرقها، وكيف يعمل «الطوافون» لاسترداد الكتب المسروقة وإعادتها إلى أصحابها من العلماء الذين يقصدون «العراق» و«البصرة» و«الكوفة» لطلب العلم من كبار العلماء والشيخوخ والأساتذة هناك ببيت الحكمة ليدرسوها ويؤلّفوا الكُتب ويترجموا المخطوطات من لغات أخرى، وفي كل مرّة يُردُّ الكتاب لصاحبه تبطّل تعويذة «عشتار»، وتعود «بابل» إلى سابق عهدها، لكنّ الخبائثة لا تيأس وتلقي تعاويذها على سُكّان «بابل» مرّة أخرى وتمسّخهم على هيئة الـ «سيروش»، وتُطلّقهم لقنص «الوراقين» من أبناء بلاد الرّافدين وأبناء المُحاربين وأسرهم، وتأمر الجنّ من «الغضافر» بسرقة الكُتب، وقتل العلماء وطلابهم. وأمضينا ساعات نحكي له فيها عن «المُحاربين»، و«الطوافين»، وكان «الحسن» يُنصرت لـ «عمر» وهو في ذهول شديد، أكثر من الأسئلة فأجابه عمر باستفاضة، فتمنّى لو كان طوافاً مثله وأتيح له الانتقال ليذهب إلى كل مكان يحلم بزيارته وليري أرض الرّافدين من أعلى. قررنا الاستراحة جمِيعاً وخلدنا إلى النوم تحت الشجرة وكان البرد قارساً، فقرّت عيني برؤيه «حمزة»، لكن ما أوجعني أتنّي رأيت في عينيه انكساراً من شدَّة خوفه وقلقه على ابنته وعجزه عن الوصول إليها، وكنت أيضاً قلقاً على ابني «فرح»



وعلى «رواء»، استسلم للنوم أخيراً على أمل أن تعود «ميسون» لتمدّنا بخبر جديد من القصر. انصرف «عمر» ليبحث عن «محمد» و«أحمد» وبقينا تحت الشجرة ننتظر «ميسون».

\*\*\*

## «رواء»

كانت ليلة غريبة على أهل ذلك البيت الذي استقبل للتو طفلة من عالم بعيد آخر، اختطفت بغرض تهديد عائلتها التي تضم العديد من المُحاربين، طفلة بريئة تُستغل للانتقام فقط، تُرعب وتُحرِّم من أبوها لكي تنطفئ جذوة فؤاد «غُداف» الذي يبغض كل ما يتصل بعائلة «أبادول».

خلدوا جميّعاً إلى النوم بعد أن سكنت «رواء»، فقد أنهكتها البكاء ورفضت تناول طعامهم الغريب عليها واكتفت بالماء، بدلوا ملابسها وكانت الشياط أكبر من قياسها فصارت تموج فيها، وضعفت إصبعها في فمها لأول مرّة منذ أن كانت رضيعة، ابتلت وسادتها بدموعها وغلبها النوم وصدرها يختلج، ظنّوا جميّعاً بعد إغلاق باب دارهم أنّهم في أمان، لكنَّ الغريب الذي اقتحم بيتهما لم يحتاج إلى باب ولا نافذة، بل كان أمامها بثاثمه الأسود فور خلودهم جميّعاً إلى النوم وحملها إلى المجهول، في جنح الظلام انتقلت من تلال الرماد إلى «بابل»، ووضعفت بين يدي «عشتار» التي تحسّست وجهها ولامت دموعها ولم تُشفق عليها، فقلبتها من حجر وروحها مُطفأة منذ عهد قديم ولا يتردد بين جنبيها إلّا الحقد والغل والأنانية والحسد.

همست وهي تحكُّ أصابعها في ثيابها لتتخلص من بلل دموع الصغيرة وهي تشمرة منها: «لو أصابها سوء سأقتلكم».



- مولاتي، سأكون في خدمتها إن سمحت لي.

التفتوا جميًعا تجاه «ميسون» التي طلبت أن تُلزم «رواء»، كانت رفيقاتها بتعجبٍ من طلبها، فستضطر إلى البقاء في جناح الملكة ولن تتمكن من الخروج وهي تعشق التجوال في السوق.

بعد نظرة ازدراء طالت حَتَّى شعرت «ميسون» أنَّها تخترقها أومات الملكة موافقة ثمَ استدارت وهي تسير في خيلاء وهمست لنفسها: «تلك بطاقتي الرابحة التي ستكون سببًا في حصولي على التاج، سيكون ملك مملكة البلاغة بأسرها لي وحدي».

تركتها ممددة على الأرض فأقبلت الخادمات نحوها وأخذن يراقبنها بفضول، أشفقت «ميسون» عليها بشدة، فقد سمعت «حمزة»: وهو يروي قصته كاملة للتجار من خلال الجرَّة الأولى التي اشتراها منها، وتعلم أنَّها ابنته، تلقت في حيرة، فقد بدا لها أنَّها هكذا لن تستطيع الخروج من القصر، وأرادت أن تُطمئنَّه! حملتها إلى الفراش ودَثَرَتها جيداً، وغلبها النعاس وهي تضع يدها على صدرها.

\*\*\*

مَرَّ الوقت سريًعاً واستيقظت «رواء»، عندما فتحت عينيها فوجئت باختفاء العائلة التي كانت في دارهم، فتَسَرَّعت بعينيها عن البنات في الغرفة ولم تجد لهن أثراً، أخذت تتأمل القزمة التي تنام بجوارها، شعرت بالوحشة والغرابة والخوف فبدأت تبكي وشيئاً فشيئاً ارتفع صوت نحيبها. استيقظت «ميسون» على صوت «رواء»، أخذت تتحدث إليها وتلاعبيها، فبدأت الصَّغيرة تلتفت إلى نبرة صوتها الغريبة وطريقتها المميزة في نطق الكلام التي جعلتها تخرج من دائرة حزنها وبالكاد بدأت تبتسم، قضت معها «ميسون» بعضًا من الوقت أطعمتها فيه ومشَّطَت شعر رأسها ولاعبتها حَتَّى



هدأت وسكنت واطمأنَّت لها، وظلت تُمسك بيدها طوال الوقت، أرادت الخروج بها من جناح الملكة فمنعها الحرَّاس، وعندما رأت «رِوَاء» وجوههم عادت إلى البكاء فرعاً منهم فأخذت تُخفف عنها مرَّة أخرى. أجلستها فوق الفراش وبدأت تحكي لها قصة عشيرتها، فعلَّقت ناظريها بوجه «ميسون» وأخذت تُنصلب في تركيز شديد.

انفتح الباب فجأة ودلفت «عشتار» ومن خلفها «لارسا»، قالت بحدَّة: «ستكون معك طوال الوقت، لا أثق إلَّا بكِ يا «لارسا»».

اقتربت «لارسا» من «رِوَاء» وقالت بلطف: «مرحباً يا صغيرتي، ما رأيك أن تأتي معِي؟».

طلبت «رِوَاء» من «ميسون» أن تُرافقها وألحَّت عليها، لكنَّ «عشتار» رفضت ونهرتها، فغضبت «رِوَاء» وقاومت «لارسا» فحملتها عنوة وبدأت الصَّغيرة تُقاوم وتحرّك أطرافها في عصبية محاولة التخلص من قبضتها. ملَّت «رِوَاء» من كثرة التنقل من يد إلى أخرى، أقبلَ إلَى «سيُوش» وأحاطوا بهما، فلزمت «رِوَاء» الصَّمت وأغمضت عينيها كي لا تراهم، واستسلمت لقبضة «لارسا» وألقت برأسها على كتفها في استسلام وخضوع. انتقلت إلى مكان كان الجميع هُناك يتوجَّجون أمام عينيها البريتين، وكلُّ يموج طيفه حوله، حررتها «لارسا» من قبضتها وتركتها داخل المعبد تتنقل بينهم، فالآبوا بـمُغلقة وحرَّاس إلَى «سيُوش» حولها من كل الجهات ولا مجال لهروبها. بدأ الوراقون يُلاطِفونها، حاولت لمس أطيافهم بـكَفَّها الصَّغيرة، ضحكت لأول مرَّة منذ اختطافها، ثمَّ عاودها الشعور بالغرابة والحنين وبدأت تسألهم عن والديها.

خرجت «ميسون» من القصر وهرولت نحو المكان الذي دلَّت «حمزة» عليه، فرأته وحوله الآخرون.

وقفت تلتقط أنفاسها وقالت: «باتت «رِوَاء» في حضني البارحة».

طفق «حمزة» يُلقي عليها الأسئلة جملة واحدة في توتُّر: «حَفَّاً؟ هل هي بخير؟ هل أصابها سوء؟ هل تبكي؟».



- هي بخير والحمد لله، يبدو أنها أكثرت البكاء، ولكنني وجدت عليها ثياباً بابلية، أخبرتني أن هناك فتاة لطيفة ألبستها لها وكانت تناول في دارهم. واستيقظت لتجد نفسها بالقصر وأنا بجوارها.

- أريد أن أراها. أين هي الآن؟

- للأسف أبعدتني الملكة عنها، ويبدو أنها حريصة على سلامتها لسبب ما، فقد دفعت بها إلى فتاة تدعى «لارسا» تزور الملكة باستمرار وهي من المقربين منها، لا أعرف أين تسكن، لكنني سمعت الملكة تخبرها أنها لا تثق إلا بها، وأرادتها أن تصحب «رواء» معها ففعلت.

- ما العمل؟

- سأعود إلى القصر، وسأحاول التنصل على الجرار لعلّي أعرف أين تسكن تلك الفتاة.

تعجب «أنس» من كلامها عن الجرار، فأخذ «حمزة» يشرح له.

انصرفت «ميسون» وتركتهم يتخطّطون في حيرة، قرر «عمر» الانصراف للبحث عن شقيقَي «الحسن» ليجمعهم ثم يسترد كتابهم ويرده إليهم، كاد ينصرف لولا وصول «سليمان» الذي صاح هو و«أحمد بن موسى» في آنٍ واحد، فقد صرخ هو فرحاً برؤية خاله «أنس» وابن خاله «حمزة» أمّا «أحمد» فصاح فرحاً لرؤيه أخيه «الحسن» وخرّ ساجداً لله شكرًا فور أن رأه سالماً. تبادلا العناق مع أحبابهما، وكان القرzman خلفهما، وبعد حوار قصير لشرح ما مرروا به باختصار كان «برهوم» أسعدهم لسماعه أن «ميسون» تقوم بدور مهم هنا واستبشر أنها بخير، وعلم من «حمزة» أنها حاولت الخروج من «بابل»، لكن الحُرس يمنعون خروج القزمات، وأنها طلبت منه أن يُساعدها لتعود إلى أهلها.

بسط «سليمان» خريطة «بابل» أمامهم على الأرض، وبدأ يشرح لهم كيف تسللوا من نقطة الضعف بخط دفاع أسوار «بابل» التي أخبره «ياقوت الحموي» عنها، وكيف أنها سبحوا في النهر ليصلوا إليهم.



سعد «عمر» باجتماع الأخرين، وقد بقى أن يعثر على أكبرهم «محمد بن موسى»، فقال قبل أن ينصرف: «حمدًا لله، لقد تيسّر أمر البحث بوجودكم، وما دامت «رواة» في «بابل» فأنا أثق أنكم س تستطعون الوصول إليها، ولكن احذروا من «عشثار». سأنطلق الآن بحثاً عن «محمد» ولن أعود إلا وهو معي».

استوقفه «أحمد بن موسى» وأخرج المرأة المكسورة من جيده وطالعها آملاً أن يظهر أخوه «محمد بن موسى» وهو يسير في أرض غبراء كما رآه من قبل ليتعرف «عمر» على المكان، لكنه لم يظهر فبهت «أحمد»!

وهمس قائلاً بخفوت: «هل مات!».

قال «برهوم» وهو يطالعه بنظرة تشي بالكثير من الغموض: «عدم ظهوره لا يعني أنه مات».

انتقض الجميع وأقبلوا وبيئهم «الحسن» وقد شحب وجهه، وجرب «برهوم» و«سليمان» المرأة وكانت تُظهر لكل منها غائبها، عدا «محمد بن موسى»! كان لا يظهر لأخيه.

قال «أحمد» بصوت يقطر حزناً: «في كل مرّة كنت أتطلع إلى المرأة كنت أجده يعشى وحيداً في أرض عفراء».

أقبل «الحسن» يسحب منه المرأة متلهفاً لرؤيه أخيه «محمد»، لكنَّ الأمر لم يفلح معه، كان الوجوم بادياً على وجه «عمر» لكنه قال ليطمئنه: « ساعثر عليه قريباً بإذن الله».

لاحظ «برهوم» حزن الأخرين وحالتهما البائسة فقال ليخفف عنهم: «لعل المرأة عطبت بسبب كسري لها وبدأت تفقد قدرتها».

كانا مهمومين، وكان الجميع كذلك، فغياب الأحبة يوجع الأفئدة. انصرف عمر ليُكمل طوافه بأرض الرأفين بعد أن أكَّد عليهم أن يحذروا من خطوطهم القادمة، وذُكرهم أنَّ البقعة التي يقفون بها الآن من المدينة أكثر أماناً من القصر ومحيطه. التقط



«حمزة» المرأة من «سليمان» بعد أن علم بسرها فظهرت «رواء» عندما تطلع إليها وكانت وسط مجموعة من الفتيات والفتيا وأطيافهم تموج وتتوهّج وتختلط بعضها.

قال بذهول: «أي! «رواء» بين مجموعة من الوراقين!».

عندما أمسك أنس بالمرأة رأى «رواء» والوراقين، فقال: «يبدو أنها مطمئنة لهم، ولكن لماذا القيود والسلالسل في أقدامهم؟».

ثم تبدلت الصورة وظهرت «فرح»، كانت نائمة وهناك فتاة تحكم الغطاء على كتفها جيداً، فقال «حمزة» متوججاً: «تنام ونحن في بداية النهار!».

قال «أنس» ونظراته تطفر حناناً وشفقة: «يبدو أنها ومن معها كانوا يسيرون طوال الليل».

همس «سليمان» الذي كان خلف كتفه يراقبها أيضاً وقال: «أطمئن عليها من آن إلى آخر، كانت تجلس مع عجوز لطيفة ومن خلفهما ظهرت جبال شاهقة، ورأيتها بعد ذلك على صهوة جواد، أظنهما في طريقها إلى «بابل»».

همس «أنس» بعينين دامعتين: «حفظك الله يا بنقي».

انزوى «الحسن» مع شقيقه «أحمد» يروي كلّ منهما للآخر تفاصيل مغامرته، ويحاولان تحليل ما مرّا به لعلهما يعثران على خيط يصلان به إلى مكان أخيهما «محمد».

\*\*\*

«فرح»

أخبرنا «خاندان» أننا قد اقتنينا من «بابل»، وكأنّا قد تعثنا للغاية، فدللنا قرية ولم نكن على علمٍ بأنّها مهجورة، فنحن لم نجد فيها أي أثرٍ للحياة، وصلنا إلى ساحة



واسعة وخالية من البيوت وسط تلك القرية، حتّى النخيل فيها كان يابسًا، بدت علامات القلق على الجدة، كانت تتلّفت هنا وهناك وكأنّها ترى ما لا نراه، أو تشعر بما لا نشعر به! أخرجت منا ضوء قويّ وفياض سريعاً ما كشف لنا عن وجود ظلال سوداء في الهواء، وانساب منها ضوء قويّ وفياض سريعاً ما كشف لنا عن وجود ظلال سوداء لمخلوقات تكاثفت حولنا، ثمّ بدأت ملامحهم تتَّضح لايّا فلايّا، كان في وجوههم غلظة وكأنّها وجوه أسود، وقد طالت أجسادهم وكلما اقتربوا مناً بشكل أكبر شعرنا بالاختناق.

قالت الجدة بصوت مسموع: «إنهم «الغضافر»، جن «عشتار»!».

- هيأ لنخرج من هنا بسرعة.

- يبدو أنّ خبر قدمنا من «كردستان» وصل إلى «عشتار»، وددت أن يكون دخولنا «بابل» بشكل سري!

ردت الجدة تعويذة ثمّ رسمت بغضن شجرة يابس التقطته خطّا على الأرض وطلبت منا لا ننحطّاه، ودنت منهم فتقديم أحدهم تجاهها، ودار بينهما حوار لم نسمع منه شيئاً، راقت وجه الجدة وحركات يديها، أدركنا أنّها ساخطة وغاضبة، دفعها الحجي إلى الخلف بإشارة فطارت تجاهنا وسقطت على الأرض، شكلوا حولنا حلقة وبدؤوا يُهاجمونا، فرّقونا وأخذوا يسقطوننا أرضاً، حاولوا خنقني وخفق «روكانا» وسحبوا منها ابنتها وطروحها أرضاً فصرخت باكيّة، لم تُفلح ضربات «خاندان» و«طيفور» بأسلحتهما في الهواء، وددت لو معي خنجر أخي «حمزة» لأنقطع كياناتهم الأثيرية وأقضي عليهم. شرعت في قراءة آيات من القرآن فتراجعوا عيّ ولم يلمسوني مرّة أخرى هرولت نحو «مومو» وحملتها، صاحت الجدة وهي تُشير لنا لنتراجع خلفها، وأخذت تتمم بشيء ثمّ رفعت يديها وبدا لي أنّها تُعاني ل تستخرج شيئاً وتسحبه من الأرض، تصاعدت خيوط لامعة وكأنّها خيوط ماء تتررق وترتفع وتصعد في الهواء، صنعت منها حاجزاً شفافاً عالياً يحجبهم عناً فتكاثفوا خلفه ورأيت وجهها يحتقن بالدماء بينما قدماها متشنّجتان وملتصفتان بالأرض وهي تُحاول دفع الجنّ وحدها، كانت «أورماندا» تُحدّق شاخصة في رعب، وددت لو أنها أعانت جدتها ولكن بدا لي أنّها مسلسلة بخوفها من استخدام مهاراتها، أو رُبّما لا



تعرف شيئاً عن تلك المعارك مع الجن. تعمق الجدار وصار كالبلور وبدأت الجدة تتراجع وتضعف.

التفت نحونا ووجهها يتصبّب عرقاً وقالت: «لن يُفلح الأمر، سيقتلوننا».

كرر «خاندان» الجملة نفسها وهو يلْجُ عليهم: «لنتراجع ولنعد إلى كردستان».

- لن يتركونا بسلام، هم مأمورون بقتلنا.

ثمَّ قالت وهي تلومهم: «لماذا تبعموني؟ ليتكم لم تفعلوا!!».

صاح «خاندان»: «ما العمل الآن؟».

- لا يوجد سوى حلٌّ واحد!

- ما هو؟

سالت دمعة من عينيها وهي تشملنا بنظرة وكأنَّها تودعنا، ل تستقر عيناهَا أخيراً على وجه «مومو» الصَّغيرة.

ثمَّ انتقلت بنظراتها إلى عيني ل تقول بتسلٍ: «عِدِيني أن تمنحي الأمانة لأورماندا».

أدركت ما ترمي إليه فخفق قلبي، انعقد لسانِي فعادت تسألني بالحاج: «عِدِيني بهذا يا «فرح»».

بدأت تراجع إلى الخلف أكثر، فقد شعرت بأنَّ زمام الأمور يوشك على الإفلات من بدها لينهار كل شيء.

فقلت وقد علا صوتي وأنا أصبح: «أعُذُّكِ!».

رنت إلى «خاندان» بعينيها الكابيتين وقالت: «عُذُّ بهم إلى «كردستان، ولا تدخلوا «بابل»».

قال «خاندان» وهو يقترب منها: «سأفعل وستعودين معنا».

وجهت إحدى يديها تجاهه وأزاحته إلى الخلف كي لا يقترب منها، أرادت حمايته، استجمعت قوّتها وتقدمت إلى الأمام وبدأت عيناها تضيئان، ولمع الجدار وكأنه أصيب بصاعقة قوية وتوجه، وأحدث دويًا قويًا قبل أن ينفجر ويسحب معه الظلال التي كانت خلفه كلها لتحرق ويتصاعد منها خيط دخاني أسود، وسقطت الجدة أمامنا جثة هامدة بعد أن قدمت حياتها فداءً لتحميمنا من بطش جنود «عشتار» من الجن، اقتربنا منها طامعين أن تكون بخير وأنّها لا تزال على قيد الحياة، لكنّنا للأسف تأكّدنا من موتها، انخفضت بلورتها التي كانت معلقة في الهواء ثُمَّ نادت ضوءًا خلَّابًا، أقبلت يُرّاعات مضيئة من كل حدب وصوب وطافت حول جثمان الجدة ثم دارت في دُوّامات قبل أن تتبعثر كذرات الرَّماد في الهواء ثُمَّ تتلاشى، وسقطت البِلْورَة في يدي منطفئة وكأنّها تؤكّد على وعدى للجدة، بينما أجهشت «أورماندا» بالبكاء هي وشقيقتها «روكانا»، وسالت دموع «خاندان» في ضمت، وجدتني أبكيها بحرقة، و«طيفور» يتنقل بيننا في حزن وهو يحبس عبراته.

أصابني خوف شديد وشعرت بالوحشة، فها هي الدُّنيا تترك تبرّجها لترىني وحّالها من وجوهها وأنا هنا وحدي بعيدًا عن أهلي، دعوت الله يمنعني القوة لأُكمِّل الطَّريق، فنحن نمضي في دروب حياتنا بالكثير من الأحمال، بقلوبنا، بهويتنا، بتاريخ أجدادنا، بأسرارنا، بخبايانا، بأخطائنا التي سُترت، بدموعنا التي سُكبت، بالكثير من النجاح والفشل. نطوف على البلاد، وعلى العباد، وسنطوف يومًا بالقبور، لنلتج منها إلى برزخ نأمل أن يحملنا إلى روضة من رياض الجنة، إلى أبراج من نور يغبطنا عليها الآخرون، عندما يُحبّتنا الله لأنّنا نثق برحمته.

\*\*\*



## ميراث السّاحرات

رفض «خاندان» و«طيفور» دفن الجدة في القرية فخرجوها جميعاً منها ودفنتها الشّابان في أرض أخرى قريبة، ساروا ببطء حتى بزغ الفجر ونشر نوره وغمّرهم به، وكان الحزن رابضاً على أكتافهم. لم تجف دموع «روكانا»، بينما أصيّبت «أورماندا» بالذهول وكانت تحدق أمامها والدموع تهيي من عينيها وهي خلف «فرح» على الجواد، بينما كان «طيفور» يتبعهما. كان الأمر عسيراً على «أورماندا»، فقد كانت أشدّ ارتباطاً من أختها بجدهما، عندما سقطت جدتها على الأرض واختفى الحاجز انطلقت نحوها وأخذت تتحسس وجهها بكفيها، بكت بحرقة شديدة وكانت تتنفس فأنفاسها تختلج دون إرادة منها، كانت تشعر وكأنّ خنجرًا قد غُرز في قلبها، مروا ببستان فتوقفوا وأشعلوا ناراً وجلسوا حولها.

طلب «طيفور» من «خاندان» أن يتبعه وقال له: «عليك أن تعود بابنتك وزوجتك وشقيقتها إلى «كردستان»، وأنا سأرافق «فرح» حتى تعثر على أهلها».

- لن توافقا.

- صار الأمر خطيراً، فما عادت الجدة معهما لتحميّهما.

- عندما رحلتم عجزت عن إقناعهما، «أورماندا» مندفعة وعنيدة و«روكانا» لن تتركها فهما متقاريتان وكأنهما توءمتان.

- دعنا نحاول، رُبّما تقتعنان.

- حاول أنت. بالمناسبة، قبل أن تموت الجدة قالت لك نفذ ما اتفقنا عليه، ترى ما



هو؟

- سأُخبرك.

عادت «أورماندا» للبكاء بنشيج مسموع، فاحتوتها «فرح» في حضنها.

همست «أورماندا» من بين الدموع وهي تنظر إلى «فرح»: «سمعتك تعيدين جدتي بشيء، فما هو؟».

- أرادت جدتك أن تدلّك على بداية الطريق.

- أي طريق؟

- طريق للخير تسلكه كمَا فعلت أمكِ وجدتكِ، وكلتا هما فقدت حياتها لتحمي المحاربين، وكانت جدتك تحمي وتحميكم، لم تكن هنا لتأثر من «عشتار» فقط، بل أرادت قتلها لخلاص الناس من شرها، وكانت تعلم أنّها قد تموت في أي لحظة، لهذا استأمنتني على إرثها للأعيده إليكِ الآن، فأنا أُعاني ما عانته جدتكِ من قراءة الذكريات، والله إنّه لشيء ثقيل يحتاج إلى صبر ونفس قوية.

- أنتِ إذن تعرفين عيّ الكثير!

- نعم، وقد أخبرتني جدتكِ أنها ستفتح لكِ الطريق وما على إلا نقل الإرث كاملاً لكِ، كل التعاوين وكل خطوات تنفيذها، وطلبت ميّ أن أُخبركِ بسرّ.

- ما هو؟

- أنتِ «حائكة تعاوين» يا «أورماندا».

ماذا تقصدين؟

- جدتكِ أخبرتني أنّكِ تستطيعين صياغة تعاوين جديدة وحياكتها لتناسب المواقف والأحداث، وطلبت ميّ أن آخذ عليكِ قسماً.



أي قسم؟

- ألا تستخدمي مهارتك تلك في الشر ولا في الضلال، بل لمساعدة الناس والقضاء على الباطل، وألا تؤذني بها أحداً، فسلاملكن تمثل الجانب الأبيض من قوى السحر في مملكة البلاغة.

تنهدت «أورماندا» ثم قالت: «لقد أخبرتني مراًها هذا، كانت دائماً تذكرني أن ما يجري على يدينا بأمر الله، ولو شاء لسلبنا إياها في غمضة عين».

كانت «روكانا» تنصت لحديثهما في صمت.

قالت وهي تضع يدها على كتفها: «أكملني الطريق يا «أورماندا»، لم أرث تلك الموهبة مثلك، لكنني على يقين أنك أهل لحمل تلك الأمانة».

أقسمت «أورماندا» أمامهما كما طلبت جدتها.

قالت «فرح» وهي تعدل من جلستها: «هيا تأهي».

- الآن؟

- نعم، قبل أن نفاجأ بالجديد، لا بد أن تتسلّم الأمانة.

بدا على «أورماندا» التئُّن، وكانوا جميعاً يراقبون وجه «فرح» بفضول، حلّ عليهم سكون مهيب، حتى «مومو» كانت هادئة. أمسكت «فرح» بكفيها، وأغمضت كلتاها عينيها، وبدأ الإرث يتدفق من رأس «فرح» إلى رأس «أورماندا» وعندما انتهت «فرح» من مهمتها فقدت وعيها فجأة، فأخذت الشقيقتان تحاولان إفاقتها.

وعندما فتحت عينيها قالت بخفوت: «أنا متعبة للغاية، الصداع يحرق دماغي».

همست «روكانا» في أذنها: «نامي يا «فرح»، نحن بجوارك».

خلدت «فرح» إلى النوم، وكذلك «روكانا» وهي تحضرن «مومو»، وبقيت أورماندا،



تتساءل أين هذا الإرث ولماذا لا تستطيع استحضار أيّ تعاوين أو ذكريات لرؤسها! أرادت أن توقف «فرح»، لكنّها كانت أيضًا مُتبعة، تكُورت بجوارها وسالت الدموع من عينيها من جديد حزناً على جدّتها، وقبل أن يغلبها النعاس، وعلى حافة الوَسَن التفتت نحو «طيفور» وكان يقف بعيداً فخفق قلبها، كان يُراقب الأجواء بينما «خاندان» غافٍ بجواره، فقد كانا يتبدلان الحراسة عليهن، كان تعلّقها به يزداد، وكان هو أول شابٍ تتعامل معه وتتحدّث إليه وتشعر بهذا الوجيف في قلبها تجاهه، أخذ الكري بمعاقد جفنيها، وأخيراً انطفأ سراج عقلها فنامت بسلام.

\*\*\*

## «فرح»

كان دخول «بابل» بمنزلة دخول مدينة الملاهي، متاهة دخلناها ظائين أننا نسير في ممر يؤدي إلى داخل المدينة، لكنّنا لم نخرج منه بعد سير طويلاً خلف بعضنا، بدأنا نتعرّف على الجدران وشعرنا أننا نعود إليها مِرَّة أخرى. اقترب «طيفور» أن نقسم أنفسنا إلى فيقين لكنّهم رفضوا اقتراحه وكان «خاندان» أوّلهم.

تذكّرت الخريطة التي منحناها لي بناط «ورдан» لكي أخرج من «سراديب الخطى الضائعة» وكان «عمران» قد أعادها إلىي، فأخرجتها من حقيبتي في الحال وسريعاً ما ظهر عليها مُخطط المتأهات، وأطلّت العالمة الحمراء فبدأنا نسير خلفها، وجمعيهم في اندهاش من خريطي، نجحنا في الخروج من المتأهنة ووجدنا أنفسنا أمام بوابة عظيمة وفائقة الجمال تزيّنها النقوش ورسوم الحيوانات، بدت مذهلة بألوانها والحيوانات المرسومة تكاد تطفر منها وترکض حولنا! تتبّه أهل المدينة لدخولنا فأقبل بعضهم علينا وكأنّا قد مررنا من المتأهات ونحن نسحب خيولنا الثلاثة خلفنا،



قبل أن يصلوا إلينا حال بيننا وبينهم غبار ذهبي فأخذنا جميًعا نفرك أعيننا للزيل أثره، انقشع الغبار الذهبي المتصاعد، ظهرت صورة «العنقاء» كرجفة مُعلقة في الهواء.

صاحت «روكانا»: «وشم جدّي!».

قال «خاندان» وهو يحدق تجاه صورة «العنقاء»: «لعله جنٌ صالح يعرفها، فليُظهر نفسه لنا على الأقل!».

همس «طيفور» بحذر: «لعلها خدعة من «عشتار»، فلنحذر!».

أحسينا برغبة عابرة قوية في مغادرة المكان، اجتاحت المدينة عاصفة هوجاء، ما بين الرعد والبرق هطل مطر غزير ليغسل كل شيء، هبَّت رياحجائحة ترجم الأشجار رجًا، وقدفت الأغصان في كل اتجاه، تدحرجت أوراق الأشجار حولنا وعلى الطرقات، انصرف جمع الناس وكانوا يهربون نحو بيوتهم، أشار لنا «خاندان» لنتبعه فأسرعنا دلفنا طرقات المدينة، الجميع يهرب من العاصفة، كان هناك بيت صغير أمامه ساحة مربعة يقف فيها جواد هزيل يروح ويحيء من فرط نحافته مع الزياح، ظهرت صورة «العنقاء» ترجم في الهواء مركبة أخرى فوقه دلفنا الساحة.

فتح باب البيت فجأة وقالت صاحبته وهي تُحدق نحوها، ردَّت سائلة: «من؟».  
«أورماندا».

أجفلت «أورماندا» مصعوقة وهي تُحدق نحوها، ردَّت سائلة: «من؟».

- صديقة قديمة لجدتك.

تقدّم «طيفور» نحو الباب ووقف قبالتها ونظر إليها مطولاً، ثمَّ أشار لـ «خاندان» فتبّعه دلفنا جميًعاً البيت، وتركنا خيولنا بجوار الجواد الهزيل. أجلسنا صاحبة الدار وأشعلت سراجاً أكبر لتنضي المكان، وكشفت عن رأسها فأطلَّ شعرها الجليدي الأبيض ويز وجهاً المستدير.

همست وهي تجلس بهدوء: «رحمك الله يا صديقتي».



سألتها «روكانا»: «ما اسمك يا خالة؟ لم أسمع جدّي تتحدث عن وجود صديقة لها هنا!».«

- «أيسن»<sup>(١)</sup>، وأنا ساحرة مثلها.

كانت عيناهما هادئتين وتنسمان بالخطورة.

سألتها «روكانا» بصوت يُبَطِّنه القلق: «هل نشأت معها في إقليمنا؟».

- أنا من «أورووك» لكنّي كنت أتجول مع والدي في أرض الرّافدين، وقضيت طفولتي مع جدتك، عندما أقمنا في إقليم «نمار» لوقت طويل مع بعض الساحرات بجوار نهر «ديالي»<sup>(٢)</sup> حيث كانت أمي وأم جدتك تتمزنان على ماء النهر هناك لتنمية مهاراتهما.

قال «خاندان»: «صورة وشم الجدة التي ظهرت كانت رسالة منك».

- نعم، أردت أن أطمئنكم وأدلكم على مكانى، فقد حاولت التواصل مع «أورماندا»، لكنّها لا تزال تغلق حواسّها.

دمدت «أورماندا»: «ماذا؟! حواسي؟ وكيف أفتحها؟».

- تملكين الآن إرث جدتك ولا بد أن تستخدميه. فعلت «فرح» ما طلب منها بأمانة شديدة وكانت تستطيع الامتناع عن هذا والاستحواذ على تلك القوى لنفسها.

التفتت «فرح» تجاهها وسألتها: «كيف تعرفين كل شيء عنا؟».

زفرت «أيسن» يحرقة وقالت: «كنت أتابع صديقتي طوال الوقت وقد بحثت عني كثيراً منذ تلك الليلة الحالكة الجلباب عندما وقع الحادث المشؤوم، لكنّي قطعت اتصالياً بها لكي أحميها من بطش «عشتار»، فبعد أن قتلت ابنتها وزوجها والمُحاربين

<sup>(١)</sup> أيسن: اسم السلالة سوميرية قديمة.

<sup>(٢)</sup> ديالي: خامس روافد نهر دجلة.



أرادت قتلها، لكنّي حجبتها وهي تركض نحو بيتها الذي تركت فيه حفيديثها الصغيرتين لكي تطمئن على ابنتها، حتّى إنّي حجبت البستان بأكمله عن الجميع حتّى رحلت «عشتار» مع جنودها إلى هنا».

لماذا أنتِ هنا الآن؟

- كنتُ هنا منذ البداية، وهبت نفسي وسخرت موهبتي لحماية سُكَان «بابل» من تعاويد «عشتار»، لم أتمكن من إنقاذهن جميعاً، استطعت حماية نصف الشعب القاطن بالجهة الغربية هنا فلم تصبهم لعنتها، وأقيم هنا بشكل سري منذ سنوات، أصدّ «الغضافر» عنهم، وأدفع الـ «سيروش» ليبعدوا دون أن يعلموا بوجودي، وبعد يوم الحادث أردت الانتقام من «عشتار» لكنّي فقدت جانباً من قواي، لم أعد كما كنت سابقاً، فقررت البقاء وبذل ما في طاقتني لحماية سُكَان «بابل» ولو بقدر ضئيل، «عشتار» تحتاج لقوة هائلة لردعها وسيكون لمن يقف أمامها شأن عظيم.

سألتها «فرح»: «هل أنتِ على تواصل مع الطوافين يا حالة؟».

- لم أرغب في كشف هويّتي لهم من قبل، لكنّي وبعد مقتل صديقي ومعرفي بأمر نقلها الإرث إلى حفيديثها «أورماندا» شعرت أنّ موتي يقترب، ولهذا كشفت هويتي لكم، ورُبّما تكون نهايتي قريبة، لكنّي على أمل أن تنهي عائلة أبادول مأساة «عشتار» ونخلص «بابل» منها.

قالت «فرح»: «أليديك علم هل وصل أبي وأخي وزوجي إلى هنا أم لا؟».

- الثلاثة هنا، لكنّي لا أعرف مكانهم، يجب أن أخرج للبحث والتحري.

تنفّست «فرح» الصعداء، أرادت أن تخرج لكن «أيسن» منعها، وأخبرتها أن تنتظر حلول الظلام.

التفتت تجاه «طيفور» فجأة وقالت له: «أمك ساحرة!».

ابتسم قائلاً: «كانّي علمت للتو!».



## «أنس»

كان لا بد من الاختلاط بالناس في «بابل»، توجّه «حمزة» للعمل مع التاجر نفسه بعد أن تعرّفنا عليه، وبعد أن علم بما فعله «الحسن» بالأمس طلب منه صُنع المزيد من الجرار المسحورة كما أطلق عليها الناس فعل له، وانضم إليه أخوه «أحمد» وطفقا يعْدلان الجرار بجيل ذكية، بدأت أحوار زبائن التاجر فقد ظنوا أنّا من القرى المحيطة بمدينة «بابل»، تحدّثا في كل شيء، التجارة والرّزاعة التي بدت لي مهاراتهم فيها، والتجارة التي ينظمونها وقد تجلّت لي مهاراتهم فيها بعد تفحّص بضائعهم، فهم يقومون برحلات لجلب شجر الأرز والذهب والأحجار الكريمة، وكانت تملأ السوق بأشكالها المختلفة، التقى بعالم هناك وببدأ يشرح لي النّظام الستيني في العد لقياس الرّمّن والرّوايا الهندسيّة فبهرنـي هذا. كنت أحـاول في أثناء الحديث استدراجـهم للحديث عن الـ «سيروش»، فقد كان هـدفي الرئـيسي هو الوصول إلى طـرـيقـة أـدخلـ بها القـصـرـ، أو لأـعـرـفـ أـينـ يـحـتـجـ الـوـرـاقـونـ، وكانـ «ـحـمـزـةـ» يـلـازـمـيـ وـيـتـابـعـ كلـ كـلـمـةـ وـيـحـصـيـهاـ، كانـ الـحـدـيـثـ عـنـ الـوـرـاقـينـ دائـمـاـ مـبـتوـراـ وـكـانـهـ يـتـجـبـبـونـ الـحـدـيـثـ عـنـهـمـ. مضـتـ سـاعـاتـ ثـقـيلـةـ قـبـلـ أـنـ نـعـرـفـ أـنـ هـنـاكـ رـجـلـاـ كـانـ يـعـمـلـ بـشـؤـونـ الـحـكـمـ سابـقاـ بالـمـديـنـةـ اختـطـفـ الـ «ـسـيـرـوـشـ»ـ اـبـنـهـ لـأـنـهـ مـنـ الـوـرـاقـينـ، وكانـ قدـ حـاـوـلـ مـرـاـضاـ اـقـتـاحـمـ الـقـصـرـ لـكـنـهـمـ كـادـواـ يـقـتـلـوـنـهـ لـوـلـ تـدـخـلـ الـ «ـسـيـرـوـشـ»ـ الشـرـفاءـ لـإنـقـاذـهـ، فـهـوـ زـمـيلـ لـهـمـ وإنـ لمـ يـتـأـثـرـ مـثـلـهـ بـالـسـحـرـ، وـهـذـاـ مـاـ اـسـتـوـقـفـيـ!ـ فقدـ رـأـيـتـ أـنـ التـوـاصـلـ معـ هـؤـلـاءـ الـذـيـنـ لـمـ تـأـثـرـ عـقـولـهـمـ وـفـقـطـ تـغـيـرـتـ أـشـكـالـهـمـ قـدـ يـسـاعـدـيـ،ـ فـتـوـجـهـتـ إـلـىـ بـيـتـ ذـلـكـ الـحـكـيمـ مـعـ «ـحـمـزـةـ»ـ، طـلـبـ «ـبـرـهـومـ»ـ مـرـافـقـتـاـ فـوـافـقـنـاـ،ـ وـكـانـ يـتـأـرجـحـ بـيـنـ شـوـقـهـ لـعـودـةـ «ـمـيـسـونـ»ـ لـيـراـهـاـ،ـ وـحـمـاسـهـ لـدـخـولـ الـقـصـرـ وـتـخـلـيـصـهـاـ وـمـنـ مـعـهـاـ مـنـ سـلـطـانـ «ـعـيـشـتـارـ»ـ،ـ فـسـارـ مـعـنـاـ وـهـوـ يـتـلـفـشـتـ مـنـ آـنـ إـلـىـ آـخـرـ،ـ فـأـخـبـرـهـ «ـحـمـزـةـ»ـ أـنـهـ تـأـتـيـ دـائـمـاـ قـبـلـ غـرـوبـ السـمـسـ،ـ وـأـنـ زـيـارـتـهـ الـخـاطـفـةـ قـبـلـ وـصـولـهـ نـهـارـاـ كـانـتـ عـلـىـ غـيرـ عـادـتـهـ لـتـخـبـرـهـ بـأـمـرـ «ـرـوـاءـ»ـ. طـرـقـنـاـ بـابـ الرـجـلـ وـلـمـ يـجـبـنـاـ،ـ كـدـنـاـ نـصـرـفـ لـوـلـ سـمـاعـنـاـ صـوـتهـ وـهـوـ يـسـأـلـ مـنـ بـالـبـابـ،ـ فـأـجـبـنـاـ.ـ وـقـفـ يـتـأـمـلـ مـلـامـحـنـاـ وـثـيـابـنـاـ قـبـلـ أـنـ يـسـمـحـ لـنـاـ



بالدخول.

دلفنا وبعد أن جلسنا قبالته بدأ بسؤالنا: «من أنتم؟».

تولى «برهوم» الرد قائلاً: «من قرية بالقرب من «بابل»».

قال وهو يتفحصه: «أنت تُشبه خادمات القصر».

- نحن من عشيرة «الكنادرة»، وزوجتي بين الخادمات بالفعل.

- ماذا تريدون؟

سألته مباشرة وقد بدا لي أنه لا يملك الصبر للحوار: «اخطفوا سيروش حفيدتي، وأنا هنا لأنقذها، فكيف السبيل لدخول القصر؟».

- لا سبيل لذلك، ستُقتل في الحال إن علموا أنك تسعى إليها كما قتلوا الكثير من الوراقيين.

- لكنني علمت أن الوراقيين محتجزون في مكان معزول.

- من أخبرك بهذا؟

أخرج «برهوم» المرأة من حقيبته، وقال قبل أن يعطيها للرجل: «قبل أن تتطلّع إلى تلك المرأة يجب أن تعرف شيئاً مهماً».

- ما هو؟

خلع «برهوم» قلادته التي كان يخفيها تحت قميصه، فظهر طيفه وأخذ يموج حوله ففغر الرجل فاه متعجّباً وقال له: «أنت من الوراقيين؟!».

- نعم. تفَحَّص المرأة لعلك ترى ابنك.



مَدَ الرَّجُل يده بتوجس والتقط المرأة وأخذ يتمعن فيها، فظهر وجه ابنه فقال بتأثر: «ريموش»! ولدي!».

طفرت دمعة من عينيه، وأجهش بالبكاء ثمَّ أخذ يتساءل: «لماذا يقيدون قدميه هكذا؟ ولم يحتجزونه؟ ظننتهم قتلوه كما أخبروني!».

عاد «برهوم» يرتدي قلادته ليحجب طيفه، وتركنا الرَّجُل يطمئن على ابنه من خلال المرأة، لكنَّها كالعادة كانت تظهر لدقائق ثمَّ تنطفىء، أخذ يمسحها بكلمه ويُحاول مراة أخرى، أراد أن يحتفظ بها فطلبها منه «برهوم» على استحياء، وعندما ردَّها له سأله: «هل رأيت أيَّ عالمة تدل على مكان احتجازهم؟».

- نعم. هذا هو معبد «إيساكيلا»<sup>(١)</sup>، معبد أنشئ قديماً لعبادة «مردوخ»، ثمَّ انصرف عنه التَّأس بعدها، فقد تحولَ الناس إلى عبادة الله بعد وصول ذلك النبي الذي دعاهم لنبذ عبادة النجوم والكواكب والأوثان، ومَرَّت سنوات تغيير فيها شأن المدينة بالكامل، وكأنَّنا نتخيَّل في تيه الآن يُقدِّسون «عشتار» التي اقتحمت مدینتنا وتخيَّرت ذلك الاسم وأطلقته على نفسها لتعيد ضلالات الماضي.

- أين هذا المعبد؟

- أعرف مكانه، لكنَّي لم أظنْ قط أنَّ ولدي هناك، يقولون إنَّه مُحاط بجماعات من «سيروش»، ويُقال أيضًا إنَّ الكهنة يُقيمون هناك طقوساً لتمجيد «عشتار»، وإنها ألتَّ التَّعاوين على جدرانه، في الحقيقة لم يجرؤ أحد على الذهاب إليه.

كان لا بدَّ من إقناع ذلك الرَّجُل بخطيِّ القائمة على استنفار أهل «بابل» ليواجهوا بطش «عشتار»، فبدأت بالحديث معه ودار بيننا نقاش حول كل ما يدور في «بابل»، بين أمل باسم ويسأط محظَّم ظلت الكلمات تدور بين أفواهنا، ودعناه على وعد منه بأن يستدعي إلَى «سيروش» الشرفاء للقاء بيته، وقبل خروجنا طلب على استحياء أن يُري زوجته صورة ابنها بالمرأة، فأغارها له «برهوم» لدقائق، ثمَّ عدنا

<sup>(١)</sup> إيساكيلا: هو المعبد الرئيسي لعبادة مردوخ في مدينة بابل حسب عقidiتهم وقتها، ومعناه بالسومرية (منزل برأس مرفوع). بني هذا المعبد الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني، وكان فيه وثن لـ «مردوخ».



إلى «سليمان» ومن معه، وكانوا جمِيعاً مع التاجر وقد التفَ حولهم النَّاسُ، فقد صنع «الحسن» سراجاً لا ينطفئ ويحمي نفسه من الرياح بالتواء يحجبها عن لهبه، ويخرج الفتيل تلقائياً كلما يتآكل، ويمرر الرَّزْيَت ويصبه دون تدْخُل أحد، بينما صنع «أحمد» لعبة للأطفال تصدر عنها حركات عجيبة.

قال «حمزة» وهو يتأنّّ لها: «الحصول على الفعل الكبير بالجهد اليسير».

- لقد كان «الحسن» يكرر تلك العبارة من آنٍ إلى آخر يا «حمزة».

- هي مدوّنة بالفعل في كتاب «الحِيل» الذي يضمّ أكثر من مائة اختراع لبني موسى، منها آلة رصد فلكيّ ضخمة تُدار بقوّة دفع الماء وتعكس الصُّور على مرآة كبيرة.

- لعلهم يصنعونها لإبهار أهل «بابل».

- أهل «بابل» بارعون في الفلك بالفعل يا أبي، وأيضاً هندسة البناء، انظر إلى البوابات وكل الأبنية من حولنا، لكل عصر من عصور العراق عبقرته وعلماؤه.

- صدقت. هلا أعطيتني مرأتك لأطمئن على «رواء» و«فرح»؟

انزوينا نتفحّص المرأة فرأينا «رواء» ساكنة بجوار فتاة نحيلة كان التاجر قد أخبرنا عندما أريناه المرأة أُنّها ابنته «جولاً»، وكانت تعتنى بـ«رواء»، أمّا «فرح» فكانت تجلس مع عجوز في مكان ما.

ناديت «سليمان» فتعجّب قائلاً: «تلك العجوز تختلف عن تلك التي رأيتها من قبل مع «فرح»، ولكن على أي حال هي تبدو بخير».

كنت أُشفق على «سليمان» و«فرح»، فقد تحول زفافهما فجأة إلى مأساة.

قلت له وأنا أتفحص وجهه الشاحب وهو يُحدّق في المرأة: «أعلم أنّك اشتقت إلى عروسك».

انعقد لسانه، فتركت له المرأة وعدت مع «حمزة» إلى التاجر لأنّه بما فعلناه في



بيت ذلك الرَّجُل الذي فقد مكانته السياسية والاجتماعية، لأنَّ ابنه من «الورَاقين»، ولأنَّ «عِشتار» أفسدت كل شيء حولنا. وبقي أمر واحد يُحيرني، لماذا تلك الجهة من المدينة لا تقع تحت سلطان «عِشتار»؟

مضى النَّهار وأقبلت «ميسون»، وفور أن رأت «برهوم» ركض كُلُّ منها تجاه الآخر وتعانقا في مشهد أدمع أعيننا جميًعا، سكبت قلبها في قلبه، وقامت ابتسامته المتموجة مقام الكلمات. لم تحمل لنا الجديد من الأخبار، وعندما أخبرناها بما فعلناه استبشرت خيرًا، كنَّا جميًعا نأمل أن تُخلص رواه ونتسلل من الجهة التي دخل منها «سُليمان» مع رفقة، فالخريطة التي معه سُتفيدنا، ويبدو أنَّ لقاءه بـ«ياقوت الحموي» كان له ثمرة.

انصرفت «ميسون» على مضض فهي عيننا داخل القصر، وتركت قلبها بين يدي زوجها، وغادرت المكان وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما خلفها خوفًا عليها ولهفة وشوقًا إليها. بدأنا نبحث عن دار لمستأجرها، فقد هبَّت رياح قارسة البرودة، وكان معنا من المال ما يكفي، فقد باع الثَّاجر بمساعدة «الحسن» و«أحمد» ما عنده بالإضافة إلى ما اخترعاه اليوم من مصابيح وغيرها من أدوات.

كان البرد قارسًا للغاية، وغابت الشَّمس وتركَت خلفها حفنة من الغيم الرمادية، أقبلت امرأة تغطي رأسها بقلنسوة وقد أخفت فمها بلثام، اشتتدت الرياح فطافت تتمسَّك بردائها لتحمي بها منها، كانت كفَّها المعروفة بجلدها الرقيق تشي بكونها عجوزًا، عندما بدأت تعرض علينا دارها لمستأجرها وكشفت عن وجهها تعرفت عليها، فقد رأيت وجهها بالمرأة مع «فرح»، فسألتها وشفتاي ترتجفان: «هل التقيت «فرح»؟».

ابتسمت وأعادت اللثام إلى وجهها وقالت: اتركوا مسافة كافية بيننا واتبعوني».

تبعدناها على دفعتين، وكان «سُليمان» يهرول أمامنا حتَّى إله سار بجوارها متلهفًا وكان قلبها يتدرج أمامه على الطريق، وعندما وصلنا إلى أرض خالية من أي زرع أو بناء وليس فيها أي أثر للحياة وقفنا حائرين، خشيت أن تكون خدعة، التفتت العجوز



نحونا وشملت جوانب الطّريق بناظريها قبل أن تحرّك يدها، فظهر البيت وأمامه أربعة خيول منها جواد نحيل تقاد عظامه تخترق جلدّه، ودعّتنا للدخول فكانت

الغالية «فرح» هُنّاك. ضيَّقَ البيت بأصواتنا وصار البيت دافِئاً بوجودنا جميعاً وبقيَ أن تكون «رواء» معنا، تعانقنا في شوقٍ ولهمة، والتّقى الحبيبان «سليمان» و«فرح»، كان قلبه يتلهّب شوّفاً لرؤيتها، أمّا هي فكانت تتخيّط في حيرة وخجل. اقترب شابٌّ لطيف وعائق «سليمان» بحرارةٍ وبداء لي آنَّهما يعرّفان بعضهما فتعجّبتُ! كان أصلع.

قرّيه «سليمان» ميّ وسألني: «هل تعرف من هذا؟».

- لا -

- ابن حبيبك!

نظرت إلى عينيه، النّظرة الواثقة نفسها، وقسمات الوجه الممزوجة بكبرياء، إله قطعة منه!

قلت وقد جاشت عواطفني حينياً إلى الماضي: «الرّاجل الأزرق!».

- هو أصغر أبنائه، «طيفور».

عانقته وعانت معه الذكريات، جلسنا جميعاً لتألم خيوط شباك العنكبوت التي غزلناها حول «بابل» وقد أتاهَا كلّ ممّا من طرف بصحة لا نعرفهم ولا يعرفوننا ولا يعرفون بعضهم بعضاً.

قطع «حمزة» حديثنا فجأة وسائل العجوز: «سيدة «أيسن»، هل سيستطيع «عمر» العثور علينا؟ وكذلك «ميسيون؟».

رفعت حاجبيها قائلة: «لا، فقد حجبت البيت عن الجميع».

- وددت لو عاد سريعاً لعلّه يتمكّن من ولوج المعبد.



- لن يستطيع! فـ«عشتار» ألقت تعاويذ خاصة على جدران القصر والمعبد وبعض الأماكن المهمة هنا، والطواوفون لن يتمكنوا من ولوجهها.

- إذن سأخرج مبكراً مع «برهوم» و«أحمد» ليجدونا هناك في مكاننا نفسه الذي اتفقنا عليه ودللتنا عليه «ميسون».

همس «الحسن» وكان متعباً للغاية: «أنا أيضاً سأخرج معكم».

جلسنا نُكمل أحاديثنا، تأكيناً بواسطة المرأة أنَّ «رواء» نائمة وسط الوراقين، وكان «محمد بن موسى» لا يزال غائباً ولا يظهر لأخويه. فرع «أحمد بن موسى» للصلوة وظل يُلح في الدعاء لكي يرد الله له أخاه «محمدًا»، وانضممت إليه أنا وحمزة ودعونا الله أن يرد إلينا «رواء» بسلام. تذكريت أبي وكانت مشتاكاً إلى الطمانينة التي تُشَحُّ من عينيه، لطالما كان أبي هادئاً حتى في أصعب الأوقات، كان مسحه على صدري يُزيل مخاوفي وكأنه ينفضها كالغبار بكفيه، أبي، الجدار الذي أثق أنني مهمماً تراجعت إلى الخلف سيكون هناك ليتصق ظهري به في النهاية، مهما فشلت أو تعترت أو ضاعت ميّ الفرص، يكفي أنَّه هناك ليُظَلَّ على من جديد، ويمد يده لينتشلني من غيابه الجب لأعاده المحاولة، داهمني حنين جارف نحوه، التفت جواري وكأنَّ لا نزال في محل صلاتنا، فوجدت «حمزة» ساكتاً مُنكسراً بجواري والمرأة في يده يُطالع فيها وجه ابنته من آن إلى آخر، فأخذت أمسح على رأسه وصدره كما كان يفعل أبي لعلّي أزيح الحزن عنه. كان «سليمان» و«فرح» يتهدثان في شوق ولهفة، كنت أشفق عليهما لفساد حفل زفافهما، ورجوت الله أن يعوضهما خيراً.

\*\*\*

بعد وابل من التَّوبِيخ من «روكانا» على تصريحاتها غير المسؤولة، والكثير من التوجيه من «خاندان»، وبعض من النصائح الحانية اللطيفة من «فرح»، أقبلت «أورماندا» تضرب الأرض بقدميها وكأنها على وشك دخول حرب مع قبيلة بأكملها، أرادت أن تنفَّس عن غضبها فلم تجد غير «طيفور».



سارت تجاهه كقذيفة مدفعة وقالت له: «لماذا تُناديها بالآنسة بينما تُناديوني باسمي مجرّداً؟».

سألها في اندهاش: «من هي؟!».

أجبت وهي تقطّب حاجبيها ««فرح» كما أنها ليست آنسة، ألم تخبرنا أنَّ حادث اختطاف ابنة أخيها أفسد حفل الزفاف؟ إذن هي ليست آنسة. لماذا تمنحها لقباً بينما تُناديوني باسمي مجرّداً وكأنّي لا أستحق� الاحترام؟».

ابتسم في حرج وأجابها: «في الحقيقة كنت في حيرة كيف أُناديها، ولم أرغب في رفع الكلفة بينما فأنا أجّلُها وأحترمها فقلت في نفسي لأناديها آنسة «فرح» وهي لم تعترض! وعامةً لديك حقٌّ يا آنسة «أورماندا!».

- ماذا؟! تجلّها وتحترمها وأنا لا؟!

هزَّ كتفيه قائلاً باستنكار: «من قال هذا؟».

- ألم تقل إنك تجلّها وتحترمها؟

- بلى، قلت هذا. فهي تُجبر من أمامها على احترامها.

عقدت ذراعيها ووقفت متأنّبة وهي تسأله: «كيف تُجبرك على احترامها؟»

صمت هنيهة وقال: «صوتها الهادئ، كلماتها التي تنتقيها بحذر، حتّى غصّها لطرفها عندما تتحدث إلينا فيه شيء يُضفي عليها وقاراً، فهي لا تُحدّق بجرأة إلى عيني من يُحدثها من الرجال، وهذا لم يمنع من ظهور ذكائها وحذاقتها، فهي ذات شخصية قوية ربّما بسبب ما مرّت به من تجارب هنا، هناك هيبة تجلّلها، لقد أتقن والداتها تنشئتها، فكيف لا تُجبر من أمامها على احترامها؟»

تخبّطت «أورماندا» وقالت وهي ترنو إلى «فرح»: «هذا صحيح، كما أنها لطيفة الحشية، لقد أحببتهَا!».



التفتت تسأله بارتباك: «أنا لست مثلها، أليس كذلك؟».

- أنت بريئة وعفوية يا «أورماندا»، أقصد يا آنسة «أورماندا»، تتصرفين أحياناً بعناد طفولي، لكنكِ سليمة الطوّية.

قالت في ضيق: «أعلم أنني عنيدة كبَّغَلة».

- لست كذلك! ولم أقل هذا!

ران عليهما صمت جليدي وحذير، كانا ثابتين كصئمين يُحدّقان تجاه «فرح» التي كانت تتحدث مع «روكانا» ولم تنتبه لهما.

عادت «أورماندا» تقول وهي تغضّن حاجبيها: «لكن ملابسي مُحتشمة!».

- هي كذلك بالفعل.

رمته بنظرة واستردها وهي تسأله: «هل صوتي مُنخفض بوقار؟ وهناك.. هيبة تُجلّبني؟».

تخبط في حيرة وسألها: «هل أجيّب بصراحة؟».

- نعم. تر

دد في البداية لكنه قذف الكلمات في وجهها وهو يقول: «أحياناً تتحدثين كالإوزة الغاضبة، وأحياناً تصيحين كديك شرس».

ثارت غاضبة وقالت: «ماذا ترى أمامك؟ فتاة بلهاء؟ بلهوانة؟ امرأة شعرت رأسها وترکض في الطرقات كالمحنونة؟ طفلة غبية سال أنفها؟».

- بالتأكيد لست كل هؤلاء، لكنك...

- لكنني ماذا؟



لم يُجبها ووقع في حرج! كاد ينصرف هارباً من سَوْرَةِ غضبها، فهي التي أتته بقدميها لتنهال عليه بالأسئلة، لزمت الصَّمت وبدا الحزن على وجهها.

قال معتذراً: «آسف يبدو أنَّ صراحتي قد أغضبتَكِ، لكنَّكِ سأليتني!».

سألته بنبرة ساخرة: «صف لي كيف تتحدث الإوزة الغاضبة؟».

- الأفضل أن يتوقف حديثنا عن هذا.

- بل أخبرني، رُبَّما أتغير إلى الأفضل!

حاول جمع الكلمات ليُحسن التعبير وقال بحذر: «أحياناً ترفعين صوتك وتتحدىين وكأننا نخوض شجاراً، وهذا غير مقبول من الجميع، لست سيدة يا «أورماندا»، أنتِ فتاة طيبة، لكنَّكِ لم تنضجي بعد، وهذا حالنا جميعاً، فما يعتمل في صدورنا من مشاعر يُشبه البحر الثائرة بأمواجها العالية. ونحن لن نمخرب عباب البحر الهائج في أنفسنا إلَّا إن تعلمنا السباحة. قد نمُّ بأطوار كتلك التي تمُّر بها الثمار، فهي تتبدل ثمَّ تكبر رويداً ويتغيرلونها وتُشرق على الأغصان تُناجيينا لنقطفها، وهكذا حالنا، نكبر شيئاً فشيئاً ويتغير إهابنا، وتتغير طباعنا وخصالنا ونتعلم ممَّن نُراقبهم ونتخاذلهم قدوةً ونحاكيهم، ونُعلمنا الأيام فنكتحل بتجاربنا وتتضح رؤيتنا للأمور ونكون أكثر وقاراً من ذي قبل».

أنصبتت لكلماته جيداً، وقفـت عند كل معنى من معانيها.

هرَّت رأسها في تفهُّم وقالت بخفوت: «كنت أعرف هذا جيداً، لكنَّي لم أحـسن صياغته كما فعلت الآن، ولم أفهم نفسي إلَّا عندما انتهيت من آخر كلماتك، لهذاأشكرك!».

سارت بخطوات وئيدة وهي ساهمة، لقد أزاح الستار عن بحرها الثائر بين أضلعها، رأت أمواج البحر العاتية حتَّى شعرت برذاذ الماء البارد يلمس بشرتها فاقشعر جلدتها، أرادت الإبحار لكنَّها لا تُحسـن السباحة ولا التجديف سلسلتها أغلال السحر الذي جعلها دائِمـاً في حالة خوف وترقب عند اختلاطها بالناس، كان لديها في نفسها



بقاء غامضة مظلمة، وأخاديد تختبئ فيها حكايا الساحرات، فهي تتفاجأ من آن إلى آخر بتفاصيل في ذاتها التي لم ترسم خريطتها حتى الآن، أرادت أن تكون ثمرة ناضجة لكنّها لا تدرى متى سيحدث هذا. كانت حائرة كطير ضلّ طريقه فأخذ يحلق مفتّشاً عن سريه في تحبّط. توّجّهت نحو أختها ودستَت يدها تحت ذراعها في صمت، وقف «طيفور» يُحصي كلماته ويراجعها ويلوم نفسه على أي شيء قد باح به دون قصد وجح مشاعرها.

تمنّت لو اختبأت عن أنظار الجميع دون أن تفارقهم، فهي تُحبّهم ولن تشعر بالأمان إلا معهم، فقط ليتركوها في سلام دون التنقيب عن أخطائهم. ودون التعليق على تصرفاتها الهوجاء، وكلماتها المبعثرة، ولكنهم للأسف كانوا جميّعاً يشعرونها أنّها مُراقبة طوال الوقت أو زُيّماً بعد وفاة جدّتها تعمّق شعورهم بالمسؤولية نحوها، لم تكن في حاجة إلى النصائح والتوجيه.

ولاحّى إلى هذا النصّ اللطيف المغلّف بعبارات مخدّرة أكثر من حاجتها إلى الحنان والاحتواء، كانت تشعر بالجفاف بعد انحسار نهر الحنان الجارف الذي كانت جدّتها ترسله تحت قدميها حتى يفيض على صفاف حياتها ويشبعها، الآن جفّ هذا النهر وهي ظمآن تترقب قطرة حب واحدة ليروي فؤادها داهمها شعور بالانكسار فانكمشت وضمّت ذراعيها لحضنها. أرسل «طيفور» ناظريه فلمحها على حالتها تلك فأدرك ما أصحابها من حزن. أحسّ بوخزة في قلبه فأدرك أنّ أمرها يعنيه، وضع يده على صدره وأخذ يكرر اسمها هامسًا وكأنّه دواء سحري سينذلّ ألمه.. «أورماندا»!

\*\*\*

«فرح»



رأيت «سليمان»، أخيراً عادت إلى روحه، كنت أشعر بخوب<sup>(١)</sup> خيول لحوج في صدري وهو يقترب فاتحاً ذراعيه، عانقني سريعاً على استحياء، اغروقت عيناه بالدموع وهو يمسك بكتفي ويقول بصوت يختلج: «حبيبي».

- خشيت ألا أراك مرّة أخرى.

قبضتُ على كفَّيه، وكنت أستعدُّب تصفح ذكرياته الخاصة بي، وتدفق مشاعره عندما تلتقي أعيننا، وحبّه وشوقه ولهفته علىَّ، ودقائق قلبه المتواذبة المجنونة.

ابتسم وهو يتأملني وأنا أحدق إلى عينيه وسألني: «تقرين ذكرياتي، أليس كذلك؟».

- بلى. كنت قد سمحت لي بهذا من قبل، أخبرتني أنَّك كتاب مفتوح أمامي ولِي أن أتصفحه كما أريد.

- لكِ هذا يا «أنا»!

أريكتي بعمق نظراته، حتَّى إنْ قُدرتِي على قراءة ذكرياته أصحابها الشَّلل.

قال مُبتسماً «لا تخافي مررتُ فقط بأرضِ للأقرام، وطررت مع رفافي فوق ماء النهر كما فعل خالي «أنس» مع العجوز «ناردين».

- ليتنى كنت معك.

- كانت صورتكِ ترجم طوال الوقت على حافة أحلامي.

منحنى ابتسامة واسعة، فعاد خوب الخيول ينقر صدري، جلسنا بالقرب من الجميع لكنَّنا كثنا في بُعد آخر ونسينا كلُّ شيء حولنا، طلب ميًّا أن أروي له كل ما مررت به منذ لحظة تعليق بالصقر الأسود، بدأت أسرد له كل شيء. كان يُنصت لي بتركيز

---

(١) الخوب نوع من أنواع سير الفرس بحيث تمس أقدامها الأرض بشكل متتابع، مشي خبيباً.



شديد، بدا وكأنه يُحصي حروفي وكلماتي، أوقفني عدّة مرات ليسألني عن «خاندان» و«طيفور»، تغيرت تعابير وجهه فجأة، أخذ يسألني كيف تحصلت معهما وكيف كان اللقاء بهما وأين، ماذا فعل وأين نمت ومتى صحوت، وظل يستجوبني وكان حادًّا في كلماته، انتهى حوارنا بوجه متوجه لمحت فيه شبح غيره شديدة لا مبرر لها.

سألته باستنكار: «أتغار منهما؟!»

- من لا يغار؟ أي رجل مكاني سيُصيّبه الضيق مما يراه.

- ماذا ترى؟

- «خاندان» يُثني عليكِ المهدبة، ابنة الكرام و«طيفور» هذا الذي يُناديكِ بـ«آنسة فرح»

- ما العيب في ذلك؟

- من الـ«آنسة» هنا؟ أخبريني أنسىتكِ زوجي يا «فرح»؟!

- سليمان ما بك؟ كنت تعانقه قبل قليل ورحت به بشدة!

قال وهو يزم شفتيه: «كنت معهما طوال الوقت وأنا بعيد عنكِ».

أحزنني ما سمعته منه، انتزعت الكلمات من صدري انتزاعًا وأنا أقول: «خاندان» معه زوجته كما أنه رجل دين وخلوق، أما «طيفور» فقد كان شارداً طوال الوقت، إنه يُحبُّ أورماندا! ولتعلم أنَّ الجدة تمتنَّه زوجًا لحفيدتها، بل وأشعر أنَّ هناك حدثاً قد دار بينهما عن هذا الأمر بالفعل كما أنه كان يُعاملني بتهذيب شديد ولم تصدر منه إيماءة أو كلمة واحدة توحي بسوء نياته».

أطلق ضحكة قصيرة ساخرة وقال بمرارة: تُحسنين الظن بالجميع أنت لا تعرفين ما يدور برأوس الرجال يا «فرح»؟.

- لكنك واثق بأخلاقي، أليس كذلك؟



أخذ يهز رأسه بعصبية شديدة ويردد: «بلى بلى».

سألته وكان رأسي يكاد يشتعل من الغيظ: «ما بك يا «سليمان»؟».

- لا شيء.

- كنت عاقلاً....

بتر كلماتي وبدا وكأنه قدر يغلي بالدماء وهو يقول: «هل فقدت عقلي؟!».

- آسفة، لم أقصد يا حبيبي.

سكت هنيهة وأخذ يزفر بضيق، عاد الانقباض إلى صدري، نكأت كلماته جرجي وشعرت بالرثاء لحالي، عروس فسد حفل زفافها، وها هو لقائي بزوجي يتحول إلى جدال عقيم وغضب غير مبرر، جلسنا كحجرتين مصممتين سُكّب عليهما القار، لم يفتح أحدنا فمه نحو ربع ساعة، انطلق بعدها يتحدى بلا توقف، لم أقطّعه، فقد كان على حافة الانفجار، جلست أنصت لكلماته وأنا أحاروّل أن أخرجها من أذني الأخرى دون أن أقف على معانيها، بدأ يجادل بعناد ويلومني على ما لم أفعله! ويفيدو أنّ صمتي استفزه فبدأ صوته يعلو ولم أتحمل المزيد فأجهشت بالبكاء، كان جسدي يختلج

وصل صوت بكائي إلى أبي فاقترب مهولاً وسألني: «ما بك يا قرّة عين أبيك؟».

احتواني في حضنه فخبارات دموعي في كتفه، جلس بيننا كقنطرة نقلت روحينا حيث التقينا من جديد، أدرك دون أن نلفظ بكلمة واحدة ما وراء جدالنا، جذب «سليمان» وضمّمه هو الآخر إلى حضنه وببدأ يعتذر.

قال في انفعال: «أعلم أنكما ترزاكان تحت ضغوط كثيرة، فما حدث أفسد عليكم فرحة ليلة العمر، وكنتما في أوج فرحتكما ببعضكما، ليت بيدي ما أقدمه لكما، وددت لو أفديكما بعمري. سامحني يا «فرح»، وأنت يا «سليمان»».



- أبي! عن أيّ شيء تعتذر؟ هذا ليس ذنبك!

قال «سليمان» وقد انطفأت سورة غضبه: «آسف يا خالي، أحزنت «فرح» دون قصد، شعرت فقط بالغيرة».

ابتسم أبي ورنا إلى قائلًا: «الغيرة تعني أنَّ قلبه حيٌّ وعامر بحبِّكِ. إنْ مرَّ عليكِ يومٌ وزوجكِ لا يغار عليكِ فيه فاعلمي حينها أنَّ حبكما في خطر، الغيرة بها ر الحب إن لم تتخطَّ الحدود».

أراح هذا «سليمان»، حتَّى إنَّ قسمات وجهه ارتخت، ريتَ أبي على وجنتي وأخذ يمسح على رأسِي وظهرِي حتَّى هدا بُكائي منحني قبلة على جبيني كانت كالدواء، تركنا بعد أن لکز «سليمان» في كتفه فقطن لمراده، وعاد إلى «حمزة» وجلس بجواره وهو يتابعنا بنظراته الحانية من آنٍ إلى آخر، أخذ «سليمان» يعتذر ممِّي وحاول أن يضحكني لكن انقباضة صدرِي لم تزل، كان الحزن يُفتقَّ روحِي، فأنا لم أرتكب جُرمًا لأحاسب عليه، خطئي الوحيد هو أنَّني من عائلة كُتبَ عليها أن تكون من محاربي مملكة البلاغة، وكان لهذا توابع كثيرة. كنت مُتعبة من ثقل ما يُسبِّبه لي ميراث «طريحة» الذي ينخر روحِي كلما لامست كفِّي شخصًا آخر.

حاول «سليمان» أنْ يُغيِّر دفة الحديث فرفع عينيه تجاه السماء وقال:

«كُنْ كَيْفَ شِئْتُ فَمَا لِي مِنْ بَدَلٍ  
أَنْتَ الزُّلُلُ لِقَلْبِي وَهُوَ ظَمَانُ»

- أصبحت تنظم الأشعار!

- بيت من الشعر سمعته من «ياقوت الحموي». هذا من أشعار الغزل يا «فرح».

هل أكمل لكِ القصيدة؟

- قُلْ كلامًا سهلاً فالصُّداع ينخر رأسِي يُسبِّب البكاء.



ابتسم وردد أكثر الكلمات بلاغة في قاموسي عندما قال وقد تشابكت نظراتنا:  
«أحبابِي!»

كنت أشعر بمزاج مختلط من الحب والحزن والألم؛ جلست بجواره مُنكسرة، ودشت لو لديّ زرّ أطفئ به كل شيء حولي حتّى أسترد نفسي. بدأ الجميع يستعد للنوم، افترقنا وكأنّا متبعين، شعرت وكأنّي أخلع من قلبي سهماً غرّه للتو، تركته في الساحة وجررت قدمي نحو دار «أيسن» لنستعد للنوم، فوجدتُها تتحدث مع «أورماندا» وكانت «روكانا» هنالك لاحظن دموعه لكنّهن تركن الفضول وخفّفنَ عيّنَ وحسب، وهذا ما كنت أحتج إليه. عادا «أيسن» إلى حديثها مع الجميلة «أورماندا» فجذبت انتباхи بما تُناقشه، وأخرجني هذا من حالة الحزن التي كنت قد غرقت فيها.

\*\*\*

كانت «أورماندا» تسأل «أيسن» بفضول: «كيف تحوّلين الأشياء بعد صياغة التعاويذ؟».

تمعّنت في وجهها وقالت: «اتظّنين أنّنا نملك تغيير شيء بإرادتنا وحسب؟» حدقت أورماندا إلى وجهها ثمّ هزّت رأسها وقالت: «أعلم ما تقصّدينه يا خالة، لطالما ذكرتني جدّي بهذا». - ما الذي ذكرتِك به جدتك؟

وقفت أمامها وكأنّها تلميذة ستسرد إجابة سؤال لمعلمتها وقد حفظت بنودها بالترتيب وقالت: «إنّ كل شيء يجري على أياديها بأمر الله، والسحر الأبيض هبة ولو شاء الله لسلبها مِنّا في طرفة عين، ويجب أن نؤمن بهذا ونرددده في رؤوسنا قبل الإقبال على أي مهمة، وأنّنا ضعاف ولا نساوي شيئاً من دون توفيق الله، فنحن مجرّد أدلة لا أكثر».



أغمضت «أيسن» عينيها وابتسمت بدا على وجهها شوقها إلى جدة «أورماندا».

قالت بخفوت: «لا أدرى لماذا لم تأتِ جدتك لزيارتى ولو لمرة واحدة! أفتقدتها كثيراً».

- شغلت جدّي بتربيتنا.

رفعت العجوز «أيسن» عينيها تجاه أورماندا وأخذت تتأمل حُسنها ثمَّ قالت: «تحتاجين إلى العديد من الدروس أيتها الجميلة، اقتربى».

اقتربت منها أورماندا ووقفت قبالتها.

قالت «أيسن» وهي تضع يديها على كتفي «أورماندا»: «في الكثير من الأحيان يكون الأمر مجرد خدعة بصرية، تماماً كما يحدث عندما ترفعين قطعة زجاج صفراء وتنتظرين من خلالها إلى الأشجار. أخبريني، كيف سترينها؟».

- سأرى كل شيء باللون الأصفر.

- ماذا لو نظرتِ من خلال عدسة؟

- ستتغير أبعاد ما أراه، قد يكبر أو يصغر! أو يلتوي!

أشرق وجهها بابتسامة وهي تقول: «هكذا السحر، نحن نسر الأعين يا عزيزتي، نمنحها شيئاً يُشبه الزوج الملوّن والعدسات».

غضّنت أورماندا جبينها وقالت: «لكنّي أحياً أُشعّل النار في أغصان الأشجار، وأرفع الأحجار وأقلّبها في الهواء، وأحرك بعض الأشياء من أماكنها».

حركت «أيسن» يدها في الهواء قائلة: «تلك أمور بسيطة».

زادت نظرات «أورماندا» شغفاً وهي تسأّلها: «لكنّها ليست خدعاً بصرية فكيف تحدث؟».



- هُنالك نوع خاص من الجن يُساعدنا في أداء مهامنا.
- أجفلت «أورماندا» وسألتها: «هل سيؤذوني؟».
- ليسوا من هذا النوع، لن يؤذوكِ، بل سيساعدونك فقط.
- طالعتها أورماندا بارتياح وسألتها: هل سيلازموني طوال الوقت؟ وهل علىَّ أن أخاف؟.
- هَرَّت «أيسن» كتفيها وقالت لا تخافي أبداً، هم يحضرون وقت إلقاء التعاوين فقط، ما دمتِ تضمرين في نفسكِ الخير فأنتَ بخير، دعي الخوف لمن يحمل أحقاداً.
- شردت «أورماندا» قليلاً قبل أن تسأليها بفضول: «هل ترينهم؟».
- أشعر بهم، وقد أسمعهم.
- كيف هي أشكالهم؟
- ندفَّ من أطياف ملونة لعلكِ ترينها قريباً، يُشبهون أزهار الهندياء عندما تتطاير وريقاتها الرفيعة في أجواء الحقول عندما ننفح فيها.
- هدأت أورماندا قليلاً وعادت تسأل وقد تصاعدت وتيرة الفضول إلى أقصى حد: «كيف أستخرج قدراتي وأسيطر عليها؟ أخبرتني جدّي أنّي لم أتمكن من هذا حتّى الآن».
- أمسكت أيسن بكفيها وأجلستها على الأرض وجلست قبالتها، ثمَّ قبضت على كفّيها وأغمضت عينيها، شعرت «أورماندا» أنَّ الأرض تميد بها، دار رأسها بعنف، أخذت تطوح رقبتها يميناً ويساراً.
- قالت «أيسن»: «يداكِ باردتان كالجليد، خوفكِ المتكاثف يحجب كل شيء».
- ماذا سأفعل؟



اقربت «روكانا» التي كانت تتبع حديثهما في هدوء، وأمسكت بيدي اختها «أورماندا» واحتضنها بكفيها وأخذت تُدفنها، كانت تملك قلباً حنوناً وقد ازداد رحمة بعد أن أجبت ابنتها «مومو». جلسَتْ «فرح» تُراقبهما وهي تبسم، وكانت تتبع حديثهما في صمت.

لطالما تمنيت أن يكون لها شقيقة كبيرة تهتم لأمرها، أو حتى أصغر منها لتحنونه هي عليها وتنحها الحب، كانت تفتقد هذا الرباط الأنثوي، تفتقد همس الأخوات في غرفهن قبل النوم، الضحكات والقهقات والحكايا عندما يسهرن معًا، أسرارهن الخفية التي لا يعرفها أحد، أن تتبادل ثيابها مع شقيقة. وقد تتشاجران بسبب إحداهما استعارة ثوباً دون أن تُخبر الأخرى، أو أن تشகوا لها من رفيقتها فتعدها بأن تثار لها منها في اليوم التالي، أن تجد من يُمشط شعرها ببطف ليصنع لها جديلة، أو يمسح دمعتها ويغضب لغضبها وحسب، يُثير معها ويشاركها أحلامها وأمانيتها أن تجد من يُشبهها في ملامحها، أو روحها... كانت تفتقد هذا بشدة.

استيقظت «مومو» فأسرعت «فرح» وحملتها لكي تُكمل «روكانا» اهتمامها بأختها، تلفت «أيسن» وانتبهت لشيء ونشرت نظراتها في الغرفة بغموض ثم عادت واقتربت من الشقيقتين، قبضت على أيديهما معًا، فسرى تيار يُشبه سريان الكهرباء أطلق ذبذباتٍ بأجساد الثلاث.

قالت «أيسن» وهي ترنو إلى «روكانا»: «أنتِ مفتاح أختكِ».

- ماذا؟!

- «أورماندا» تحتاج إليك لكي تقف على قدميها، قلباكما متناغمان كتوءمين متماثلين، **رُبما أنتِ لستِ ساحرة، لكن أختكِ لن تكون ساحرة ناجحة من دون رعايتك لها!**

طلبت منها أن تصنعا معها حلقة ثلاثة، فمددن أذرعهن ووضع كل واحدة منهن يديها على كتفي الآخرين، فتشابكن بأذرعهن وهن جالسات على الأرض. أغمضت أيسن عينيها، وانبثق ضوء أبيض شاهق من الأرض نحوهن وكأنَّ ثلاثة ينظرن إلى مصباح عالق في الوسط، ظلتْ «فرح» تُراقبهن في دهشة، تدفق سرب من نُدف



ملوّنة تُشبه أوراق الهندباء وعلق في الهواء فوقهن، فعرفن ما قصصته أيسن بحديثها عن الجن، شهقت «أورماندا» بقوة، ثم اختفى الضوء بعد قليل ساحبًا معه النُّدف الهندبائي الملوّنة.

حينها سألتها «أيسن»: «هل شعرت بشيء؟».

قالت «أورماندا»: «نعم».

- صفي شعورك.

- كأنني فراشة توشك أن تُطلق جناحيها لتطير، لديّ شعور بأنّ هناك قوّة جامحة تختبئ خلف أضليع الآن، أشعر بالخففة والشفافية، والقوّة، واليقطة الشديدة، كل هذا في آنٍ واحد.

طالعتها «أيسن» بعينيها اللامعتين ومنحتها ابتسامة قبل أن تقول: «تلك بداية الطريق. أبشرني يا أورماندا يوماً ما ستخوضين معاركِ الكُبرى وحدكِ».

رفعت «أورماندا» يدها لعنقها وقالت: «وستظهر علامة على عنقي كما أخبرتني «فرح»، ترى لأي شيء ستكون؟»

ران عليهم صمتٌ خفييف، قالت «أيسن» وهي تدير عينيها بالغرفة حان وقت النوم. في تلك اللحظة.. كان هناك وشم على هيئة طائر «اللُّجَّ»<sup>(١)</sup> ينبض على عنق أيسن، وهي تتدثر بغطائها قبل أن تستسلم للنوم.

\*\*\*

---

(١) اللُّجَّ: طائر أسطوري هائل الحجم، قيل إنّه قادر على حمل وحيد القرن، وقد ورد ذكره في رحلات السندباد البحري في كتاب ألف ليلة وليلة. وقد ورد ذكره أيضًا في رحلة ابن بطوطة عند حديثه في رحلة خروجه من الصين إلى الهند.



سكن الجميع وقام أغليهم بعد أحاديث طويلة، فزع «أحمد بن موسى» للصلوة في آخر الليل، أراد أن ينفرد متأجلاً لله في خصوصية، توارى خلف الشجرة التي نقلتها «أيسن» بجذعها العريض إلى ساحة بيتها ووقف يُصلي في هدوء، كانت الصلاة له كالدماء التي تتدفق في عروقه، وكالهواء الذي يتسلل إلى رئتيه، لا يصبر على الحياة من دونها، في «بغداد» كان يفيق من تلقاء نفسه دون أن يواظبه أحد قبل أن ينشق ثوب الدجى عن نور الفجر الحاني، وكان يطلق لسانه بالدعاء حتى يؤذن للفجر. خلال عمله في بيت الحكمة كان يقطع أبحاثه وتجاربه لكي يُصلي، لم ينسها في كل أحواله، فهي باسم لجراح قلبه وترابق لروحه التي تموح بين جنبيه، قرّة عين هكذا كانت صلاته له.

وقف «صفوان» يُراقب «أحمد بن موسى» خلسة، طالت مراقبته له بفضول أنيس، اختلج قلبه فاقترب بخطوات وئيدة وكأنه يخشى أن يفسد عليه خلوته وانضم إليه، ثم انضم إليهما «أنس» الذي جاشت عواطفه عندما لاحظهما، كان الجميع نياً إلّا ثلاثة أيقظتهم أفتادتهم، جرّهم الحنين إلى الوقوف بين يدي مولاهם، لم يمنعهم البرد القارس، ولم يُحل الكرب بينهم وبين تلك النفحات التي لا تُعوض أطلت نجوم السماء من على وزنَت قبتها لتخشع معهم وتومن على الدعوات. أعادت الصلاة الاتزان إليهم، غادرت أرواحهم تلك المساحة الضيقة في صدورهم لتسبح في ملوكوت الله، ثم عادت مع التسلية الأخيرة لتسكن صدورهم في سلام، فهدأت أرواحهم المضطربة وانشرحت صدورهم التي كانت ضيقة وكأنها تصعد في السماء.

\*\*\*



## "الموجو"

كانت بعض طبقات البرج مُعتمة، ظلامً دامسً يطمرمس على الأجواء ليس هنالك فرصة ولو ضئيلة لتسرب بصيص من نور. دلف «عُمر» الطّابق قبل الأخير ليتحرّى عن كتاب «الحِيل» وما آل إليه، كان يخشى وصوله إلى المحرقة قبل أن يجمع «بني موسى بن شاكر» وقد أضبناه البحث عن أكبرهم «محمد» الذي لا أثر له، وحّتى مريايا «الكنادرة» لا تُظهر صورته. كان عليه إغراق جسده بالماء قبل دخول الطوابق الحارّة، فكان يلجاً إلى الأنهر القرية ويغطس فيها قبل الوثوب لطبقات البرج المُعتمة مباشرةً. ما عاد يرتجف من البرد، وما عاد يعبأ بالالم عظام جسده التي كان يشعر في البدايات وكأنّها تُنَشَّر بمناشير من جليد في فصل الشّتاء حيث كان ماء النهر بارداً زمّهراً، كان هدفه يضوي في رأسه ويحرّكه بلا هواة، فإنقاذه الكُتب نصب عينيه طوال الوقت. وقف قليلاً لتهدا نبضات قلبه وتبتاطأ أنفاسه ليبدأ السير وهو يلصق جسده بالجدار الساخن إثر نيران المحرقة التي تربض طويلاً تحت جمرها لتأرّف فجأة! وعندها تلتقم الكُتب.

لمعت عيناه وسط الظّلام الدّامس وكان يرى كل شيء بوضوح. اقترب من «الموجو» وهو يسيرون في تخبّط حيث يقودون بعضهم بعضاً ويسيرون في صفوف لأنّهم لا يرون في الظلام، ولا بد من بقائهم هنا لفترة قبل انعقاد المجلس لفرز الكُتب، كان بعضهم قد مات ولم يحتمل وبقيت الجثث تحت أرجلهم يدهسونها دون اكتراض، وغدت رائحة الدّم المتفسخ تملاً الجو برائحة الثنّانة، وكأنّهم يخوضون مرحلة من مراحل إظهارهم الولاء الشديد للديجور، يُطفئون أيّ ضوء أنار في عقولهم من علم قد انتفعوا به يوماً ما، حفنة من الجهلاء تعطلت عقولهم فتركوا عوالم مملكة البلاغة ليفعلوا هذا بأنفسهم! عجباً لهم!



كانوا يتعرّقون بشدة لقربهم من أوار نار المحرقة العظيمة، بدأ الأجواء تزداد حرارة وهو يقترب، رأى الرّماد كالعاده يُغطّي كل شيء. توّقف ليُنصلت لحواراتهم، كانت أصواتهم تُجلجل ولم يكن في حاجة إلى الاقتراب أكثر من ذلك. بدأ أسماء العلماء والكتّب تُسرد عليهم من قائمة طويلة، وكان أحد «الغضافر» من يقرؤها:

كتاب المناظر لـ «ابن الهيثم»

كتاب علل الأوضاع النجومية لـ «يعقوب بن إسحاق الكندي»

كتاب العمل بالأسطرباب المسطح لـ «محمد الفازاري».

كتاب العشر مقالات في العين لـ «حنين بن إسحاق».

وتولّت أسماء العلماء الذين ولدوا بالعراق، وعلماء آخرون لجؤوا إليها من بقاع الأرض المختلفة لينهلوا من علومها ويدرسوا ببيت الحكمة، كان يعلم أنّ المهام التي يقوم بها تحتاج إلى معرفة مسبقة لتسلاسل التاريخ، فهنا في مملكة البلاغة تختلط الأوراق، لهذا درس التّاريخ القديم في جامعة «بغداد» وتخصص في فلسفة الأديان والعقائد القديمة بعد حصوله على شهادة الماجستير من معهد التّاريخ العربي والتّراث العلمي للدراسات العليا هنّاك. يكاد يحفظ تاريخ العراق وأرض الرّافدين كله، فهنا كلّ طوّاف يُسند إليه كتاب يصف عالماً واحداً وعليه التعرّف عليه ثمّ استرداد كتابه قبل وصوله إلى المحرقة ورده إلىه لتظلّ الكتب حيّة، تتنفس وتعيش وتشعر بقارئها!

كان ينتظر خبراً عن مجلس «الموجو» حيث يُضاء المكان ليتمكنوا من القراءة ويُقرّروا أي الكتب سُتُّدَل، وأيها ستُعدم، وأيها سيُنسب إلى عالم آخر غير صاحب الكتاب، وكان هذا قبل إلقاء الكتب في نار المحرقة التي تكمّن وترتّب تحت جمارها أيامًا طوالًا قبل أن ترسل ألّهبتها وتعلو وتنثر رمادها معلنة بشراحتها وجوعها للمزيد من الكتب فيقبلون على رمي ما سرقوه من الكتب فيها، وانتظر طويلاً حتّى انتهوا من طقوسهم.

انصرف «الموجو»، برؤوس تتّأرجح بشعور طالت وشعّشت وتقذّرت وهم يلبسون



أسماً بالية، كانوا يجرون أغلالهم ويسحبون أقدامهم فوق الرماد الذي سالت عليه سوائلهم فتلطخوا وتحولوا إلى مسوخ يشمئز الآخرون من الاقتراب منهم، لماذا يفعل أحدهم هذا بنفسه؟ كان السؤال محيراً، فحرق الكتب هو ثمن حريتهم، وتحطم القيد والأغلال مرهون بالقضاء عليها، سر حياتهم المستقبلية في الرماد، فمنه ستنتهي لهم أجنحة ليرحلوا بها من هنا.

وكان في هذا الطابق مدرسة يظنون أنهم يلتحقون بها لنيل رتبة شرفية لا علاقة لها بالشرف! فقد تجاوزوا كل الحدود، يظنون أنهم هكذا سينالون حرية، هكذا سيطيرون ويحلقون كما يشاؤون دون قيد ودون أحكام ودون شرائع ودون حدود، الحرية المطلقة!

هكذا رأوها بنصف عين، بل هم في الحقيقة عميان عن الحق.

سينهال الرماد على رؤوسهم وينطفئ ببرطوبة جلودهم، حينها سيخلو البرج منهم ويفد آخرون ويسلكون الدرب نفسه بإرادتهم، يلقون بأنفسهم واحداً تلو الآخر إلى التهلكة.

أيها المسكين! لماذا تبذل من روحك لمن لا يستحق؟ تضحي وتُقيّد بأغلال ثقيلة باختيارك لتعيش في ظلام دامس! تُلغى عقلك لأنك تركت نفسك لآخر يتحكم بك وهو الضعيف مثلك!

تسلم غريباً عنك رأسك وأفكارك في خنوع! تصدق كل ما يأتيك منه دون نقاش، دون فهم دون منطق! تعجبك جرأته ويعجبك كفرانه بكل شيء إلا نفسه! تغرق في وحل ورماد وتستلذ بكونك مُستعبداً ومستهاناً من قبله! تقضي على نور العلم من أجل مجد «الديجور»!

أيها البائس، أنت لا ترکض نحو محمرة للكتب وحسب، بل محمرة لروحك، صحيح أن ما سيرفرف على جنبيك جناحين، لكنهما أسودان! ستخرج من تلك الأخداد كغرابٍ أعمى البصيرة لا يعرف للحق طريقاً، ستكون روحك غائبة لكن جسدك



حاضر بجمجمة خاوية من التفكير، بلا دين، بلا عقيدة، بلا مبادئ، ستنطفئ إلى الأبد، ستكون دمية من رماد.

انصرفوا هائمين وبقي كيدهم وزعيم «الغضافر» ليتناقشا.

قال كبير «الموجو»: «حمدت النّار توقفت عن التّهام الكُتب منذ ليالٍ عديدة».

نهره زعيم «الغضافر» وهو يقول: «لقد جمعنا لكم الكثير من الكُتب أسرعوا».

- ننتظر لعل النّار تتوهّج من جديد.

- لا تزال «عشتار» تعزّزها بترانيمها وطلasmها، وملوك «الديجور» يشحذونها من آنٍ إلى آخر ستزوركم الملكة قريباً، فالآن يشغلها أمر مهم، هل انتهيتم من مراجعة الكُتب؟

نكس كبير «الموجو» رأسه وقال: «نرحب في حرقها دون مراجعة كما نفعل في كل مرّة».

- الملكة «عشتار» أمرت بقراءة الكُتب وتغيير مضمونها لتُناسب خطّتها، فهي ترغب في محاربة العِلم القائم بعلم آخر يضرّه في مقتل».

- لماذا؟ سنمحو ما بالكتب ونرتاح.

انتقل زعيم الغضافر ليقف أمامه مباشرة وسألـه: «تقول «عشتار» إنَّ بـعث الشك في نفوس النّاس يُسـهل مهمـة السيطرة عليهمـ، فـهل تـرغـب في الانـضـمامـ فيـ إـلـىـ حـزـبـهاـ أمـ لـاـ؟ـ».

- أرحبـ بالـتأـكـيدـ،ـ فقطـ أـخـشـيـ....ـ

قاطـعـهـ قـائـلاـ:ـ «ـسـيـكـونـ لـنـاـ نـصـيبـ مـنـ مـلـكـ الـدـيجـورـ،ـ فـهيـ لـنـ تـسـتـطـعـ السـيـطـرـةـ عـلـيـهـ وـحـدـهـ لـاـ تـكـنـ غـيـرـ أـنـتـ وـرـهـطـكـ»ـ.



- هذا سيستغرق وقتاً، وبخاصة كتب العقائد والأديان، أمّا العلم فأمره سهل.
- يكفي أن تُرسلوا جملة بين السطور لتنشر فكرة ما، لن يقرأ العامة الأصول ولن يبحثوا عنها إن لم يتمكّن من جمع كل النسخ، سيكون الكتاب الذي ستنشره بعد تعديله سبباً في استدراجهم إلى الفحّ، وهذا ما نرجوه ونطلبه.
- امنحي وقتاً فالجميع هنا مُتعبوّن، وبقيت أيام قبل أن نخرج من العتمة لنسعدّ للمراجعة. بالمناسبة، هل أنهيتم أمر الوراقين؟
- لا الملكة عشتار أبقتهم على قيد الحياة لاستخراج ما برأسمهم من علم وكتب للهدف نفسه.
- ونحن سنراجع ونُعَدّل ما يُدوّن أيضًا؟
- ومن غيركم؟
- هذا سيستهلك أرواحنا!
- أنسىت أنكم ستثالون ما ترجونه بعد حرق الكتب؟
- لم أنسّ، لطالما تمنيت أن أكون مثل «غُدافان» وأتباعه، أشعر أنّ جناحي سيرزان من فرط يقيني أنّ حلمي سيتحقق!
- عندما أدرك «عمر» أنّ التّار لا تزال كامنة وثبت خارجاً من تلك العتمة، وقفز مَرَّة أخرى في النهر ليغسل الأدران عن جسده ونفسه، خرج من النهر وجسده يقطر ماء ودهس العشب بقدميه المُتعبيتين، سقط من شدّة الإعياء وغرق في نوم عميق.

\*\*\*

«أنس»

استيقظت مُبكّرًا، كانوا جمِيعاً نائمين وكان بالبيت غرفتان فقسمنا أنفسنا عليهما، غرفة للرّجال، والأخرى للنساء. جلست أراقب الشباب وهم نائمون، تسألت في



نفسي أين «عُمر» الآن وكيف يقضي ليلته، وهل عثر على «محمد بن موسى» أم لا، وهل يستطيع اقتحام معبد «إيساكيلا» أم لن يستطيع كما هو حال القصر؟ كنت غارقاً في أفكاري حتى نادتني السيدة «أيسن» فأجللت، فقد تردد صوتها بجوار أذني تماماً حتى شعرت بأنفاس دافئة تلمس أذني! طلبت متي الخروج فخرجت من غرفتي ففتحت باب البيت وحده وخرجت لأجدتها تقف هناك والضباب يحيط بها وبالخبول القريبة، وأشارت إلى لأقترب ورفعت يدها فغلق باب البيت.

قالت بصوت يشوبه القلق: «عُدفان» علم بوصول «رواء» إلى القصر، وهو هنا ويطلب من «عشтар» تسليمه «رواء» وما زالت ترفض، ويدور بينهما جدال طويل، فهي ترغب في القبض عليكم جميعاً لساومه هو و«الزاجل الأزرق» أيضاً على ملك مملكة البلاغة بأسرها».

- وهل هي تعلم بوجودنا هنا؟

- «عشтар» تعلم بوجودكم في «بابل»، أمّا «عُدفان» فلا يعلم إلا بأمر «رواء» فقط.

- هل هي تعرف عن طريق «الغضافر»؟

- لا، ليس عن طريقهم فهم لا يستطيعون رؤية بيتي ولا التلصص على هذا الجزء من المدينة

- كيف إِذَا؟

- للأسف كشف أمر «ميسون»، فقد لفت أمر تعلقها بـ«رواء» النّظر إليها، وهي من أخبرتها أنّكم هنا.

- سأذهب إلى القصر الآن من أجل «رواء» والمسكينة «ميسون».

- وحدك؟

- نعم، لك أساومها، ولتحجزني «عُدفان» بدلاً من «رواء»، أليس الهدف الانتقام؟



- ولو قتلك؟ كيف سيكون الحال هنا؟
- ليقتلني إن أراد، ولتنجح «رواء».
- على رسلك، فالامر يحتاج إلى خطّة محكمة وتعاون بيننا جميعاً.
- انتظار عثور «عمر» على «محمد بن موسى» ليُعيد إلى «بني موسى بن شاكر» كتابهم لترفع التعويذة سيسفرق وقتاً طويلاً، و«محمد بن موسى» لا يظهر في المرايا، وأخشى أن يكون قد مات.
- حاولت تتبعه قدر استطاعتي ولم أجده له أثراً!
- ران علينا صمت ثقيل، تركتني «أيسن» لتصنع شرابة ساخناً وطفقت تُشعّل النار، كنت حائراً هل أذهب أم لا، حاولت أن أخاطب «أبادول» مرة أخرى بعد أن فشلت في العديد من المحاولات، وظننت أمر التخاطر لن يتكرر حتى سمعت صوته يتلجلج في رأسي بعد أن سألته: «ماذا أفعل يا جدي؟».
- لا تسلّم نفسك لعدوك طواعية.
- «رواء» في خطر!
- اجتهد وحاول بطريقة أخرى، تعاونوا وضعوا خطّة محكمة، لكن لا تذهب وحدك.
- وماذا لو كان «محمد بن موسى» ميتاً بالفعل؟ لا قيمة حينها لرذ الكتاب لأخوه! لهذا عليّ أن أذهب الآن.
- شقّ صوته الرّحيم أعمق رأسي وهو يقول غاضباً: «لا تذه». .
- لن أسامح نفسي لو أصاب «رواء» سوء، ولن أجده عوناً من «المغايير» أو «المجاهم»، حتى أنت بعيد عنّي، ظننتك ستحدثني طوال الوقت، لكنك نادراً ما تفعل وكلامك مقتضب يا جدي».



- لا دوام لأحد يا بني، حَتَّى أنا سأزول والدُنْيَا كلها زائلة.
- كيف أخلص «رواء» من هذا الكرب؟
- الإجابة السريعة التي ترضيك غير موجودة يا «أنس»! لكن بأي حال لست راضياً عن ذهابك وحذك طوعية إلى «عشتار»! أتلقي بنفسك إلى التهلكة؟
- أنا فداء لـ«رواء».

- كلنا فداء لها يا «أنس».
- الأمر بالفعل يتطلب الكثير من الشجاعة والحكمة يا جدي، وزِيَّماً أملك بعض الشجاعة، فادع لي أن يرزقني الله الحكمة.
- إذن لن تُنْصِتْ لـ«نصحي»؟
- سأذهب الآن، لا بد أن أخلص «رواء» منهم.
- أيُّها العنيد!

شعرتُ بغضب جَدِّي من خلال نبرة صوته، شرع في إقناعي بالعدول عن الذهاب، ولِمَّا يئس مِنْي همس أخِيرًا بصوت واهن بأني ورثت عنه عناده! قُلتُ للأخفف عنه: «مكانة «رواء» في قلبي، بقدر مكانتي في قلبك يا جدي، حال قلبي كحال قلبك الآن!».

صمت «أبادول» هُنْيَّة وعاد بصوت يرتجف وهو يقول: «استعن بالله وخذ قرارك ولا تلتفت».

ثمَّ همس قبل انصرافه بصوته الحاني: «لا تنسِ العصا».

اقتربت السيدة أيسن وهي تحمل قدحين بهما حليب ساخن على الرَّغم من ضعف



بنيتها ونحوها وتلك التجاعيد التي ترسم تفاصيل حياتها على خارطة وجهها كانت قوية الروح.

خرج صوتي مرتفعاً رغمَّا عُيِّ وأنا أقول: «سأذهب إلى القصر».

رفعت حاجبيها المقوسين وقالت: «دعنا نوقف البقية، على الأقل تُخبر ابنك وتوصيه».

- لقد خاض «حمزة» الكثير من الخطوب ولم أكن معه، صار مُستكشفاً ورحل إلى عوالم أجهلها لستُ قلقاً عليه، سيتوالِ الأمور بشكل جيد، ولعليُّ أستطيع تأخير «عشتار» عن اتخاذ أي قرارات قد تضرُّ «رواء».

- حسناً، اركب جوادي هذا.

- الهرزيل؟

مرَّ بوجهها شبح ابتسامة ساخرة وهي تقول: «أما زلت تراه هزيلاً؟»

التفتُّ نحو جوادها الهرزيل فرأيته وقد تغيَّر حاله إلى جواد قويٍّ شديد البياض، سرتُّ نحوه وأخذتُ أتحسس جلدَه، نظرت إلى عينيه الرائقتين فرأيت وكأنَّ صورة للسماء حُبست بمقليته وحفنة من النجوم تلمع فيها.

قالت «أيسن» وهي تقترب: «لن تتمكن «عشتار» من إلقاء التعاوين عليك لأنك محارب، لكنَّ جنودها قد يؤذونك، سأمنحك حجاباً فلن يروك وأنت تمُّ، ولكنه حجاب وقِيٌّ، عندما يزول استخدم عصا جدك».

شدَّدتُ من قبضتي على عصاي وسألتها: «ماذا تعرفين عن العصا؟».

- لا شيء، لكنني أشعر بقوَّاهَا، زَبَما تفعل بها الكثير.

ثمَّ اقتربت وهي تمد يدها قائلة: «أتسمح لي؟».



مدت العصا نحوها وفور أن قبضت عليها أو مضت عيناها ووقفت هنيهة وكان صاعقة أصابتها، كان الضوء يتخلل جسدها، حتى شعيرات رأسها البيضاء كانت تُضيء.

تركّتها ثمَّ قالت بعد هنيهة وقد تسارعت أنفاسها: «انتبه لها جيداً».

- هل علمت بسرّها؟

- أنت السر! تلك العصا كالسيف تستمدُّ قوَّتها من فارسها، اضرب بها واحذر أن تفقد إيمانك بالله ثمَّ بنفسك.

أخرجت من جيبيها حفنة من تُراب لامع، بسطت كفها ونفخت فيها فارتَّفت ذَرَّات التراب إلى أعلى ثمَّ انهالت فوق رأسي وغمرتني. امتطيت الجواد بعد أن نثرت السيدة أيسن عليه الغبار هو الآخر. وانطلق يركض بي بسرعة شديدة، وخرجنا من النطاق المحيط لبيت أيسن وطاف الجواد بي طرقات «بابل»، كانت عصاي على ظهري كما اعتدتُ وكنت أدسها في قميصي من الخلف، بدأتُ أشعر بحرارتها على جلدي! وكان قلبي يختلج في صدري، وصلنا إلى الجسر المؤدي إلى القصر، بدت الأجواء مهيبة وساكنة! انطلق الجواد يقطع الجسر وصوت قدح حوافره عليه يُصدر دويًّا مهيبًا، وكان الـ «سيروش» يقفون على جانبي القصر وكأنَّهم لا يرونني! سحبت عصاي وأنا أترَّبص لهم فلم يتحرك أحد منهم قيد أنملة، تركوني أمْرٌ ولم يمنعني أحد، هدأ الجواد من سرعته، واقتربنا ببطء من البوابة، ترجلت عنه عندما توقَّف وفور أن لامست قدمي الأرض اختفى الجواد!

ضررت الأرض بعصاي من فرط انفعالي فهَبَّت رياح باردة وسريعاً ما فُتح باب القصر وحده فدللتُ وسرتُ وكأنَّ قدميَّ تعرفان الطَّريق! وجدت «عشтар» متربعة على عرشها تُحدِّق تجاهي.

قالت عندما رأته أقف بين يديها: «مرحباً بالمحارب».

لم أجدها، وددت لو اقتلعتُ قلبها من بين أضلعيها.



قالت بخجلاء: «ينبغي لك الركوع هنا». .

- لا أركع إلا لخالي.

صرّت على أسنانها وقالت بمرارة: «كان «غُدفان» هنا منذ لحظات، لو رأك لالتهmek». .

- هيئات!

- أراد حفيدتك، يُريد قتلها ليقتضي من ابنك. يقول إنّه غرز خنجره في «القلقديس» و«القلقطار».

ثمَّ أضافت وهي تبسم بخبث: «يا لقساوته!».

- أتيتك لتحتجزني بدلاً منها، ولتسلّماني لـ «غُدفان».

- والمُقابل؟

ران علينا صمت مطبق، اعتدلت في جلستها قبل أن تقوم وتسير تجاهي ثمَّ بدأت تدور حولي، كانت تعلم أنّها لن تستطيع تطويبي كما فعلت مع كبار حُكّام «بابل»، ولن تتمكن من مسخي إلى وحش يلهث تحت قدميها كما فعلت بالجنود، وليس لديها المقدرة على سلبي أي ميزة من ميزات المُحاربين، لكنّها تستطيع إذلالي بـ «رواء».

شعرت بالضيق من قربها فسألتها: «ماذا تريدين مقابل إطلاق سراح «رواء»؟».

- كن عوناً لي لأعتلي عرش مملكة البلاغة.

- مستحيل

- لماذا؟



- مملكة البلاغة يحكمها «الرَّاجل الأَزْرَق»، فارس يستحق هذا المنصب، وهو ابن الملكة الحوراء المبجلة.

- دعك من هذا الهراء، ما الحوراء، إلَّا مسخ من الحورائيات، وأسعدها الحظ لا أكثر.

- لم تمسخ «الحوراء» عقول النَّاس لتجبرهم على الولاء لها، هم يحبُّونها من سوideas قلوبهم، ويكتفي أَنَّ ابنها كسر أنف «غُدفان» وأذله وهزم جيشه.

غضبت «عِشتار» وهدرت وهي تضرب الأرض بصولجانها: «أَيُّهَا الأَحْمَق!».

دلَّف جنودها من الـ«سيروش» الجناح في الحال ووقفوا أمام العرش في صف واحدٍ، وأشارت لهم ليقبضوا علىَّ فلم يرونِّي، تلَّفت في حيرة وأخذت تصيب بهم في جنون.

أدركت حينها ما قالته «أيسن» فقلت لها وأنا أتربيص لهم: «لن يرونِّي».

- كيف هذا؟!

- ليس هذا المهم الآن نحن نناقش مصالحتنا المشتركة.

أقبلت وقبضت على ذراعي، أرادت أن تتأكد أَنَّ جسدي هناك، نفضت يدها وسرت مُبتعداً فقد لاحظتُ اقتراب الـ«سيروش» من موضعِي الذي رأوها تُحرِّك يديها فيه، وقفوا مُتعجِّبين وأخذوا يتبعون نظراتها، بدؤا لي ككلاب الحراسة المدرية، نظراتهم كنظارات وحوش ضارية وقد غاب عن لسانهم البيان، وإنما فقط يُنفِّذون الأمر في خضوع وبلا تفكير، صرفتهم «عِشتار» وعادت تتحدث إلىَّ.

قالت حانقة: «أَظْهِر ولاءك وكن عوناً لي، ولك ما تطلبه».

- لا حاجة إلىَّ بهذا.

- سأجعلك رسولي إلى الرَّاجل الأَزْرَق وتفاوض أنت معه.

- ألم تعقدِي صفة مع «غُدفان» ليُسلِّمك ملك «الديجور»؟



- رفض هذا الغراب الحانق ما عرضته عليه، وانصرف وهو يتوعّدني بالانتقام.

- ما حاجتك إذن إلى احتجاز «رواء»؟

رفعت حاجبيها وقالت بصوت يُشبه الفحيح: «لو خرجت «رواء» من تحت يديّ سيقتلها..».

أجفلت عندما قالت هذا.

أردفت قائلة: «لن يمسها «غدفان» بسوء ما دامت في حمايتي، سأحافظ على حياتها شرط أن تُساعدني..».

- ستأمررين جندك بقتل «غدفان».

- سأفعل.

- وسيعود أبنائي إلى الديار سالمين.

- بالتأكيد.

- ستظل المكتبة العُظمى قائمة ولن تُحرق الكتب.

صمتت طويلاً وكانت تثقيني بنظراتها، وأخيراً قالت: لا تُملِّ على شروطك، أنت الطَّرف الأضعف هنا..».

شعرت بحرارة تجتاح جسدي من فرط الانفعال والغضب.

تردد صوت «أبادول» في رأسي وهو يقول: «لا تنسَ أنَّ «رواء» تحت ضرسها!».

أصابني الارتباك، فـ«رواء» بالفعل في قيضتها و تستطيع قتلها في أي لحظة.

قلت على مضض ودمائني تغلي في عروقي: «حسناً، سأفكّر في الأمر، ولكن لدى طلباً ضروريّاً».



- احتجزيني مع «رواء» بالمكان نفسه، وسأسير طوغاً إلى مكانها معكم وإن لم يرني جنودك.

ضحكت بغرور وقالت ساخرة: «أمجون أنت؟».

تجاهلت كلماتها وأردفت في الحال: «لدي طلب آخر».

- أنت طماع يا «أنس»!

- «ميsonian».

انتفضت قائلة: «تلك القزمة الخائنة الحقيرة».

- ستصبني «ميsonian» إلى مكان حفيدي وستظل معنا.

وافقت وهي ساخطة، كان مفعول الغبار الذي نثرته «أنس» على رأسي قد زال لم أنتبه لهذا إلا بعد أن استدعت «عشتار» جتوتها ليحضرها «ميsonian» فدلل اثنان منهم لكتهما فور دخولهما انقضى على وقبضا على ذراعي فسقطت عصاي على الأرض، وقفـت «عشتار» وأخذـت تضـحك بهـستيرـية، كانت سـعيدـة لأنـهما تمـكـنا أـخـيراً عن رـؤـيـي، صـارـعـهـما وخلـصـت نـفـسي بـصـعـوبـة عـنـدـمـا بدـأـت أـركـلـهـمـ في سـيـقـانـهـمـ فقد رـأـيـتـها نـقـطـة ضـعـفـهـمـ لـنـحـافـتها، وـوـجـدـتـ عـصـايـ تـحـرـكـ نـحـوي فالـتـقطـتها وـوـبـتـ لأـضـرـيـهـمـ بـهـا، وـجـدـتـني كـلـما ضـرـيـتـ أحـدـهـمـ يـُـصـعـقـ وـيـسـقـطـ أـرـضاـ، تـرـاجـعاـ إـلـىـ الـخـلـفـ وكانت «عشتار» قد توـقـفتـ عنـ الضـحـكـ وـصـارـتـ تـطـالـعـيـ بـوجـومـ وـحـذـرـ.

قلـتـ لـهـاـ وـأـنـاـ أـلـوـحـ بـعـصـايـ: «لاـ تـظـيـيـ أـنـ لـكـ الـغـلـبةـ هـنـاـ».

بدا عليها التـّـوـثـرـ، صـمـتـ قـلـيلـاـ وـقـالـتـ بـصـوتـ غـاضـبـ أـجـشـ: «اـخـرـ من قـصـريـ الـآنـ».

- قـلـتـ لـكـ خـذـيـ حـيـثـ حـفـيدـيـ.

- سـتـدـخـلـ السـجـنـ بـقـدـمـيـكـ!



- أعرف.

وسيأتي أولادك للبحث عنك.

- هذا أكيد.

أدركت «عشتار» أتني رغم بأسى الذي أظهره أمامها لدى نقطة ضعف وهي سالمة حفيدي، بدأت عينها تتدبران في قلق، كانت تنتظر متي غدرة أو خدعة غامضة من اللاعب المُحاربين التي لا تعرف دهاليزها، لم تكن في حاجة إلى الجدال، فهي بالفعل الطرف الأقوى الآن، وتسليمي لنفسي سيقوّي خربتها في جولتها مع «غُدفان».

كررت طلبي لحضور المسكونية «ميسون»، فأنهت الموقف الذي علقنا فيه بأمر مباشر لجنودها عندما قالت بترق: «أحضروا «ميسون»».

أحضروها وهم يجرّونها وقدمها تحتَّان بالأرض، كان هناك جرح برأسها، ووجهها متورّم وقد حوقت عينها اليسرى بلطخة سوداء، وكانت تبكي، فقد أوسعوها ضريًا.

قالت «عشتار» بعد أن بصقت عليها: «أيتها الخائنة، وددت لو ذبحتك لكثني استبقيتِ فقط لاستدرجهم،وها هي خطقي قد نجحت».

التفتت «عشتار» نحوي قائلة: «تعذيب «ميسون» جرك إلى هنا، فما بالك لو أوسعناك ضريًا؟ أظننا سنسدرج حُرّاس المكتبة وحكام مملكة البلاغة إلى هنا؟».

ابتعدت خطوطين وقالت وهي تشيح بنظرها عن وجهي: «رأسك غالٍ يا «أنس» فأنت المفضل عند الجميع. لن تحمل «الحوراء» موتك!».

لم أجبها، وكان عقلي قد توقف عن التفكير، كنت أنتظر رؤية «رواء» وحسب، لا أرغب في أي جدال الآن، وقفْت ثابتاً ورجوت الله أن ينجينا كما أنجانا من قبل، كانت روحي تبتهل خلف أصلعي، وقلبي يبكي بحرقة، وكل ذرة في كياني تنادي الله وتتوب



إليه من كل ذنب قد يكون سبباً فيما حدث. استمرت «عشتار» في الحديث لكتئي صرت أصم، ودوى صغير متواصل في أذني.

سمعتها أخيراً وهي تقول مُشيرة إلى «ميسون»: «سيأتي من يصحبك إلى حفيدتك مع هذه الخرقاء».

تركتنا «عشتار» بديوانها وغلقوا أبوابه علينا، فانهارت «ميسون» باكية فأشفقت عليها، أرادت أن تتحدى وتروي لي كيف استجوبوها فأخذت أهون عليها، تركتها تبكي بدموعها، وكان رأسها مشغولاً بأمر البقية في بيت العجوز أيسن بدأت أمسح عن جرح وجه «ميسون» الدّماء، ومزقت طرف قميصي لأضمد جراحها الأخرى، فقد كانت بداها مجروحتين من السلاسل التي علقوها فيها، لكنها تركتني فجأة وتوجهت نحو الأوابي الفخارية المجنونة المرصوصة على مائدة «عشتار» وبدأت تضعها على أذنها وتُنصلت وحدقتها مفتوحة على وسعبهما، تركتها تفعل هذا وأنا أراقب الباب، وعندما سمعت خطوات تقترب أشرت لها فاقتربت متنبي، دلفت «عشتار» ومعها فتاة تُدعى «لارسا» سرنا معها تجاه المعبد الذي ياحتجزون فيه «رواء» مع «الوارقين» وعندما دلفناه لم تتمكنن «رواء» من الركض نحوه، فقد قيدوا قدميها الرقيقتين فهرولت نحوها فدَسَت رأسها في حضني، وأخيراً انطفأت جذوة فؤادي المشتعل، جرت دموي وأنا أتشممها، وقررت حينها أن أفيدها بروحه.

\*\*\*

استيقظ كل من بالبيت كانت «أيسن» تنتظر استيقاظهم لتخبرهم برحيل «أنس». أصحابهم الفزع وأخذوا يتخبطون في حيرة، لم تخبرهم أن «ميسون» باحت بسرهم بعد التعذيب، لكن «برهوم» أتاهم ودموعه تسيل فقد رآها تُدب في المرأة خطفت «فرح» المرأة لترى وجه أبيها فرأته جالساً بجوار «ميسون»، فأخبرت «برهوم» في الحال.

قضوا وقتاً وهم مُنشغلون بالمرأة، قامت «أيسن» لتعده لهم الطعام وتبعتها «أورماندا».



سألتها في فضول: «لماذا لم تتزوجي مثل جدّتي يا خالة؟ لماذا تعيشين وحيدة؟».

ارتبتكت «أيسن»، لم ترغب في الحديث عن هذا الأمر، لكنّها أجبتها في النهاية وهي تُحاول رسم ابتسامة على شفتيها الرقيقتين: «تزوجت شابًا رائعاً، لكنّه قُتل فانطفأ قلبي، ما عاد ينبع لأحد بعده».

- لماذا لم تتزوجي بعده وإن لم تقع في الحب؟ لتنجي بناً يؤنسنك!

لم تُعجبها العجوز فأضافت سؤالاً آخر ليثقل السؤال السابق ويزيده إيلاماً عندما قالت: «هل تشعرين بالملل والضجر هنا؟»

- لا أرغب في الحديث عن هذا الآن يا بنتي.

وقفت «أورماندا» شاردة وقالت لها: «لماذا ساحرات أرضنا لا ينجبن غير البنات؟ أليس هذا غريباً؟ فساحرات «أوبالس» قد أنجبن الذكور».

ظلّت العجوز «أيسن» على صمتها ولم تتوقف «أورماندا»، بل أضافت: «وeddت لو رأيت أم «طيفور» وجدته، هل تعرفيتها؟».

- دعك من هذا واسمعيني جيداً.

وقفت «أورماندا» تُراقب عينيها وهي تقول: «الأمر جد خطير، ولا بد أن نقوم بدورنا، فنحن نعكس الجانب الأبيض من سحر مملكة البلاغة».

- أعرف.

- هناك عجائب ليس لنا يد فيها ومهما تعلقت قدراتك لا تظلي أنتِ شيء، أنتِ لا شيء يا فتاتي، وما يقع على يديك لا يكون إلا بأمر الله.

- هكذا علمتني جدّتي.

- هل أخبرتك بالسر؟



- أَنَّي «حائلة تعاوِيذ»؟ لقد أخْبَرْتني «فُرْح».
- نعم، وتسْتَطِعُين صياغة تعويذة جديدة على أرض «بابل».
- لا أدرِي كيف أفعُلها!
- إِرْث جدتك في رأسك هُنَا.
- لم أَتَمَكَّنْ من اجتِرار أي شيء.
- سَتَتَمَكِّنُين في اللحظة المناسبة، المهم أن تُسْخِري مواهِبِك للمُسَاهمة في إنقاذ «بابل»، وتدَّعُّرِي أَنْكَ لَنْ تَتَمَكَّنِي من فعل هذا وحْدَكَ!
- هل سَتُسَاعِدِينِي؟
- كلنا سنعمل معًا، المُحَارِّيون، والطَّوَافُون، والكتَادِرَة، والوَرَاقُون، وأهْل «بابل».
- أنا خائفة.
- الخوف ظلمة ففرَّي منه إلى النُّور، وإذا هزمتِك بشرىتك استنجدي بالله واسأليه الغوث.

صاحت «فُرْح» ونادتهم فأقبلوا، كانت ترى «أنس» وهو يسير مع «ميسون» وفتاة أخرى تقدمهما، وسرِيعًا ما اختفت الصُّورَة، فقد كانت تستمِرُ للحظات فقط وتتلاشى وتتبَّخُر. سحب «حمزة» منها المرأة وجلس على الأرض وسرِيعًا ما ظهرت صورة «أنس» وهو يحتضن «رواء»، فبكى بحرقة وردد وهو يُحرِّك رأسه كالمجنون: «الحمد لله، الحمد لله».

كان يعلم أنَّ الخطَر لا يزال قائِمًا، لكنَّ ابنته الآن في حضن أبيه، وتلك أَمْن بقعة لها على أرض مملكة البلاغة. اطمأنُوا جميعًا وقرَّ الرِّجال الخروج إلى السُّوق للقاء التاجر، والذهاب للقاء الـ«سيُرُوش» الشرفاء، ولعل «عُمر». يعود من طوافه بأخبار جديدة، أمَّا القزمان ففضلاً البقاء بساحة دار «أيسن»، وأخبراهَا أَنَّهُما يرغبان في



صناعة شيء خاص؛ فأقبلت تُساعدهما بما لديها. فقد أرادا صناعة بعض المطارق وتدريب الآخرين على الضرب بها لتكون سلاحاً لهم.

أمّا «فرح» و«أورماندا» و«روكانا» فكن داخل بيت أيسن ينتظرنها داخل الدار.

\*\*\*

### «عمر»

كنت أشعر أنّي كفتيل مصباح في نزعه الأخير يكاد ينطفئ لكنه يُعاشر فالانتقال من بقعة إلى أخرى بأرض الرّافدين يستهلك طاقتني النفسية، لم أتعثر على أثري لـ«محمد بن موسى» وصرت مرهقاً للغاية، ففي كل مرّة أثبت فيها وثبة من تلك الوثبات ينتابني ألم شديد يعتصر أضليع، أحياناً كنت أصل إلى أماكن لا ينبغي لي أن أكون فيها، فكنت أضطرر إلى الرحيل في الحال، وهذا جهد مضاعف وألم مضاعف، عوالم مختلفة لكل منها طبيعة المختلفة، فأرض الرّافدين عاشت ألواناً شتى من الحضارات وتبدلت عليها أزمنة مختلفة، وأجواء مختلفة، وأناس مختلفون، وفي مملكة البلاغة تتجاور تلك الأجواء بشكل غريب يقف العقل أمامه مذهولاً.

في كتب التاريخ نقرؤها متتالية أممٌ تفنى وأخرى تحل مكانها، أمّا هنا فكلها قائمة في الوقت ذاته، أحياناً يُرْهق هذا عقلي لكنني أقاوم، فهذا واقعي الذي أعيشه وأمسه أن تلتقي بعلماء وتعيش معهم لحظات حياتهم بتفاصيلها الدقيقة نفسها لكنهم ليسوا هم أنفسهم هنا، أن تزور مدنًا هدمت وزالت من عالمنك لكنها قائمة هنا بشكل آخر وفي بُعد آخر، أن ترى هنا على أرض مملكة البلاغة ما قيل عنه في عالمنك إنّه مجرد أسطورة، أن يواجهك السّحرة وتعاني أثر أسحارهم على الناس وقد تؤذى؛ أن تقف قبالة نفر من الجن وتقاتلهم بأسلحة عجيبة، أن تطوف بجنوب بُرج «بابل» الذي زال هناك ولم يبق منه إلّا بقايا أحجار مهدمّة وما هو قائم بطبقاته هنا، وأن يكون كُلُّ طابق منهم باباً لدرّب من دروب المجهول تقتصر عليه، أن تلمع عيناك كعيّي



قط وترى في الظلام! أليس هذا ممحظًا للمنطق وممزلاً للعقل؟ إنها مملكة البلاغة التي لا يصمد أمامها إلا عقل محارب!

عندما لم أجد أثراً لـ«محمد بن موسى» قررت أن أتوغل في أكثر الأماكن خطورة على العقل، «حدائق بابل المعلقة» و كنت أخشى أن أدخل نطاقها فلا أخرج منها مرة أخرى بعد معاناتي المزّارات السابقة في الخروج منها بسبب ملك عشيرة الجن الساكنة هنّاك.

وقفت أمام الضباب وقلبي يخفق بشدة، كدت أتراجع لكنّي وبعد اختفاء صورة «محمد» من المرايا أدركت أنه هنا، حيث لا يعلم أحد بوجوده!

اقتحمت الضباب واقتربت من القصر، صعدت في الحال إلى شرفات أول طوابقه، سمعت سعالاً فهرولت نحوه، رأيت رجلًا يسير ويتحمّط وهو في حالة مزريّة، ويطوف بين الحدائق وهو مشدوه، وعلى وجهه علامات التيه وقد تغيرت ثيابه وكأنّه خرج من عاصفة ترابية للتو، وقع في نفسي أنه «محمد» لكنّي خشيت ألا يكون هو، إلا أنّي قررت إنقاذه على أيّ حال وإخراجه من هنا، فتوجهت نحوه ببطء. كانت عيناه شاردتين وهو يتحسّس أرضية الحدائق ويحذّث نفسه.

اقتربت منه ووضعت يدي على كتفه فأجفل، ألقيت السلام فرده ثم سألي: «أرأيت؟».

- ماذا؟

- التّربة مغطاة بطبقات من القصب، ثمّ من الطوب، ثمّ من الرصاص لمنع تسلل الرطوبة، فوقها طبقة سميكة من التربة الغنية لتغرس فيها الأشجار.

- هذا رائع حقاً، أنا «عمر»، ما اسمك يا سيدي؟

لم يُجبني وكأنّه لم يسمعني، ثمّ قال وهو يحرّك سبابته في الهواء: «هذه التربة عميقّة لتتسع لجذور أكبر الأشجار، لقد وجدت أنواعاً عديدة وبكثافة».



رفع رأسه إلى أعلى وأشار قائلاً: «انظر إلى تدرج الشرفات، أليس هذا بدليعاً؟».

كنت أعلم أنه وقع تحت تأثير أجواء حدائق «بابل» العجيبة حيث الدخول هنا يُصيب العقل بالتشویش. سرت خلفه وهو يهروء من شجرة إلى أخرى و كنت أنتظر ظهور «الجلahم»<sup>(١)</sup> في أي لحظة.

وقف فجأة وقال وهو يهز رأسه في إعجاب: «لقد صُممـت هذه الحدائق بطريقة تسمح للضوء بالوصول إلى كل المصاطب».

دلـف داخل القصر فتبعته وهو يقول: «هـنا مساكن ملكـية، والمـياه ترتفـع إلى قـمة الحـدائق بـالات تـرفع المـياه من النـهر، وقد صـمـمت بـطـريقـة لا يـراها زـوارـها. لـكـنـي رأـيـتها فـقـد عـثـرـت على أـنـابـيب لـوـلـيـة تـرفع المـياه إـلـى الـحـدـائق».

أمـسـكت بـذراعـه وأـجـلسـتـه، كـان مـرـهـقاً لـلـغاـية وـتـحـت تـأـثـير صـدـمة ما، لـكـنـه كـان مشـغـولاً بـالـحـدـائق وكـيفـيـة إـنـشـائـهـا، وـلـعـلـهـا حـيـلـةـ من عـقـلـهـ ليـحـافـظـ على سـلامـتـهـ لا رـيبـ أـنـهـ شـخـصـ ذـو فـكـرـ وـعـلـمـ، فـطـرـيقـتـهـ فـيـ الـحـدـيـثـ تـشـيـ بـهـذاـ! أـخـذـتـ أـنـفـضـ الغـبارـ عن مـلـابـسـهـ وأـصـلـحـتـ شـعـرـ رـاسـهـ بـيـديـ ثـمـ سـأـلـتـهـ: «ما اـسـمـكـ يا سـيـديـ؟ـ».

شدـرـ بـعـينـهـ وـقـالـ بـخـفـوتـ: «لـاـ أـدـريـ».

- لـعـلـكـ ضـلـلـتـ الطـرـيقـ!

- رـبـيـماـ، لـكـنـيـ لـأـذـكـرـ اـسـمـيـ!ـ مـنـ أـنـاـ؟ـ

- حـاـولـ أـنـ تـذـكـرـ سـبـبـ وجـودـكـ هـنـاـ.

تـأـمـلـتـ حـقـيـبـتـهـ الـتـيـ كـانـتـ مـعـلـقـةـ بـعـنـقـهـ فـأـشـرـتـ إـلـيـهـ وـسـأـلـتـهـ: «هـذـهـ حـقـيـبـتـكـ؟ـ»ـ.

- رـبـيـماـ.

---

(١) الجلمة إحدى حافئ الوادي، وهي منزلة الشطرين، والجمع جلهم، والاسم هنا العشيرة من الجن.



- هل تسمح لي؟

استسلم الرَّجُل لِي، ففتحت الحقيقة ووجدت فيها خريطة للنجوم. وأسطرلاباً، وأدوات أُخرى، عندما رأها الرَّجُل انتبه فجأة وقال بحماس: «هذه أدوات شقيقَيْ «أحمد» و«الحسن»، كنت أحملها بنفسي، أحدهما كان يحمل الكتاب والآخر يحمل زادنا..

ثمَّ رفع عينيه الشاردتين وقال: «أخواي! أين هما؟».

- كيف تتذكر اسميهما ولا تذكر اسمك؟

قال بخفوت: «لا أدرى ما الذي أصابني! أشعر بدور شديد، وأسمع أصواتاً عديدة، وأنا متعب جدًّا. وددت لو تذَّكري اسمِي!».

- سيدِي.. أنت «محمد بن موسى بن شاكر».

سالت دموعة من عينيه، وارتجمفت شفتيه بدا لي أَنَّه لم يغمض له جفن منذ لحظة فراقه عن شقيقية، أُسندته وسرنا نحو الماء المتدقق من الأنابيب التي ترتوي منها أشجار الحدائق، غسلت رأسه وأخذت بيده وتوجّهنا نحو شجرة ووضعت حقيبته تحت رأسه لينام وجلستُ بجانبه، كنت أعلم أَنِّي لن أستطيع الوثوب من هنا إلى أي بقعةٍ أُخرى إِلَّا بعد لقاء «الجلahem» ليسمح لي ملكهم بالرحيل، فالآمور هُنا تختلف عن باقي بقاع أرض الرَّافدين، وكنت على يقين أَنَّهم يُراقبوننا.

عندما استغرق «محمد» في النوم وقفَتْ أَنَّهار الحدائق بألوانها الخلابة، كنت أتساءل في نفسي أين اختفى «الجلahem»، فقد بدت لي مهجورة وساكنة هذه المَرَّة، وكأنَّهم جميعاً رحلوا من هنا، وفور أن التفتَ رأيتهم يُقبلون في جماعات ويهبطون من الطوابق العُليَا، فأدركت أَنَّه كان يوم احتفال عظيم، فتلك عادتهم.

بدؤوا يظهرون تباعاً، وامتلأت الحدائق بهم، وقفَتْ أَنَّاملهم بثيابهم المزركشة بألوان الطبيعة حولنا، وكأنَّهم خاطوا ثيابهم من أَزهار تلك الحدائق. طفقوا يُراقبونني



بأعينهم الواسعة، تقدم الأمير «قيصوم»<sup>(١)</sup> ورحب بي فقد التقى به من قبل عدة مرات، وقد استأمنته في واحدة من رحلاتي على كتاب وتركته بين يديه حتى أخلص مؤلفه من قبضة الـ «سيروش»، وحفظ الأمانة وصرنا صديقين، أما والداه فلم يرق لهما أمر «الطوافين» ولا المحاربين فقط، وعندما علموا باصطدامي لابنهم في قفزة من قفزاتي عندما طلب متيًّا هذا بنفسه منعه الملك من الخروج من نطاق الحدائق، ومنع كلُّ من يدخلها بقدميه من الخروج مرهًا أخرى إلا بإذنه.

اقرب «قيصوم» وكان سعيدًا برؤيتي وكان لقاوه كشربة ماء وسط يوم حار بعد عطشٍ شديد، فقد كنت أحمل همًّا ثقيلاً بعد خروجي من بُرج «بابل» ورؤيتي لاجتماع «الموجو».

أطلَّ الملك من شرفة من شرفات القصر وفور أن رأى وجهي أصدر أمره لجنوده باعتقالِي، فأقبل نفر من الجن دارت بيننا مناوشات، بدأت أشعر بحدُّر في رأسي فأدركت أنَّ سلاحهم بدأ يعمل، وكان من ضمن أسلحتهم فطر ينثرونه في وجوه من يرغبون في أسره، أصبح لساي ثقيلاً.

سألت «قيصوم» وكانت صورته تترافق أمامي: «لماذا تركتهم يقبضون علىَّ يا «قيصوم»؟ السُّتُّ صديقك؟».

قال في تخبُّط: «لقد تسلَّل اليوم مُحاربان إلى القصر، وهذا أزعج أمي للغاية، وأبي يظن أنك على علاقة بهما».

- مُحاربان هنا؟!

اختلطت الأمور في رأسي، من هما المُحاربان اللذان اقتحما القصر؟ شعرت بأنفصال ذهني عن الواقع للحظات حتى أيقظتني الجلبة من شرودي، كانت بنات الجن الصغيرات يركضن حولي وهن يضحكن في جذر، بدأت أتأرجح وكدت أسقط لولا «قيصوم» الذي التقط جسدي وأقامني مرهًا أخرى فوقفت على قدميَّ، وهناك رعشة تمواج في عظامي، سرت معه دون مقاومة إلى زنزانة كان بها سجينان أخبرت «قيصوم»

---

(١) القيسوم: نوع من النبات من الفصيلة المركبة، قريب من نوع الشبح، كثير في البدية.



بعد عناء مع لسانى الذى أصابه ثقلٌ ورأسي الذى طفق يدور بي ويؤرجنى عن «محمد بن موسى» وكيف أَنْتَ أخشى أن يضيع.

فقال بصوت تشبه رنة حزن وانكسار: «لن يخرج من هُنا كما تعلم، الداخل إلى أرضنا أسير حتّى يُطلق أبي سراحه».

تركني بالزنزانة ومضى، والتفتُّ وإذا بي أرى «حمزة» أمامي!

سألته وجفناي يسقطان رغماً عَنِّي: «حمزة! ما الذي جاء بك إلى هنا؟!».

جاء صوته من بعيد وكأنه يصدر من بئر عميق وهو يقول لي: «لست «حمزة»، أنا «خالد»».

- خالد!

سقط رأسي وأظلمت عيناي فجأة، وفقدت وعيي لفترة.

\*\*\*

عندما نطوف بأروقة الحياة، نحمل في حنایانا شيئاً خفيّاً لن نلمسه بأناملنا أبداً، لكنّنا نشعر به ونحسّه وهو الذي يدفعنا للاستيقاظ كل يوم ومغادرة فرشنا الوثيره لنبدأ الطّواف من جديد، نولد ضعافاً ونحمل ليطاف بنا على أكتاف آبائنا، ثم نكبر قليلاً فنحمل أنفسنا على ساقين واهنتين وزركض خلف اللعب، ثم نكبر أكثر فنركض خلف رفاقنا، ثم نشبّ عن الطوق وننضج فنركض بقلوبنا خلف الحبّ، ثم خلف الأزرق، ثم خلف أبنائنا، ثم نتوقف عندما نشيخ لأنّنا نعجز عن مواصلة الرّكض، فقد أهلكنا الطّواف!

عندما أفقت شعرت بصداع شديد، كأنّا ليلاً ففتحت عيني وإذا بصوت صراخ شديد يتعدد في الزنزانة، ملأ أفراد الحراسة من الجان الزنزانة بالنُّور وتکاثفوا حولنا، حتّى «قيصوم» جاء بسبب هذا الصّراخ، وعندما هدأت صاحبة الصّراخ صرفهم



«قيصوم» وبقي معنا، مسحت وجهي بكفي ورأيت «محمدًا بن موسى» يجلس وقد ولأنا ظهره ولم يأبه لوجودنا معه.

التقفت نحو «خالد» وقلت له: «ظنتك حمزة أنتما متطابقان للغاية».

ابتسم «خالد» وسألني: «هل التقىت «حمزة؟».

- والجميع. آسف لأنّي أفزعتكم، هكذا تبدو عيناي وسط العتمة.

- عيناك كعيّي فقط، وهذا أفعز زوجتي.

- آسف.

- هل ترى في الظلام بوضوح؟

منحني ابتسامة رطّبت أجواء الحوار فأجبته: «نعم».

عَرَفْتُهُمَا بِنَفْسِي، ودار بيننا حوارٌ جمعت لهما فيه أخبار العائلة، وعندما أخبرتهما بالتفاصيل وكيف أنَّ المكان هُنَا لا يظهر في مرايا «الكنادرة» ولهذا لم يعلم باقي أفراد العائلة بوصولهما، وبعدما تكرر اسم «الحسن» و«أحمد» استدار «محمد بن موسى» وتنبَّه ونشط ذهنه وجلس يُنصت لي وبدا التأثُّر على وجهه.

سألني عندما انتهيت من سردي لما حدث: «هل حقًّا أخواي بخير؟».

- نعم، وينتظرك في «بابل»

سألني «خالد»: «وكيف لم نظهر لهم في المرايا قبل دخولنا الحدائق هنا؟ لقد سرنا في الغابة لفترة طويلة، وما فهمته منك الآن أنَّ حدائق «بابل» فقط هي المحجوبة».

- لأنَّ حينها لم يكن «سليمان» قد وصل إلى أرض الكنادرة ليغادر على المرأة، ولم يكن «برهوم» قد كسرها بنفسه بعد ليُقسّمها بينهم.



- حسناً، كيف سندھب إلى «بابل»؟ لقد أخذوا المظلة من «طيف».
- ليس قبل أن يسمح الملك، لقد دلفتما أرضاً ملکھا لا يأذن لضيوفه بالرحيل إلا إن أراد هو، وهذا هو اليوم يسجنتنا في زنزانة وكأننا أعداء له. لم يكن هذا عهدي به!
- وقف «قيصوم» واحتفى من أمامنا فجأة ثمَّ عاد، أخبرنا أنه حجب أصواتنا عن الحُرَّاس ثمَّ قال: «الأمر منوط بما شعرت به أُمِّي».
- ما الذي شعرت به؟
- تقول إنَّ هناك أثراً من «خولنجانة» تحسسته في المظلة.
- وثبت «طيف» وسألته: «ماذا؟! هل تعرف «خولنجانة»؟».
- رجف طيفه وتوجه وهو يسألها بتلهف: وهل تعرفينها؟
- نعم، إنَّها صديقتي.
- أين هي الآن؟ لقد ذُبح فؤادي منذ اختفائها.
- أخرجت «طيف» العلبة من حقيبتها وأطلقت سراح «خولنجانة»، وقفَت أمام قيصوم تتخبَّط في خجل وارتباك، حدَّقا إلى بعضهما باندهاش دون أن بتكلما، ثمَّ فجأة بدأ كلُّ منهما في البكاء، بدا وكأنهما لا يستطيعان لمس بعضهما، وكأنَّ هناك حاجزاً ظهر كسيف من لجين يفصل بينهما، بدأت أروي لهم قصتهما، فقد كنت أعرفها، وكانت أنقل عينيَّ بين طيفيهما وأنا أسرد القصة: «وقع «قيصوم» في حُبٍ «خولنجانة» فطلبها للزواج ووافق أبوها، لكنَّ الملكة رفضت وأرادت تزويجه بواحدة من بنات عشيرتها، ولماً أبي وتمسك بمحبوبته قرَّرت تشويه صورتها في عينيه ودفعه إلى الشك في إخلاصها واتهمتها بالخيانة، فلم تنجح ألاعيبها فهو يعشقها ويُثقب بها والجميع هنا يُحبُ الفتاة اللطيفة «خولنجانة»، وعندما زارت الحدائق نطايسية ورثت علمها عن أبيها، ونشأت بينها وبين الملكة صدقة عميقية، أخبرت الملكة عن سر غاز ثقيل يسكن طبقات الأرض قُرب السطح، ويطفو فوق سائل



ثخين أسود. وكيف أنَّ رائحته تُشبه البيض العفن فاستدرجت الملكة خولنجانة إلى بقعة من تلك البقاع وحبستها فيها وألقت تعويذة، فامترج كيانها بالغار، وكأنَّها أُصيبت بلعنة فصارت منبوذة من أهل الحدائق وفرَّ منها الجميع، حتَّى قيصوم نفسه لم يُطق رائحتها، لكنَّه علم بأمر التعويذة بعد ذلك فأقسم ألا يتزوج غيرها، ولأنَّ أباه منعه من الخروج وسلسل كيانه هنا لم يتمكن من البحث عنها».

اغرورقت عينا «طيف» بالدموع.

سألت «خولنجانة» وهي تُفكفف دموعها: «ما قصَّة العُلبة؟».

تنَهَّدت «خولنجانة» ثمَّ قالت بصوت مشوب بالانكسار والحزن: «النطاسية ندمت على نصيحتها للملكة ورأَت أنَّها ظلمتني، وبعد إقامتها هنا لفترة طويلة وقبل خروجها من أرض الحدائق طلبت مِنَّي العفو عنها، وكانت أعيش وحيدة في مكان قصي ومهجور بعد موت أبي حسرة على حالٍ، فطلبت منها أن تخربني معها، فطلبت النطاسية هذا من الملكة فجعلتني خادمة لها وحبستُ من قِبَل مردة الجن في علبة أهديت لها، ورحلت بي من هنا وبقيت معها وتعلمت منها الكثير، حتَّى التقت النطاسية بمُحاربة وخاضت معها مغامراتها ففُكتت خلالها، فانتقلت إلى ملكية تلك المُحاربة، ثمَّ إلىك يا «طيف»».

ران علينا صمت حزين، تزاحمت الأفكار وتکاثفت الأسئلة فوق رؤوسنا.

فاجأنا «قيصوم» بإحضار غصن شجرة طويل ومحمل بشمار غريبة، عرضه علينا ودعانا لتناولها، ألحَّت «خولنجانة» على «طيف» لتأكل منها وأخبرتها أنَّ مذاقها شهيٌّ جدًّا.

تعجب «خالد» وسألها: «ما هذا؟».

قالت «خولنجانة» ساخرة منه: «لا تخف ليس باذنجانًا!»

- لا أرغب في تناوله.



- لماذا؟ هل أنت خائف؟!

قال «خالد»: «بل أنا شبعان أكلت في حياتي أطناناً من الفول تكفيني لعمر طويل».

أضحكني «خالد» بكلماته، كان حضوره لطيفاً كرذاذ الماء البارد وسط الأجواء الحارة، وكنفحة الريحان التي توسيع الصدور الضيق، يبث البهجة بحركاته ولفقاته ومزاحه الأنبيق دون خروجه عن وقاره، كما أتني اكتشفت لاحقاً أنه قارئ لهم وشخص مُنقف للغاية، فقد أدهشني بما يعرفه عن «العراق» عن تاريخها وأمجادها. مددت يدي وتناولت ثمرة من الفاكهة لأشجعهم على تناولها، كانت لذيدة وشهية بالفعل، تناولت «طيف» ثمرة في تردد والتهمتها، وكذلك فعل «محمد بن موسى» الذي كان يُطيل الصَّمت لكنه عندما يتحدث يصفُ الدُّرر صَفَّاً، فتتلقفهم آذاناً بتلُّه للمزيد.

رحل قيصوم ليبحث عن طريقة لخروجنا، وعادت خولنجانة إلى علبتها، وانطفأت الأضواء، وعادت عيناي نُضيئان في الظلام فأغمضتهما لكي يطمئن الجميع، وران علينا صمت طويل جرَّنا جمِيعاً إلى نوم عميق.

\*\*\*



## معبد "إيساكيلا"

«أنس»

جلستُ بين الوراقين و«رواء» في حضني، كانت «ميسون» سعيدة برؤيه العديد من بنى عشيرتها من «الوراقين»، فقد ظلت كما ظن الكثيرون أنَّهم قُتلوا بينما هم محتجزون هنا، حدثتهم عمًا دار في أرض «الكتادرة» بعد رحيلهم، وأنَّ بعض الطبول المعلقة على الأبواب لم تدق، فظنُّوا أنَّهم ماتوا، وأخبرتهم أيضًا عن سر المرايا التي دلَّهم سليمان عليها، وأنَّ أهاليهم زُبِّما الآن يرون وجوههم.

كنت أراقبهم وأطيافهم تموج وتخيلت «رواء» مثلهم عندما تكبر، كانت «لارسا» ترشقني بنظرات مرتابة، لم تقرب ولم ترغب في الحديث معي وكان «ريموش» يجلس بجواري، فقد طمأنته على والديه وأخبرته بزيارتني إلى بيته كان يُفتنش في عيني عن بصيص أمل، يتوق إلى الحرية ويقهره ذلك القيد الذي سلسله لا لشيء إلا لأنَّه من الوراقين.

سألته هامسًا: «ما بال لارسا؟ تُراقبنا طوال الوقت!..

- فتاة عنيدة، هي الدراع اليمنى لـ«عشتار» هنا، الـ«سيُروش» يُطيعونها بأمر الملكة، لو أمرت بقتل واحد مناً سيفعلون في الحال.

- لماذا اختارتها «عشتار» لتلك المهمة؟



- عندما وصلت «عشتار» إلى «بابل» منذ شهورٍ كانت معها، أرادت «عشتار» قتلنا في الحال، لكنّها طلبت منها أن تتركنا لنُدوّن الكتب المحفوظة في رؤوسنا.

- وهل فعلتم؟

- لا، أحظى بنفسي الألواح التي يدّوّنون عليها، أخبرتهم أنّهم سيقتلوننا فور أن ننتهي من هذا، الكثيرون يُصدّقونني، وبعضهم لا.

- أحسنت يا «ريموش».

- أتدرى أنّ بيتنا في نصف المدينة الآمن؟ كنت في زيارة صديق لي قرب القصر عندما أمسكوا بي، كانت لعنتها تسري سريعاً كالبرق، مُسخ جنود القصر فأصابنا الرعب والهلع، وانطلقوا يطاردوننا في شوارع «بابل»، طافوا بها من شرقها إلى غربها وجمعونا وسلسلونا، علمت بعدها أنّ نصف المدينة صار آمناً من سلطان «عشتار»، لكنّ ما أحزنني أنّ العامة خنعوا لنفوذها ولزموا الصّمت عندما بدأت تُلقي من يعترض طريقها للوحوش لتُمزق جسده إرها.

- ليس من السهل عليهم مواجهة الـ «سيروش».

- والوحوش.

- وأين تلك الوحوش؟

- لا أدري. سمعت هذا فقط من آخر الوراقين وصوّلاً إلى المعبد هنا.

كانت الأشجار في الخارج تنوح مع الرياح العاتية، أوقد الحرّاس الشعل عندما بدأ الظّلام يُرخي سدوله، كانت «عشتار» قد زادت من عدد الجند حول المعبد. قُدّم الطعام بسخاء للوراقين، وأعادت لارسا طلبها بأن يُسرعوا بالتدوين حتّى يخرجوا سالمين، كانت تتوجّب النّظر إلى أو محادثي.



حلت السكينة على المكان وجلس الوراقون وكان على رؤوسهم الطير، ودلفت «لارسا» غرفتها، فسمعت «جالا» تهمس قائلة: «الآن عادت إلى صحبتها من الجن..».

وافتتها «ميسون» فسألتها متعجبًا: «أي صحبة؟».

- سمعت حواراً لها مع «عشتار» عن زعيم الغضائر الذي يعشقها، أخبرتها أنه سيقتل كل من يسعى للزواج بها، وطلبت منها أن تهب نفسها وروحها له.

- وأين أهلها؟

- ما سمعته من جمل متفرقة في حوارات من خلال الجرار والأواني يوحي بأنّ أهلها وهبوا لـ«عشتار» كجارية أو شيء من هذا القبيل.

نامت «رواء» على كتفي، كنت سعيدياً بلامسة أنفاسها الدافئة لعنقي، خلد الجميع إلى النوم وبقيت ساهراً أتفكر في حال الجميع ببيت «أيسن» وكيف سينجحون في الوصول إلينا.

\*\*\*

خرج «حمزة» و«سليمان» من دار والد «ريموش» وكانا محبطين، فالـ سيرُوش الشرفاء - كما يُلْقِبون - لم يستجيبوا لدعوة «أنس»، واكتفوا ببعث رسول منهم وكان حديثه غير مُبِين، إذ قال بِرَزق: «لن نقف أمام «عشتار»، فوراءها جيش «غُدفان» وطائفة من الجن لا نقوى على مواجهتهم، «الغضافر» يُسيطرون على مداخل «بابل».

قال سليمان بثقة: «لقد استطعنا الدخول! تخطيناهم بسهولة».

- أنتم تختلفون عنّا لديكم طرق خاصة لو سلکناها سنموت.



سأله «حمزة»: «والوَرَاقُونَ مِنْ أَبْنَاءِ عَامَةِ الشَّعْبِ؟».

- علمنا ببقاء بعضهم على قيد الحياة بالفعل، ووصل إلينا أنَّهم يرفضون التدوين! وقد وعدتهم «عشتار» بإطلاق سراحهم، فلidiوْنوا المخطوطات والكتب لينالوا حُرْيَتِهم، ليس دورنا تخلصهم من قيِّد مفتاحه بين أيديهم!

- وكيف تثقون بوعدها وقد قتلت الكثير من الوَرَاقِينَ من قبل؟

- ليس أمامنا إلَّا هذا!!

- بل أمامكم ولكنكم خائفون.

- دلني على طريقة أستعيد بها سحنتي وملامي أنا وبني جلدي وسأتبعدك، أنت لا تشعر بما نعانيه كل يوم، وشبابنا على أبواب قصرها ككلاب الحراسة يتصرَّفون وكأنَّهم فقدوا عقولهم، بل فقدوها بالفعل!

- فلنتعاون!

- أظنني لا أرغب في زوال ملكها ولعنتها؟ أنا أكثر منك رغبةً في هذا، لكنَّنا نحتاج إلى معجزة!

شعر «حمزة» بالعجز وَدَّ لو كان المغايير هُنا، طال صمته فانصرف الرسول وبعد خروجه خَيَّم الحزن على الحضور، فخرج مع «سليمان» وهو يحمل فوق رأسه جبالاً من الهموم.

توجها إلى المتجر حيث كان الشقيقان من أبناء موسى يعملان مع التاجر فهذا يُكسبهما ثقة أكبر من أهل «بابل» الملتفين حولهما. أمّا «طيفور» و«خاندان» فكانا يُمشطان المدينة ويمحصان كل رُكْنٍ فيها ومعهما خريطة «سليمان».

قال «حمزة» غاضباً: «حياة ابني لا تهمُّهم، ذاك الذي هرب بها كان يحافظ على حياتها لصالحهم، كانت مجرد بطاقة ليساوموا بها «عشتار»».



هُرَّ «سُلَيْمَان» رأسه وقال بنبرة متأثرة: «في حديث الرَّجُل جانب من الصواب، نحن نحتاج إلى عدد وقوة، رُبِّما نستطيع إقناع أهل «بابل» القاطنين في الجزء الآمن من المدينة».

- فلُحَاوْل تخلص أي أَوْلَأَ، لا آمن على حياته وحياة «رواء» هُنَاكَ.

عندما وصلنا إلى المتجزء، استقبلهما الحسن وكان يتلهف الأخبار وعندما انتهيا من سردهما للحوار رفع حاجبيه قائلاً لهما: «لنقتصر في المعبد».

- كيف هذا؟

ضيق عينيه في غموض وقال: «فلنعد إلى بيت السيدة «أيسن» وسأخبركم هُنَاكَ».

\*\*\*

صاحب «محمد بن موسى» وهو بقف أمام باب الزنزانة «أرغب في لقاء الملك».

تردد صوته في الأجواء، استيقظ «عمر» و «خالد» الذي أيقظ «طيف» ووقفا يُنصتان لنداءاته المُتكررة، كان يقف بهدوء وهو يعقد يديه خلف ظهره ويردد العبارة نفسها: «أرغب في لقاء الملك».

سأله «عمر»: «هل أنت بخير؟».

- لا تقلق، أنا بخير أَئِيَا الطَّوَافِ كنت أُنْصَت لحديثكم لـكَنِّي كنت تحت تأثير غبار ذلك الفطر المنتشر في أرجاء الحدائق بغزارة، لقد تعرّفت على نوعه ولمسته وأنا أتفحّص الزهور والنباتات عندما دلفت أرض الحدائق وأدركت أَنِّي سأتأثر، وأخذتني الدهشة وأنا أتنقل بين طوابقها وتشتت ذهني، وأظن غباره يختلط بالماء أيضًا.

- يا إلهي! لقد غسلتُ رأسك بالماء عندما التقينا وسقيتك منه.



- لهذا نمت طويلاً، الآن راق ذهني والحمد لله أخبرني، هل «الحسن» و«أحمد» في  
أمان ببابل؟

- الأمر جد خطير، ولا بد أن تخرج من هناء ما دمت قد التقى ثلاثتكم بقى أن أسترد  
الكتاب وأعيده إليكم، وعندما ستزول اللعنة عن «بابل»، وينقض أهلها وكذلك  
«رواء».

- لهذا طلبت لقاء الملك.

وعاد يصبح: «أرغب في لقاء الملك، أرغب في لقاء الملك، أرغب في لقاء الملك».

عندما أنهى جملته فتح باب الزنزانة وحده، فخرج الأربعه منها وأخذوا يتنقلون من  
شرفة إلى أخرى وسرعاً ما ظهر لهم «قيصوم» الذي سألهم فور أن رأهم عن  
«خولنجانة»، وعندما اطمأن أنها بخير قادهم إلى جناح أبيه.

تقدّم «محمد بن موسى» وأخذ يحاور الملك ويجادله.

كان «محمد بن موسى» قد عمل في كثيرٍ من المشاريع التي أسسها الخليفة، وقد  
جعلتهم مشاركتهم في هذه الأعمال يدخلون بقوة في المشهد السياسي في بغداد،  
وكان له دور كبير في السيطرة على مفاصل الدولة العباسية، فهو يجيد المفاوضات،  
فقد كان له طريقة منطقية وذكية في الحوار حظي بواسطتها على الثقة والاحترام  
ممَّن يُحاوره. استطاع إقناع الملك بالسماح لهم بالخروج إلى «بابل» لإنقاذ «رواء»  
بعد أن شرح له تفاصيل تخص عائلة «أبادول»، فتأثر الملك واقتنع بكلماته ورفع  
طبقات الحجاب المحيطة بحدائق بابل المعلقة التي ضررها ليمنع الداخل إليها من  
الخروج منها، واستردت «طيف» مظلتها وبقي أن تجد شيئاً من «بابل» لتنتقل إلى  
هُناك. منحها «عمر» شيئاً فتناولته ووقفت تتفحصه، كان شيئاً مخروطي الشكل  
ومصنوعاً من الطين وقد نقشت عليه كلمات بالكتابة المسмарية.

سألته متعجبة: «ما هذا؟».



مسمار تكريس<sup>(١)</sup> لأحد مباني «بابل».

قلّبته في كفها وعادت تسأل: «ما «مسامير التكريس»؟».

- هي رسائل من الأجداد إلى الأحفاد عبر بوابات الزمن الموجل في القدم.

دُفِئت مع أساسات المبني في «بابل»، كُتِبَ عليها في عهد أي ملك صُنِعَت ونوع المبني والسبب وراء بنائه، لتبقى تلك المخاريط شواهد تاريخية تحمل الكثير من المعاني قبل أن تحمل المعلومات لأجيال المستقبل.

قال «خالد» وهو يسحب المخروط من يد «طيف»: «فكرة هذه المخاريط الهندسية تُشبه فكرة الكبسولة الزمنية التي تُعد مخيّباً تاريخياً للمعلومات للتواصل مع النّاس في المستقبل ومساعدة علماء الآثار، وعلماء الأنثروبولوجيا، والمؤرخين لمعرفة وتاريخ الأحداث».

أعاد «خالد» مسامير التكريس إلى طيف فوضعته في جراب مظلتها وانتقلت معه إلى مدينة «بابل».

احتضن عمر محمدًا بن موسى ووثب به إلى المكان الذي ترك حمزة ومن معه عنده، لم يجد أحداً منهم، فوقف حائراً، ترك «محمدًا» تحت الشجرة وطاف ببابل من بقعة إلى أخرى في قفزات سريعة حتى أنهكه الانتقال السريع فعاد وصدره يؤلمه، أجلسه «محمد» ليلقط أنفاسه، لم يقو على النهوض مرّة أخرى من شدة التعب، رآهما «خالد» مع «طيف» فأقبلَا راكضين وأهل المدينة يطاردونهما، فقد أفزعهم ظهور المظلة فجأة، ركضا نحو الشجرة، لولا ظهور «أيسن» التي انتقلت إليهما فور ظهور بينهم صورهما بالمرايا، وحجبتهما عن الأعين، فأجفل المطاردون من أهل المدينة وابتعدوا عن الشجرة وهم يصرخون.

(١) مسمار مخروطي الشكل يُشبه الوتد، مصنوع من الطين مكتوب عليه باللغة المسمارية ويثبت على جدران المباني ليدل على ملكية البناء أو المعبد، ويسمى مسمار التكريس أو مسمار التأسيس، وقد صنع السومريون أيضاً مخروطات طينية غير مكتوب عليها ملوّنة بألوان مختلفة لخلق طرازات من الفسيفساء التزييني على الجدران.



قال «محمد بن موسى» بكل هدوء «ألاعيب الجنّ مرأة أخرى!».

- بل ألاعيب الساحرات! مرحباً يا بن موسى.

ثمَ التفتت نحو «خالد» وقالت له: «أنت نسخة من أخيك».

- أين هو؟

- ستنقل حالاً إلى مكانه.

التقطت أيسن غصن شجرة يابساً وخطّت حول الشجرة دائرة وأخذت تملّس على جذعها وتحدها، فاهتزّت وكأنّها تنتزع جذورها من الأرض. وانتقلوا جميعاً إلى ساحة بيتها ومعهم الشّجرة التي يقفون تحت ظلالها، كان الجميع ينتظرونهم هناك ركضت «فرح» نحو «طيف»، والتزم خالد. حضن أخيه «حمزة»، أمّا بنو موسى فقد انخرطوا في البكاء فقد كان فراهم كنز الأظفار من اللحم الحي.

بقي «عمر» متعيناً كاد يسقط لولا ذراع طيفور الذي استقبله وحمله نحو الدار.

وقفت أيسن تحرك مقلتيها في قلق ووضعت يدها على رأس «عمر» وسألت بصوت مسموع ارتجّت له الأجواء: «من أنت؟».

انتفض جسد «عمر» وخرج «قيصوم» كطيف يتهدى من صدره وظهر بينهم بوضوح وانحنى أمامهم مُعتذراً وهو يقول: «لم أجد غير تلك الطريقة لأفرّ من أبي».

فقد «عمر» وعيه في الحال، وجلسوا يُطّبّونه ويعتنون به، بينما أخرجت «طيف» خولنجانة من علبتها لتفوح رائحتها الكريهة من جديد فابتعدوا عنها وكأنّهم أصيروا بصاعقة، وعلى الرّغم من هذا كان «قيصوم» سعيداً برؤيتها وكانت تتلّفت في خجل.

مرَ النّهار سريعاً، كان غياب «أنس» عن أبنائه ثقيلاً، وقفوا يتلهفون لرؤيته في المرأة، على الرّغم من اطمئنان حمزة لوجوده مع «رواء» كان القلق يقتات على رأسه، ماذا لو فقدهما معاً؟



كان هذا هو الهاجس الذي يضرب برأسه، لهذا كان يروح ويجيء ويدور في المكان كعقارب الساعة لا يتوقف.

اقترب منه أحمد بن موسى وسألة: «ما بك؟».

- لماذا سنفعل الآن؟ لا بد أن نتحرك.

- لِتُشاور أخي محمدًا، فهو أكثرنا حكمة.

جلسا مع محمد بن موسى فأنصت إليهما طويلاً، وقبل أن يُبدي رأيه كان «الحسن بن موسى» قد أحضر حقيبة «أنس» التي تركها داخل البيت قبل أن يخرج للحديث مع «أيسن» قبل رحيله.

وضعها أمامهم وقال: «لدي خطة!».

أقبل الجميع تجاههم وأصاخوا السمع، وقرروا تنفيذ خطة «الحسن».

\*\*\*

كان الوصول إلى المعبد أصعب مما ظنوا، فهذا نصف المدينة الذي يقع تحت تأثير تعويدة «عشتار»، اضطررت «أيسن» إلى مساعدتهم قدر استطاعتها، وكان للقزمين دور كبير باستخدام دواليب صنعوها بأيديهم تُصدر صوتاً وهي تندحر على الأرض، وكانت وسيلة لهم لتشتيت الـ «سيروش»، فقد زاد عددهم بعد وصول «أنس» إلى المعبد. كان الشباب قد أخذوا للأمر أهبة بعد أن توَّزعوا على جهات المعبد الأربع، فُسمّت الأدوار بتنسيق من «خاندان» الذي استطاع بعد مراقبة دقيقة للحُرَّاس وسلوكهم أن يحدد نقاط ضعفهم. كان دور القزمين هو درجة الدواليب، أمّا طيفور فكان يرمي سهامه ببراعة ليصيب سيقانهم، بينما كان خاندان يُفقدهم وعيهم بضررية شديدة على الرأس حيث كانت قامته الطويلة ويده الحديدية تُمكّنه من هذا. كان «سليمان» يُصارع ويضرب كطبيب فهو بخبرته يستطيع أن يتخيّل موضع محددة للضرب تؤلم بشدة، وأحياناً كان يضغط على عصب بالذراع يجعل من أمامه يركع على ركبتيه من شدّة الألم، في هدوء تمكّنوا من استدرج حُرَّاس الجهة الجنوبية دون



أن يشعر البقيّة بهم، فقد لاحظ خاندان خلال مراقبته أنّهم لا يتواصلون مع البقيّة، انتهوا من تقييد الحرّاس ووقفوا متّاهّين لبقيتهم إن اقترب أحد منهم من الجهات الثلاث الأخرى وفي أيديهم مطارق الكنادرة التي صنعوا «برهوم» و«صفوان» ونفخوا فيها فصارات تعمل كمطرقة «فرح»، تطير وتضرب بقوّة وتعود إلى أيديهم، فقد تدرّبوا على الضرب بها في ساحة بيت «أيسن»، حينها تمكّن «الحسن» من التسلل إلى داخل المعبد وهو يسير على أطراف أصابعه، كان الباب موصداً بالآقال لكن هذا لم يوقفه.

فقد استطاع فتح الآقال بسهولة بأداة رفيعة صنعها بنفسه، ونزع السلسل ببطء شديد حتّى لا تُحدّث ضوضاء وتلفت الأنظار.

كان يحمل حقيبة «أنس» التي تركها ببيت «أيسن» قبل أن يرحل، عندما دخل ورأى «الوراقين» وقف مذهولاً ممّا رأه، حتّى إنّه لم يُجب «أنس» عندما كان يُناديه، فقد أخذته الدّهشة وألجمت لسانه.

اقترب «أنس» منه ومسح على صدره وقال له: «ما بك يا بني؟».

- الأطياف يا عماه رائعة وهي متداخلة!

تعانقا وأقبل «الوراقون» وجلس الجميع يُنصتون لحديث «أنس» مع «الحسن» الذي سأله: «هل الجميع بخير؟»

- نعم، لا تقلق يا سيد «أنس».

ثمَّ التفت إلى «رواء» وكان قد رأها في المرأة مع «حمزة» وقال باسمًا: «يبدو الأطفال رائعين عندما يخلدون إلى النوم».

رنا إليها «أنس» بحنان ثمَّ سأله: «هل من أخبارٍ عن «محمد»؟».

- نعم، فقد أحضره «عمر»، وهناك خبر جديد.



- ما هو؟

وصل «خالد» مع زوجته إلى أرض الرّافدين!

- يا إلهي! كيف؟

- بمظلة غريبة ووصلت معهما عفريتة. المهم، لا بد أن نخرج من هنا.

- كيف ونحن مُسلسلون والقيود حول أرجلنا؟

- أمرها سهل، دعونا نهتم بأمر الأطیاف أولاً.

رفع حاجبيه وقال بثقة: «الحجر الذي أعطاه لك السيد «جلوان» سنقسّمه بينهم لنحجب أطیافهم».

- إل «سيروش» يعرفون بأمر الحجر ويقتشون الناس بحثاً عنه، وإن وجدوه يحظّمونه.. لن يتمكّنوا من السير في المدينة.

- لن يرتدوه يا سيد «أنس».

- ماذا تعني؟

- سيبتلعونه!

قال «ريموش»: «هذا خطير!».

هزّ «الحسن» كتفيه قائلاً: «ليس خطيراً. سيخرج من أبدانكم بعد يوم أو يومين!».

صاح أحدهم: «ماذا لو علق بأجسادنا ولم يخرج؟».

- ما بك يا فتى؟ ألم تبتلع شيئاً بالخطأ من قبل؟ لقد ابتلعت ديناراً وأنا صغير وخرج بسلام.



قال أحدهم وهو يبتسم ساخراً: «ستعرف هذا في الخلاء عندما يعود الطيف للظهور».

لآخر شبح ابتسامة على وجوههم وأخذ آخرون يكتمون الضحكات، كانوا منهكين وقد طال سجنهم وكادوا ينسون الابتسام تعالـت همساتهم بينما انشغل «الحسن» بفك القيود تباعاً بقطع رفيعة من الحديد جلبها معه من هنا وهناك، استخدم علم «الحـيل» مـرةً أخـرى وحـزـرـهـمـ منـ قـيـوـدـهـمـ، حـتـىـ إـنـهـمـ وـثـقـواـ بـهـ عـنـدـمـاـ أـخـرـجـ الحـجـرـ منـ حـقـيـبـةـ «ـأـنـسـ»ـ الـتـيـ كـانـ يـحـمـلـهـ وـطـلـبـ مـنـهـمـ أـنـ يـبـتـلـعـوـهـ كـحـبـةـ دـوـاءـ،ـ وـكـانـ قـدـ قـطـعـ الحـجـرـ إـلـىـ خـبـيـبـاتـ لـيـسـهـلـ بـلـعـهـاـ وـعـاـوـنـهـ «ـالـكـنـادـرـةـ»ـ بـمـهـارـاتـهـمـ فـيـ جـعـلـ حـوـافـهـ مـلـسـاءـ،ـ فـيـ غـضـونـ دـقـائقـ كـانـ أـطـيـافـهـمـ قـدـ حـجـبـتـ،ـ وـبـقـيـ أـنـ يـخـرـجـوـاـ مـنـ الـمـعـبـدـ كـانـ «ـلـارـسـاـ»ـ فـيـ غـرـفـتـهـاـ كـالـعـادـةـ فـيـ لـاـتـخـرـجـ لـيـلـاـ.

همس «الحسن» وهو يُشير بأصابعه: «اتبعوني ولا تصدروا أي صوت لن تعودوا اليوم إلى بيوتكم سندھب إلى أحد البيوت هنا لنلحق برفاقنا أولًا».

تسليلاً نحو باب المعبد، وكان «أنس» يحمل «رواء» ويتقدمهم، وكان حمزة والشباب هناك استيقظت «رواء» وفور أن رأت أباها صاحت فرحة فأقبل والفرح يغمره والتقمصها في حضنه، أراد أن يُخبئها بين أضلعه، لم يلحظ أحد حركتهم فقد اختفت أطیاف الوراقين، ساروا في جماعات متفرقة، وزرعوا الوراقين عليهم ليصلوا إلى بيت «أيسن»، والتي كانت تتتابع كل شيء باهتمام شديد. وبينما هم في الطريق وثبت ملئم وسط الظلام بثيابه السوداء وانتزع «رواء» من حضن «حمزة» واختفى بها، فصرخ صرخة تُمزق نبات القلب، وقف يتمتم كالمحنون وكانوا في ذهول، أسرع «الحسن» بمن معه وترك «أنس» مع «حمزة»، كان من اختطفها يثبت كالطوافين فأسرعوا يتبعّلّون لقاء «عمر» في بيت «أيسن»، فور دخولهم إلى ساحة بيتها حجبته مـرةً أخـرى، تنفس الجميع الصعداء وجلسوا يستمعون لحوار «عمر» مع «حمزة»، الذي كاد يفقد عقله.

\*\*\*



كانت ساحة البيت مزدحمة، كثُر ضيوف العجوز «أيسن»، وقف الجميع يُنصلتون لحديث عمر الذي كان لا يزال مُتعباً ممّا مرّ به.

قال مؤكداً لـ«حمزة»: «من المستحيل أن يخوننا طواف، نحن يد واحدة ونتواصل باستمرار».

- ظهر فجأة واختفى فجأة كما تفعل تماماً، كانت وثبة «طواف».

- لعله من الجن.

- لا، لقد لمست يده بنفسي وشعرت بدقها.

تفحص أفراد عائلة «أبادول» المرايا لعل أحدهم يرى «رواء» مرّ وقت ثقيل قبل أن تظهر صورتها، كانت تقف أمام «عشتار» التي كانت تمسك بذقنها وتتحدث إليها.

انهار حمزة وقال بتلعم ستقلّلها «عشتار».

نهره «خالد» قائلاً: «لا ترك رأسك لعبة للشيطان».

همس «أنس» وهو مكروب: «سأعود إلى القصر».

استوقفه «محمد بن موسى» وبعد أن تبادلا التحية فقد كان هذا أول لقاء لهما، طلب منه أن يأذن له بالحديث.

التفت قبل أن يبدأ حديثه نحو العجوز أيسن وسألها: «هل صوتنا أيضاً محظوظ أم سيسمعنا أهل المدينة؟».

رفعت رأسها وقالت بثقة: «لن يسمعوك ولو صرخت بأعلى صوتك».



استشرفهم «محمد بن موسى» الذي كان قد رتب الأحداث تباعاً في رأسه بعد أن أخبره شقيقاه بكل شيء، وقال موجهاً كلامه للجميع: «لن ننجح لو عملنا فرادى مجھودنا ستضيع هباء، ولن تكون لنا القوة إلّا لو صرنا يدًا واحدة».

صمت هنية وأضاف: «أعداؤنا كثُر، ساحرة، وطائفة من الجن، ومسوخ لا تعمل عقولهم من الـ «سيروش»، و«غُدفان» ومن خلفه جيش كبير، سنخوض معارك عظيمة مع هؤلاء».

اقرب من «عمر» وقال له: «لو حصلت على كتاب «الحيل» ورددته إلينا ستزول اللعنة، فما يمنعك؟».

- «الموجو».

تعالت همماتهم وتساءلوا عن «الموجو»!

سأله «حمزة»: «ومن هم الموجو؟

- بشر مثلنا من سُكَّان المملكة وهبوا أنفسهم للديجور الجحيم، للعتمة، يعيشون في درب من دروب برج «بابل»، يتعاونون مع «الغضافر» حيث يُمدوّنهم بأسماء كتب العلماء ليبحثوا عنها ويحضروها لهم، وعندما يأتونهم بها يتولون مراجعتها وحرقها من أجل الارتقاء إلى مرحلة أكثر قتامة ممّا هم فيه، حينها ستبرز لهم أجنحة سوداء عظيمة وسيرحلون من هنا».

- مثل «غُدفان».

- نعم، والكتب معهم، وأنا أنتظر يوم اشتعال نار المحرقة مَرَّةً أخرى، فهي تخمد للليل ثم تعود فتزداد اشتعالاً وتزار من أجل التهام المزيد، حينها سأكون هناك مع الطوافين الآخرين وكلّ مَنْ سيلحق كتابه وينقذه قبل أن يسقط في النار.

قال «حمزة»: «فلنذهب معك إليهم».



- لن تروا شيئاً، العتمة هُناك شديدة، والظلمة حالكة، لهذا أعيننا كذلك. والاقراب من النار فيه خطورة، كما أنكم ستحتاجون إلى وثبة قبل أن تسقطوا في قلب النار، وهذا يستطيعه الطوافون فقط.

- يا إلهي!

- على العموم سأذهب بعد قليل لأرى هل اشتعلت النار أم لا، فقط أنتظر زوال الألم من صدري.

عاد «محمد» إلى حدثه ليوزع المهام وقال: «سيدة «أيسن»، هل من الممكن أن تضعي خطة مع «أورماندا»؟».

- سأفعل.

- «برهوم» هل من الممكن أن تصنع المزيد من المطارق أنت ومن معك من «الكنادرة»؟

التفت «برهوم» إلى «الكنادرة» الوراقين الذين تحرروا من المعبد وقال: «سنفعل».

نظر «محمد» إلى «خولنجانة» وطيفها يتلاعب في الهواء وسألها: «خولنجانة»، ما الذي ستقدمينه لنا أنتِ و«قيصوم»؟.

- ما زال تواصلني معه ممنوعاً بيننا حاجز لا ترونـه، لكنـنا نرى بعضـنا بشكل واضح، سأعمل على تشتيـت الـ«سيـروـش» عندما تحتاجـون إلى هـذا.

قال «قيصوم» بعد أن نقل إليه «محمد» ما قالـته «خولنجانة»: «سأكون معـها لأنـشت انتـباـه الـ«سيـروـش»».

قال «أنـس» وهو يتبادل النـظـرات مع «محمد»: «جيـش «غـدافـان» يـحتاج إلى جـيش آخر يـواجهـه، رـجال وـسـلاح وـمـقاـومة فـرسـانـ كـ«المـغـاتـير»، وهـؤـلـاء لـا مـثـيلـ لـهـمـ، لـدـيـنـا وـاحـدـ مـنـهـمـ فـقـطـ».



واللقت نحو «طيفور» الذي قال بحماس: «لو كانت الصُّور تُحلق فوق «بابل» لأنّوا، ولو كانت الممرات تُفتح إلى هُنا لمُرُوا بها، ولو كان الطَّوَافون يستطيعون الوثوب من هُنا إلى هُنّاك ثُم يعودون حاملين المغايير لكان الأمر أسهل، أرض الرَّافدين عالم منفصل من عوالم مملكة البلاغة».

- وكيف أتيت أنت إلى هنا؟

- تسلّلت دون علم أي وخالفت أوامره وقوانين مملكة البلاغة.

قال «حمزة» في حسرة: «ظننتُ أن الـ«سيِّوش» الشرفاء سيقنعون عامة الشعب بالانضمام إلينا، لكنَّهم رفضوا التعاون معنا».

اقرب «ريموش» وقال بحماس شديد: «دعني أتحدث إلى شباب «بابل»».

انفرجت أسارير «محمد بن موسى» عندما رأى بصيص حماس يُطل من عيّي «ريموش».

اقرب منه «أنس» وهمس له: «أستطيع الآن العودة إلى القصر يا «محمد»، وأنت مكاني هنا».

أقبلت «ميِّسون» وقالت بصوتها المُميّز: «سَيِّد «أنس»، انتظر حَتَّى الصباح. فغُدفان يزورها دائمًا تحت جُنح اللَّيل، ولا أظُنُّها ستُعرِّض «رواء» للخطر، فهي تحتاج إليها للحصول على الملك الذي تطلبه».

أقبلت «فرح» بالمرأة وقالت: ««رواء» مع «لارسا»، ومعها قزمتان هُنّاك».

تعرفت ميسون على زميليتها عندما رأت وجهيهما في المرأة، أدركوا جميعًا أنَّ «رواء» بخير، فقرَّ أنس الانتظار إلى الصباح، وبدؤوا يستعدُّون للنوم في ساحة بيت العجوز التي أُنست بحضورهم بعد سنوات طويلة عانت فيها الوحدة.

وبقي «أنس» يتَّرقَّب انطواء آخر ذيول أردية الظَّلام ليعود إلى القصر



\*\*\*

## غابة «الحدابير»

سهرت «أورماندا» طوال الليل تُحاول حياكة تعويذة جديدة لتنزع رائحة الغاز عن «خولنجانة» فقد نشأت بينهما صدقة من نوع خاص. فشلت كعادتها وحولت رائحتها إلى رائح آخرى عَدَّة مَرَّات، منها رائحة أيقظت «فرح» من نومها من شدَّة كراحتها.

قالت «فرح» وهي تُخرج شيئاً من تحت وسادتها: «هذا عود ريحان حملته من شجرة مررت بها في طريقنا إلى البيت هنا، لا تزال رائحته عالقة بيدي منذ أن اقتطفته. جربني يا «أورماندا».

أمسكت «أورماندا» عود الريحان وقربته من أنفها وتشممته بعمق وفركته بين كفَّيها ففاح عبقه وملاً أنفها، ثمَّ أغمضت عينيها وحاولت التركيز، شعرت وكأنَّها تُحلق فوق بُستان رحب وعامر بأشجار الريحان، عادت تفرك العود وتسخره بين يديها ثمَّ وضعته في علبة «خولنجانة» وأغلقتها، لحظات قليلة مَرَّت وهي تتبادل النَّظرات مع «فرح».

ثمَّ قالت بحزم «الآن».

فتحت «طيف» الغلبة فخرجت «خولنجانة» وهي تقهقه من فرط سعادتها. ظلَّت تدور وأساورها تُقرع وتُخشش وجميعهن يبتسمن لرؤيتها تفعل هذا، وأسعد هذا الجميع حتَّى البنات الوراقات، وفور أن فاحت رائحتها انطلقت تطوف بالبيت. وبقي أن يزول الحاجز الذي يحول بينها وبين قيصوم الذي أسكنته العجوز «أيسن» جرَّة



فخارية عقاً لها، حتٍّ لا يُعاود اختراق أجساد الشباب كما فعل مع «عمر». كانت لا تثق به كما كانت لا تثق بـ«خولنجانة».

مَرَ الوقت سريعاً ومدينة «بابل» تلملم وتضم خيوط الليل السوداء ل تستمد منها القوة.

نام حمزة والمرأة في يده، كان يطالعها من وقت إلى آخر فقد كان نومه متقطعاً. أمّا أنس فكان يتعرج شروق الشمس ليعود إلى القصر. مرّت الساعات السابقة لاستيقاظ الجميع ثقيلة عليه، كان الشباب قد ناموا جميعاً بساحة البيت، عندما حان وقت ذهابه إلى القصر صحبه «قيصوم» بعد أن أخرجته العجوز من الجرّة ووعدها ألا يخترق جسداً آخر هنا، وانضمت إليها «خولنجانة» ليلهيا الـ«سيروش» على الأبواب.

حمله «عمر» إلى بوابة القصر وقال له: «لم أنجح في اقتحام القصر قط. لم تُفتح لي الأبواب كما فتحت لك، ولم أتمكن من الوثوب إلى داخله».

- هذا يعني أنّها سمحت لي بالدخول عن قصد في المرة السابقة.

- هذا أكيد.

- ارحل أنت يا بني إلى البرج، لعلك تعود بكتاب «الحيل».

- في أمان الله يا عماه.

وثب «عمر» وانصرف تارِكاً «أنس» أمام بوابة القصر، لم يفتح الباب هذه المرأة وحده، رفع عصاه وطرق بها الباب، فُتح بعد وقت يسير وظهرت أفواج من الـ«سيروش»، كان عددهم أكبر فلم يتمكّن من الهرب منهم هذه المرأة. أطاح أحدهم بعصاه وحملوه من أطرافه الأربع، حاول «قيصوم» تخلصه ونجح في إسقاط بعضهم بالفعل، أمّا «خولنجانة» فأخذت تصيح وكان لصوتها رنين حاد مُجلجل جعلهم يفرون منها، برزت «عشتار» واستحضرت عشيرة الجن المسخّ لخدمتها فتصييدوا «قيصوم»، فأصيبت «خولنجانة» بصدمة، وعندما اختفى معهم عادت



إلى بيت «أيسن» وصوت عويلها يزلزل أركان «بابل»، كان الجنود يحملون «أنس» ويسيرون به حيث أمرتهم الملكة «عشتار»، سيلقونه في غابة «الحدابير» جزاء لما فعله فقد كان سبباً في هروب الوراقين واحتفائهم، وحان وقت الخلاص منه، أرادت أن تراه وهم بنهشون لحمه أمام عينيها فتبعتهم في موكبها على جواد أصحابه، وتبعها الكثير من الـ«سيروش» الشرفاء، الذين رفضوا دعوة أنس للحوار من قبل.

وصل الموكب وكان الحُرّاس يتقدموه حاملين «أنس»، سمعت الحدابير أصواتهم وتشممت رائحة أنفاسهم فأقبلت وكان لها صوت تنخلع له القلوب. ألقى الحُرّاس بـ«أنس» وتراجعوا، ووقف الجميع يتربكون مشاهدته وهو يُمْرَّق إلى أشلاء أمام عينيهما.

أمرت «عشتار» جنودها بإلقاء عصاها إليه، وقالت ساخرة: «ها هي عصاك أرنى كيف ستتفعل!».

التقط «أنس» عصا ووقف يتمتم بالدعاء، كان لديه يقين أنَّ الله سيُنقذه، كان يسمع أصوات الحدابير، حاول الخروج من الغابة فحاصروه ولم يُمكّنوه فركض إلى الناحية الأخرى ليحتمي بشيء فوجده أمامه فجأة! إلهي الجمل الذي رحمه وأنقذه من الفخ!

تختلط رفاته من الجمال الأخرى وكادوا ينهشون «أنس» فضر لهم بعنقه، دار بينه وبينهم حوار لم يفهم كنهه أحد، فتلك لغة لا يفك شفراتها البشر. كلماتها من نوع آخر لا تستقيم حروفها على السطور، بل على حواف القلوب تحكي قصصاً عن الرَّحمة، وتُلقي الأشعار عن الرِّفق، تُخبرنا عن لحظات العرفان بالجميل وطيب الآخر الذي لا يُنسى ولو مرَّ عليه الزمن، عندما نُحسن لأحدهم أو تنتشهه من غيابه جُب وتمضي غير عابٍ باثار التناوش على يديك، إنها ترجمة من تراث الحب!

تراجع الحدابير<sup>(١)</sup> وانصرفوا طائعين أكبرهم، وبقي الحِدبار هناك حيث كانت أنفاس «أنس» تتسرّع وهو يكاد يلقط قلبه من فمه من فرط الانفعال، انحنى الحِدبار أمامه ومسح رأسه بصدر «أنس» أمام «عشتار» وحاشيتها. أخذوا يحدقون تجاهه بشيء

(١) الحدابير: جمع حِدبار وتعني الثآفة الضامرة التي ذهب سُنامها.



من الرهبة والتجليل، رفع «أنس» يده ومسح على رأسه، ظلَّ مادًّا لعنقه فأدرك «أنس» أَنَّه يدعوه لركوبه فارتقي ظهره، واستقام الجِدبار ورفع «أنس» رأسه ونظر إلى «عشتار» بشموخ وهو يردد بصوت جهوري ونظرة ثاقبة: «لا تظُنْ أَنَّ لِكِ الغلبة هُنَا، الْأَمْرُ كلهُ لِلَّهِ».

كان «أنس» ثابتاً كالجبل الأشم. تلك القوة التي أظهرها لم تكن مجاناً فقد دفع الثمن غالياً من تجارب شتى، مرّ بمعارك ظن فيها أَنَّه قد هلك وكان صامداً يتنفس على يقينه بالله، ما عاد يُخيفه المجهول، دائمًا هُنَاك لحظة فارقة فيها إضاءة ينقشع أمامها ضباب الخوف.

أطلق الجِدبار صيحة وركض بـ«أنس» خارجاً من الغابة، وعاد موكب «عشتار» إلى «بابل» والغيظ يأكلها، فقد انطفأت ففراقيع غرورها، روى الـ«سيروش» الشرفاء لأهل المدينة ما حدث، وانتشر الخبر بينهم من فِيم إلى آخر، أمّا في بيت أيسن فقد كان أبناء «أنس» يحبسون أنفاسهم وهم يُراقبون أباهم بالمرآة، بكت «فرح» عندما أنجاه الله من الحدابير، وأطلقت أيسن عالمة في الهواء تستدرج الجِدبار الذي يحمل «أنس» إلى أقرب بوابة من بوابات «بابل» لبيتها. اجتمعوا حولها يسألونها عن «قيصوم»، فأخبرتهم أَنَّ الأمر جُدُّ خطير وعليهم إخبار عشيرة «الجلahem».

رفع «محمد بن موسى» صوته قائلاً: «أرسلوني إلى ملك «الجلahem»، أدرك ما يدور برأسه الآن، لا ريب أَنَّه غاضب من عصياني ولده، علينا أن نستميل قلبه ونحفره لنجعل غضبته على العَضافر بدلاً من غضبها عليه ليتصدوا لهم وبخلصوا أهل «بابل» منهم».

- ولكن كيف ستذهب؟

أقبلت «طيف» بمظلتها وقالت: «أنا هُنا ولكن أريد شيئاً من حدائق بابل لأضعه في جيب المظلة لنتقلنا إلى هُنَاك».

بعينين دامعتين أخرجت خولنجانة زهرة يابسة كان «قيصوم» قد أهداها إليها منذ أعوام طويلة وكانت تحتفظ بها، وضعتها «طيف» في جيب المظلة، وانتقلت ومعها



«خالد» و «محمد بن موسى» إلى حدائق «بابل» المعلقة، ساعدتهم «خولنجانة» وعادت لتبقى مع «أورماندا» فقد خافوا عليها من بطش الملكة التي قد تقتلها في الحال لأنّها كانت سبباً في فرار «قيصوم».

\*\*\*

## المحرقة

وصل «عمر» إلى برج «بابل» كان «الموجو» قد انتقلوا إلى مرحلة أخرى من مراحل طقوسهم التي يؤدونها، أزالوا طين الرماد عن أعينهم، ووقفوا حول المحرقة والنار لا تزال خامدة تحت جمارها نُضيء وتنفح حرارة وضوءاً أحمر، بدأ لهيبها يتصاعد وهي تكاد تميز من الغيظ، ترحب في التهام المزيد من الكُتب ل تستحيل رماداً يُنثر مع هبات الرياح من فوق برج «بابل»، كان «الموجو» يُمسكون بالكتب بينما هم في طابق أعلى، بدؤوا يُلقون كتاباً تلو الآخر تجاه النار وهي تلفح أطراف أصحابهم.

الكتاب الأول، رددوا اسمه فظهر طواف فجأة وجسده يقطر ماء، وألقى بنفسه خلفه والتقطه قبل أن تلتهمه النار واختفى بقفزة أخرى إلى مكان آخر بأمان.

الكتاب الثاني، رددوا اسمه، لم يظهر طواف والتقمته النار فالتوت أطراف أوراقه وسرت حمرة النار فيها في لمح البصر.

الكتاب الثالث، ظهر طواف والتقطه فور أن تركه أحد «الموجو» من يده وقبل أن يطير الكتاب للحظة في الهواء، فهاج بقية «الموجو» غاضبوا بسبب ظهور الطوافين، توّفّقوا وبدؤوا يتلقّتون حولهم، ظلّ «عمر» يتنقل من مكان إلى آخر وهو لا يزال مُتعباً، وكان كلما تجفّ ملابسه يثبت إلى النهر فيغطّس فيه ويعود، تضمنّت طقوس حرق الكُتب التغيّي بترانيم غريبة، ظهر من قلب النار مسخ له جناحان وانطلق يطوف بالنار ومن حولها، شعر بوجود «عمر» فطارده حول المحرقة، دلف «عمر» السراديب المظلمة فتبّعه هذا المسخ وأصابه بجرح عميق في كتفه، وثب «عمر» هرّباً منه إلى مدينة «بابل» لعلّه يصل إلى بيت «أيسن» فالتحقى «أنس»



هُنَاكَ وَكَانَ مَقْبِلًا مِنْ جَهَةِ بَوَابَةِ قَرِيبَةٍ مِنْ بَوَابَاتِ «بَابِل»، فَرَأَى «عُمَرَ» وَهُوَ يُعَانِي  
وَلَاحَظَ جُرْحَهُ فَهَرُولَ نَحْوَهُ لِيُسَاعِدَهُ.

قَالَ «عُمَرُ» بِخَفْفَوتٍ: «لَقَدْ بَدَأْتِ الْمَحْرَقَةَ».

- وَكِتَابُ «الْجِيلِ»؟

- سَيَأْتِي دورُهُ حَتَّمًا وَلَا بُدَّ أَنْ أَعُودَ.

- دَعْنَا نَضِمَّدُ جَرْحَكَ أَوْلَأَ ثَمَّ عُدْ يَا بْنِي، أَمْلَنَا فِيكَ كَبِيرًا.

دَلْفَا بَيْتِ «أَيْسِنْ»، أَقْبَلَتِ مِيسُونَ وَوَضَعَتْ مَسْحُوقًا قَابِضًا عَلَى جَرْحِهِ لِيُوقِفَ  
النَّزِيفَ، فَأَسَعَ «طِيفُور» وَمَزَقَ إِزَارَهُ وَرَبِطَ جَرْحَهُ، كَانُوا جَمِيعًا حَوْلَهُ فِي تَآزِرٍ، بَدَأْتِ  
وَتِيرَةُ الْقَلْقِ تَتَصَاعِدُ، فَ«عِشْتَار» عَادَتِ إِلَى قَصْرِهَا غَاضِبَةً وَ«رِوَاءُ» فِي خَطْرٍ. قَرَرُوا  
السِّيرُ فِي الطَّرِيقَيْنِ مَعًا، «عُمَرُ» يَعُودُ لِيُسْتَرِدُ الْكِتَابَ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ سِيَّتُوجَّهُونَ  
لِلْقَصْرِ وَيَبْذِلُونَ جَهَدَهُمْ لِإِنْقَاذِ «رِوَاءَ»، وَالْمَدِينَةِ كُلُّهَا.

عَادَ «عُمَرُ» إِلَى الْمَحْرَقَةِ، وَتَوَجَّهَ الْجَمِيعُ نَحْوَ السُّوقِ لِيُجْمِعُوا النَّاسَ، وَبِدَا الْوَرَاقُونَ  
يَطْرَقُونَ أَبُوبَابَ أَهْالِيهِمْ، وَشَاعَ فِي الْمَدِينَةِ أَنَّهُمْ عَادُوا، وَتَوَافَدَ النَّاسُ عَلَى الْقَصْرِ  
وَبَدَأْتِ «بَابِل» تَتَهَيَّأُ لِحَدَثٍ عَظِيمٍ.



## سيروش

كان السحاب يزحف كطائع الجيش وسرىعاً ما افترش السماء فاستحال سواداً. شعر «أنس» بالخطر، جمع أبناءه ورفاقهم ووضع خطة دقيقة مُحكمة ليلتزموا بها، وتركهم مُغادراً «بابل» على أن يعود سريعاً، وبينما كان يركض بجواهه خارجاً من «بابل» كان هناك سرب من الغربان يُقبل محلقاً نحو المدينة، طافت الغربان في حلقات حول أسوارها وهبَّت رياح عاصفة، أقبل الناس من كل حدب وصوب والجميع يرفعون رؤوسهم نحو السماء يُراقبون الغربان العملاقة، بينما نعيق تلك الغربان يزداد وكان لصدى صوتهم مهابة فوق الخوف في قلوب أهل «بابل»، أقبل «غُدفان» بجناحين أسودين عظيمين وصرخ صرخة مجلجلة هَرَّت الأرجاء، كان الغضب يُضيء أحشاءه، تعالى صياغه بجنون وقف أمام «عشتار» وانحنى ليضم جناحيه إلى ظهره، فُتحت بوابة «عشتار» وتدقق جنود «غُدفان» من خلالها ليقتسموا المدينة وأحاطوا بالقصر، وقف «عشتار» تتباهى بجنودها وجنود «غُدفان» وبرز الجنُّ من «الغضافر» على الجانبيين، أجمل أهل «بابل» وتراجعوا جميعاً عندما رأوا الحشد المُخيف والظلمة تكتنفه وكأنَّها تؤطر مشهدًا من الجحيم وتبُرَّزُه، فهرب الكثيرون إلى بيوتهم وغلقوا الأبواب.

أقبل «حمرة» يقدم عامة الشعب، ومعهم رتل عظيم من الـ «سيروش» الشرفاء، فقد قرروا الانضمام إليهم أملاً في القضاء على «عشتار» والتخلص من لعنتها التي مسختهم إلى وحش وَكَانَ هَذَا بَعْدَ عِلْمِهِم بمساعدتهم للوراقين وتحريرهم لهم وعودتهم إلى أهاليهم، بينما كان «ريموش» والوراقون وشباب المدينة يتواجدون وفي أياديهم المطارق التي صنعتها أقزام الكنادرة.



ألقت «أورماندا» تعويذة على الـ«سيروش» المحيطين بالقصر وقالت مخاطبة عامة الشعب: «أحضاروا أبناءكم وخلصوهم من براثن «عشتار» وسحرها».

هرول الجميع وقلوبهم ترجم من خوفهم على أبنائهم، تمكّنوا من اقتياد الجنود، فقد كان لكل عائلة منهم فرد ممسوخ هناك، ساروا معهم طواعية وكأنّهم منّون، فأخذ الناس يتأملون بعضهم في ذهول، كيف يسوقون تلك الوحش التي كانت تقتلهم بالأمس القريب؟ دارت حوارات بينهم وضجّ المكان بأحاديث وأصوات مرتفعة، توّلّ الـ«سيروش» الشرفاء مهمة الشرح، سلسلوا أبناءهم المسحورين حتّى تنزول اللعنة عنهم، وتعود أشكالهم كما كانت.

طلب أحد الـ«سيروش» الشرفاء من الجميع التراجع خلف «أورماندا» وأن يبقوا وراءها وألا يتقدموها مهما حدث ومهما رأوا منها ففعلوا طائعين كانت أعين الجميع معلقة بها، يتساءلون هل تلك الفتاة الرقيقة الشقراء التي تُشبه شجرة الليلك ستستطيع إنقاذ سُكّان «بابل» من لعنة «عشتار» أم لا.

التفت نحو «عمر» الذي كان قد عاد للتو بوثبة سريعة وكان يقف متأنّهًا بينهم يرغب في المشاركة، بحثت عن حمزة بعينيها كما أوصاها «أنس» أن تفعل في اللحظة المناسبة، فأومأت إليه فقطن إلى مرادها وأوّلًا برأسه وتوجه نحو «عمر» وقال له: «لن ينجح السحر وحده. عُد إلى بُرج «بابل» واسترد الكتاب ورد العلم إلى أصحابه، أرض الرّافدين تُناديك».

وقف «عمر» متأنّب للريحيل ونفسه تنزع للبقاء بينهم، أراد أن يُفیدهم بوثباته فقد يستطيع إنقاذ «رواء» إن أخرجوها من القصر، لأنّه لا يستطيع ولوّجه، لكنّهم ذكروه بالكتاب كان يختفي ويعود، ثم يختفي ويعود، وثبات عديدة أرهفته، كان يتّابع ما يدور بالبرج ليتحين اللحظة المناسبة لإنقاذ كتاب «الحِيل»، ثم يعود ليتابع ما حدث حول القصر، عاد بوجه محظوظ وانحنى وهو يُعاني أثر تكراره لللوثوب في وقت مُتقارب.

قال «حمزة» ليُشجّعه: «أثبت يا «عمر»، الطّوافون لا ييأسون!».



وتب «عُمر» هذه المرة واختفى لفترة أطول فعندما عاد إلى بُرج «بابل» كان «الموجو» يزملجرون حول المحرقة، لقد آن الأوان لحرق المزيد من الكتب.

وقف يتابع أسماء الكُتب وقلبه يكاد يثب من بين أضلاعه من فرط الانفعال. وصل الكثير من الطوائفين الآخرين بعده، أطلت وجوه شباب العراق تباعاً وهم يطوفون لإنقاذ تراثهم وأمجادهم وتاريخ أجدادهم، كان كل واحد منهم يُحاول أداء مهمته ليrid الكتاب إلى صاحبه تبادلوا النّظرات في صمت. لم يكن هناك مجال للحوار بينهم، فالجميع يتحرك هنا بحذر، فالنار اللافحة تستطيع التهام الواحد منهم في ثانية، توالت قفزاتهم بمهارة لإنقاذ الكُتب والقليل من الكُتب سقط بالفعل وأكلته نار المحرقة، ظلَّ «عُمر» على حاله ينتظر الكتاب المقصود والعرق يُغرق جبينه، ودقات قلبه تتواتب في جنون بين أضلاعه.

في الوقت ذاته هناك في «بابل» حول قصر «عشتار» ظهر المزيد من «الغضافر» وتكانفوا هناك ظلتْ «عشتار» لوهلة أنَّ الأمر قد انتهى بحضورهم، لكنَّها فوجئت بظهور طائفة من الجنِّ لم ترهم من قبل، كان هؤلاء هم «الجلahem»، عشيرة «قيصوم» التي أقبلت في كوكبة عظيمة يتقدمهم ملكهم، وكان «خالد» و«طيف» و«محمد بن موسى» قد سبقوهم بالمظلة.

طلب ملك الجلاهم تحرير ابنه الأمير من الأسر فرفض «الغضافر». فتعملق غضبه وثار كالبركان.

دارت حرب طاحنة بين العشيرتين كان لا بد من خسائر من الطرفين لكنَّ عشيرة «الجلahem» كانت الأقوى شوكة، فقد كانت لهم الغلبة بسبب كثرة عددهم، فـ«الغضافر» فقدوا الكثير من أبنائهم بسبب «عشتار»، لقد قبضت بحماقتها على أهم جنودها، وأرهقت عشيرة الجنِّ التي كانت تقدُّم لها الولاء وكسرت شوكتهم بكثرة الضغط عليهم والتضحية بهم من أجل رغباتها. استطاع «الجلahem» تحرير «قيصوم» من أسرهم، وبينما يُقبل على أبيه انقضَّ عليه زعيم «الغضافر» وأراد الفتک به غدرًا، فتصدَّت له «خولنجانة» وحالت بينهما ومنعته من إيذائه، وبدا عليها التأثر، سُحقت، تقزَّمت، ظلَّ صراخها يتزايد ثمَّ ضعف الصراخ وخفت حتى كادت تنطفئ إلى الأبد لو لا تدخل الملك الذي سحبها بعيداً ليخلصها وتعملق ودار



في دوّامة حول زعيم «الغضافر» وقام بضرره ضربة صاعقة بصولجانه فتلاشى كيانه في طرفة عين، حينها ارتعد من تبّقى من «الغضافر» وفرُوا من «بابل» في الحال.

تأخر «أنس»، تلقتوا في حيرة لكن «أيسن» طمأنتهم وطلبت من «أورماندا» أن تنقذ الخطة التي رسمها لهم، ضربت أيسن على ظهر جواد «أورماندا» فانطلق يركض ويهملاج في المدينة، طفت «أورماندا» تردد شيئاً وتهمس به وهي تطوف بجوارها في طرقات «بابل»، وكان «طيفور» يتبعها بجواره وقلبه يكاد يثب من بين أضلاعه خوفاً عليها، بدأ أهل «بابل» يُقبلون نحو القصر من كل حدب وصوب.

طَوَّقَتْ «فرح» فمها بكَيْفِيَّها وصاحت: ««أورماندا» هل تثقين بما تفعلينه؟».

- نعم يا «فرح».

- «أورماندا» أرجوكِ اقتربِ!

هرولت نحوها وانحنت فهمست «فرح» وهي تُحدّق إلى عينيها: «تحتاجين إلى بيديِّ عظيم لتحراري به».

- ليكن هذا!!

- «سيروش» يا «أورماندا»، احرقيها بلعنتها.

هزّتْ «أورماندا» رأسها ثُمَّ همسَتْ وعييناها تبرقان: «سأريكِ يا «عشثار» كيف يكون الـ «سيروش»!».

أسرع طيفور» بجواره ليوازيها وصاح قائلاً: «لا تؤذِي نفسِكِ».

قالت دون أن تلتفت: «ثق بي ولو لمرة واحدة!».

تعالى صرت «الحداير» وهي تقترب من أسوار المدينة ففزع النّاس. كان «أنس» يتقدمهم وهو يركب الحدباء الذي أنقذه ويعرفه، اقتحموا بوابات «بابل» ودلّفوا حتّى وصلوا إلى حيث يجتمع النّاس، ترجل «أنس» وترك الجنديار بين أترابه، صاروا



يُطِيعُونَ «أنس» وَكَانَهُ سِيدُهُمْ، الْآنُ يُحرِّكُهُمْ بِطَرْفِ عَصَابَاهُ!

أوقفهم «أنس» في صفوف أمام الجميع، وأشار لـ «أورماندا» لتبدأ بدورها، كانت «أيسن» تقف خلف «أورماندا» لتعجزها فقد أدركت أن تلك الفتاة تملك قوَّةً جبارة، والآن حان وقت استخدامها كما ينبغي، بدت «أورماندا» أكثر قوَّةً من ذي قبل، كانت تسير في شموخ بخطوات واثقة تجاه «الحدايبير»، لم يرف لها جفن وهي تثقب أعينهم الواسعة بنظراتها.

همس «خاندان» لـ «طيفور» قائلاً: «وَكَانَهَا لَيْسَتْ «أورماندا»!».

قال «طيفور» وعييناً تتدبرجان في قلق: «غادرت الفراشة شرنقتها! يبدو أنَّ وقت التحليق قد حان».

رفعت يدها في الهواء وكانت تردد كلمات لم يفهم كنهها أي ممَّن كانوا حولها، وأخذت تحرَّك أطراف أصابعها وَكَانَهَا تُحْيِكُ شيئاً ما.

همس «طيفور»: «تُحْيِكَ تعويذة جديدة! أرجو أن تنجح هذه المرة».

انبثق ضوء من طرف إصبعها فتعالت صيحات النَّاسِ وهم يُراقبونها، رأوها ترسم الـ «سيُروش» في الهواء، لكتَّها أضافت إليه جناحين عظيمين، صاحت «فرح» لتشتمل عليها: «الحدايبير» يا «أورماندا»!».

كان لصوت «فرح» صدى مميز فتردد في الأجواء وصاحبها زنين عجيب، التفت الجميع تجاهها عندما سمعوه، حتَّى «أورماندا» فقطنت لمُرادتها في الحال فرفعت يدها ودفعت دفقات من نور صوب الحدايبير، ظهرت ندف ملوَّنة من أوراق الهندباء وتبعثرت في الهواء، تعالى الصياح واختلط صوت النَّاسِ بصوت رغاء الحدايبير التي هاجت وماجت وأخذت تقفز في مكانها، برز لكلٌّ منهم جناحان عظيمان من ضوء أخضر خلاب، تغيرت ملامحهم وتحول كلٌّ منهم إلى وحش من وحوش «سيُروش» المرسومين على بوابات «بابل» وطفقوا يبصرون النَّارَ من أفواههم.

حلَّقوا فوق قصر «عشتار»، عندما أشارت إليهم «أورماندا» وبدؤوا الهجوم، وكانت



تلك إشارة بداية المعركة لباقي الفرق.

انطلق «طيفور» بجواهه وببدأ يرشق من يهاجم أورماندا من جنود «غُدفان» بالسّهام، أمّا «حمزة» و«خالد» وباق شباب «بابل» والوارّاقون فقد أخذوا يلقون بالمطارق التي كانوا يرمونها فتضرب الرؤوس والسيقان وتعود إليهم، وبقي «أنس» يسير بجوار «فرح» وعيناه معلقتان بالحداير وهي ترتفع في السّماء وقد استحالت مخلوقات عجيبة كما رُسمت تماماً على الجدران وكأنّها خرجت من النقوش على البوابات، تبصق النار من أفواهها وتتطير وتحلق هنا وهناك بدأ الـ «سيروش» المحلّقون في السّماء يحرقون جنود «غُدفان» واحداً تلو الآخر، وكان معهم قلة ممّن بقي إلى جانب «عشّار».

وأقسموا على الولاء لها على الرّغم من تحرّر عقولهم من أسرها، فهم خائنون على أي صورة كانوا، أمّا الشرفاء بحق فقد حُقنت دمائهم بالحماس بعد أن تخلصوا من خوفهم من «عشّار».

صرخ غُدفان غضباً وكانت عيناه تشتعلان كجمرتين عندما رأى «حمزة»، كان ثائراً كعاصفة هوجاء.

قال بصوت رجج الأجواء: «الآن يا حمزة».. سأثأر لوالديّ».

انخلع قلب «أنس» وارتজفت يداه، انتابتة نوبة من الهلع على «حمزة»، رفع عصاه وشدّد قبضته عليها وكأنّه يُحاورها بلغة خفية خاصة، ضرب الأرض بها فاهتزت وزُلزلت تحت أقدامهم، وأحدثت أخدوداً عميقاً بين «عشّار» و«رواء» في جهة، و«غُدفان» و«حمزة» في الجهة الأخرى، أراد «أنس» أن يُبعد «رواء» عن يد «غُدفان» ليطمئن «حمزة».

استل «حمزة» السيف الذي صنعه له الكنادرة ووقف قبلة «غُدفان»، بدأ كلّ منهما يتارجح في مكانه من شدّة الغضب انقض «غُدفان» عليه وببدأ يضرره، وكان «حمزة» يصدُّ ضرباته بمهارة، كان السيف يضوي مع كل ضربة وببدأ يُطلق شراراً فتراجع



«غُدفان» إلى الخلف ثم انقضّ عليه فجرح ذراعه، طرحا سيفيهما وتصارعا وأخذ كلّ منهما يُكيل الضربات للآخر ثمّ عادا للقتال بالسيوف، كان «حمزة» مشحوناً

بطاقة جباراً، فهو يصدُّ الخطر عن قرة عينه «رواء» لذلك لم ينفد وقوته، ظلّاً يتنقلان فوق الجسر المؤدي إلى القصر وكلاهما يزداد إصراراً وغضباً وهجوماً على الآخر، انزلقت قدم «حمزة» وسقط، فانقضّ عليه «غُدفان» وأخذ يصارعه كالذئب الذي يطارد فريسته ويعيث بها قبل أن يلتهمها، وكاد يدفن سيفه وسط صدره لولا «طيفور» الذي امتشق سيفه بكلتا يديه وضرب يد «غُدفان» فأسقط السيف منها.

التقط «غُدفان» سيفه واستدار وهو يرشق «طيفور» بنظرة تقطّر حقداً وغلّاً وقال له: «سأحمل رأسك إلى أبيك أيّها العربيد».

لم يطل النزال بينهما، فقد كان «طيفور» بارعاً في المبارزة، جرّده من سيفه للمرة الثانية وأسقطه أرضاً، اشتعل قلب «غُدفان» وتأجّجت نيرانه، قوّس جذعه وأبرز جناحيه، انقضّ على «طيفور» وأحاطه بهما، وجهاً لوجه، رأساً برأس، وأنفًا بأنف، وريشة فوق ريشة تصطف حتى أطبق على جسده، وطفق يعصره عصراً، بدأ التدانيا تستabil سواداً في عيّي «طيفور»، ضاقت أنفاسه، كان «حمزة» هناك يضرب بأقصى قوّته على كتفي «غُدفان»، لم يُحرر «طيفور» وزاد من الضغط عليه، استل «حمزة» سيفه، وبصرية فارس بتر الجناح الأول فارتخي وبدأ «طيفور» يتنفس، ثم أدار «حمزة» سيفه في الهواء وبتر الجناح الآخر، تحرر «طيفور» وتراجع إلى الخلف فاستدار «غُدفان» كإعصار وانقضّ على «حمزة» الذي كان مستعداً لهجومه فقفز في الهواء وضريه في صدره بقدمه اليسرى فأسقطه على الأرض، وأحاط عنقه بذراعه وبدأ يخنقه، رنا إلى «طيفور» الذي أقبل بعد أن استرد أنفاسه ممتنقاً سيفه البثار، وريض على صدر «غُدفان» وجاءت اللحظة التي يكرهها، فهو يُشفق على عدوه في اللحظة الأخيرة.

كاد يضعف ويتراجع لولا صوت «حمزة» الذي شقّ حنجرته وهو يقول: «الآن» يا «طيفور»!».

ارتجمف جفنه وهو يفعلها! رفع سيفه وأمسكه بكلتا يديه وغرزه في منتصف صدر



«غُدفان»، الآن ثأر لكل نفس بريئة ذاقت ظلمه وقهره، رحل ملك الديجور بكل القتامة التي كانت تجري في دمه، قام عنه «طيفور» والتفت كالصقر ليُكمل دوره كفارس من فرسان «المغايير»، وكيف لا وقد قتل للتو قائد أكبر جيش يُحاربونه! ملك العتمة والديجور، ولد «القلقديس» و«القلقطار»!

وقفت «عشتار» ترجف أمام قصرها، ظلت تزوم كذئبة تتلهَّف للدماء، كان ثوبها البراق من فرط ارتجافها يضوِّي ويُرتعش عليه الضوء، رفعت ذراعيها فبسّطت أكمامها الواسعة وكأنَّها شيطانة بجناحين تلاشى الجمال وتواتر علاماته وبانت على صورتها الحقيقية، جحظت مقلاتها وتعلّق كيانها وبرزت عظام وجنتيها من تحت جلدتها القاتم، رفعت رأسها عندما أضاءت السماء فجأة ببروق متواالية، كانت «روا» تحت قدميها مُخدّرة، سرت جذوة الغضب في صدرها بعد أن رأت مقتل «غُدفان» بعينيها، كانت حانقة على «طيفور» لأنَّه قتله وفاجأها حضور أورماندا! هدرت بتعويذة ضربت بها «طيفور» فأسقطته أرضاً فصرخت «أورماندا» بهلع وأقبلت عليه تتفحَّص نبضه، كان ساكناً كجذتها تماماً عندما تحسَّست أنفاسها قبل دخولهم «بابل».

قالت بخفوت: «لقد مات!»

انفطر فؤادها وكأنَّ خنجراً قد غُرز بقلبها للتو وشَّقَّه نصفين، توَّقفَ الزمن وعلقت في حزنها فصُمِّت أذناها، كانت كتمثال من جليد وكلُّ من يأتي ليتفحَّص «طيفور» كان يصطدم بكتفها بينما هي واجمة، لم تتمكن من البكاء، حرَّكت رأسها بالآلية تجاه «عشتار» فتلاقت نظراتهما.

اقتربت «أيسن» وهمست لها: «احذرِي يا «أورماندا»».

لم تصغِ إليها ولم تفهمها استقامت واقفة ببطء وسارت نحو «عشتار» التي كانت تستدرجها، أوقفتها «أيسن» عدة مرات لكنَّها كانت تطرحها أرضاً، يئست العجوز ولم تجد إلَّا طريقة واحدة، أغمضت عينيها وحاكت صوت الجدة تماماً ونادت «أورماندا» قائلةً بصوت جدتها: «أورماندا»، تعلمين ما عليكِ فعله».



شَلَّت ساقاً «أورماندا»، اخترق صوت جَدَّتها أذنيها فأدخلها في أتون صراع داخلي، قفرت كل التعاوين التي علمتها لها جَدَّتها لرأسها، مَرَّت صور معارك جَدَّتها السابقة بذهنها كومضات سريعة، حَرَّكت ساقيها مرَّةً أخرى وانطلقت كقذيفة لهب لا تملك إيقاف نفسها وهي تُرمي مجر كأسد ضماضم يُقبل على فريسته، الآن ترث تحت سطوة قوَّةً جباره لم تشعر بها من قبل بدأت تُلقي النَّار على النَّحيل المصفوف على الجانبين بيديها، أشعلت الجسر بأكمله، كانت لا ترى أحدًا ولا تسمع من يُناديها، بدت كسهم أطلقه قوسٌ نحو «عِشتار»، هرول «أنس» تجاه «عِشتار» خوفًا على «رواء» من صراع الساحرتين وكانت العصا في يده، أخذ يُنادي «أورماندا» لكنَّها لم تلتفت ارجفت يد «أنس» وشعر أنَّ العصا تضطرُّب في يده، كانت «عِشتار» تبعده وهو يعد ذراعه تجاه حفيتها، رفع العصا وأشار تجاه «رواء» بها ظانًا أنها ستنهله إلى جوارها بسرعة، بدأت «رواء» تتحرك تجاهه فاستيقظت كل حواسه وتمسَّك بالعصا، وأخذ يسحبها إلى الخلف بينما اشتبت «عِشتار» في صراع مع «أورماندا» هبَّت رياح عاصفة كادت تحمل الصَّغيرة معها، كان «أنس» يُحاول الاقتراب وقوى الساحرتين تُبعده.

أخذ يصبح: «أورماندا»، أرجوكِ».

وضعت «عِشتار» قدمها على عنق «رواء»، وكادت تقتلها لولا وثبة «عُمر» المفاجئة أمام «عِشتار» مباشرةً، لطم ساقها بيده واحتضن «رواء» وانتقل بها بعيدًا حيث كان أبناء «موسى» الثلاثة يقفون معًا، فوضع كتاب «الْحِيل» بين يدي «محمد بن موسى بن موسى بن شاكر»، وسلم «رواء» للبيقية ليعتنوا بها. أمسك «محمد بن موسى» بكتاب «الْحِيل» وتحسَّس غلافه، وضع أخوه كفيهما عليه وكانَ الثلاثة يُصافحون كتابهم، اهتَّ الكتاب وفُتح فجأة وطفقت صفحاته تقلب بسرعة شديدة، رأوا كلماته تُنير وتضوي على السطور، ارتفق الكتاب فوق رؤوسهم وانشق منه ضوء شديد ولامع ودار في الآفاق، ثمَّ سقط بين يدي «محمد بن موسى» مرَّةً أخرى فضمه إلى صدره. زالت التعوينة برجوع الكتاب إلى أصحابه، فأضاءت جنبات «بابل» وانزلق الغمام الأسود مُبتعدًا وصَفَّت صفحة السماء، وعادت الوجوه إلى سابق عهدها بلامحها البabilية الجميلة وجرت دماء أرض الرَّافدين في أوردة أبنائهما كما يجري الفرات بأرضها الطاهرة، واختفت سحنة الـ «سيُوش»، حتَّى الحدابير



عادوا جملاً نحيفة وخرجوا من المدينة في هدوء صوب غابتهم.

أمّا الساحرتان فقد اشتَدَّ وطيس الصراع بينهما!

بقي «أنس» عالقاً بينهما، كان يُعاني وكلتاهمَا تُحاول إحراق الأخرى، شعر وكأنَّ عظامه تتكسر، ظلَّ رابضاً في مكانه، طنَّت في أذنيه كلمة الموت وكاد يخر على ساقيه لولا ألطاف الله التي أدركته فثبتَ فؤاده، ارتجَ صوت «أبادول» في رأسه من جديد وهو يصبح: «العصا يا «أنس»!».

كانت «فرح» تنتفض وهي تُراقب أباها وقلبها يخفق خشية أن تفقده الآن في لمح البصر، شعرت بعطفة شديدة تجاهه وودت لو كانت مكانه لتغديه، شُلت ساقاهما من الرعب والفزع ولم تتمكن من السير قيد أنملا، فعلقت عينيها بوجهه وحبست أنفاسها، تحامل «أنس» ووقف ثابتاً بينهما ورفع عصاها ولوَّح بها في الهواء فتحركت رغمَ عنده في شكل دائري وكأنَّها تصنع دوامة، كانت تلك العصا حية كالكتب، تنبض في يديه في تناقض مع نبض قلبه، وكأنَّها تُدرك كنه المعركة، تقرأ روحه وتعلم أنهُ محارب، شعر «أنس» بقوى خفية تدفع ذراعيه وتحاول منعه من تحريكها، بعزمية قوية دفع العصا وقاومها فجمعت العصا قوَّة «عِشتار» على طرفها عندما شعرت أنَّ من يمسكها يحمل هذا العزم والثبات، أوضمت عيناه فجأة وكان الضوء يتخلل جسده بأكمله، رآه الجميع وهو يفعل هذا فتعالت همماتهم، هذا هو نفس المحارب الذي أطاعته الخدابير! بدا على عِشتار الوهن فكان هذا بمنزلة دفعة لـ «أورماندا»، فارتقت في الهواء وكأنَّ هناك من يحملها على غمامات، طفرت دمعة لترجع ما يعتمل في صدرها من حزن وألم وقهر وغضب، أخرجت تلك الفتاة الهشة الرقيقة قواها لتدفعها مَرَّة واحدة في وجه المجرمة التي قتلت والديها وفارس أحلامها الذي كانت تراه في أحلام يقطتها يموج خلف الضباب، وكانت سبباً في وفاة جدّها، الآن ستُمرِّقها إرباً، رفعت يدها وبكل ما أوتيت من قوَّة ضربت عِشتار فأحرقت رأسها والتهمت النار جسدها بأكمله، ثم سقطت أورماندا على الأرض كخرقة بالية وكأنَّها لم تكن تلك التي تُقاتل منذ لحظات! وكان القهر يطفر من عينيها، جثت على ركبتيها وهي في حالة من الحزن الشديد، أقبلت روكانا واحتضنتها وأسندت رأسها على صدرها فبدأت تبكي، الآن تبكي أحبابها.



هرول «خاندان» تجاه «طيفور» وأخذ يمسح وجهه في أسي، ضرب صدره وكأنه يلومه على موته وقال بصوت تخنقه العبرات: «لماذا؟ لماذا؟».

انتقض «طيفور» وصدر منه أنين مكتوم، فتح عينيه فصرخ «خاندان» بذهول: «إنه حي!».

وثبت أورماندا التي كانت تُشبه كرمة العنب الذابلة، لمعت عينها وهي تركض نحوه كطفلة صغيرة.

أقبل «سليمان» وهو يُنادي: «قُم أيها الأقرع، لقد أفزعت قلوبنا».

غمر الفرح الجميع، فقد استراحوا أخيراً من تلك الغمة. كان حمزة يبكي وهو يحتضن ابنته ويتشممها، و«أنس» يستند على عصاه ويسير بينهم ليطمئن على كل واحد منهم، مضى وقت طويل وطرقات «بابل» ممتلئة بهم. يعيدون سرد ما حدث وكأنهم يخشون ألا يكون حقيقة وأن هذا حلم وخیال!

اقرب «أنس» من «طيفور» ومسح على خده بحنان ثم قال له: «أبوك هو الضوء الذي ترجوه، ولکي تسیر على دریه لا بد أن تُظہر من قلبك الاستنارة اللاقنة، لا تکن كالبیت المُقفر الذي يأبی أن يُدخل النور من نوافذہ المشرعة».

- أبي تحت جلدي وخلف أصلعي، وأينما حللت أجده حاضراً معي.

عائقه ومضى تاركاً في صدره حنيتاً للقاء «الزاجل الأزرق». فتَّش عينيه عن «الحسن» فوجده يجلس بجوار أخيه وهم يتفحّصون كتابهم كتاب «الحِيل» الذي وثب «عمر» خلفه والتقطه قبل أن تتمّمه النّار. جلس أحفاد «أبادول» يراقبون أهل «بابل» وهم يمسحون على وجوه بعضهم بعد أن زالت لعنة «عشتار» عنهم. ما عاد هناك «سيروش» يسرون بينهم، لكنه سيقى رمزاً من رموز «بابل» يحكى أمجادها، يشهد على جدران بوابات «بابل» بالتاريخ والحضارة والهندسة والفن، والبناء، والطب، والفلك، منذ طوفان نبي الله «نوح» وحتى الآن.

لن ينجح عدوٌ في إحراق ورقة من أرض الرّافدين ما دام شبابها طوائفين حولها، يرون



وسط العتمة بعين البصيرة، يحلّقون بين أرجائها ويتناقلون، يتّحملون لفحات نيران الزمان لحماية التراث والعلم والعقيدة، ويوماً ما سيعود كل حجر سُرق من العراق إلى أرضها بسلام، وستظل العراق حجر عباءة فضفاضة واسعة تستر كل من يستجير بها.

عقبت أرجاء «بابل» برائحة «الريحان»، كانت «خولنجانة» تطوف بها وتحمل عطرها الجديد، أزالت ملكة «الجلائم» الحاجز بينها وبين ولدها «قيصوم»، وأخيراً استطاعت التّواصل معه وما عادت في حاجة إلى علبة تخبيء فيها، وأخيراً سيجتمع القلبان ليطوفا معاً أجواء حدائق بابل المعلقة في سلام.

كان «برهوم» يُثرثُر مع «ميسون»، وهو هو «صفوان» في حضن أمّه ساكناً لا يرغب في الكلام ويكتفي بملمس كفّها على خده.

اقرب «حمزة» من «عمر» وقال له: «زالت لعنة «عشتار»».

- سيأتي غيرها للأسف، الحروب لا تنتهي، أشعلت المزيد من المحارق هنا وهناك، وملوك الديجور لا تهدأ أحقادهم.

- أرض الرّافدين زاخرة بالثروات، وأهلها في. حدّ ذاتهم ثروة ستظل مطمعاً للآخرين.

- وستظل أعيننا على الحدود، وسيبقى الطّوائفون حولها لاسترداد أمجادها.

بوركت العراق وطّوائفها يا «عمر».

لاحت ابتسامة على وجه «عمر» وهو يقول: «ظننتُ أنّي سألتقي بنصفي الآخر ما دمت سأخوض رحلة مع عائلة «أبادول!».

- لم ينجح الأمر هذه المرة يا صديقي.

قطعت «فرح» ضحكاتهما عندما أقبلت وهي تعقد حاجبيها لتسأله: «هل تعلم بوجود طّوائفين غيرك هنا في «بابل» يا «عمر»؟».



- لا! أنا فقط!

- لعلك لم تنتبه لوجودهم؟

- مستحيل!

- بل هناك طواففة.

- لماذا؟

تعلّقت الأنظار بوجه «فرح»، كانوا في ذهول ممّا قالته للتو.

أكملت ونظاراتها تحمل الكثير من الألم «لارسا».

- ماذا تقصدين؟

- هي طواففة مثلك، أنت منذ سنوات مع أبيها وأخيها، اختطفتها «عشтар» وهي في العاشرة من عمرها من بيتها ببغداد عن طريق وسيط مجهول لم يُكشف عن هويته، فأتى أبوها وأخوها لإنقاذها فهم من المحاربين لكن «عشтар» قتلتهم أمام عينيها، واستبقيتها لعلمها أنّها ستكون من الطوافين، فقد أدركت هذا عندما رأت عينيها تبرقان في الظلام.

قال «ريموش»: «لها كانت تلزم غرفتها ليلاً كي لا تلاحظ بريق عينيها في الظلام».

- وربما كانت تتجول هنا وهناك.

قال «عمر»: «وأظنّها هي التي اختطفت «رواء» من تلال الرّماد وأحضرتها إلى «عشтар». ظننت أنّ الغضافر من يخطفونها».

أكملت «فرح» وهي تحيط المكان بعينيها: «لارسا» لا تعرف حتّى الآن بموتهم، تظن أنّهم على قيد الحياة وأنّهم عادوا إلى «بغداد» وتركوها هنا».



سألها «حمزة»: «ألم تقولي إنّها قتلتهم أمام عينيها؟».

- بلى، ولكن والدة «روكانا» و«أورماندا» نزعت مشهد قتلهم بوحشية عن جبينها قبل أن تموت، أشفقت عليها عندما رأتها تبكي بحرقة وهي تمسك برأس أبيها، فزحفت نحوها لتفعل هذا حتّى إنّها أنامتها، وكان هذا قبل أن تلفظ والدة «روكانا» أنفاسها الأخيرة. عندها أمرت «عشتار» بحمل «لارسا» إلى القصر وضمتها إلى حاشيتها، ووظفت امرأة لتعتني بها وترعاها.

كان الحديث قد اجتذب البقية والتقدوا حول «فرح».

سألها «طيفور»: «ولكن لماذا ظلّت معها بعد أن صارت طوّافة؟ ولم لم تذهب إلى المكتبة العظمى؟».

- لقد كذبت «عشتار» عليها، ولأنّها لم تكن ببيت أهلها عندما بدت عليها علامات الطوّافين من قدرة على الوثوب والانتقال، لم تجد من يوجهها ويدلّها على المكتبة العظمى لتتعرف على مهمتها، وزبّاما لا تعرف عنها ما نعرفه، كما أنّ الطوّافين ليس لهم كتاب ككتاب «القدموس» الخاص بالمستكشفين لظهور عالمة ويستدلّ عليها حُرّاس المكتبة، أرض الرّافدين حولها الكثير من الطامعين، الذي جور يترىص بها، وقد نشأت لارسا في حضن العدو للأسف!

- وكيف تعرفي كل هذا؟!

- لقد رأيت وجوههم قبل أن تموت الجدة عندما قتلتهم «عشتار» مع والدي «روكانا» و«أورماندا»، ورأيتهما مرة أخرى عندما قرأت ذكريات لارسا عندما بربرت منذ قليل لثحاحول اختطاف «رواء» قبضت على يدها ورأيت صورة عائلتها بالكامل، أمها وأبيها وأخويها، فتعرّفت عليهم. دار بيننا صراع وتشابك أيادي، كادت تسحب «رواء» من حضني فقد التزمتها بعد أن أعادها «عمر» وتركها في أمانة أبناء موسى وعندما أضاءت السماء فجأة بسبب رد «عمر» لكتاب «الحيل» لأصحابه أجهلـت «لارسا»، فاستطاعت القبض على معصهما لفترة ضئيلة رأيت فيها مشهدًا لها مع «الوراقين» بالمعبد فعرفت أنّها هي، ثمّ اختفت من أمامي.



قالت «أورماندا»: «لكن جدّي كانت معنا بالبيت عندما قُتل والدانا، كيف رأت مشهد موته؟؟».

- لا، لقد تركتما نائمتين وخرجت بعد أن أغلقت عليكم الدار بتعويذة وتتبعت أثر والديكِ ورأت كل شيء بأم عينيها. للأسف وصلت في اللحظات الأخيرة ولم تتمكن من إنقاذ أي منهم، وعادت ترکض نحو الدار من أجلهما.

خيم الحزن عليهم، قالت «فرح» بأسى: «اسمها «زبيدة»، ذلك هو اسمها الحقيقي».

- كيف سندجدها؟

أقبلت «أيسن» وطلبت منهم الاجتماع في ساحة بيتها، توجّهوا جمیعاً إلى هناك، وتركوا خلفهم أهل «بابل» وهم يحتفلون.

\*\*\*

«زبيدة»

شرعت «أيسن» في تردید تعاويذ لجذب «لارسا»، شقّ صوتها أذني «لارسا» التي كانت قد قفزت إلى تلال الرماد باحثة عن أسرة من الأسر النازحة لرؤيتها. وقفـت ووضعت يديها على أذنيها، لم تتوقف «أيسن» عن تردید التعاويذ، كان الصوت ينحر رأسها كمقتـاب، لم تتمكن من تحمله، سُحبـت خلال الممرات التي تثـبـ من خلالها دون إرادة منها تجاه بيت «أيسن»، سقطـت بين يديها أمام الجميع، لم تتمكن من الخلاص منها ولا الوثـبـ بعيداً عنها وكأنـها فقدـت مـيزـتها كطـوـافـةـ!

بدأت «فرح» تُخاطـبـها: «زبيـدةـ».



اخترق الاسم أذنها وزلزل كيانها، فقالت بإنكار: «أنا لارسا».

- بل أنتِ «زبيدة». أتذكرين يوم اختطافك؟ وعندما أتى والدك وأخواكِ لإنقاذهِ؟

وضعت «فرح» إصبعيها على جبينها وحركتهما بشكل معاكس لما كانت تفعله دوماً لمحو الذكريات، استرجمت مشهد المأساة في رأسها وردت إليها ذكرى وفاة والدها وأخيها على يد «عشтар»، كانت الجدة قد علمتها هذا قبل موتها عندما طلبت منها «فرح» أن تعلمها كيفية إعادة الذكريات. بدأت لارسا تبكي بحرقة وكأنها عادت إلى اللحظة نفسها، ظلت تتنفس وتصرخ في هلع، كانت تُحدق إلى وجوه من حولها بخوف شديد، وضعت «أيسن» يدها على جبينها فتدفقت ذكريات الطفولة إلى رأسها على دفعات، أصاب جسدها موجة من التشنجات وأرغبت وأزيبدت ثمّ فقدتوعيها لفترة طويلة وكانوا جميعاً حولها.

عندما أفاقـت كانت في حالة يُرىـ لها، كانت تبكي في صمت والـقـهر يطفـح من عينـها.

شعرت «فرح» بتـأـيـبـ الضـمـيرـ.

هرولـت نحو والـهـا وـقـالتـ: «ليـتـنيـ ماـ فعلـتـ، لـقـدـ ذـبـحـتـهاـ بـإـعادـةـ الذـكـرـياتـ إـلـىـ رـأـسـهاـ».

أطرق «أنـسـ» هـنـيـهـةـ ثـمـ قالـ: «كـانـ مـنـ الـضـرـوريـ أـنـ تـعـرـفـ الـحـقـيقـةـ، عـلـىـ الأـقـلـ لـتـبـتـعـ عـنـ درـبـ «عشـتـارـ»».

زفرـتـ «فرحـ، بـحـرـقـةـ وـقـالـتـ: «لـمـاـ بـعـضـ الذـكـرـياتـ تـبـقـىـ كـامـنـةـ وـتـخـبـئـ فـيـ دـهـالـيزـ عـقـولـناـ وـتـقـفـزـ فـجـأـةـ عـنـدـمـاـ يـحـقـرـهـاـ عـارـضـ بـسـيـطـ لـتـظـهـرـ بـوـضـوـعـ شـدـيدـ عـنـدـمـاـ يـمـوتـ أـصـحـابـهاـ؟ـ فـنـجـدـ أـنـفـسـنـاـ نـتـذـكـرـ مـلـامـحـهـمـ بـدـقـةـ، نـرـىـ أـعـيـنـهـمـ أـمـامـنـاـ بـرـيـقـهـاـ، نـسـتـحـضـرـ المـواقـفـ وـالـضـحـكـاتـ وـالـكـلـمـاتـ، وـنـبـرـةـ الصـوتـ، وـرـائـحةـ العـطـرـ.ـ نـنـدـمـ عـلـىـ تـقـصـيرـنـاـ مـعـهـمـ،ـ وـنـتـمـنـىـ لوـ عـادـوـاـ إـلـىـ الـحـيـاـةـ لـلـحـظـاتـ،ـ أـوـ يـكـوـنـ مـوـتـهـمـ مـجـرـدـ كـابـوـسـ مـزـعـجـ وـنـسـتـيـقـظـ مـنـهـ إـلـاـ لـنـعـتـذـرـ مـنـهـمـ،ـ وـنـبـقـىـ قـلـيلـاـ فـيـ جـوـارـهـمـ لـنـنـعـمـ بـقـرـبـهـمـ وـنـحـتـضـنـهـمـ بـشـدـةـ،ـ نـبـرـهـمـ بـطـرـيـقـةـ مـاـ وـنـحـسـنـ إـلـيـهـمـ،ـ وـنـقـولـ لـهـمـ مـاـ أـرـدـنـاـ أـنـ نـقـولـهـ لـهـمـ وـهـمـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاـةـ.ـ لـمـاـ تـقـسـوـ عـلـيـنـاـ الذـكـرـياتـ؟ـ إـلـاـ يـكـفـيـنـاـ فـقـدـهـمـ؟ـ!ـ»ـ.



- هوّني على نفسك يا بنتي، ستكون «زبيدة» أفضـل بإذن الله، جراح النفس تؤلم في البداية لكنها تذبل بمرور الوقت.

عادت «زبيدة» تبكي بحرقة، اقتربـا منها وقالـت «فرح» وهي تـفكـفـف دمـعـاتـها: «كيف وثـقـتـ بـ «عـشـتـارـ» يا مـسـكـينـةـ؟».

زفرت بحرقة وقالـت: «لم أـعـرـفـ غـيرـهـاـ هيـ والـسـيـدـةـ التيـ أـوـكـلـتـ إـلـيـهـاـ مـهـمـةـ تـرـبيـتـيـ،ـ كـانـتـ اـمـرـأـ بـسـيـطـةـ وـمـسـالـمـةـ».

- ألم تتساءـلـ يـوـمـاـ عـنـ اختـلـافـ لـوـنـ دـمـائـكـ؟ـ أـلـمـ تـشـتـاقـ إـلـىـ عـالـمـكـ؟ـ

- لم أـمـلـكـ رـفـاهـيـ الرـحـيلـ وـلـمـ تـكـنـ لـدـيـ فـرـصـةـ،ـ كـنـتـ أـعـلـمـ أـنـيـ لـسـتـ مـنـ هـذـاـ عـالـمـ،ـ لـكـنـيـ عـلـمـتـ أـيـضـاـ أـنـ أـبـيـ هـجـرـيـ وـكـنـتـ سـاخـطـةـ عـلـيـهـ.

- كيف هذا؟

- أـخـبـرـتـنـيـ «عـشـتـارـ»ـ أـنـ أـبـيـ تـرـكـيـ وـغـادـرـ مـعـ أـخـوـيـ،ـ وـأـنـهـ أـوـكـلـتـ مـهـنـةـ تـرـبـيـتـيـ لـهـاـ،ـ رـمـانـيـ هـنـاـ وـلـفـظـنـيـ لـاختـلـافـ عـنـهـمـ،ـ وـأـنـهـ كـانـ يـخـشـىـ عـلـىـ أـخـوـيـ مـنـ غـدـرـيـ لـأـنـ عـيـنـيـ تـضـيـئـانـ كـالـلـوـحـوـشـ فـيـ اللـلـيـلـ»ـ.

- ألم يـحـركـ الفـضـولـ؟ـ أـلـمـ تـبـحـثـيـ عـنـ طـرـيقـةـ لـتـعـودـيـ إـلـيـهـمـ؟ـ

- بـلـيـ،ـ حـاـولـتـ وـلـكـنـيـ لـمـ أـعـرـفـ الطـرـيقـ،ـ كـانـتـ «عـشـتـارـ»ـ دـائـماـ حـولـيـ،ـ لـقـدـ وـسـمـتـنـيـ عـلـىـ ظـهـرـيـ بـالـحـدـيدـ وـالـنـارـ،ـ هـنـاكـ تـعـوـيـذـةـ بـيـنـ كـتـفـيـ زـعـمـتـ أـنـهـاـ طـبـعـتـهـاـ عـلـىـ جـسـديـ لـكـيـ أـتـمـكـنـ مـنـ دـخـولـ القـصـرـ وـالـمـعـبـدـ،ـ وـأـظـنـ أـنـهـاـ أـيـضـاـ لـأـسـرـيـ هـنـاـ فـيـ أـرـضـ الرـأـفـدـيـنـ.

عقدـتـ «ـفـرـحـ»ـ حـاجـبـيـهـاـ وـقـالـتـ:ـ «ـكـلـ تـعـاوـيـذـهـاـ بـطـلـتـ،ـ الـآنـ أـنـتـ حـرـةـ!ـ»ـ.

بـكـتـ بـحـرـقـةـ تـقـوـلـ:ـ «ـكـنـتـ أـتـخـذـهـاـ مـثـلـاـ أـعـلـىـ.ـ فـُـتـنـتـ بـقـوـتهاـ،ـ لـطـالـمـاـ تـسـاءـلـتـ عـنـ سـبـبـ قـسـوـتـهـاـ مـعـيـ،ـ وـلـمـ يـكـنـ مـاـ أـبـذـلـهـ وـأـقـدـمـهـ كـافـيـاـ قـطـ لـأـنـاـ رـضـاـهـاـ»ـ.

قـالـتـ «ـفـرـحـ»ـ بـتـصـمـيمـ شـدـيدـ:ـ «ـسـتـعـوـدـيـنـ مـعـنـاـ إـلـىـ عـالـمـنـاـ»ـ.



- إلى من سأعود؟

- مات أهلي، ليس لي حبيب يفتقدني.

وعادت إلى البكاء، كان بكاؤها يُشبه صوت وتر العود الذي أنهكه عزف صاحبه  
فاستحال صوته إلى نشار.

قال «أنس» وكان يقف خلفهن: «لعل لك جدة تبحث عنك، أو حالة أو عمة».

- سيصابون بالهلع لرؤيتي، أتصدق أن أحداً منهم قد يتقبل فكرة أنني عشت في مكان  
مجهول لسنوات! بل وسأعود وحدي وسيسألونني عن أبي وأخوي وكيف ماتوا. هل  
سيقبلون أن ساحرة قتلتهم؟

أجمهم الصمت، كان كلامها صحيحاً، لم يجدوا في أفواههم كلمات تخفي عنها.

قال «أنس»: «بيتنا بيتكِ، وعائلتنا عائلتكِ، مرحباً بكِ في عائلة «أبادول»».

رفعت عينيها المثقلتين بالدموع وقالت: «الكلام سهل يا سيدي، لكنني لا  
استطيع!».

اقرب «عمر» قائلاً: «عودي معنا فنحن نحتاج إليكِ في رابطة «الطوافين»، فأنتِ  
تعرفين دهاليز «بابل» وخبايا أرض الرَّافدين، لن تكوني وحدكِ ولن تشعري بالغرابة،  
نحن في بغداد، كعائلة واحدة ونتواصل يومياً لنعدد مهامنا. اثبتي يا «زيديدة»».

كان الاسم لا يزال غريباً عليها.

قالت بحسرة وهي تعصر يديها: «طَوَافون.. مُحاربون، هذا يتطلب عزيمة قوية  
ونفساً أبية، وأنا روحي متعبة ومهترئة، وددت لو بقي فرد واحد من عائلتي، واحد  
فقط!».

وانخرطت في بكائها بنشيج مسموع، ثمَّ توقفت لتسألهم: «وكيف سأنسى «بابل»؟  
لا أظن أنني سأستطيع الرحيل عنها، هناك رباط عميق بيني وبين «بابل»، الوراقون



الذين يكرهونني أحبيبهم من سوياء قلبي، كنت أسعى إلى حمايتهم. سأعيش هنا إلى الأبد».

قالت «فرح» بحماس: «سأنسيك كل شيء».

- كيف؟ سأكون حينها كالمسخ، الذكريات تمنحنا شيئاً من السعادة، ولن في طرقات «بابل» حكايا، وضحكات، واندھاشات، ولعب طفوليٌّ عفوٌّ مع الصغار، ومذاق لأطعمة رُيئما لا تعرفونها، وشيء لن أحسن وصفه أراه في وجوه الكبار هنا! لو غادرتها سأموت!

- ووطني!

- الوطن فينا وليس في الأرض والبناء، في الوجوه التي عاشرناها وألفناها، في حواسنا الخمس، نحن نحمل أوطاننا في صدورنا، نحن الوطن، لا أجد في نفسي شوقاً إلى عالم آخر غير مملكة البلاغة.

قالت «فرح» وهي تشدق عليها: «دعيني أنسيك مشهد قتلهما على الأقل».

- لا، فقد همس لي أبي قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بكلمات قليلة، ولا أرغب في نسيانها أبداً.

أغمضت «فرح» عينيها ورددت كلمات أبيها: «يا قرة عيني يا «زبيدة»، أحبك!».

سالت دموع «لارسا» وهي تهمس: «نعم، قالها».

كان هذا آخر اجتماع ببيت العجوز «أيسن»، التي قررت أن تكون عكاً لتلك الفتاة المحزونة. سعدت «لارسا» بدعوة «أيسن» لها لكي تُقيِّم معها، ولم تتراجع عن قرارها.

التفت نحو «عمر» وقالت له: «سأنتظر الطوافين دائمًا، أخبرهم عن دارنا هنا».



- سأفعل، وسأبحث عن أهلك رُيًما آتيك بخبر منهم، وقد يكونون على علم بأمر مملكة البلاغة، من يدرِّي!

- حسناً، لتفعل.

اقربت «لارسا» من «فرح» عندما علمت بما حدث لها مع الجدة، وسألتها وعيناها تتدبران في حيرة: «هل حقاً تستطعين قراءة الذكريات؟».

- نعم.

- هل رأيت ما حدث لجثمانه بعدما قُتلوا؟

جرت في مقلتيها اتساعه وهي تسأل: «أين دفن أبي؟».

تواثبت دقات قلب «فرح»، أغمضت عينيها وكأنَّها تستعيد مشهد قتل والدي «لارسا» وما بعده، ظلت ذكريات الجدة تتدفق إلى رأسها، رأتها وهي تعود مع خمسة من الرجال ليحملوا جثث ابنتها وزوجها ووالد «لارسا» وأخويها، وكيف كانوا يتلفتون في خوف وهم يسيرون بهم نحو التلال، وسالت دموعها وهي ترى الجدة تودعهم قبل أن يُهيلوا عليهم التراب، رأت شواهد القبور، لم تتمكن من قراءة الأسماء لكنَّها لاحظت أشكالها المميزة، خمسة قبور متقاربة وكأنَّها تؤنس بعضها بعضاً.

أقبل أنس عندما رأى «فرح» على هذه الحالة ووضع يده على كتفها وسألها: «ما بك يا بنتي؟».

فتحت عينيها وقالت بخفوت: «المقبرة البيضاء، لقد دُفنتوا هناك يا أبي».

قالت «لارسا» بتلهف: «أعرف مكانها، سأذهب الآن».

كادت تتب من مكانها لكنَّها عادت لتسأليها: «ولكن كيف سأعرف القبور يا «فرح»؟».

- رأيت شواهدَها، خذيني معكِ.



احتاطتها بذراعيها وانتقلتا. التفت «أنس» نحو «عُمر» وسألة: «هل تعرف مكان تلك المقبرة؟».

- بالتأكيد

- احملني إلى هناك بسرعة، لا بد أن نكون معهما.

ذهبا إلى المقبرة خلف «لارسا» لمؤازرتها، وقفتا أمام قبر والدها وشقيقها، كان الحزن ينداح في روحها ويُمْزِّق فؤادها.

قالت ودموعها تناسب على وجنتيها في وقار: «لن أرحل عن أرض دُفن بها أبي».

قال «أنس» مواسياً لها: «ستعلمين يوماً ما لم تعلمي اليوم عن بعض الأمور، وربما لا تعلمين أبداً سبب ما حدث لكِ لحكمة من الله وللطف خفي يشملكِ به! فقد تكون نجاتكِ فيما حدث لكِ، في الفراق، والألم، وأحياناً الفشل، لتجدي سبيلاً آخر تسيرين فيه، هكذا الحياة، ابتلاءات متتالية».

تركـت «لارسا» ندبـة في أفقـتهمـ، حـاول «أنـس» إقنـاعـها بـالـعودـةـ، لـكـنـهاـ كـانـتـ ثـابـتـةـ كالـطـوـدـ. دـفـعـهـ هـذـاـ إـلـىـ الـذـهـابـ إـلـىـ بـيـتـ «ـرـيمـوشـ»ـ حيثـ أـقـنـعـهـ أـنـ يـكـونـ عـوـنـاـ لـهـاـ وـيفـتحـ الـمـعـبـدـ مـرـأـةـ أـخـرىـ، وـلـكـنـ هـذـهـ المـرـأـةـ لـكـ يـفـيدـ «ـالـوـرـاقـونـ»ـ أـهـلـ «ـبـابـلـ»ـ يـعـلـمـهـمـ، وـتـكـونـ «ـلـارـساـ»ـ مـعـهـمـ، وـجـاءـهـ الإـجـابـةـ مـبـشـرـةـ بـالـخـيـرـ.

عادـواـ إـلـىـ «ـبـابـلـ»ـ وـسـارـواـ فـيـ طـرـقـاتـهـ وـالـجـمـيعـ يـحـتـفـونـ بـهـمـ، اـخـتـفـىـ «ـعـمـرـ»ـ لـلـحـظـاتـ وـعـادـ وـمـعـهـ «ـالـأـسـوـ»ـ، ذـلـكـ الشـابـ اللـطـيفـ الـحـاشـيـةـ الـذـيـ لـنـ يـنـسـاهـ أـبـداـ، أـرـادـ تـوـدـيـعـ «ـأـنـسـ»ـ قـبـلـ رـحـيـلـهـ، وـكـانـ الـودـاعـ هـذـهـ المـرـأـةـ عـامـاـ بـالـمـشـاعـرـ.

نـفـذـ «ـطـيـفـورـ»ـ وـعـدـهـ لـلـجـدـةـ بـأـنـ يـكـونـ درـعـ «ـأـورـمانـدـاـ»ـ وـحـامـيـهاـ بـعـدـ أـنـ باـحـ لـهـ بـإـعـجـابـهـ بـهـاـ وـرـغـبـتـهـ فـيـ الزـوـاجـ بـهـاـ عـنـدـمـاـ كـانـ يـسـيرـ بـجـوارـهـ فـيـ الطـرـيقـ، فـتـعـجـبـتـ منـ طـلـبـهـ السـرـيعـ دـوـنـ أـنـ يـتـعـرـفـ عـلـىـ شـخـصـيـتـهـ، نـصـحـتـهـ أـلـاـ يـتـعـجلـ، وـأـلـاـ يـطـلـبـهـ لـلـزـوـاجـ إـلـاـ بـعـدـ يـقـيـنـهـ مـنـ أـنـهـ لـيـسـ إـعـجـابـاـ وـحـسـبـ، بلـ حـيـثـ سـيـدـفـعـهـ إـلـىـ قـبـولـهـ بـكـلـ تـنـاقـضـاتـهـ لـيـسـعـدـهـ وـتـسـعـدـهـ، وـلـكـيـ يـكـونـ رـجـلـهـ الـأـوـحـدـ، أـخـبـرـتـهـ أـنـهـ تـرـاهـ الشـخـصـ الـمـنـاسـبـ،



وبقي أن يكون على يقين من أنه الشخص المناسب، واتفقا على أن تكون رحلتهم فرصة ليتعرف على أورماندا ومنحته موافقتها في لحظاتها الأخيرة. الآن يقف ويطلب الزواج من «أورماندا» في حضرة الجميع، فهو على يقين من حبه لها، وافقت وهي تكاد تطير من الفرحة، كانت تضحك ودموعها تسيل على وجنتيها.

ليس هناك أجمل من أحلامنا حين تلاحقها أقدار الله فتتحقق، فقد سهرنا الليالي على شرفات الحياة نطلق سهام الليل التي لا تخطئ نحو السماء، والنجوم تشهد على عبراتنا التي سُكبت، وهذا هو الفرح المخبأ في ثنايا دعواتنا المستجابة يزورنا ويتودد إلينا.

عندما نرضى، تُغسل قلوبنا بماء طهور يزيل كدر العثرات، وغبار النكسات، وتطمئن صدورنا فتستكين أرواحنا بعد طول عناء، حينها سنسقبل الابلاءات بهدوء وسکينة، ونفتش عن عطايا الله المخبأة في جيوبها ونحن على يقين أنّ ثمة رحمات هناك، دائمًا نفاجأ بخير خفي في كل أمر نحسبه شرًّا، إنّها السعادة عندما نرى بعين البصيرة.

\*\*\*

عاد «الكنادرة» إلى أرضهم مع نسائهم، وفور عودتهم نَفَذ «برهوم» وعده لـ «حنبيش» و«حنبريت»، واجتمع بالولَّاقين ودوَّنوا ما برؤوسهم من كتب عن تاريخ «الكنادرة» وأصولهم، وتبيّن أنَّ الأولى بزعامة عشيرتهم هو رجل من شرفاء العشيرة قتلته «شيخون» غدراً هو وولده، فثار الأقرام وعزلوا «شيخون»، حاول كبح جماحهم بسحره ولأعيشه لكن «أيسن» كانت هناك، لم يروها ولم يعلموا بما تقدمه لهم، أرادت أن ترك يداً بيضاء في أرض أخرى غير «بابل» التي كانت سبباً لحفظ نصف سكانها لأمد طويلاً.

قد تملك ميزات لا يملكونها غيرك، وقد تشعر بالسعادة تطوف بجوارحك عندما يلمحها الآخرون، سيتسلل الإعجاب والفخر إلى نفسك، وقد تُصاب أحياً بالغرور، وربما تُصاب بالهلع خشية أن تتفلت من بين يديك، لكنك ستبلغ أقصى درجات السلام النفسي عندما تسخرها لنفع الآخرين دون أن تلتفت لكونها ستستمر أم لا،



عندما سيستحيل إيمانك كシリال تلبسه فُيُسكت حديث نفسك، ستستمر في العطاء دون أن تنتظر الشكر من أحد، في الظل عندما تقف خلف الحجب والأقنعة، خبيئة لا يعلمها إلا ربك، تواريها بين طيات الزمان لتتحمل على أجنحة ملائكة لتكون في رصيدهك هناك، يوم لا ينفع مال ولا بنون، وكانت تلك العجوز لا تملك مالاً ولا بنين ليؤنسوها، لكنها قضت أيام عمرها تغزل أردية وحللاً للآخرة، انتهت من مهمتها دون أن تظهر نفسها لأحد، سلبت «شيخون» قواه وتركته بينهم كجذع شجرة بلوط قطعت ساقه السامقة وجف حّى صار كالغرجون القديم.

كان «سلیمان» قد أبلغ «حنبش» و«حنبریت»، برسالة «برهوم» فور وصوله إلى المكتبة العظمى، فقد وجدهما في انتظاره! وعندما وصلت إليهما الإشارة أسرعا نحو أرض «الكنادرة»، ليحضرما مراسم تنويع من اختاره الكنادرة، زعيماً لعشيرتهم، وكانوا جميعاً قد اجتمعوا على «برهوم»، وهذا أسعد ميسون كثيراً.

وفي حدائق بابل المعلقة، وافقت الملكة أخيراً على زواج «قيصوم» و«خولنجانة» وأقيم حفل زفاف عظيم على شرفهما، كانت «خولنجانة» حزينة لفارق «طيف»، لكن سعادتها بلقاء «قيصوم» أنستها كل شيء.

\*\*\*



## المكتبة العُظمى

انصرفت عائلة «أبادول» بعد حضور كوكبة من الصُّقور المقاتلة، حملوهم إلى المكتبة العظمى، كانت عودة «أنس» إلى المكتبة العُظمى هذه المرَّة تختلف، فقد كان يهروِّل متلهِّفًا لرؤيه جَدَّه الغالى «أبادول»، عندما التقت أعينهما خفق قلبها فقد كان الإرهاق يبدو جليًّا على وجهه الذي وقَّعَت مملكة البلاغة على جبينه مراتٍ ومراتٍ.

تعانقا طويلاً، ارتعش صوت «أبادول» وهو يحمد الله على عودتهم ونجاة «رواء» مما حدث، رد إليه عصاه وقبَّل يديه ورأسه، التف حُرَّاس المكتبة حولهما وهم يتأمِّلون «أنس» الذي دلف يوماً وهو في مقتبل العمر حاملاً كتاباً عن الحب، والآن عاد يبحث عن حفيده!

قال أحد الحُرَّاس وكان هو نفسه الذي سار معه حينها إلى الغرفة التي جمع الكتاب فيها صفحاته: «الكتب تشعر بحضورك يا «أنس»، في كل مرَّة تأتينا تتحرك على الرفوف وكأنَّها تود معاancock! أنت محظوظ هنا».

- وأنا أحب الكتب، وأُعشق مملكة البلاغة، واليوم أتيت ولِي رجاء.

- طلبك مُجاب من قبل أن تصريح به.

- لكنَّه طلب عزيز!

- ما هو؟



أعلم أنَّ ما قدمه جدي لينقذ أبنيائي ونحن في رحاب مدينة «كويكول» كان بمنزلة عهد يقطعه على نفسه ليكون حارسًا من حُرَّاس المكتبة العظيمى، لكنه وكما ترون يحتاج إلى الراحة، لقد أرهقته السنون ونحن في حاجة إلى وجوده بيننا.

ثار «أبادول» وهب واقفًا وهو يقول: «لا، لا! لن أغادر المملكة إلَّا إلى قبرى، هذا عهد ولن أخالفه».

- جدي!

- لا توجع قلبي يا «أنس»، تعلم أَنَّك غالٍ عندي ولكنك تطلب المستحيل.

قال أحد الحرَّاس بتوقير شديد: «نحن لا شيء من دون «أبادول»، هو الجدار الذي نستند عليه وموضع ثقتنا جميًعا، دائمًا هو صاحب الرأي الرشيد بيننا، ونحن لا نستغنى عنه».

- إذن سأبقى معك.

- مستحيل.

- المستحيل أن تظل هنا وأنت مريض يا جدي.

- لست مريضًا، أنا بخير.

- أخبرني «خالد» بنزيف أنفك!

- رُبِّما ارتفع ضغطي قليلاً لكنني بخير.

- جدّي!

- صه يا «أنس»، لن أغادر مملكة البلاغة أبدًا.

سأله «أنس» وعيناه تسبحان في حيرة: «لماذا أعطيتني عصاك؟»



ران عليهما الصيت، كان يدرك في قراة نفسه أن جده يشعر بدنو أجله لهذا أعطاه عصاً المميزة وكأنه يمنحه معها ميراثه وأسراره ومميزاته، لكنه لم يجرؤ على التصريح بذلك.

أضاف في تأثر: «تحتاج إلينا يا جدي، ونحن نحتاج إليك، لقد اشتقتنا إلى جوارك، البيت غريب من دونك، أنا أكثر من يعاني بسبب غيابك».

اغرورقت عيناً «أبادول» بالدموع، حاول أن يقول شيئاً لكن شفتيه ارتعشتا فقبض بيده على فمه وطفرت دمعة فباحثت بما لم يصرح به هذا المُحارب العظيم.

أن تكون سنداً لغيرك لكنك مرهق ومستهلك، لقد نفت طاقتكم، ترغب في الركض إلى مكان منعزل لا يراك فيه أحد لتلقي بنفسك على قيمة هشة برهافة القطن لتنام في حضن السماء دون أن يوقظك أحد، تود لو أنّ لديك زجاً لتطفّي مصابيح عقلك وترتاح، تحتاج إلى إنعاش روحك لتتحمل المزيد من اتكاء الآخرين عليك، تبحث عن بصيص نور تستضيء به لتنير دهاليز عقلك المعتمة حتّى تتمكن من الاستمرار في التفكير بهم ولهم ومعهم، الكوب ممتلي بالماء وعليك أن تسكب القليل منه لتوفر مساحة لاستقبال المزيد، أنت كل شيء بالنسبة إليهم لكنك تحتاج إلى من تخبره أنه كل شيء بالنسبة إليك، لكنك تشفع على أحبابك، وعلى كل من هم في ظاهرهم أقوى منك، ومن فرط شفقتك تبسيط كتفك لهم فيكتئون عليها، تستمتع بقربهم، ولا تزال متعباً للغاية.

همس «أنس» وهو يمسح العبرات عن وجه «أبادول»: «أيها السندي، ابق كما أنت كالجبل الأشم».

هزّ «أبادول» رأسه ولم يقو على فتح فمه.

قال أحد حُرّاس المكتبة وهو يضع يده على كتفه: «لقد قدمت الكثير لنا وللكتب وللمملكة البلاغة، وأن الأوان أن ترتاح، وجودك بين أفراد عائلتك يعني لهم الكثير، لنكسر القواعد هذه المرأة من أجل «أنس»».

تبادل النظارات، كانت أعين البقية معلقة بوجه «أبادول».



غمز له صديقه وأقرب الحُرَّاس إلى نفسه وقال: «لقد ورث «أنس» عنادك، لن يغادر إلا وأنت في يده».

ابتسم «أبادول» وأخذ يهز رأسه في وهن.

قال آخر: «ستزورنا من آن إلى آخر، وسنتواصل بطريقتنا، وستظل ملجاً لنا عندما تختلط علينا الأمور».

انحنى «أنس» على جده وقال وهو يمسك بذراعه: «سرحل الآن».

جاءه الرد من خلف ظهره بصوت مُحَبِّب إلى قلبه كان «الزاجل الأزرق» الذي قال بصوته ذي النبرة المميزة: «ليس الآن يا «أنس»».

التفت قلب «أنس» قبل أن يلتفت بكمال جسده ليستقبل صديقه المحبب إلى قلبه ويتعانقا طويلاً، مرّت السنون وشاب شعر رأسيهما لكنَّ القلب لا يزال على العهد.

قال بصوت يحمل الكثير من المشاعر: «لن ترحل قبل أن تزوج «طيفور» بتلك العروس التي أسقطت شعر رأسه».

ضحك كلاهما بينما كان «طيفور» يمسح على صلعته.

قال «أنس» وكان يحمل هم «نور»: «لا بد أن نعود رحمة بـ «نور»، لا ريب أنَّ المسكينة هلكت وانفطر فؤادها من الخوف والقلق على ابنتها».

قال «أبادول» وكانت يده ترجمف وهو يستند على عصاه التي ردها إليه «أنس»: «أخبرت «كمال» بنجاتها ووصل إليهم الخبر فور علمي بهذا».

لم ينس «أنس» أنَّ «أبادول» له طريقته في التواصل مع أبيه، لكنَّه أراد أن يرد رواء إلى حضن أمها.



التفت نحو «حمزة» الذي كان وجهه قد أشرق من جديد وهو يقول: «ما رأيك أن تحضرهم الصُّقور يا جدي؟ نحن في حاجة إلى حضور حفل زفاف، بعد حفل زفاف «فرح» الذي فسد».

لمعت عيناً «طيفور» وقال: «يستحقان حفلًا آخر هُنَا عوْضًا عن حفلهما».

قال «خالد» بتأثر: «والله لقد أشفقت عليهما!».

راقت الفكرة للجميع، زاد حماس «خالد» وهو يقول: «لدينا مظلة «طيف»، سأذهب لإحضار ولدي والبقية، لكنني لا أدرى هل ستعمل المظلة من دون «خولنجانة» أم لا».

التفت «طيف» وقالت باسمه: «لم تخطئ هذه المرأة في اسمها يا وحالد»!».

ابتسم «خالد» وسألها: «هل معي شيء من بيت جدي لنضعه في جراب المظلة؟».

ضحك أبادول لأول مرة منذ عودتهم وأخرج من جيبيه مفتاحًا عتيقاً تعَرَّف عليه «أنس» فالتحققه وعيناه تلمعان وقال والحنين يموج في صدره: مفتاح المكتبة! يا الله!».

تناوله «خالد» وحمله بوجل فطفق «أنس» ينبعه لأهميته فرنا إليه باسماً وقال: «أبي! ما بك يا حبيبي؟ أعرف أنه مهم!».

تنهَّد «أنس» وأغمض عينيه، شعر لوهلة أنه صار يشبه جده «أبادول» كثيراً، الآن أصبح يحملهم كل صغيرة وكبيرة تخص العائلة وما يربطها بمملكة البلاغة. وضع «خالد» المفتاح في جراب المظلة ورحل مع «طيف» لإحضار ولديهما، حلقت الصُّقور في اللحظة ذاتها لتحمل باقي أفراد العائلة.

\*\*\*



## قصر الحوراء

انتقل جميع أفراد عائلة «أبادول» إلى مملكة البلاغة، أمضوا وقتاً لطيفاً لن ينسوه أبداً، بدت «نور» مُتعبة ومستهلكة، فقد كانت طوال الأيام الماضية تفترش أرض غرفة الأشباح ومعها ابنتها الصغرى وتنتظر عودة «رواء»، فور أن حملتها الصُّفور إلى مملكة البلاغة ورأتها التزمتها واحتوتها في حضنها ودموعها تهسي، كانت تبدو شاحبة ومُتعبة، فقد امتنعت عن الطَّعام ولم تضع في فمها إلا لقيمات أجبروها على تناولها عنوة، ولم تنم إلا سويعات قليلة كان يسقط رأسها فيها وهي جالسة بينهم وكانت «مراٌم» تُسرع حينها وتغطيها بشالها وتحمل ابنتها الصغرى شفقة عليها مما تُعانيه، عادت «رواء» إلى حضنها فعاد ماء الحياة يجري في وجهها، وعاد الأمان.

ذهب «أنس» و«مراٌم» مع «طيفور» ووالديه لخطبة «أورماندا»، وطلبوها يدها من «خاندان»، لا تزال الفتاة على سجيتها، كانت تتردد على المرأة عدة مرات في اليوم وتتفحّص عنقها وتنتظر ظهور وشم الـ «سيريوش» ليكون لقبها الجديد الذي ستُعرف به بين السَّاحرات، فقد كان بيدها الذي سحقت به «عشتار».

أقيم زفاف رائع بقصر الحوراء، واحتفلوا بـ «فرح» التي ارتدت ثوباً ملكيّاً موشّى بحبات اللؤلؤ، وألبسوها تاجاً مرصّعاً بأحجار الجمشت والزمرد. فغر «سليمان» فاه عندما رآها مقبلة عليه، غمرته موجات السعادة من جديد، كان قلبه يرجف بين جنبيه، كان «طيفور» قد أغاره رداء ملكيّاً هو الآخر، حتّى إنّهما دلفا قاعة القصر معاً وسارا بوقار تجاه «فرح» و«أورماندا».

التقط يدها فقرأت ما يمر برأسه من ذكريات عنها فضحكـت من فرط سعادتها، عاد خبـب الخيول اللـجـوج ينـقـر صـدرـهـاـ، وقفـ كـلاـهـماـ يـطـالـعـ الآـخـرـ فيـ مـزيـجـ منـ الإـعـجابـ



والانبهار والعشق والغرام والحب والخجل، خليط يشوب نفسي كل عروسين اجتمعاً بعد صبر طويلٍ وعفاف، داوت تلك الفرحة ما أصابهما من تخبط بعد حادث اختطاف «رواء» الذي زلزل كيان الأسرة، وكانت تلك العائلة تستحق وقتاً مستقطعاً للراحة، وما أجملها إن كانت في رحاب مملكة البلاغة بين الأحباب.

طاف بها وطافت به، وما الحبُّ إِلَّا طواف بالمحبوب، وثب قلباهما إلى عوالم أخرى، اخترقا حدود الزمان والمكان وكأنهما يحلقان في بعد آخر، طوافان في أثير الحب، يأملان في قرب بعضهما فيسيران على قرب لعل أنفاسهما تتشارك نسمات الهواء، تدفعهما الدنيا في دواليبها فتصبيهما بالدوار، يغفلان عن الزَّمان الذي يدور بهما بسرعة البرق، يأملان لو يتوقفُ بهما طويلاً عند التفاصيل الصغيرة، ليعلقاً في لحظات السعادة وتظل تتكلّر حتى ينها عنها.

بكى «أنس» عندما رأى «فرح» بين أمراء وأميرات مملكة البلاغة، كانت تبدو كجوهرة الثاج، أقبلت «مرام» تُفكفف دموعه وهمست ألا دموع بعد اليوم!

كان «أنس» يقع تحت تأثير نوع من تأنيب الضمير لأنَّ «فرح» حملت منذ صغرها ميراثاً أفسد عليها صفاء روحها، وكان محزوناً بسبب فساد حفل زفافها! وكأنَّه هو السبب في كل ما حدث لها لأنَّه مُحارب وهي ابنته. وقف يُحاسب نفسه في صمت.

اقترب «يوسف» وأمسك بذراعه قائلاً: «توقف عن تحليل كل شيء واستمتع بالحفل، أرح خلايا عقلك يا «أنس»، نحن بخير». .

تعلق بذراعه وقال: «نعم كلنا بخير».

بدت الحوراء واهنة، ضعيفة وهي منكفة على عصاها في سكون، التفتت «مرام» إلى يومتها «الشهباء» فوجدتتها تحدق تجاهها، فابتسمت «الحوراء» التي كانت تتأنّل «مرام» هي الأخرى بعيّي «الشهباء»، شعرت «مرام» أنَّ المملكة تود الجميع بنظراتها، كانت ترژ تحت مشاعر مُختلطة جعلت الدموع تترقرق في عينيها، مددت «الحوراء» يدها وقبضت على كفها، ثمَّ هَزَّتْ رأسها وكأنَّها تقرأ ما يدور برأسها. تذَكَّرتْ «مرام» حين زارت المملكة لأول مرة حين احتوتها «الحوراء» ورعتها حتى



أتمت مهمنتها، وكيف كانت جميلة وقوية ورائعة.

قالت «الحوراء» وهي تميل برأسها عليها: «لدي أكثر من تسعين سنة ما بين ظهري وصدرني عشتها بكل أبعادها، لكن قلبي لا يزال معلقاً في شرخ الشباب، ما زلت أذكر كل لحظة مررت بها، حبي الأول، فرحي بالزواج، ولدي وأمومتي، همس الريح، وجوه المُحاربين، يومي الشهباء، أحفادي، وأنتم يا «مراٌم»، أتذكرين؟».

- وكيف أنسى!

- قلبي النزق يُنبعني باقتراب النهاية.

- لا تقولي هذا، أرجوك يا مولاتي.

- سأموت في سلام بإذن الله، أشتابق إلى لقاء ربِّي.

تعانقتا في حب ووئام.

ربَّت «الحوراء» على كف «مراٌم» وقالت وهي ترنو إلى «فرح» بعيئي بومتها: «ما أجملها!».

ران عليهما صمت لطيف، انحنىت «مراٌم» على كفَّها وقبلته، وجلستا تتأملان «فرح» في سعادة، كانت جميلة وكأنَّها قبلة في ثغر السماء.

أما أسراره التي لا يعرفها أحد فقد كان يخص بها «أنس» الذي كان يتسلل إلى غرفته بعد أن ينام الجميع ويجلس أمامه ليبدأ في سرد أسراره تباعاً ليستأمنه عليها، كان جده يبدو له عميقاً كالبحر يتمنى أن يسبح في لجنته ليكتشفه، كان يروي التفاصيل بصراحة وانسجام، وكأنَّه يُريد سردها قبل أن تكون الذاكرة ركامًا مختلطًا بلا منطق، بدأ من البداية، من اللحظة الأولى التي رأى فيها صورته تُرسم على كتاب خالٍ من الكلمات، ورأى الرمز لتبدأ مهمَّة أبادول، كمحارب في رحاب مملكة البلاغة.

ظلَّ «أبادول» يزداد وهنًا وضعفاً يوماً بعد يوم، و«أنس» يُراقبه بوجل وإشفاق وهو



يرفع يده المُرتعشة مفْسِّاً عن وجهه، وكان يقرب رأسه منه فيضمه إلى صدره ويتشممها ويلزمه، ثم يسند رأسه على صدره وتأخذه سنة من النوم ليفيق منتفضاً ويناديه مَرَّةً أخرى.

نعم، يكاد فتيل المصباح ينطفئ، فقد نفذ زيته الراكي، وأوشكت قارورة العطر على الفناء تاركاً خلفها خواء يحمل العبق، الشمعة التي أضاءت جنبات هذا البيت تقترب من نهايتها، شمس من شموس مملكة البلاغة توشك أن تلقي بنفسها في حضن الأفق لتغرب بهدوء، شعر «أنس» وكان شبح الموت يربض على مقربة من فراش جده، ينتظر برصانة انتهاء أنفاسه، وكان هذا يعصر قلبه عصراً، فصار لا يُغادر غرفته إلا للضرورة. كان يهز رأسه متوججاً مما عرفه من أسرار عن مملكة البلاغة، داهمه شعور بالقلق، ماذا لو أمسكت «فرح» بيده وقرأت ذكرياته وعلمت بكل ما باح به «أبادول»؟ كان يشفق عليها، تممّي لو استطاع منع هذا عنها. دلف، «كمال» الغرفة بهدوء، رأى أنس وقد غلبه النعاس وهو يجلس على مقعد بجوار فراش «أبادول» الذي كان ممدداً أمامه، كاد يتعرّى في عصا والده، أنحنى والتقطها وأجفل عندما رأى رمز «أبادول» يُمحى أمام عينيه ويُكتب رمز ابنه «أنس» بدلاً منه، ثم اخترق صوت خفق أجنحة الصُّقور أذنيه.

في اللحظة نفسها، وفي غرفة بأحد فنادق «الغردقة» حيث سافر «سليمان» و«فرح» لقضاء إجازة قصيرة هناك، وقبل الفجر بقليل حيث كانت نسمات الهواء البارد تتسلل من الشرفة، استيقظ «سليمان» على أضواء تلاعب فوق رأس «فرح»، فأجفل وقفز من الفراش وأشعل الضوء فوجد «فرح» تفرك عنقها بازعاج.

عبس في ارتياخ وسألها وهو يتفحّص عنقها: «ماذا هذا؟».

انتفضت «فرح» وهرولت نحو المرأة وأراحت شعرها عن عنقها، فرأيت وشمماً منمنما لمُجّنح فتحسّسته بأطراف أصابعها المُرتعشة وهمست بخفوت: «يبدو أنّ هذا لقمي الجديد.. «سيروش»».

تمّت





# شكر وعرفان

شكر وتقدير وعرفان بالجميل لكل من كان لهم فضل ليخرج هذا العمل إليكم بهذا الشكل.

شكراً للأفضل والفضليات مع حفظ الألقاب:

- نفحات الصياد.
- راينا كاريوني.
- سناء يونس.
- بناز نريمان.
- ميادة محمد.
- لبني محمد.
- ياسمين قنديل.
- سامية أحمد.
- محمد فؤاد.
- أحمد السعيد مراد.
- طارق عنانى.
- يوسف طارق.
- إبراهيم الجاكى.
- خالد جمال.
- زياد السقا.
- أحمد صلاح.



جميع الحقوق محفوظة لـ: مكتبة ضاد

الإلكترونية. ©

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

تحرير وتدقيق:

▪ ميساء طه

ترتيب وتصميم:

▪ أشرف غالب



# سيروش

## أبي علاج

كان يشعر بألم شديد ينذر عظامه ورأسه، أخذ يضرب على جبهته بقبضته كالمحنون، دارت عيناه في المكان كما لو أنهما تدررتا من عقال، خالجه شعور بالخوف وصار يرتجف كورقة شجرة في مهب الرياح. انتفخت دراعاه فجأة فدفع أبيوه وسقطا على الأرض، ثم وقف وسط غرفته لينشق ضوء متوجّح ذلاب مختلط بالألوان ليحيط بجسده، ظلّ على حاله مُنيراً ومتواهجاً دون أن يعرف السبب، ثم أدرك بعد ذلك حقيقة أنه مختلف!

فنانة كثيف

كتاب  
[t.me/twinkling4](https://t.me/twinkling4)



غلاف: محمد ممدوح هاشام



9 789779 923727



عصير  
الكتب

- ✉ [contact@aseeralkotb.com](mailto:contact@aseeralkotb.com)
- 🌐 [aseeralkotb.com](http://aseeralkotb.com)
- 👤 [AseerAlkotb](https://www.facebook.com/AseerAlkotb)
- 👤 [AseerAlkotb](https://www.instagram.com/AseerAlkotb/)
- 👤 [AseerAlkotb](https://twitter.com/AseerAlkotb)